كون إيغلدن

ذئب السهول

السيرة الملحمية للفاتح المغولي جنكيز خان

رواية

مكتبة الكندل العربية





ذئب السهول

السيرة الملحمية للفاتح المغولي جنكيز خان

رواية

تأليف

كون إيغلدن

مترجمة

مروان سعدالدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزيWOLF OF THE PLAINS

الطبعة الأولى

1429 هـ – 2008 م

ISBN: 978-614-421-133-5



tarjem@mbrfoundation.ae

www.mbrfoundation.ae



لم يكن ممكناً تأليف هذا الكتاب دون مساعدة أفراد الشعب المنغولي
الذين سمحوا لي بالعيش بينهم لفترة من الوقت،
والذين علّموني تاريخهم أثناء احتساء الشاي اللاذع الطعم والشراب
فيما كان الطقس يتحول من الشتاء إلى الربيع.

شكر خاص لماري كليمنتس لخبرتها بالخيل، وشيلاغ بروغتون
الذي أفادني بحثه الرائع في وضع هذا الكتاب.

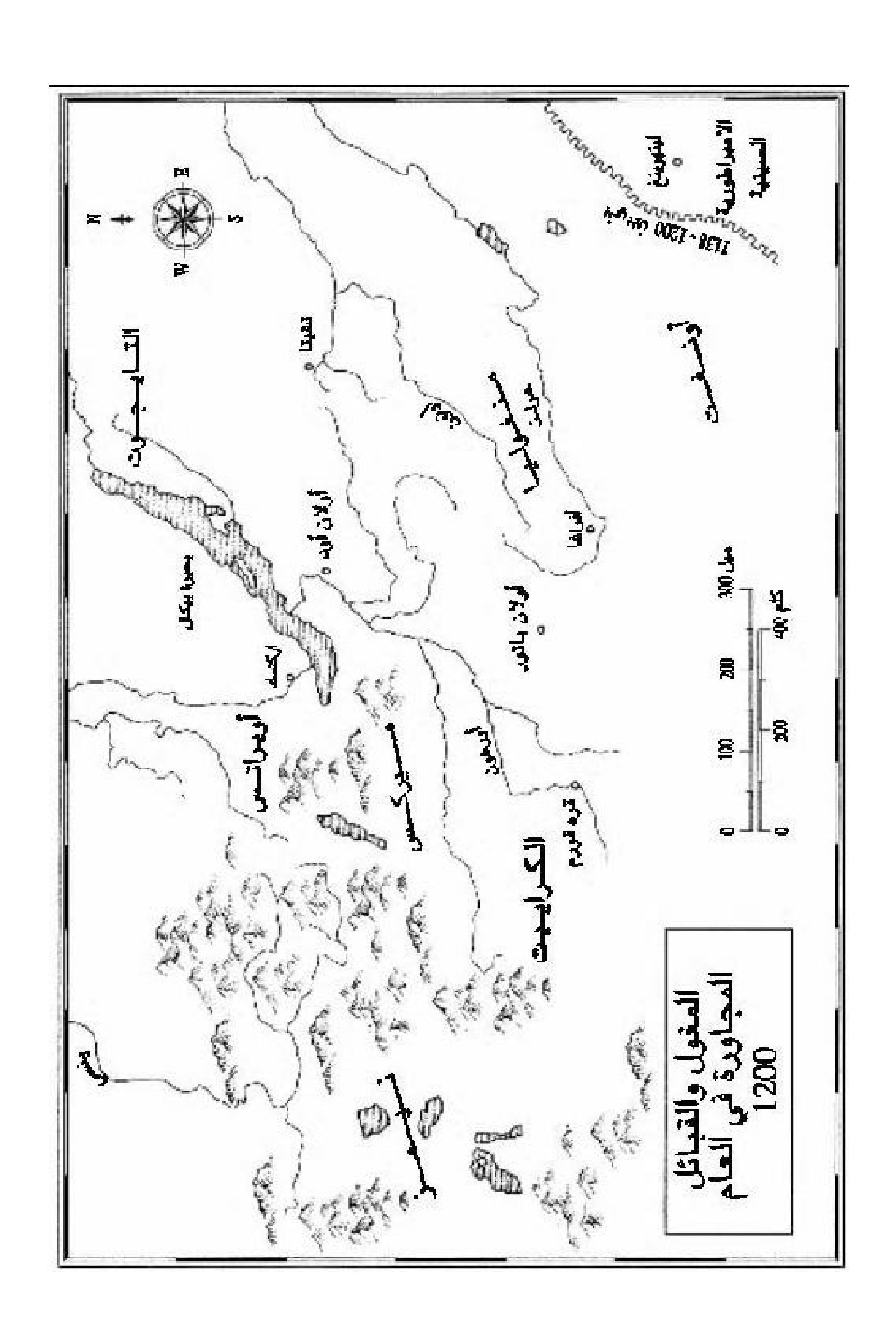
إلى أشقائي

جون، ديفيد، وهال

تعدّد الحكام ليس شيئاً جيداً

ليكن هناك حاكم واحد، ملك واحد.

هوميروس، الإلياذة



المغول والقبائل
المجاورة في العام
1200

مقدمة

كان بياض الثلج يعمي الأبصار، عندما طوّق رماة السهام المغول فرقة الغزو التتارية، وكان كل رجل يوجِّه فرسه بركبتيه، ويقف على الرِكاب[1]، ليرمي سهماً إثر آخر بدقة قاتلة. كانوا صامتين تماماً، ولم يكن مسموعاً سوى صهيل جيادهم الذي يختلط بصرخات وأنين الجرحى في الريح العاصفة. لم يستطع التتار الهروب من الموت المؤكد الذي انبثق من بين جناحي المعركة المظلمين. لقد سقطت جيادهم تئن على ركبها، والدماء تسيل لامعة من أنوفها.

كان ياسوجي يراقب المعركة من على صخرة بارزة رمادية مصفرة، متقوقعاً داخل فراء معطفه، وكانت الرياح تعصف في السهول، وتلسع جلده في الأماكن التي لا تغطيها لحيته. لم يظهر ياسوجي انزعاجه، وكان قد تحمّل ذلك لسنوات طويلة حتى أنه لم يعد متأكداً ما إذا كان لا يزال يشعر بتلك الرياح. كانت تلك مجرد حقيقة في حياته، مثل وجود المحاربين الذين يأتمرون بأوامره، أو الأعداء الذين يقتلهم.

لم يكن التتار يفتقرون للشجاعة، وهي واحدة من الأشياء التي كان يكرههم لأجلها. رآهم ياسوجي يلتفون حول محارب شاب، وسمع صرخاته التي حملتها الرياح. كان التتاري يضع درعاً مصنوعاً من السلاسل حسده عليه ياسوجي، وتلهف للحصول عليه بعد انتهاء المعركة. وكان يصدر أوامره بكلمات مقتضبة، ويمنع الغزاة من التشتت، وقرّر ياسوجي أن اللحظة مناسبة للهجوم. وعلمت بذلك عصبته المكوّنة من تسعة مرافقين، هم الأفضل في قبيلته، وإخوته بالدم وخدمه، الذين استحقوا الدروع الثمينة التي يرتدونها، والجلد المدبوغ المنقوش عليه شكل ذئب يافع يتحفز للوثب.

قال: "هل أنتم مستعدون يا إخوتي؟" وشعر بهم يلتفتون نحوه.

صدر عن أحد الجياد صوت هياج، وضحك قائد المحاربين إيلوك بصوت خافت.

قال إيلوك: "سنقتلهم من أجلكِ أيتها الصغيرة". وحكّ أذنيها.

ركل ياسوجي فرسه بكعبيه، وانطلقوا دون جهد نحو ساحة المعركة المغطاة بالثلج، والمليئة بالصراخ والأنين، ومن مكانهم المرتفع فوق ساحة القتال، كانوا يستطيعون جميعاً رؤية آثار الريح. تمتم ياسوجي مندهشاً فيما كان يشاهد أسلحة أب السماء تقترب شيئاً فشيئاً من المحاربين الضعفاء الذين يضعون أوشحة بيضاء كبيرة، مثقلة بالثلج.

انطلقوا على صهوة جيادهم دون تغيير في التشكيل ودون تفكير، وكان كل رجل يقدّر المسافات حوله كما لو أنه يفعل ذلك منذ عقود، وكانوا يفكّرون فقط في أفضل السبل لضرب الأعداء من فوق سروجهم وتركهم موتى في السهول.

اندفعت فرقة ياسوجي إلى وسط المقاتلين، وشقّت طريقها إلى القائد الذي برز في اللحظات القليلة الأخيرة. إذا بقي على قيد الحياة، فربما سيصبح شعلة تهتدي بها كل قبيلته. وابتسم ياسوجي عند أول احتكاك له بالعدو.

حطم تأثير الصدمة ظهر المحارب التتاري حتى عندما استدار لمواجهة التهديد الجديد، وأمسك ياسوجي شعر عنق فرسه بإحدى يديه، وأعمل سيفه بضربات وحيدة نتج عنها تساقط القتلى مثل أوراق الأشجار. كان يرفض توجيه ضربتين لأن ذلك قد يفقده سيف والده. وبدلاً من ذلك، كان يدفع الفرس لتدوس على الرجال، ويستعمل مقبض السيف كمطرقة جندي مجهول. ثم تجاوز أولئك ووصل إلى قلب المقاومة التتارية. كان مرافقو ياسوجي التسعة ما يزالون معه، ويوفرون الحماية للخان كما أقسموا منذ ولادتهم. كان يعرف أنهم حوله يحمون ظهره دون أن ينظر إليهم، وكان

يراهم موجودين من خلال مراقبة الطريقة التي كان القائد التتاري ينظر بها إلى جانبيه. فلقد كان يرى الموت قادماً إليه في وجوههم العريضة الكئيبة. وربما أقلقته كل الأجساد الموجودة حوله، المليئة بالسهام. لقد تم سحق الغارة.

كان ياسوجي سعيداً عندما نهض التتاري عن سرجه، وأشار إليه بسيف طويل مضرج بالدماء. ولم يكن هناك خوف في عينيه، وإنما مجرد غضب وخيبة أمل لأنه لم يستطع تحقيق شيء في ذلك اليوم. وستضيع العبرة على الميت المتجمد، لكن ياسوجي كان يعرف أن قبائل التتار لن تخطئ فهم الدلالة. وسيجد أفرادها العظام عندما يطل الربيع، وسيتعلمون ألاّ يغزوا قبيلته مجدداً.

ضحك ياسوجي بصوت خافت، وقطّب المحارب التتاري حاجبيه عندما حدّقا ببعضهما البعض. لا، لن يتعلموا لأن التتار قد يتضورون جوعاً أثناء الرضاعة من صدور أمهاتهم. سيعودون، وسيخرج للقائهم مجدداً، وسيريق المزيد من دمائهم الوضيعة. وقد أسعده ذلك الاحتمال.

لاحظ أن التتاري الذي تحداه كان يافعاً. وفكّر ياسوجي في الابن الذي يولد له فوق التلال إلى الشرق، وتساءل ما إذا كان سيواجه هو أيضاً محارباً متمرساً أكبر منه في مبارزة سيوف يوماً ما.

قال ياسوجي: "ما اسمك؟"

كانت المعركة قد انتهت حولهما، ومحاربوه يسيرون بين الجثث آنذاك، ويستولون على كل ما له فائدة. وكانت الريح ما تزال تعصف، لكن السؤال سُمع، وشاهد ياسوجي وجه عدوه الشاب يتقطب عبوساً.

"ما اسمك، أيها الثور المغفل؟"

ضحك ياسوجي بصوت خافت، لكن جلده المكشوف كان قد بدأ يؤلمه، وكان متعباً. فلقد لاحقوا فرقة الغزو طوال يومين تقريباً عبر أرضه، ولم

يذوقوا طعم النوم، وعاشوا على كمية صغيرة من الحليب كل يوم. وكان سيفه مستعداً لزهق حياة أخرى، ورفع النصل.

"هذا غير مهم أيها الفتى. تعال إلي".

لا بد أن المحارب التتاري قد رأى شيئاً في عينيه كان أكثر نفاذاً من سهم. أومأ برأسه، وتراجع.

قال: "اسمي تيموجن - يوج. سيثأر الآخرون لموتي. أنا ابن عائلة راقية".

ضرب بكعبيه على مطيّة فاندفعت نحو ياسوجي. وتحرك سيف الخان في الهواء بضربة واحدة متقنة. وسقط الجسد عند قدميه، وانطلقت الفرس عبر ساحة المعركة.

قال ياسوجي: "أنت جيفة أيها الفتى، كما هو حال كل الرجال الذين سرقوا من قطعاني".

نظر حوله إلى محاربيه المجتمعين. وكان سبعة وأربعون منهم قد تركوا خيامهم استجابة لندائه. وكانوا قد خسروا أربعة من إخوانهم في غارة التتار المؤذية هذه، لكنّ أياً من التتار العشرين لن يعود إلى منزله. لقد كان ثمن غارتهم مرتفعاً، لكن الشتاء دفع بالرجال إلى أقصى الحدود في كل شيء.

أصدر ياسوجي أمره: "قوموا بتعرية الأجساد بسرعة. الوقت متأخر جداً للعودة إلى القبيلة. سنخيم في ملجأ الصخور".

كانت الأدوات المعدنية أو السهام ثمينة جداً للتجارة أو لاستبدال الأسلحة المكسورة بها. وفيما عدا الدرع المصنوع من السلاسل، كانت الغنائم هزيلة، مما أكد فكرة ياسوجي بأن تلك لم تكن ببساطة سوى مجموعة من المحاربين الشبان الذين خرجوا للقيام بمناوشة وإثبات أنفسهم. ولم يكونوا قد خططوا للقتال حتى الموت على أرض قاسية مثل الحجر. علّق ياسوجي الدرع المصنوع من السلاسل الملطخ بالدماء فوق قربوس السرج عندما ألقوا به إليه، وكان من نوعية جيدة ويستطيع منع

طعنة خنجر، على الأقل. وتساءل عن هوية المحارب الشاب حتى يمتلك مثل ذلك الشيء النفيس، وقلّب اسمه في ذهنه. وهزّ كتفيه استخفافاً لأن الأمر لم يعد مهماً، وكان سيقايض حصته من جيادهم مقابل الحصول على شراب قوي وفراء عندما تلتقي القبائل للقيام بالمقايضة. ورغم البرد الذي كان ينخر عظامه، إلاّ أنه كان يوماً رائعاً.

في صباح اليوم التالي، عندما عاد ياسوجي ورجاله إلى المخيم، لم تكن العاصفة قد هدأت، وكانت طليعة الركب فقط تتحرك برشاقة على أهبة الاستعداد لأي هجوم مفاجئ. وكان البقية يلتحفون فراءهم مثقلين بالغنائم التي فقدت شكلها، وأصبحت شبه متجمدة، ويكسوها الثلج.

كانت العائلات قد اختارت موقعها بعناية على تل صخري، فيما كانت الريح تتلاعب بنبات الأشنّة، والخيام لا تكاد تظهر في الثلج. وكان الضوء الوحيد يأتي خافتاً من خلف الغيوم الملبدة. ورغم ذلك شاهد أحد الفتية الثاقبي النظر الذين يراقبون تحسباً لأي هجوم المحاربين العائدين. لقد انتشى ياسوجي عند سماعه أصوات المزامير تعلن عن اقتراب موكبه.

فكّر ياسوجي بأنه لا يمكن بثّ النشاط في نساء القبيلة وأطفالها بسهولة. وكانوا قد سحبوا أنفسهم من نومهم ليحملوا المشاعل الحديدية في مثل ذلك الجو البارد. وكان وقت النهوض من النوم يحين بعد ساعة أو اثنتين، عندما يذوب الجليد عن الخيام الكبيرة المصنوعة من اللباد وأغصان الصفصاف.

فيما كانت الجياد تقترب، سمع ياسوجي صرخة ترتفع مثل الدخان الرمادي الذي يخرج من خيمة هولن، وشعر بدقات قلبه تتسارع تحسباً. فلقد كان ينتظر مولوداً، لكن الموت كان يتربص بالصغار دائماً، والخان يحتاج إلى ورثة بقدر ما تستطيع خيامه استيعابهم. وهمس يتضرع ليرزق بفتى آخر، يكون شقيقاً للأول.

سمع صدى صوت صقره عميقاً داخل الخيمة عندما كان ينزل عن السرج، ودرعه الجلدي يطقطق مع كل خطوة. وبالكاد لاحظ الخادم الذي تناول اللجام، وهو يقف دون حراك في فرائه. دفع ياسوجي الباب الخشبي ودخل منزله، فذاب الثلج عن درعه على الفور، وتجمّع في برك صغيرة على الأرض.

قال: "ياه! ابتعدا". وضحك فيما كان كلباه يقفزان عالياً فرحين، ويلعقان جسده، ويثبان بجنون حوله. وسقسق صقره مرحباً، رغم أنه فكّر بأن هذا الصوت أقرب إلى الرغبة بالانطلاق للصيد. وتقوقع ابنه البكر بكتر عارياً في الزاوية، يلعب بقطع جبن قاسية مثل الحجارة. ولاحظ ياسوجي كل تلك الأشياء دون أن ترتفع عيناه عن المرأة على الفراء. كانت هولن تتورد نضرة من حرارة الموقد، لكنّ عينيها كانتا لامعتين في ضوء المصباح الذهبي. وكان وجهها الصافي القوي يلمع من العرق، وشاهد آثار دماء على جبينها حيث مسحته بظاهر يدها. وكانت القابلة تصدر جلبة مع حزمة من الألبسة، وعرف من ابتسامة هولن أنه رُزق بصبي ثانٍ.

أمرها ياسوجي بعد أن خطا للأمام: "أعطيني إياه".

تراجعت القابلة للخلف، وهي تزمّ شفتيها المتغضنتين من الغضب.

"ستؤذيه بيديك الكبيرتين. دعه يرضع حليب أمه. تستطيع حمله لاحقاً، عندما يصبح قوياً".

لم يستطع ياسوجي مقاومة الرغبة بإلقاء نظرة على الصبي الصغير عندما وضعته القابلة أرضاً، وأخذت تمسح أطرافه الصغيرة بقطعة من القماش. فانحنى ياسوجي فوقه وهو مستلقٍ وسط الفراء، وبدا أن الطفل يراه، وأطلق نوبة من الصراخ العالي.

قال ياسوجي بفخر: "إنه يعرفني".

تأفّفت القابلة، وتمتمت قائلة: "إنه صغير للغاية".

لم يكترث لها ياسوجي. وابتسم للرضيع الأحمر الوجه، ثم دون سابق إنذار، تغير مزاجه ومدّ يده للأمام بسرعة، وأمسك بالقابلة العجوز من خصرها.

سألها بصوت خافت: "ماذا يوجد في يده؟"

كانت القابلة على وشك الانتهاء من تنظيف الأصابع، لكن بناء على نظرة ياسوجي القوية، فتحت يد الرضيع بلطف، وكشفت عن خثرة من الدم بحجم العين كانت ترتعش مع أقل حركة، وكانت سوداء وتلمع مثل الزيت. كانت هولن قد أجبرت نفسها على النهوض لترى ما استرعى انتباه ياسوجي في مولودها الجديد. وعندما شاهدت الكتلة الداكنة، ناحت قائلة: "يحمل دماً في يده اليمنى. سيمشي مع الموت طوال حياته".

سحب ياسوجي نفساً عميقاً، متمنياً لو أنها تتكلم. لقد كان من التهور التوقع بقدر شرير للصبي. وتأمل يده مفكراً بصمت لبعض الوقت. واستمرت القابلة في عملية تنظيف الصبي وإلباسه بعصبية، والخثرة الدموية ترتعش على الأغطية. ومدّ ياسوجي يده نحوها وأمسك بها، وكانت تتلألأ.

"لقد ولد مع الموت في يده اليمنى يا هولن. هذا مناسب له. إنه ابن الخان والموت مرافقه. سيكون محارباً عظيماً". وراقب حين أعطت القابلة الطفل الرضيع إلى أمه المجهدة، فرضع بقوة من صدرها عندما قدّمته له. ففزعت أمه، ثم عضت شفتها.

كانت تعابير وجه ياسوجي ما تزال قلقة عندما استدار نحو القابلة.

"ألقي العظام أيتها الأم العجوز. لنرى إذا كانت هذه الخثرة من الدماء تدل على الخير أو الشر للذئاب". كانت عيناه كئيبتين، ولم يكن بحاجة للقول إن حياة الصبي تعتمد على النتيجة. لقد كان الخان والقبيلة ينظران إليه على أنه رمز القوة. وأراد أن يصدّق الكلمات التي استعملها لتفادي

حسد أب السماء، لكنه خشي أن يكون توقع هولن حقيقياً.

قطّبت القابلة جبينها، وكانت تدرك أن شيئاً مخيفاً وغريباً قد رافق طقوس الولادة. وتناولت حقيبة من عظام كاحل الخراف من على الموقد، والتي كان أطفال القبيلة قد صبغوها بالأحمر والأخضر. واعتماداً على طريقة سقوطها، كانوا يطلقون الأسماء على الخيول، والأبقار، والأغنام أو الثيران، وكان هناك ألف لعبة يمارسونها بها. كان الكبار يعرفون أنهم يستطيعون كشف المزيد عند استعمالها في الزمان والمكان المناسبين. سحبت القابلة يدها نحو الخلف لترمي العظام، لكن ياسوجي منعها مجدداً، وأفزعتها قبضته المفاجئة.

قال وهو يأخذ أربعة عظام منها: "هذا المحارب الصغير من دمي. اسمحي لي". لم تقاوم، وفاجأها تعبيره البارد. وخيّم الصمت حتى على الكلبين والصقر.

ألقى ياسوجي العظام، وجحظت عينا القابلة عندما استقرت.

"ياه. أربعة خيول تعني أنه محظوظ جداً. سيكون فارساً عظيماً. سيحقق الانتصارات من على صهوة جواده".

أومأ ياسوجي برأسه موافقاً. وأراد تقديم ابنه للقبيلة، وكان سيفعل ذلك إن لم تكن العاصفة تضرب الخيمة، وبحث عن طريقة يحصل بها على الدفء. لقد كان البرد عدواً، إلاّ أنه يجعل القبائل قوية. ولم يكن كبار السن يعانون طويلاً في مثل ذلك الشتاء القاسي. وكان الأطفال ضعفاء البنية يموتون بسرعة، وابنه لن يكون واحداً من أولئك.

راقب ياسوجي الجسد الضئيل لطفل يرضع من صدر أمه الناعم. كانت عينا الصبي بلون الذهب مثل عينيه، وتشبهان عيني الذئب الصفراوين تقريباً في لمعانهما. نظرت هولن إلى الأب وأومأت برأسها، وعمل كبرياؤه على تهدئة مخاوفها. وكانت واثقة أن الخثرة نذير سوء، لكن العظام

ساهمت في تهدئتها قليلاً.
سألت القابلة هولن: "هل لديك اسم له؟"
أجاب ياسوجي دون تردد، وقال: "اسم ابني تيموجن. سيكون مثل الحديد". وفي الخارج كانت العاصفة تنشط دون إشارة على قرب انتهائها.

القسم الأول

في يوم ربيعي، تسابق تيموجن ابن الثانية عشرة من العمر مع إخوته الأربعة عبر السهل في ظل جبل معروف باسم دليون - بولداخ. وكان البكر، بكتر، يمتطي فرساً رمادية بمهارة وتركيز، وتيموجن يتبع خطواته، وينتظر فرصة للتقدم عليه. وجاء خاسار خلفهما، وصرخ عالياً فيما كان يقترب منهما. كان خاسار البالغ من العمر عشر سنوات؛ المفضل في القبيلة، ورقيق القلب مثل بكتر الكئيب عابس الوجه. كان فحله المخضب باللون الأحمر يصهل خلف فرس بكتر، مما جعل الفتى الصغير يضحك. وجاء كشيون البالغ من العمر ثماني سنوات تالياً في الترتيب، إلاّ أنه لم يكن يحظى بالسماحة التي تجعل الناس يحبون خاسار. كان كشيون يبدو الأكثر جدّية وتكتماً بين إخوته. ولم يكن يتكلم سوى نادراً كما أنه لم يكن يشتكي، بغض النظر عما يفعله بكتر به. كان كشيون يتمتع بمهارة في التعامل مع الخيل لا يجاريه فيها الكثيرون، وكان يستطيع الاندفاع بها بسرعة عندما يرفع الآخرون الراية. ونظر تيموجن من فوق كتفه إلى الموقع الذي وضع كشيون نفسه فيه، وكان توازنه ممتازاً. ورغم أنه كان يبدو متقاعساً، إلاّ أنه أدهشهم جميعاً.

على مسافة معقولة خلف أشقائه، كان يمكن سماع أضعفهم وأصغرهم يطلب منهم انتظاره بصوت حزين، كان تيموج فتى يحب الحلويات وكسولاً جداً، وكان ذلك ظاهراً في طريقه إمتطائه لفرسه. وتقطب حاجبا تيموجن لرؤية الفتى الممتلئ الجسم يخفق بذراعيه ليسير بسرعة أكبر. وكانت والدتهم قد حذرتهم من مغبة إشراك أصغرهم في سباقاتهم الحماسية. وكان تيموج قد كبر قليلاً على ربطه بالسرج، لكنه كان ينتحب إذا تركوه خلفهم. وكان على بكتر أن يجد كلمة لتطييب خاطره.

انتقلت أصواتهم العالية عبر أعشاب الربيع في السهل. وكانت جيادهم

تعدو مسرعة، وكان كل واحد منهم قد جثم على ظهر جواده كالطائر. كان ياسوجي قد دعاهم مرة عصافيره، وكان ينظر بفخر إلى مهاراتهم. وكان تيموجن قد قال لبكتر إنه بدين أكثر من اللازم ليكون عصفوراً، مما أجبره على التواري عن أنظار الابن البكر السيئ المزاج لليلة.

في مثل ذلك اليوم، كانت القبيلة بأسرها في مزاج جيّد. وكانت أمطار الربيع قد هطلت، والأنهار تدفقت مجدداً، وجرت عبر السهول حيث كان الطين جافاً قبل أيام فقط. وكانت القطعان تقدم حليباً دافئاً للشرب وصناعة الجبن واللبن البارد. وكانت لمسات الربيع الأولى بادية على تضاريس التلال، وجاءت معها بشائر الصيف والأيام الدافئة. كان ذلك يوم التجمع، وقبل مجيء الشتاء التالي، كانت القبائل تجتمع معاً بسلام لتقيم المسابقات، وتقايض البضائع فيما بينها. وأمر ياسوجي بأن تقوم عائلات الذئاب في ذلك العام برحلة تقطع فيها أكثر من ألف ميل لرعي قطعانها. وكان احتمال رؤية رماة السهام كافياً لدفع الفتية حتى يحسنوا التصرف، وكانت السباقات تبقي أذهانهم منشغلة وتداعب خيالاتهم عندما يمتطون جيادهم. وباستثناء بكتر، كان الصبية جميعاً قد رأوا والدتهم هولن على انفراد، وطلبوا منها أن تتحدث إلى ياسوجي. وكان كل منهم يريد الاشتراك في سباق المسافات الطويلة أو سباق السرعة لتسجيل أسمائهم على قائمة الشرف.

كان معروفاً أن الفتى الذي يعود إلى مضارب خيامه بلقب مثل فارس المجد أو سيد الخيل ربما يحتل يوماً ما موقع والده عندما يتقاعد عن خدمة قومه. وفيما عدا تيموج البدين، لم يكن بوسع الآخرين سوى أن يحلموا. كان تيموجن ينزعج لأنّ بكتر يفترض أنه سيكون ذلك الشخص، كما لو أن سنة أو اثنتين من العمر تشكلان فرقاً. وتوترت علاقتهما منذ عاد بكتر من رحلة خطوبته التي قضى فيها سنة بعيداً عن القبيلة. وكان الفتى البكر

قد كبر بطريقة غير محددة رغم أن تيموجن كان ما يزال الأطول بين أشقائه، واكتشف تيموجن أن بكتر الجديد سيىء المزاج.

في البداية، بدا الأمر مقصوداً بالنسبة لتيموجن، وأن بكتر يتظاهر بالنضج فقط. ولم يعد الفتى العابس يتكلم دون تفكير، وبدا أنه يزن كل جملة في ذهنه قبل أن يسمح لها بالخروج من بين شفتيه. كان تيموجن قد سخر من جدّيته، لكن شهور الشتاء كانت قد جاءت ورحلت دون أي إشارة على هدوء الأمور، وكانت هناك لحظات يجد فيها تيموجن مزاج شقيقه المتكلف مسلياً، لكنه كان يستطيع احترام طباع بكتر دون حقه في أن يرث خيم وسيوف والده.

كان تيموجن يراقب بكتر أثناء امتطائهما لفرسيهما، ويحرص على عدم السماح للفجوة بينهما بأن تكبر. وكان ذلك اليوم أروع من أن يقلق المرء فيه حول المستقبل البعيد. وكان حلم يقظة تيموجن حول أشقائه الأربعة جميعاً - الخمسة جميعهم مع بكتر، حتى - أن يكتسحوا مراكز الشرف في التجمعات القبلية. كان ياسوجي سينتفخ غروراً، وستحتضنهم هولن واحداً إثر الآخر وتدعوهم محاربيها الصغار، وفرسانها الصغار. حتى تيموج يستطيع تحقيق ذلك بعمر الست سنوات رغم أن مخاطر سقوطه كبيرة. تقطّب جبين تيموجن عندما ألقى بكتر نظرة من فوق كتفه، وهو يتفقد موقعه في الصدارة. ورغم مناوراتهما الماكرة، إلاّ أن ياسوجي لم يكن قد منح الإذن بعد لأي منهما للاشتراك في السباقات عندما يحل الربيع.

كانت هولن حاملاً مجدداً، وسيحين موعد ولادتها قريباً. وكان الحمل قاسياً عليها ومختلفاً تماماً عما سبقه. وكان كل يوم يبدأ وينتهي وهي تتقيأ في دلو حتى يمتلئ وجهها ببقع دم تحت الجلد. وكان سلوك أبنائها في أفضل حال، فيما كانوا ينتظرون أن تخف مخاوف ياسوجي بعد خروجه من الخيمة. في النهاية، كان الخان قد تعب من نظراتهم وصمتهم المطبق،

وأرسلهم بعيداً ليمتطوا الخيل في الشتاء. وتابع تيموجن ثرثرته، فأمسك به ياسوجي بيد واحدة قوية، وألقى به على فرس بحركة خاطفة. استدار تيموجن في الهواء، ونزل على ظهر الفرس التي أخذت تعدو بسرعة في حركة واحدة. وكانت القدم البيضاء وحشاً شريراً سريعاً، لكن والده كان يعرف أنها المفضلة لدى ابنه.

شاهد ياسوجي الآخرين يمتطون جيادهم دون علامة كبرياء على وجهه العريض الداكن. ومثل والده قبله، لم يكن رجلاً يظهر عواطفه، خصوصاً لأبنائه حتى لا يجعلهم ضعفاء. كان جزءاً من مسؤولية الوالد أن يهابه الأبناء، رغم مرور أوقات عليه يرغب فيها باحتضان الصبية ورميهم عالياً في الهواء. كانت معرفة الخيول المفضلة لديهم تظهر عواطفه تجاههم، وإذا عرفوا مشاعره من نظرة أو ومضة من عينيه، فإن ذلك لن يكون أكثر مما فعله والده قبل سنوات مضت. وكان يقدّر تلك الذكريات لندرتها، وما زال يستطيع تذكر الوقت الذي منحه فيه والده أخيراً الموافقة على عقد الحبال لتثبيت الأحمال الثقيلة. ولم يكن ذلك شيئاً يذكر، لكن ياسوجي كان يتذكر الرجل العجوز كلما شدّ حبلاً بقوة، وركبته تستند إلى البالات. وكان يشاهد أولاده ينطلقون نحو الشروق الساطع، وعندما لم يعد باستطاعتهم رؤيته، انفرجت أساريره. كان والده يعرف الحاجة للرجال القساة في أرض قاسية، وكان ياسوجي يعرف أن عليهم النجاة من المعارك، والعطش، والجوع إذا أرادوا أن يصبحوا رجالاً. وواحد منهم فقط سيصبح خان القبيلة، أما الآخرون فسيخضعون له أو سيغادرون مع هدية من الأغنام والماعز. هزّ ياسوجي رأسه عندما خطرت له الفكرة، وحدّق بالغبار المتصاعد من حوافر جياد أبنائه. لقد كان المستقبل بانتظارهم، ولم يكونوا قد شاهدوا سوى الربيع والتلال الخضراء.

كانت الشمس ساطعة في وجه تيموجن فيما كان يمتطي فرسه. وصرخ

بنشوة اعتملت في نفسه من الفرس السريعة المتعبة تحته، والريح التي تلسع وجهه. وشاهد أمامه فرس بكتر الرمادية تستعيد توازنها من كبوة فوق الحجارة. وتمثّلت ردة فعل شقيقه بضربة قاسية على جانب رأسها، لكنهما فقدا فرق المسافة، لذا هتف تيموجن كما لو أنه على وشك تجاوزهما، ولم تكن تلك اللحظة المناسبة، فهو رغم أنه يحب أن يكون في الصدارة، إلاّ أنه يستمتع أيضاً بالضغط على بكتر لأن ذلك كان يزعج الأخير.

كان بكتر سيصبح عما قريب رجلاً عريض المنكبين، مفتول العضلات، ذا قدرة كبيرة على التحمل. وكانت سنة خطوبته في قبيلة أولخونوت قد زودته بجرعة من المعرفة بالحياة لم يفشل في استغلالها إطلاقاً. كل ما تقدم أثار غضب تيموجن مثل شوكة تخز جلده، خصوصاً عندما أكثر أشقاؤه من إلقاء الأسئلة على بكتر حول قوم والدتهم وعاداتهم. وكان تيموجن يرغب بأن يعرف ذلك أيضاً، لكنه قرر الانتظار حتى يكتشف ذلك بنفسه عندما يأخذه ياسوجي إليهم.

عندما يعود محارب شاب من قبيلة زوجته، كان يعتبر رجلاً للمرة الأولى. وعندما تحيض الفتاة، كان يتم إرسالها خلفه مع حرس شرف لإظهار مكانتها. وكان يتم تجهيز خيمة لها، وينتظر زوجها الشاب عند بابها ليأخذها إلى الداخل.

بالنسبة للذئاب، كان تقليداً أن يقوم الشاب بتحدي أتباع الخان قبل أن يتم قبوله نهائياً كمحارب. وكان بكتر متلهفاً لذلك، ويتذكر تيموجن أنه شاهده يمشي إلى نار الأتباع بالقرب من خيمة ياسوجي. وحين أومأ بكتر لهم، وقف ثلاثة رجال ليروا إذا كان قضاء ذلك الوقت مع أولخونوت قد أضعفه. وراقبه تيموجن مع خاسار وكشيون اللذين وقفا بصمت إلى جانبه. دخل بكتر في نزال مع الأتباع الثلاثة، واحداً إثر الآخر، وتلقى ضربات موجعة دون شكوى. وكان آخر من وجه إليه الضربات إيلوك، وكان إيلوك

كالحصان، فهو جدار من العضلات المفتولة بذراعيه القويتين. فألقى ببكتر أرضاً بقوة كبيرة حتى أن الدماء سالت من إحدى أذنيه، لكن ما أدهش تيموجن بعدها، أن إيلوك ساعد بكتر على النهوض، وحضّر له كوباً من الأعشاب الساخنة ليشربه، وكاد بكتر يختنق من السائل المر الذي امتزج بدمه، لكنّ المحاربين ما كانوا ليتأففوا.

استمتع تيموجن برؤية شقيقه الأكبر يتلقى الضربات حتى فقد الوعي تقريباً، لكنه لاحظ أن الرجال لم يعودوا يسخرون منه حول النار في الليل. وكانت شجاعة بكتر قد أكسبته شيئاً غير ملموس لكنه مهم. ونتيجة لذلك، أصبح صخرة في طريق تيموجن.

عندما كان الأشقاء يتسابقون عبر السهل تحت شمس الربيع، لم يكن هناك خط نهاية مثل ذلك الذي سيكون موجوداً في التجمعات القبلية الكبيرة. وحتى إذا كان هناك خط، كان الوقت مبكراً جداً بعد فصل الشتاء ليدفعوا جيادهم نحوه. كانوا جميعاً يعرفون أنه من الأفضل عدم إجهاد الجياد قبل أن تزيد أوزانها خلال الصيف، وتستفيد من الأعشاب الخضراء الطازجة في بطونها. وكان ذلك مجرد سباق، بعيداً عن الواجبات والمسؤوليات، ولن ينفعهم بشيء سوى الجدال حول من غش، أو استحق الفوز.

سار بكتر بشكل مستقيم حتى أنه بدا عديم الإحساس عندما تعثرت الفرس تحته. وكان تيموجن يعرف أن ذلك مجرد خداع. كانت يدا بكتر اللتان تمسكان اللجام تقودان بمهارة، وكانت فرسه الرمادية نشيطة وقوية، فيما كان هو قادراً على تحمل بعض الضربات. وكان تيموجن يمتطي فرسه - كما يفعل خاسار تماماً - ملتصقاً بالسرج، وكان يبدو قابعاً على عنق الفرس. وبدا كما لو أن الرياح تلسع بقوة أكبر، وكان كلا الشابين يفضلان تلك الوضعية.

شعر تيموجن بأن شيئاً يقترب من جهة كتفه اليمنى. ودفع بالقدم البيضاء إلى أقصى سرعتها، وصهلت الفرس بشيء يشبه الغضب فيما كانت تعدو، وكان تيموجن يستطيع رؤية فرس خاسار من طرف عينه، وفكّر في تغيير اتجاهه قليلاً، كما لو أن ذلك حدث صدفة. وبدا أن خاسار شعر بنواياه، فتركه يبتعد عنه مما جعل تيموجن يبتسم. كان يفكر أحياناً بأنهما يعرفان بعضهما بعضاً جيداً في السباق. وكان يستطيع رؤية بكتر يختلس النظر نحو الخلف، فالتقت أعينهما لثانية. ورفع تيموجن حاجبيه وكشّر عن أسنانه.

صرخ: "أنا قادم، حاول إيقافي!"

أدار بكتر ظهره له، وتأفّف بضيق، وكان شيئاً نادراً أن يصحبهم بكتر لركوب الخيل، لكن بما أنه كان هناك، فقد لاحظ تيموجن أنه مصمم على تعليم الأطفال كيف يمكن لمحارب أن يمتطي فرساً. ولم يكن ليتحمل الخسارة بسهولة، ولهذا كان تيموجن يحفّز كل عضلة وعصب ليهزمه.

كان خاسار قد اقترب منهما، وقبل أن يتحرك تيموجن لإغلاق الطريق عليه، كان قد وصل إلى جانبه تقريباً. وابتسم الشابان لبعضهما بعضاً، مؤكدين أنهما يتشاطران بهجة اليوم والسرعة. لقد كان الشتاء الطويل المظلم خلفهما، ورغم أنه سيحل مجدداً بسرعة، إلاّ أنهما يستطيعان الاستفادة من هذا الوقت والاستمتاع به. ولم يكن هناك طريقة أفضل للعيش. وكانت القبيلة ستأكل لحم الضأن، وستلد القطعان المزيد من الخراف والماعز التي ستؤمن الطعام والمال. وسيتم قضاء الأمسيات في لصق الريش على السهام أو لف ذيول الخيل على شكل جدائل، وفي الغناء أو الاستماع إلى قصص وتاريخ القبائل. كان ياسوجي سيواجه أي تتاري شاب يغزو قطعانهم، وكانت القبيلة ستتحرك رويداً رويداً عبر السهول، من نهر إلى آخر. وسيكون هناك عمل، لكن في الصيف تكون الأيام طويلة بما فيه

الكفاية ليُتاح لهم بضع ساعات فراغ، وهي رفاهية يبدو أنهم لن يستمتعوا بها أبداً في الشهور الباردة. ما هي فائدة التجوال بعيداً لمعرفة متى قد يجدك كلب بري ويعضك في الليل؟ وكان ذلك قد حدث لتيموجن عندما كان أصغر قليلاً من كشيون وبقي الخوف يلازمه منذ ذلك الوقت.

لاحظ خاسار أن تيموج قد سقط، ونظر إلى الخلف تحسباً في حال قرر كشيون الاندفاع سريعاً على الأعشاب. كان خاسار يدّعي أن نظره الأقوى في القبيلة، وشاهد أن البقعة البعيدة لم تكن تتحرك، واتخذ قراراً خلال لحظة. وأطلق صفرات قوية - ضعيفة لبكتر وتيموجن، وكانت تلك إشارة لهما بأنه ينسحب. ونظر كلا الشابين إلى الخلف، ثم أمعنا النظر إلى حيث يقبع تيموج بلا حراك، وأصابت تيموجن وشقيقه الأكبر لحظة حيرة، ولم يكن أحدهما يرغب بالتخلي عن السباق للآخر. وهزّ بكتر كتفيه بعدم اكتراث كما لو أن الأمر لا يهمه، وقاد فرسه في دائرة واسعة عائداً من الطريق التي جاء منها. وجاراه تيموجن بالطريقة ذاتها وأسرعا كثنائي خلف الآخرين، وأصبح من كان متصدراً في الخلف. وتولّى كشيون القيادة آنذاك، رغم أن تيموجن لم يكن يعتقد أن الفتى يفكر بذلك حتى. كان كشيون ابن الثامنة قريباً في العمر من تيموج، وقضى أمسيات عديدة طويلة يعلمه أسماء الأشياء في الخيام، ويعامله بصبر ورقة غير اعتياديين. وربما نتيجة لذلك كان تيموج يتكلم بشكل أفضل من فتية كثيرين في مثل عمره، رغم أنه لم يكن نافعاً عندما كانت أنامل كشيون الرشيقة تحاول تعليمه عقد الحبال. كان أصغر أبناء ياسوجي ثقيل الحركة، وإذا تم توجيه سؤال لأي منهم ليخمّن هوية الفارس الذي وقع عن صهوة جواده، فسيقول تيموج دون أن يتردد لحظة.

قفز تيموجن عن سرجه عندما وصل إلى الآخرين. وكان كشيون على الأرض حينها مع خاسار، يرفعان تيموج المستلقي على ظهره ليجلس

باعتدال.

كان وجه الفتى الصغير شاحباً جداً، وبدت الكدمات ظاهرة عليه. صفعه كشيون برفق، وأصيب بالفزع عندما تراخى رأس تيموج.

قال كشيون لشقيقه: "استيقظ أيها الشاب الصغير". لكن لم تكن هناك استجابة. ووقع ظل تيموجن عليهما، وتراجع كشيون أمامه مباشرة.

قال: "لم أرَه يسقط". كما لو أن رؤيته كانت ستساعد في شيء.

أومأ تيموجن برأسه، لمست يداه الماهرتان تيموج بحثاً عن عظام مكسورة أو علامات على وجود جرح. كان هناك انتفاخ على جانب رأسه، يخفيه الشعر الأسود، وقد استطاع تيموجن تحسّسه.

"لقد سقطت، لكنني لا أشعر بكسر. أعطوني بعض الماء".

مدّ خاسار يده، وسحب قربة من سرجه، وفتح السدادة بأسنانه. ووضع تيموجن السائل الدافئ في فم تيموج المفتوح.

قال بكتر ناصحاً: "لا تخنقه". مذكراً إياهم بأنه لا يزال موجوداً، كما لو أنه يشرف على الآخرين.

لم يزعج تيموجن نفسه بالرد عليه. وكان يمتلئ رعباً مما ستقوله والدتهم هولن إذا مات تيموج. ولم يكونوا يستطيعون نقل مثل تلك الأنباء لها فيما بطنها يحمل طفلاً آخر. كانت ضعيفة من المرض، واعتقد تيموجن أن الصدمة والحزن ربما يقتلانها. ورغم ذلك كيف يستطيعون إخفاء الأمر؟ كانت شغوفة بتيموج، ويعود جزء من السبب في امتلاء جسده إلى عادتها في إطعامه اللبن الحلو.

دون سابق إنذار، غصّ تيموج وبصق الماء. وأصدر بكتر صوتاً من شفتيه تعبيراً عن غضبه، متعباً من ألعاب الأطفال. وابتسم الآخرون لبعضهم البعض.

قال تيموج: "حلمت بالنسر".

أومأ تيموجن برأسه له، وقال: "هذا حلم جيد، لكن ينبغي أن تتعلم امتطاء الخيل أيها الشاب الصغير. سيشعر والدنا بالعار أمام أتباعه إذا سمع أنك وقعت". وخطرت له فكرة أخرى، وتقطب جبينه عبوساً. "إذا سمع ذلك فعلاً، ربما لن يسمح لنا بالسباق في التجمعات". حتى خاسار فقد ابتسامته لدى سماعه ذلك، وزمّ كشيون شفتيه في تعبير صامت عن القلق. وتلمظ تيموج بشفتيه طلباً للمزيد من الماء، فقدم له تيموجن القربة.

"إذا سألك أحد حول ذلك الانتفاخ، فقل له إننا كنا نلعب وأنك ضربت رأسك، مفهوم يا تيموج؟ هذا سرّ. أبناء ياسوجي لا يسقطون".

شاهد تيموج أنهم جميعاً يترقبون إجابته، حتى بكتر، الذي يخيفه. فأومأ برأسه موافقاً وفزعاً من الألم.

قال وقد أصابه الدوار: "ضربت رأسي، ورأيت النسر من التل الأحمر".

أجاب خاسار: "لا توجد نسور في التل الأحمر. كنت أنصب الأفخاخ للغرير هناك منذ عشرة أيام فقط. لو كانت هناك، كنت سأرى دلالة ما على وجودها".

هزّ تيموج كتفيه دون مبالاة، وهذا كان أمراً غير اعتيادي بالنسبة إليه. فلقد كان الفتى الصغير كاذباً، وكان يصرخ عند مواجهته كما لو أن الصوت العالي سيجبرهم على تصديقه، وكان بكتر على وشك توجيه فرسه بعيداً عنهم عندما نظر بإمعان إلى الفتى الصغير.

قال بكتر: "متى رأيت النسر؟"

هزّ تيموج كتفيه وقال: "رأيته أمس، يحوم فوق التل الأحمر. وفي حلمي كان أكبر من النسر العادي. وكانت مخالبه كبيرة مثل...".

قاطعه تيموجن قائلاً: "هل رأيت نسراً حقيقياً؟" وكان قد وصل إليه، وأمسكه من ذراعه. "طائر حقيقي في هذا الوقت المبكر من الموسم؟ هل

رأيت واحداً؟" أراد أن يتأكد أنها ليست واحدة من قصص تيموج السخيفة. فالجميع يتذكرون المرة التي جاء فيها إلى الخيمة في إحدى الليالي يدّعي أنه كان مطارداً من قبل حيوانات غرير تقف على قوائمها الخلفية وتتحدث إليه.

كانت تعابير بكتر تدل على أنه يتذكر الحادثة نفسها، وقال: "إنه مصاب بالدوار نتيجة السقوط".

لاحظ تيموجن كيف أن بكتر قد أمسك اللجام بقوة. ونهض تيموجن على قدميه ببطء كما لو أنه يقترب من دب بري، وخاطر بإلقاء نظرة إلى حيث ترعى فرسه العشب. كان نسر والده قد مات، وكان لا يزال حزيناً على فقدان الطائر الطيب القلب، وكان تيموجن يعرف أن ياسوجي يحلم بالصيد مع نسر، لكن رؤيته كانت نادرة وأعشاشه موجودة عادة على المنحدرات الشاهقة والعالية بما يكفي لتهزم أكثر المتسلقين إصراراً. رأى تيموجن أن كشيون قد وصل إلى فرسه ويستعد للرحيل. وكان من الممكن أن يكون فرخ النسر الذي يسعى والدهم للحصول عليه في ذلك العش. وربما كان بكتر يريد واحداً لنفسه، لكن الآخرين يعرفون أن ياسوجي سيشعر بالامتنان تجاه الابن الذي يجلب له خان الطيور. فالصقور تحكم الأجواء كما تحكم القبائل الأرض، وتعيش بقدر عمر الإنسان. وستعني مثل تلك الهدية أنهم يستطيعون جميعاً الاشتراك في السباقات تلك السنة، بالتأكيد. وإذا أحضروا نسراً لوالدهم سيرى الآخرون ذلك بشارة خير، وسيقوي ذلك موقعه بين العائلات.

كان تيموج قد وقف على قدميه، ولمس رأسه، وتحسس بقعة الدم التي ظهرت على أصابعه. وكان يبدو مصاباً بالدوار فعلاً، لكنهم صدّقوا ما كان يقوله. وكان سباق الصباح مليئاً بالمرح فعلاً، لكن هذا الشيء سيكون حقيقياً.

كان تيموجن أول من تحرك، سريعاً مثل كلب ينطلق بنشاط. ووثب على ظهر القدم البيضاء وصرخ: "تشو" عندما استقر عليها، مما تسبب بإفزاع القدم البيضاء السيئة المزاج التي أخذت تعدو وتصهل. وتبعه كشيون على صهوة جواده بدقة وتوازن تطبع كل حركاته، وكان خاسار خلفه مباشرة، يضحك عالياً بإثارة.

في تلك الأثناء، كان بكتر يندفع إلى الأمام، وفرسه تسرع الخطى فيما يركلها بقدميه. وفي غضون لحظات فقط، كان تيموج يقف وحيداً في السهل، يحدّق بارتباك إلى سحابة الغبار التي أثارتها جياد أشقائه. وهزّ رأسه لتصحيح رؤيته المشوشة، واستغرق لحظة في تقيؤ إفطار من الحليب على العشب. بعد ذلك، شعر بتحسن طفيف، وتسلق سرجه بصعوبة، ودفع رأس فرسه بعيداً عن مكان الرعي. ومع آخر دفعة بعيداً عن الأعشاب، صهلت الفرس، وانطلقت أيضاً تقفز وتثب خلف جياد أشقائه.

وصلت الشمس إلى كبد السماء قبل أن يصل الفتية إلى التل الأحمر. وبعد انطلاقهم بسرعة في البداية، استقرت سرعتهم على الهرولة التي كانت جيادهم القوية تستطيع تحملها لساعات طوال. سار بكتر وتيموجن معاً في مقدمة الركب في هدنة متبادلة، وسار خلفهما خاسار وكشيون، وكانوا جميعاً متعبين في الوقت الذي شاهدوا فيه صخرة القبائل العظيمة التي تدعى التل الأحمر، وهي جلمود ضخم يبلغ ارتفاعها مئات الأقدام، وكانت محاطة بعشرات الصخور الأخرى الأصغر حجماً، مثل الذئبة الأم مع جرائها. كان الفتية قد قضوا ساعات طويلة يتسلقون الصخرة في الصيف الماضي، وبالتالي فهم يعرفون المنطقة جيداً.

نظر بكتر وتيموجن إلى الأفق بقلق بحثاً عمّا يدل على وجود فرسان آخرين. ولم يكن لدى الذئاب أي حقوق صيد في هذه الأرض البعيدة عن خيامهم. وكما هو حال الكثير من الأشياء الأخرى في السهول، يصبح الماء المتدفق، والحليب، والفراء، واللحم، وكل شيء من نصيب من يمتلك القدرة على أخذه، أو بشكل أفضل من يمتلك القوة على الاحتفاظ به. لم يكن خاسار وكشيون يفكران سوى في متعة إيجاد فرخ النسر، لكنّ الشابين الأكبر سناً كانا مستعدين للدفاع عن نفسيهما أو الهرب. وكلاهما كانا يحملان السكاكين، وكان بكتر يمتلك جعبة سهام وقوساً صغيراً معلقاً على ظهره يستطيع استعمالهما بسرعة. فكّر تيموجن أنهما يستطيعان الدفاع عن نفسيهما جيداً ضد فتية من قبيلة أخرى. وسيتعرضان لخطر داهم إذا واجها محاربين أشدّاء، ولن ينفعهما اسم والدهما.

كان تيموج متأخراً مجدداً خلف الأربعة الآخرين، ويجدّ في طريقه رغم العرق والذباب المزعج الذي يبدو أنه وجده شهياً. وفي عينيه البائستين، كان أشقاؤه يبدون في ثنائياتهم الأنيقة مثل سلالة مختلفة لدى مقارنتهم

به، مثل الصقور إلى القنبرة، أو الذئاب إلى الكلب، وكان يريدهم أن يحبوه، لكنهم كانوا جميعاً طوال القامة كثيراً وأصحاب شأن. وكان يبدو في حضورهم كالأخرق أكثر ما يبدو وحيداً، ولم يكن يبدو أنه يستطيع التكلم بالطريقة التي يريدها، ما عدا بعض الأحيان مع كشيون، خصوصاً في سكون الليالي.

دفع تيموج عقبيه بقوة، لكن فرسه كانت تشعر بافتقاره للمهارة ونادراً ما وصلت سرعتها إلى الهرولة، ناهيك عن الجري السريع. كان كشيون قد قال له إنه طيب القلب أكثر من اللازم، لكن تيموج حاول ضرب الفرس دون رحمة عندما كان بعيداً عن أنظار أشقائه، ولم يُجدِ ذلك نفعاً مع الحيوان الكسول.

لو لم يكن يعرف وجهة أشقائه، لكان قد ضاع، وبقي في مكانه منذ الساعة الأولى. كانت والدتهم قد طلبت منهم أن لا يتركوه أبداً، لكنهم كانوا يفعلون ذلك بأي حال، وكان يعرف أن الشكوى لها ستكلفه صفعات حول الأذنين منهم جميعاً. وفي الوقت الذي أصبح فيه التل الأحمر في مرمى النظر، كان تيموج يشعر بالأسف الشديد على نفسه. حتى من مسافة بعيدة، كان يستطيع سماع بكتر وتيموجن يتجادلان. تنهد تيموج، وحرّك ردفيه لأنهما آلماه. ومدّ يده داخل جيبه بحثاً عن المزيد من قطع الحلوى، فوجد طرف واحدة. وقبل أن يراه الآخرون، وضع القطعة البيضاء الصغيرة داخل فمه، وأخفى شعوره الكبير بالمتعة عن أبصارهم الثاقبة.

كان الأشقاء الأربعة يقفون إلى جانب جيادهم، يحدّقون بتيموج فيما كان يقترب رويداً رويداً.

قال تيموجن: "أستطيع حملها والمشي أسرع من ذلك".

كان السير نحو التل الأحمر قد تحول إلى سباق في الميل الأخير، ووصلوا إلى هناك والجياد تعدو بأقصى سرعتها، وهي تثب وتثير خلفها الغبار. في

ذلك الحين، انتبهوا إلى أنه يجب على أحدهم الانتظار مع الجياد. وكانوا يستطيعون تقييدها بإحكام وشد اللجام حول قوائمها، لكن الفتية كانوا بعيدين عن قبيلتهم ولا أحد يعرف ما إذا كان اللصوص مستعدين للإغارة عليهم والاستيلاء عليها منهم؟ وكان بكتر قد طلب من كشيون الانتظار في الأسفل، لكن الفتى كان يتسلق بشكل أفضل من الثلاثة الباقين، فرفض. وبعد دقائق قليلة من الجدال، كانوا جميعاً يشيرون إلى بعضهم البعض لتولي المهمة، وكاد خاسار وكشيون يتبادلان الضربات، وجلس خاسار على رأس شقيقه الأصغر فيما كان يصارع بغضب صامت. ففرّقهما بكتر عن بعضهما، وأطلق لعنة عندما شاهد لون كشيون يتحول إلى الأرجواني الداكن. كان انتظار وصول تيموج إلى هناك هو الحل الوحيد المعقول. في الحقيقة، ألقى كل واحد منهم نظرة متفحصة على واجهة التل الأحمر الكبيرة، وراودته الأفكار حول التسابق مع أشقائه إلى قمته. وربما كان اختفاء أي أثر على وجود النسر يثير القلق أكثر من الصخر المكشوف. لم يكن ممكناً توقع رؤية مخلفاته، أو حتى رؤية الطير يحوم حول عشه لحمايته أو ليصيد. في غياب أي دليل، لم يستطيعوا سوى أن يتساءلوا مجدداً ما إذا كان تيموج يكذب، أو ينسج قصة غريبة لإثارة إعجابهم.

شعر تيموجن بأن معدته بدأت تؤلمه. ولم يكن قد تناول طعام الفطور، ومع وجود تسلق صعب أمامه، لم يكن يريد أن يخاطر بأن يصاب بالوهن. وفيما كان الآخرون يشاهدون تيموج يقترب، أمسك بحفنة من التراب الضارب إلى الحمرة وحوَّله إلى عجينة مع القليل من الماء الذي جاء به من قربة السرج. وكشفت القدم البيضاء عن أسنانها وصهلت، لكنها لم تقاوم فيما كان تيموجن يشد اللجام إلى أجمّة ويسحب سكينه.

لم يأخذ الأمر منه سوى لحظة حتى استطاع فتح وريد في كتف الفرس، وأطبق بفمه عليه. كان الدم حاراً ورقيقاً، فشعر تيموجن بأنه يعيد له

طاقته، ويدفئ معدته الفارغة مثل أفضل شراب. وسحب ملء فمه ست مرات قبل أن يبعد شفتيه ويضغط إصبعاً مليئاً بالدم على الجرح. ساعدت عجينة التراب والماء في إغلاق الجرح، وكان يعرف أن المنطقة سيصيبها قرح بسيط لدى عودته. وابتسم ابتسامة عريضة بدت من خلالها أسنانه واضحة لأشقائه، ومسح فمه بظاهر يده. كان يستطيع الشعور بقوته تعود آنذاك وأن معدته قد امتلأت. تأكد أن الدم أخذ يتخثر على كتف القدم البيضاء، وشاهد خيطاً من الدم يسيل ببطء وصولاً إلى قائمتها. ولم يبدُ أن الفرس تشعر بذلك واستمرت في رعي أعشاب الربيع. أبعد تيموجن ذبابة عن أثر الدماء، وربت على عنق الفرس.

كان بكتر قد ترجل عن فرسه أيضاً. ولدى رؤيته تيموجن يغذي نفسه، جثا الفتى البكر، ووجّه سائلاً رقيقاً من الحليب الدافئ إلى فمه من ضرع فرسه، وتلمظ بشفتيه بصوت مسموع. تجاهل تيموجن العرض، رغم أن خاسار وكشيون كانا ينظران بأمل. كانا يعرفان من خبرتهما أنهما إذا طلبا منه أن يسقيهما فسيرفض، لكن إذا تجاهلا عطشهما، ربما يتكرم بكتر بالسماح لكل فتى بملء فمه من الحليب.

قال بكتر بعد أن رفع رأسه بسرعة: "اشرب يا خاسار".

لم ينتظر خاسار حتى يطلب منه مرة ثانية، وحشر رأسه مثل مغفل حيث كان بكتر يمسك الضرع الداكن، الممتلئ حليباً. ورضع خاسار بجشع من الرذاذ الذي أصاب بعضه وجهه ويديه. وتنفس بعمق قبل أن يغصّ، وحتى بكتر ابتسم قبل أن يشير إلى كشيون بأن دوره قد حان.

نظر كشيون إلى تيموجن، وشاهد صلابة وقفته. وضاقت عينا الفتى الصغير، ثم هزّ رأسه. وهزّ بكتر كتفيه استخفافاً، وترك الضرع ليلقي نظرة خاطفة على تيموجن قبل أن يمسك به مجدداً، ويشاهد أصغر أشقائه يترجّل عن فرسه.

ترجّل تيموج بحذره المعهود، وكانت المسافة بالنسبة لفتى لم يشهد سوى ستة فصول صيف طويلة إلى الأرض، رغم أن أطفالاً آخرين في القبيلة كانوا سيقفزون عن السرج بكل شجاعة إخوتهم الأكبر سناً. لم يستطع تيموج القيام بمثل ذلك الشيء البسيط، وأصاب الفزع كل أشقائه عندما ترنح أثناء نزوله، وأصدر بكتر صوت طقطقة من لسانه، وأصبح وجه تيموج قاتماً عندما أمعنوا النظر إليه.

سأل تيموجن: "هل هذا هو المكان؟"

أومأ تيموج برأسه موافقاً، وقال وهو يشير إلى الأعلى: "شاهدت نسراً يحوم هنا. العش في مكان ما قرب القمة".

كشّر بكتر، وتمتم وهو ينظر إلى حيث أشار تيموج: "ربما كان صقراً".

تورّد تيموج خجلاً: "كان نسراً! وهو بني داكن وأكبر من أي صقر سبق أن عاش من قبل".

هزّ بكتر كتفيه استخفافاً من ثورته، واستغل اللحظة ليبصق مضغة من البلغم والحليب على الأرض.

"ربما. سأعرف عندما أجد العش".

ربما كان تيموجن سيقبل التحدي، لكن كشيون كان تعباً من شجارهما، وتخطاهم جميعاً، وسحب ثيابه حتى خصره حتى لا تعيق حركته. وخلع معطفه فيما كان يخطو خطوته الأولى على الصخور، كاشفاً عن رداء يترك ذراعيه عاريتين، وغطاء للساق من الكتّان. كان الانتقال بحذائه المصنوع من الجلد الطري يشبه المشي عاري القدمين. تجرّد الآخرون من ملابسهم كما فعل، وشعروا بضرورة ترك ثيابهم الثقيلة على الأرض.

سار تيموجن عشرين خطوة حول القاعدة قبل أن يشاهد مكاناً آخر ينطلق منه، وبصق على يديه، وفركهما بقوة. ابتسم خاسار منتشياً، ورمى بلجام فرسه إلى تيموج مما تسبب بإفزاع الفتى الصغير، ووجد بكتر مكاناً

خاصاً به، وأعمل يديه القويتين في الشروخ الصخرية، ورفع نفسه للأعلى مع صوت واهن يصدر من فمه.

أصبح تيموج وحيداً مجدداً خلال لحظات. في البداية، كان يائساً وآلمته رقبته من التحديق نحو الأعلى على المتسلقين. وعندما أصبحوا يظهرون بحجم العناكب، شعر بمعدته تتلوى. وبعد أن ألقى نظرة أخيرة على أشقائه النشيطين، اتجه نحو فرس بكتر ليشرب منها الحليب ملء معدته. واكتشف أن هناك بعض الفوائد في أن يكون المرء الأخير.

بعد مئة قدم، عرف تيموجن أنه أصبح على ارتفاع كافٍ ليتسبب بموته إذا سقط. وأصغى من خلف أنفاسه اللاهثة إلى أشقائه، لكن لم يكن هناك صوت يدل عليهم كما لم يستطع رؤيتهم في أي اتجاه. وتشبث بأطراف أنامله وبحذائه، وانحنى قدر ما يستطيع ليرى مسلكاً يقود إلى الأعلى. كان الهواء يبدو أبرد، والسماء صافية تماماً فوق رأسه، وليس فيها غيمة تفسد رحلة التسلق نحو الأعلى. هربت بعض السحالي من أصابعه التي تتشبث بالصخور، وكاد يفقد توازنه عندما علقت إحداها، متلوية تحت يده. عندما هدأ خفقان قلبه، دفع بجسدها المكسور عن الحافة حيث كانت تستمتع بالشمس، وشاهدها تدور في الهواء أثناء سقوطها.

بعيداً في الأسفل، شاهد تيموجن تيموج يسحب ضرع فرس بكتر، وكان يأمل بأن يتمتع بإحساس مرهف ليترك بعض الحليب. فلقد كان بكتر سيضربه بقسوة إذا وجد أن الحليب قد نفد، وربما كان الفتى الصغير الجشع يستحق ذلك.

كانت الشمس لاهبة على مؤخرة عنقه، وشعر تيموجن بخيط من العرق يلمس أهدابه، فجعل عينيه تطرفان. هزّ رأسه، وتعلق بيديه فقط فيما كانت قدماه تبحثان عن مكان جديد تستقران عليه. كان تيموج سيتسبب بمقتل أحدهم بقصصه عن النسور، لكن الوقت كان قد فات على الشكوك،

ولم يكن تيموجن واثقاً حتى أنه يستطيع النزول إلى الأسفل على تلك الصخور الشديدة الانحدار. وعلى مثل ذلك الارتفاع، كان عليه إيجاد مكان للراحة وإلاّ فسيسقط نحو الأسفل.

قرقر الدم في معدته أثناء حركته، وذكّره بالقوة التي يمنحه إياها، وجعله يتجشأ رائحته اللاذعة. كشف تيموجن عن أسنانه فيما كان يشد نفسه للأعلى، وقد بدأ يشعر بالخوف في معدته، وجعله ذلك غاضباً. لن يخاف أبداً لأنه ابن ياسوجي؛ ذئب. وسيصبح خاناً ذات يوم، ولن يخاف ولن يسقط. بدأ يتمتم تلك الكلمات لنفسه، مراراً وتكراراً فيما كان يتسلق، وبقي قريباً من الصخرة نظراً لاشتداد قوة الرياح التي تضربه. وساعده ذلك أيضاً على تخيل غضب بكتر إذا وصل تيموجن إلى القمة أولاً.

أخافته الرياح العاصفة، وانتابه شعور مفاجئ بأنها ستنتزعه وتلقي به عن الصخرة العالية، وأنه سيتحطم على الأرض بجانب تيموج. اكتشف أن أصابعه كانت ترتعش مع كل قبضة جديدة، وهي أولى إشارات الضعف. استمد القوة من غضبه، وتابع قدماً.

كان من الصعب تحديد الارتفاع الذي وصل إليه، لكن تيموج والجياد كانا يبدوان مثل بقع صغيرة في الأسفل، وقد أنهك التعب ذراعيه وقدميه. وصل تيموجن إلى شق صخري استطاع الاحتماء به من الرياح والتقاط أنفاسه هناك، واستعادة نشاطه. في البداية، لم يكن يستطيع رؤية طريق للتسلق إلى الأعلى، فمدّ جسده حول مجموعة من الصخور. فهو لن يعلق بالتأكيد هناك فيما سيجد الآخرون مسالك أسهل للصعود إلى الأعلى؟ وحده كشيون كان يتسلق بشكل أفضل منه، وكان تيموجن يعرف أن عليه إراحة عضلاته المجهدة لبعض الوقت. سحب نفساً عميقاً من الهواء الدافئ، واستمتع بالمنظر على بعد أميال حوله. شعر أنه يستطيع رؤية كل الطريق إلى خيام قبيلتهم، وتساءل إن كانت هولن قد ولدت. لا شك أن عدّة

ساعات قد مضت على وصولهم إلى التل الأحمر؟

سمع صوتاً فوقه يقول: "هل أنت عالق؟"

أطلق تيموجن شتائم بصوت عالٍ عندما شاهد وجه كشيون يطل عليه من فوق الصخور. قابل الفتى نظرته بابتسامة تغضنت بسببها عيناه، وتحرك تيموجن حول الصخور حتى وجد موطئ قدم ثابت. كان يأمل بأن يقوده ذلك إلى موطئ آخر في الأعلى. وبوجود كشيون ينظر إليه، ضبط أنفاسه، وأظهر وجه المحارب القاسي. كان عليه أن يقفز إلى الأعلى ليصل إلى المكان التالي الذي يستطيع إحكام قبضته عليه، وللحظة، سيطر عليه الخوف. على الأرض، لم يكن ذلك شيئاً يذكر. ولكن على الأرض ما كان ليسقط سوى مسافة صغيرة. ومع اشتداد سرعة الرياح أعلى الصخور، لم يجرؤ تيموجن على التفكير بالهاوية خلفه.

تعبت ذراعاه وقدماه بعد أن دفع نفسه للأعلى بقوة وطاقة كبيرتين. وكان التوقف عن الحركة يعني البدء بالسقوط، وصرخ تيموجن بأعلى صوته عندما وصل إلى حيث كان كشيون جاثياً يراقب تقدمه بهدوء.

قال لكشيون بابتهاج: "ياه! خان الجبل لا يعلق بين الصخور".

استوعب شقيقه ذلك بصمت.

قال: "ينقسم التل فوقنا مباشرة. لقد سلك بكتر الممر الجنوبي إلى القمة".

كان تيموجن معجباً بهدوء شقيقه. وأخذ يراقبه فيما كان كشيون يمشي على حافة الجلمود الأحمر الذي سيتسلقه برعب، واقترب بما فيه الكفاية حتى أن الرياح داعبت شعره المتموج.

قال له تيموجن: "لا يعرف بكتر مكان وجود النسور، إذا كانت موجودة هنا أصلاً".

هزّ كشيون كتفيه استخفافاً مجدداً. "سلك السبيل الأسهل. لا أعتقد أن أي نسر سيبني عشاً في مكان يمكن الوصول إليه بسهولة".

سأل تيموجن: "يوجد طريق أخرى إذاً؟" وفيما كان يتكلم، صعد على صخرة صغيرة ليستطيع رؤية قمم التل الأحمر بشكل أفضل. كانت هناك قمّتان، كما قال كشيون، وكان تيموجن يستطيع رؤية بكتر وخاسار على القمة إلى الجنوب. وحتى من مسافة بعيدة، كان كلا الشابين يستطيعان تحديد شكل شقيقهما الأكبر القوي يتحرك ببطء لكن بثبات. وكانت القمة الشمالية التي تطل على تيموجن وكشيون تبدو مثل المسمار الحجري الذي يثبط الهمم أكثر من السفح الشاهق الذي تسلقاه حتى ذلك الوقت.

شدّ تيموجن على قبضتيه بقوة، وشعر بالثقل في ذراعيه وساقيه.

سأله كشيون: "هل أنت مستعد؟" فأومأ برأسه نحو السفح الشمالي.

وصل إليه تيموجن، ووضع يده على مؤخرة رأس شقيقه الصغير الرزين بحركة سريعة. وشاهد أن كشيون قد فقد ظفراً من يده اليمنى. وكان هناك خيط من الدم يسيل على طول ساعده إلى عضلات الوتر، لكن لم تظهر على الفتى أي علامة على انزعاجه.

قال تيموجن: "أنا مستعد. لماذا انتظرتني؟"

تجشأ كشيون قليلاً، ونقل قبضة يده على الصخور.

"إذا سقطت، سيكون بكتر خاناً يوماً ما".

قال تيموجن بتحفظ: "ربما يصبح خاناً جيداً". لم يكن صادقاً في ذلك، لكنه تذكر كيف دخل بكتر في نزال مع أتباع والده. وكان هناك أشياء في عالم الراشدين لم يكن قادراً على استيعابها تماماً بعد، لكن بكتر كان يتمتع بصفة محارب على الأقل.

تأفف كشيون من ذلك. "إنه يمتطي الفرس مثل صخرة يا تيموجن. من يستطيع اللحاق برجل يركب الفرس بتلك الطريقة؟"

ابتسم تيموجن، وبدأ يتسلق مع كشيون.

كان الأمر أسهل عندما يعملان معاً. واستعمل تيموجن قوته أكثر من مرة

لإسناد قدم كشيون فيما كان الفتى يتسلق الواجهة الصخرية مثل عنكبوت سريع. كان يتسلق بالطريقة نفسها التي يمتطي بها الفرس، لكن كانت تظهر علامات الإرهاق على جسده اليافع، وشاهد تيموجن أن لونه أصبح شاحباً بعد أن تسلقا مئة قدم أخرى. وكان كلا الشابين مرهقاً، وبدت أطرافهما ثقيلة جداً على الحركة.

كانت الشمس قد تجاوزت أعلى نقطة في السماء، وبدأت رحلة انحدارها نحو الغرب. كان تيموجن يراقب موقعها كلما استطاع إيجاد مكان يرتاح فيه للحظة من الإجهاد. ولم يكونا يستطيعان البقاء على التل حتى حلول الظلام، وإلاّ فسيسقطان، وكانت رؤية مجموعة من الغيوم تتجمع على مسافة بعيدة أمراً مثيراً للقلق، فلقد كانت عاصفة صيفية سترمي بهم جميعاً عن التل الأحمر. أصابه الخوف على أشقائه، عندما انزلق كشيون، وكاد يودي بحياتهما.

صرخ تيموجن: "أمسكت بك. حاول إيجاد موطئ قدم آخر". كانت أنفاسه تخرج مثل النار من فمه المفتوح، ولم يستطع أن يتذكر أن الإعياء أصابه لهذه الدرجة فيما كانت القمة ما تزال تبدو بعيدة المنال. استطاع كشيون أن يريح ذراع تيموجن من ثقله، ونظر إلى الخلف للحظة على علامات النزيف التي تركها حذاؤه على جلد تيموجن العاري. ولاحق كشيون نظرة شقيقه فوق السهول، وشدّ من وقفته عندما شاهد الغيوم. كان من الصعب الحكم على اتجاه الرياح، لأنها كانت تعصف حول الصخور، لكن كلا الشابين خامره شعور بأنها قادمة نحوهما مباشرة.

"هيا بنا، تابع التسلق. إذا بدأت الأمطار تنهمر، سنكون جميعنا موتى". قال تيموجن، ودفع بشقيقه نحو الأعلى. أومأ كشيون برأسه، رغم أنه أغلق عينيه للحظة، وبدا مصاباً بالدوار. كان من السهل نسيان كم هو يافع في ذلك الوقت، وشعر تيموجن باعتداد شديد بالنفس لتوليه حماية الفتى

الصغير، وقطع على نفسه عهداً بأنه لن يدعه يسقط.

كانا ما يزالان يشاهدان القمة الجنوبية أثناء تسلقهما، رغم عدم وجود إشارة على مكان بكتر أو خاسار. تساءل تيموجن ما إذا كانا قد وصلا إلى القمة، وما إذا كانا في طريق العودة للأسفل مع فرخ النسر بأمان. سيصبح بكتر لا يُطاق إذا جلب معه أحد الطيور الرائعة إلى مضارب والدهم، وكانت الفكرة كافية لتزود عضلاته المتعبة بالقليل من الطاقة الإضافية.

لم يفهم أي من الشابين في البداية ما تعنيه الأصوات الحادة التي سمعاها. ولم يكونا قد سمعا من قبل سقسقات النسور الصغيرة، وكانت الرياح رفيقة دربهما بصوتها الخاص فوق الصخور. كانت الغيوم قد انتشرت لتغطي السماء، وكان تيموجن مهتماً أكثر بإيجاد مكان يلتجئان إليه، فلقد كانت فكرة السقوط مع كل موطئ قدم زلق بسبب الأمطار تجعل قلبه يخفق بقوة، وكان واثقاً أن كشيون لم يكن يستطيع القيام بذلك أيضاً. لقد كان أحدهما على الأقل معرضاً لخطر السقوط.

لم يكن خطر الغيوم الداكنة قادراً على تشتيت انتباه الشابين تماماً فيما كانا يدفعان نفسيهما نحو صدع صخري مليء بالأغصان والريش. كان تيموجن يستطيع شم رائحة اللحم المتعفن قبل أن يستطيع رفع نظره إلى مستوى العش. أخيراً، أدرك أن الأصوات الحادة كانت تأتي من نسرين صغيرين يراقبان المتسلقين باهتمام بالغ.

كان واضحاً أن النسرين الكبيرين قد التقيا باكراً لأن الفرخين لم يكونا هزيلين أو ضعيفين. كان النسران ما يزالان مكسوّين بالزغب، مع ظهور بعض الريش البني المذهّب على جلدهما، والذي يمكن أن يجعلهما يطيران فوق الجبال بحثاً عن فريسة. كانت أجنحتهما قصيرة وبشعة المنظر، رغم أن الشابين كانا يعتقدان أنهما لم يشاهدا شيئاً بهذا الجمال من قبل. بدت المخالب كبيرة جداً بالنسبة لطيور صغيرة، وأصابعها صفراء كبيرة تنتهي

بمسامير مدببة داكنة اللون تبدو قادرة على تمزيق اللحم في أي وقت.

جمّدت الدهشة كيشون على الصخور، وتعلق من أطراف أنامله. واعتبر أحد الطائرين سكونه نوعاً من التحدي فاقترب نحوه، ونشر جناحيه في استعراض شجاعة جعل كشيون يبتسم بسعادة بالغة.

قال وعيناه تومضان: "إنهما خانان صغيران".

أومأ تيموجن برأسه موافقاً، وغير قادر على الكلام. كان يتساءل آنذاك حول كيفية إنزال كلا الطائرين للأسفل حيين مع اقتراب العاصفة. نظر إلى الأفق عندما خطرت له فكرة تبعث على القلق باحتمال عودة النسرين الكبيرين إلى عشهما قبل اشتداد نذر العاصفة. على مثل ذلك الارتفاع الشاهق، يكون النسر المهاجم أكثر من ند لشابين يحاولان إنزال فرخين صغيرين إلى الأرض.

شاهد تيموجن كشيون يدفع نفسه للأعلى ليجثم على طرف العش، غافلاً كما يبدو عن الموقف المضطرب. مدّ كشيون يده، لكن تيموجن أطلق تحذيراً، وقال: "الغيوم قريبة جداً منا، ولن نستطيع النزول الآن. اتركهما في العش، ونستطيع أخذهما في الصباح".

فيما كان يتكلم، هدر الرعد عبر السهول، ونظر كلا الشابين نحو المصدر. وكانت الشمس ما تزال ساطعة فوقهما، لكن كانا يستطيعان رؤية المطر ينهمر غزيراً من بعيد، والظل يسرع نحو التل الأحمر. على ذلك الارتفاع، كان منطقياً أن تتملكهما الدهشة إضافة إلى الخوف أيضاً.

تبادلا النظرات، وأومأ كشيون برأسه، ونزل عن حافة العش إلى الصخور أسفله.

قال: "سنموت جوعاً". ووضع إصبعه المتقرحة في فمه ومص قشرة الدماء الجافة.

أومأ تيموجن برأسه موافقاً، وقال: "هذا أفضل من السقوط. لقد كاد

المطر يصل إلى هنا، وأريد البحث عن مكان أستطيع النوم فيه دون أن أسقط للأسفل. ستكون ليلة عصيبة".

قال كشيون بهدوء: "ليس بالنسبة لي. لقد نظرت في عيني نسر".

احتضن تيموجن الفتى الصغير بكل حبّ، وساعده في اجتياز الصخور إلى حيث يستطيعان التسلق للأعلى، وأشار إلى صدع بين منحدرين صخريين، واستطاعا حشر نفسيهما داخله أكثر ما يمكن، وأخيراً استراحا.

قال كشيون مستمتعاً بالفكرة: "سيغضب بكتر".

ساعده تيموجن على دخول الصدع، وشاهده يحشر نفسه عميقاً في الداخل، ويزعج زوجاً من السحالي الصغيرة. هربت إحداها إلى الحافة، وقفزت رعباً منهما وقائمتاها ممدودتان، وسقطت مسافة طويلة. كان المكان بالكاد يتسع للشابين، لكن على الأقل كانا بعيدين عن الرياح. كان الجو سيصبح مزعجاً ومخيفاً بعد حلول الظلام، وكان تيموجن يعرف أنه سيكون محظوظاً إذا أخذ قسطاً من النوم.

قال: "اختار بكتر الطريق السهل للصعود إلى الأعلى". وأمسك بيد كشيون، ودفع نفسه داخل الصدع.

ضربت العاصفة التل الأحمر بشدة طوال ساعات الظلام، ولم تهدأ إلاّ عند بزوغ الفجر، وأشرقت الشمس بقوة مرة أخرى فصارت السماء صافية، وجفّفت أبناء ياسوجي عندما ظهروا من مخابئهم في الشقوق الصخرية. كان الأربعة عالقين على ارتفاع عالٍ، ولم يجرؤوا على النزول، وكانوا قد قضوا الليل في بؤس شديد مبللين بالماء، يلفهم النعاس، ثم أفاقوا فجأة على أحلام السقوط للأسفل. عندما سطعت أشعة الفجر على قمتي التل الأحمر، كانوا يتثاءبون متسمرين في أماكنهم، وقد ظهرت دوائر داكنة حول عيونهم.

كانت معاناة تيموجن وكشيون أقل من الاثنين الآخرين بسبب ما وجداه. وحالما أصبح هناك ضوء كافٍ للرؤية، بدأ تيموجن يزحف خارجاً من الصدع الصخري ليضع يده على أول النسرين الصغيرين. وكاد يفقد توازنه عندما انقض عليه شبح داكن من الغرب، وكان ذلك نسراً كبيراً يبدو في مثل حجمه.

لم يكن الطائر سعيداً لرؤية دخيلين قريبين بهذا القدر من صغيريْه، وكان تيموجن يعرف أن الإناث أكبر من الذكور، وافترض أن هذا النسر لا بد أن يكون الأم، لأنها كانت تسقسق وكأنها غاضبة منهما. لم يحصل الطائران الصغيران على الطعام لأن النسر الكبير طار مجدداً، وحلق وسط الرياح، ونظر إلى الصدع الصخري الذي كان يأوي الشابين. كان مخيفاً ومذهلاً التواجد على مثل هذا الارتفاع الشاهق، والتحديق في عينين سوداوين لطائر يحلّق بجناحيه الممدودين. كان يفتح مخالبه ويغلقها بعصبية، كما لو أنه يتخيل غرزها في لحمهما. ارتعش كشيون خوفاً من المنظر، واعتقد أن الطائر الضخم سينقض عليهما فجأة، وينتزعهما من مكانهما كما قد يفعل مع غرير في جحره. لم يكن لديهما سوى سكين تيموجن الصغيرة البائسة

للدفاع عن نفسيهما ضد صياد يستطيع قصم ظهر كلب بضربة واحدة قوية.

شاهد تيموجن الرأس البني المذهّب يستدير للأمام والخلف بقلق. وظنّ أن الطائر يستطيع البقاء هناك طوال اليوم، ولم تعجبه فكرة أن يكون مكشوفاً على الصخور تحت العش. كانت ضربة واحدة من مخلب النسر وسيصبح في خبر كان. حاول أن يتذكر أي شيء سبق أن سمعه حول الطيور البرية. هل يصرخ ليخيف الأم ويجعلها تبتعد؟ فكّر في ذلك، لكنه لم يكن يرغب بحضور بكتر وخاسار إلى القمة المهجورة، ليس قبل أن يضع الفرخين في قطعة ملابس، ويربطهما إلى صدره.

خلف كتفه، انحنى كشيون، وأمسك بشيء داخل صدع التل الأحمر. ولاحظ تيموجن أنه تناول حجراً كبيراً وأنه يزنه في يده.

سأله تيموجن: "هل تستطيع إصابته؟"

هزّ كشيون كتفيه فقط دون مبالاة، وقال: "ربما. ينبغي أن يحالفني الحظ لإسقاطه، وهذا هو الحجر الوحيد الذي وجدته".

أطلق تيموجن الشتائم في سره لأن النسر الكبير كان قد اختفى لبعض الوقت، لكن الطيور تتمتع بمهارات صيد كبيرة ولم يكن مستعداً للخروج من ملاذه الآمن. زفر الهواء من فمه بإحباط، وكان يتضور جوعاً، وينتظره نزول صعب، وكان مع كشيون يستحقان ما هو أفضل من العودة خاليي الوفاض.

تذكر قوس بكتر البعيد في الأسفل مع تيموج والجياد، ولعن نفسه لأنه لم يفكر بإحضاره معه، رغم أن بكتر ما كان ليدعه يضع يده على السلاح المقوّس. وكان شقيقه الأكبر يفتخر بذلك السلاح كما يفتخر هو بحلي المحارب.

قال كشيون: "خذ الحجر، وسأصعد إلى العش، وإذا جاءت، تستطيع

ضربها وإبعادها".

عبس تيموجن فقد كانت خطة معقولة. وكان رامياً ماهراً، فيما يتسلق كشيون بشكل أفضل منه. كانت المشكلة الوحيدة أن كشيون سيكون الشخص الذي يأخذ الفرخين، وليس هو. كان ذلك شيئاً يتطلب إمعان التفكير فيه ربما، لكنه لم يرغب بأن يدّعي أحد أنهما له قبله.

أجاب: "احتفظ بالحجر، وسأحضر الفرخين".

أدار كشيون عينيه الداكنتين إلى شقيقه الأكبر منه، وبدا أنه يقرأ أفكاره. هزّ كتفيه استخفافاً، وقال: "حسناً. هل لديك ملابس لإحضارهما؟"

استعمل تيموجن سكينه لنزع قطع من طرف ردائه. وكان الثوب بالياً، لكنّ الطائرين كانا جائزة أكبر بكثير ويستحقان تلك الخسارة. لفّ قطعة من القماش على كلّ من راحتي كفيه لتكونا في متناول يده، ثم مدّ عنقه خارج الصدع بحثاً عن ظل متحرك، أو جسم يحوم فوقهما. كان الطائر قد نظر في عينيه، وعرف ما كان يحاول القيام به، بكل تأكيد. لقد شاهد ذكاءً هناك مثل أي كلب أو صقر، وربما أكثر.

كان يشعر بالألم في عضلاته المنهكة أثناء الخروج إلى ضوء الشمس، وكان يستطيع مرة أخرى سماع صراخ حاد من العش، وكان الفرخان بحاجة ماسة للطعام بعد قضائهما ليلة بمفردهما، وربما يكونان قد تعرضا للمعاناة أيضاً دون وجود جسد أمهما الدافئ لحمايتهما من العاصفة. أصيب تيموجن بالقلق لأنه لم يكن يسمع سوى صوت طائر واحد وربما يكون الآخر قد هلك. نظر خلفه تحسباً لأن يكون النسر الكبير يحوم فوقه استعداداً لدق عنقه على الصخور، فلم يكن هناك شيء. سحب نفسه إلى أعلى الصخرة، وجرّ قدميه حتى جثم على طرف العش كما فعل كشيون في الأمسية السابقة.

كان العش عميقاً في حفرة واسعة، جوانبها شديدة الانحدار، ولهذا لم

يكن الطيران الصغيران النشيطان قادرين على الخروج منها، وهما سيسقطان قبل أن يتمكنا من الطيران. وحالما شاهدا وجهه، اندفع كلا النسرين الصغيرين الهزيلين بعيداً عنه، ورفرفا بأجنحتهما الخالية من الريش برعب، وسقسقا طلباً للمساعدة. مرة أخرى، نظر إلى السماء الزرقاء، وتضرع لأب السماء ليحفظه من كل سوء، وتقدم للأمام ببطء. كانت ركبته اليمنى تضغط على القش الرطب والريش القديم. وتحطمت بعض العظام الصغيرة تحت ثقله، وشمّ رائحة جيفة بشعة من فريسة متعفنة.

انكمش أحد الطائرين متراجعاً من أصابعه الممتدة نحوه، لكن الآخر حاول عضه بمنقاره، وخدش يده بمخالبه التي كانت صغيرة للغاية، فلم تترك أثراً يذكر على جلده، لذا تجاهل الأمر عندما كان يرفع الطائر إلى مستوى وجهه ويشاهده ينطوي على نفسه.

تمتم قائلاً: "سيصيد والدي عشرين سنة معك". وحرر قطعة قماش من إحدى يديه وقيّد الطائر من جناحه وقائمته. وكاد الثاني ينجح في الخروج من العش خائفاً، ولذا كان تيموجن مجبراً على سحبه للخلف من أحد مخالبه الصفراء، مما جعله يسقسق، وينتفض محاولاً الإفلات، وشاهد على الريش الجديد بقعة حمراء وسط اللون الذهبي.

قال له: "سأدعوك الطائر الأحمر، إذا كنت لي". ودفع كلا الطائرين داخل ردائه. بدا الطائران أكثر هدوءاً عندما لامسا جلده، رغم أنه كان يستطيع الشعور بهما ينشبان مخالبهما فيه، وفكّر أن صدره سيبدو كما لو أنه وقع في دغل أشواك في الوقت الذي يصل فيه إلى الأسفل.

شاهد تيموجن النسر الكبير قادماً مثل سحابة داكنة فوق رأسه، وكان يتحرك بشكل أسرع مما يعتقد أنه ممكن، ولم يكن لديه وقت سوى لرفع إحدى يديه قبل أن يسمع كشيون يصرخ والحجر الوحيد الذي كان بحوزتهما يصطدم بجانب الطائر، ويصده عن القيام بضربته. زعق الطائر

بغضب حقيقي لم يسبق له أن سمعه من حيوان، وذكّر تيموجن بأنه صياد يتمتع بغريزة الصيد، وشاهد الطائر يحاول قلب جناحيه الضخمين، ويدفع نفسه بعيداً عن الصخور في محاولة منه ليحافظ على توازنه. لم يكن تيموجن يستطيع فعل أي شيء سوى الجثو في ذلك المكان المحصور، ومحاولة حماية وجهه وعنقه من المخالب المندفعة إليه. وسمع الطائر يسقسق صارخاً في أذنه، وشعر بجناحيه يضربانه قبل أن يتجه نحو الأسفل وهو يصرخ بغضب طوال الطريق. شاهد كلا الشابين النسر يبتعد للأسفل بشكل حلزوني وبالكاد يتحكم في انحداره. كان أحد الجناحين يبدو سليماً، فيما الآخر ملتوياً يرفرف في الهواء. تنفس تيموجن الصعداء، وشعر بأن خفقان قلبه بدأ يتباطأ. لقد حصل على الطائر لوالده، وربما سيسمح له بتدريب الطائر الأحمر بنفسه.

كان بكتر وخاسار قد انضما إلى تيموج مع الجياد في الوقت الذي بدأ فيه تيموجن رحلة نزوله البطيئة إلى الأسفل. كان كشيون قد بقي معه، يساعده قدر الإمكان بحيث لا يكون على تيموجن البحث عن موطئ قدم، أو المخاطرة بحمولته الثمينة. بالرغم من ذلك، عندما وقف أخيراً على أرض منبسطة، ونظر للأعلى حيث كان، كانت القمة تبدو بعيدة جداً بشكل يستحيل معه الوصول إليها، وغريبة تماماً، كما لو أن فتياناً آخرين قد تسلقوها.

سأل خاسار: "هل وجدتما العش؟" وكان يشاهد جوابهما في كبريائهما.

أومأ كشيون برأسه: "مع نسرين صغيرين داخله. لقد قاتلنا الأم، وحصلنا عليهما".

ترك تيموجن شقيقه الأصغر يروي القصة، وكان يعرف أن الآخرين لن يفهموا ما يعنيه أن يجثو المرء والعالم تحت قدميه والموت يخفق فوق كتفيه. لم يكن خائفاً، كما اكتشف، رغم أن قلبه وجسده كانا ينتفضان. لقد

اختبر لحظة حبور على التل الأحمر وسيزعجه كثيراً الحديث عنها، في الوقت الراهن على الأقل. وربما سيذكرها لياسوجي عندما يكون مزاج الخان مناسباً.

كان تيموج قد قضى ليلة شاقة أيضاً، رغم أنه كان قادراً على الاختباء مع الجياد، واستطاع الحصول بين الحين والآخر على كميات من الحليب الدافئ لسدّ جوعه. ولم يخطر ببال الأربعة الآخرين أن يشكروه لرؤيته النسر. لم يكن تيموج قد تسلق التل معهم، وكل ما حصل عليه من أشقائه كان لطمة قاسية من بكتر عندما اكتشف أنه قد أفرغ ضرع الفرس خلال الليل. صرخ الصبي الصغير عندما شرعوا في رحلتهم، لكن الآخرين لم يتعاطفوا معه. لقد كانوا جميعاً منهكين ويتضورون جوعاً، وحتى خاسار الذي يكون مشرق الوجه عادة عبس في وجهه لجشعه. وسرعان ما تركوه خلفهم فيما هرولت جيادهم معاً عبر السهل الأخضر.

شاهد الفتية أتباع والدهم قبل وصولهم إلى مضارب القبيلة بوقت طويل. وحالما خرجوا من ظلال التل الأحمر، وتمت رؤيتهم، حملت نفخات البوق الحادة خبر قدومهم من مسافة بعيدة.

لم يظهروا عصبيتهم، رغم أن وجود الخيالة كان يعني أن غيابهم كان ملحوظاً. وبشكل لاإرادي، اقتربوا جميعاً من بعضهم، عندما أدركوا أن إيلوك يقترب منهم، وشاهدوا أنه لم يبتسم ترحيباً بهم.

قال إيلوك موجهاً الكلمات إلى بكتر: "أرسلنا والدكم لإيجادكم".

انتفض تيموجن آلياً وأجاب: "قضينا ليالي في الخارج من قبل".

أدار إيلوك عينيه الصغيرتين السوداوين إليه، ومرر يداً فوق ذقنه. هزّ رأسه، وقال بحدة كما لو أنه يعنّف طفلاً: "ليس دون سابق إنذار، ليس في العاصفة، وليس عندما تكون والدتك على وشك الولادة".

شاهد تيموجن أن بكتر يحمر خجلاً، ولم يدع المشاعر تسيطر عليه. "لقد

وجدتنا إذاً. إذا كان والدنا غاضباً، فذلك بينه وبيننا".

هزّ إيلوك رأسه مجدداً، وشاهد تيموجن وميض الكراهية في عينيه. ولم يكن قد أحب تابع أبيه من قبل، رغم أنه لم يستطع تحديد السبب. كان هناك مكر في صوت إيلوك عندما تابع الكلام.

قال: "كادت والدتكم تفقد الطفل بسبب قلقها عليكم".

كانت عيناه تطلبان من تيموجن أن يخفض نظراته، لكن بدلاً من ذلك شعر الفتى بتنامي الغضب في داخله. لقد منحته العودة مع النسرين الملتصقين بصدره الشجاعة. كان يعرف أن والده سيصفح عنهم حالما يشاهد النسرين. رفع تيموجن يداً لإيقاف الآخرين حتى أن بكتر أمسك بلجام فرسه استجابة له، ولم يكن قادراً على متابعة الطريق وحسب.

قال تيموجن: "لن تكمل الطريق معنا يا إيلوك. عُد". وشاهد المحارب يتسمّر في مكانه، ويهزّ رأسه. قال تيموجن: "اليوم، نتابع طريقنا مع النسرين فقط". ولم يكن وجهه يفصح عن شيء من متعته الداخلية.

تجمّع أشقاؤه حوله، مستمتعين بالسر والعبوس الذي أتعب معالم إيلوك القاسية. ونظر الرجل إلى بكتر وشاهده يحدّق في الهواء، وشاهد نظرته ثابتة على الأفق.

عندها أخرج زفيراً قوياً من أنفه، وقال: "سيوسع والدكم جلودكم السميكة ضرباً". وكان وجهه يتلون غضباً.

نظر تيموجن بهدوء إلى الرجل، وحتى فرسه كانت هادئة تماماً.

"لا. لن يفعل. أحدنا سيكون خاناً يوماً ما يا إيلوك. فكّر بذلك وعد أدراجك، كما قلت لك. سنأتي وحدنا".

قال بكتر فجأة بصوت أكثر عمقاً من أشقائه: "اذهب".

نظر إيلوك كما لو أنه قد صُعق، وكانت عيناه مغلقتين عندما أدار الفرس التي كان يوجهها بركبتيه فقط. لم يتكلم ثانية، لكنه على الأقل أومأ برأسه

بحدّة، وانطلق مبتعداً، وتركهم وحدهم ينتابهم شعور بالتوتر. كان تيموجن شبه واثق أنهم غير معرضين للخطر. لم يكن إيلوك أحمق بما فيه الكفاية ليرفع السيف في وجه أبناء ياسوجي. وفي أسوأ الحالات، كان يمكن أن يدفعهم للسير عائدين معه بالقوة، لكنهم شعروا بأنهم قد ربحوا معركة، وأحسّ تيموجن بنظرة بكتر ترافقه طوال الطريق نحو النهر وقوم والده.

شمّوا رائحة البول النفّاذة في الرياح قبل أن يشاهدوا الخيام. بعد قضائهم الشتاء في ظلال ديلون - بولاداخ، تشبعت مساحات كبيرة من التربة حول العائلات بالرائحة. لم يكن يوجد رجل واحد يجرؤ على السير في الظلام إلاّ أن ذلك كان موطن مضاربهم.

كان إيلوك قد ترجل عن فرسه بالقرب من خيمة والدهم، ومن الواضح أنه كان ينتظر رؤيتهم يتعرضون للعقاب. كان تيموجن يستمتع باهتمام الرجل الخفي بهم، وأبقى رأسه شامخاً. تقدم عليه خاسار وكشيون، ولفتت رائحة الضأن المطهو انتباه تيموج فيما عاود بكتر تقطيب جبينه كالمعتاد.

خرج ياسوجي عندما سمع صوت جيادهم وهي تصهل للجياد الأخرى في القطيع. وكان يضع سيفه على وركه، ورداؤه الأزرق والذهبي يصل إلى ركبتيه. كان حذاؤه وبنطاله نظيفين لامعين، وبدا أطول مما هو عليه عادة. لم تكن علامات الغضب ظاهرة على وجهه، لكنهم كانوا يعرفون أنه يخفي ذلك خلف قناع يستعمله كل المحاربين. بالنسبة لياسوجي، لم يكن الأمر أكثر من عادته الدائمة في تقييم حالة أبنائه فيما كانوا يقتربون منه. لاحظ كيف أن تيموجن يحمي شيئاً في صدره، والإثارة التي يشعرون بها جميعهم وتكاد تنفلت من عقالها. حتى بكتر كان يحاول عدم إظهار السعادة، وبدأ ياسوجي يتساءل عمّا جلبه أبناؤه معهم.

شاهد أيضاً أن إيلوك يحوم بالقرب من المكان، ويتظاهر بتنظيف فرسه.

كان ياسوجي يعرف إيلوك جيداً ليشعر بأن مزاجه الكدر مركز على الفتية وليس على ما يقوم به. كان سيهز كتفيه استخفافاً إن لم يكن يتخذ وضعية المحارب الصامت. وهكذا، أزاح ما يقوم به إيلوك من تفكيره.

ترجّل خاسار وكشيون بطريقة حجبت تيموجن للحظة. راقب ياسوجي ما يجري عن كثب، وشاهد فجأة أن رداء تيموجن كان يتحرك. بدأ قلبه يخفق بسرعة في انتظار ما سيراه. ورغم ذلك، لن يسهّل الأمر عليهم كثيراً.

"أصبح لديكم شقيقة، رغم أن الولادة كانت أصعب بغيابكم. لقد نزفت والدتكم الكثير من الدماء بسبب خوفها عليكم".

خفضوا أبصارهم عندما سمعوا ذلك. وتقطّب جبينه، وأراد أن يجلد كلاً منهم بالسوط لأنانيتهم.

تمتم كشيون خائفاً من نظرة والده: "كنا على التل الأحمر. لقد شاهد تيموج نسراً هناك، وتسلقنا حتى العش".

طار قلب ياسوجي فرحاً من الخبر. سيكون هناك شيء واحد فقط يتلوى في صدر تيموجن، لكنه لم يكن ليجرؤ على أن يدع الأمل بحدوث ذلك ينتابه. لم يكن أحد في القبيلة قد أمسك بنسر منذ ثلاثة أجيال أو أكثر، ولم يحدث ذلك منذ جاء الذئاب من الغرب البعيد. كانت الطيور أكثر قيمة من عشرة جياد قوية، أقله بسبب اللحم الذي تستطيع جلبه من الصيد.

قال ياسوجي لتيموجن بعد أن خطا خطوة للأمام: "هل الطائر معك؟"

لم يستطع الفتى إخفاء سعادته لمدة أطول، وكشف عن ابتسامة عريضة، ووقف بفخر فيما كان يمدّ يده داخل ردائه.

قال: "وجدت وكشيون اثنين".

تهللت أسارير والده لدى سماعه ذلك، وظهرت أسنانه الناصعة البياض بين شفتيه الداكنتين ولحيته الصغيرة.

أخرج تيموجن الطائرين برفق من الرداء، ووضعهما في يد والده، وأخذ

النسران يسقسقان عندما تعرضا للضوء. شعر تيموجن باختفاء حرارتهما عن جلده حالما خرجا، ونظر إلى الطائر الأحمر بعين المالك الذي يراقب كل حركة.

لم يستطع ياسوجي إيجاد الكلمات المناسبة. ولاحظ أن إيلوك قد اقترب لرؤية الفرخين، وأمسك بهما فيما كان وجهه يضيء اهتماماً، ثم استدار إلى أبنائه.

"ادخلوا وشاهدوا والدتكم، جميعكم. قدموا اعتذاركم لإخافتها، ورحبوا بشقيقتكم الجديدة".

كان تيموج قد عبر باب الخيمة قبل أن ينهي والده كلامه، وسمعوا جميعاً صرخة سعادة هولن لرؤية ابنها الأصغر. وتبعه كشيون وخاسار، لكن تيموجن وبكتر بقيا حيث كانا.

قال تيموجن وهو يشير إلى الطائرين: "أحدهما أصغر من الآخر". وكان يحاول جاهداً أن لا يغادر المكان. "هناك أثر من اللون الأحمر على ريشه، وقد دعوته الطائر الأحمر".

أكد ياسوجي: "إنه اسم جيد".

تنحنح تيموجن، وأصبح عصبياً فجأة: "كنت آمل أن أستطيع الاحتفاظ بالطائر الأحمر نظراً لوجود اثنين".

نظر ياسوجي دون انفعال إلى ابنه وقال: "مدّ ذراعك".

رفع تيموجن ذراعه إلى مستوى كتفه، محتاراً. وأمسك ياسوجي بالفرخين بإحدى يديه، واستعمل الأخرى للضغط على يد تيموجن، وأجبره على خفض ذراعه.

"سيصبحان بوزن كلب عندما يكبران. هل تستطيع حمل كلب على معصمك؟ لا. إنها هدية رائعة وأشكركم عليها. لكن الطائر الأحمر ليس مناسباً لفتى، حتى وإن كان ابني".

شعر تيموجن بالدموع تخز عينيه فيما كانت الأحلام التي راودته في الصباح تتلاشى. وكان والده يبدو غافلاً عن غضبه ويأسه عندما استدعى إليه إيلوك.

بدت ابتسامة إيلوك في عيني تيموجن ماكرة وبغيضة عندما انضم للوقوف إلى جانبهم.

قال ياسوجي للرجل: "لطالما كنت محاربي الأول. الطائر الأحمر لك".

اتسعت عينا إيلوك من الدهشة. وأخذ الطائر بوقار متناسياً الفتية، وقال مع انحناءة من رأسه: "لقد شرّفتني".

ضحك ياسوجي عالياً، وأجاب: "خدمتك شرّفتني. سنذهب للصيد معاً برفقتهما. وسنقيم حفلة الليلة بمناسبة قدوم النسرين إلى الذئاب". واستدار إلى تيموجن: "سيكون عليك أن تخبر تشاغاتي العجوز كل ما حدث أثناء التسلق حتى يستطيع كتابة كلمات أغنية عظيمة".

لم يجب تيموجن، وكان غير قادر على الوقوف ومراقبة إيلوك وهو يمسك الطائر الأحمر أكثر من ذلك، واندفع مع بكتر عبر البوابة المنخفضة للخيمة لرؤية هولن وشقيقتهما الجديدة، اللتين أحاط بهما أشقاؤهما. كان الفتية يستطيعون سماع والدهم في الخارج يصرخ على الرجال ليروا ما أحضره أبناؤه له، وكانت ستقام وليمة في تلك الأمسية، ولكن رغم ذلك لم تبدُ عليهم علامات الراحة عندما التقت نظراتهم. كانت سعادة والدهم تعني الكثير لهم جميعاً، لكن الطائر الأحمر كان لتيموجن.

في تلك الأمسية، أشعلت القبيلة روث الأغنام والماعز الجاف، وقامت بشي لحم الضأن وطهوه في قدور كبيرة. غنى الشاعر تشاغاتي أغنية حول إيجاد نسرين على تل أحمر، وكان صوته مزيجاً غريباً من النغمات العالية والمنخفضة. وهلل شباب وشابات القبيلة ابتهاجاً بكلمات الأغنية، وكان ياسوجي مضطراً لعرض الطائرين مراراً وتكراراً فيما كانا يسقسقان بحال

يرثي لها حنيناً لعشهما.

قبل الفتية الذين كانوا قد تسلقوا التل الأحمر كأساً إثر آخر من شراب الأعشاب الأسود فيما كانوا يجلسون حول النار في الظلمة. أصبح لون خاسار شاحباً وصمت عن الكلام بعد الكأس الثاني، وبعد الثالث، أخرج كشيون زفيراً ضعيفاً وتراجع للخلف ببطء، ووقع كأسه على الأعشاب. حدّق تيموجن بألسنة اللهب مما جعل بصره يزوغ، ولم يسمع والده يقترب، ولم يكن ليهتم إذا سمع. كان شراب الأعشاب قد جعله يشعر بنشاط وحيوية في جسده، وأحسّ به يجري في عروقه.

جلس ياسوجي إلى جانب أبنائه، ووضع قدميه القويتين فوق بعضهما، وكان يرتدي ثوباً مغطى بالفرو ليحميه من برد الليل، لكن صدره كان عارياً تحته. ومنحه شراب الأعشاب الأسود حرارة كافية، ولطالما كان يدّعي أنه يتمتع بمناعة الخان من البرد.

قال: "لا تشرب كثيراً يا تيموجن. لقد أثبت أنك تستحق أن يعاملك الآخرون كرجل. سأقوم بواجب الوالد تجاهك غداً، واصطحبك إلى أولخونوت، قبيلة والدتك". شاهد تيموجن يرفع بصره، وتجاهل تماماً مغزى النظرة الذهبية الشاحبة. "سنرى أجمل بناتهم، ونجد واحدة تدفئ سريرك عندما يأتيها الطمث". وربت على كتف تيموجن.

أجاب تيموجن بصوت منخفض وبارد: "سأبقى معهم فيما يدرب إيلوك الطائر الأحمر". وتسلل الصوت عبر ثنايا ياسوجي الثمل، وتقطب حاجباه.

قال: "ستفعل ما يقوله لك والدك". وضرب تيموجن بقوة على جانب رأسه، أقوى ربما مما كان يقصد. اندفع تيموجن للأمام، ثم اعتدل في جلسته مرة أخرى، وحدّق مجدداً في والده. كان ياسوجي قد فقد اهتمامه بالموضوع آنذاك، وأخذ ينظر بعيداً إلى تشاغاتي فيما كان يحرك عظامه القديمة في رقصة تخفق فيها ذراعاه في الهواء مثل جناحي نسر. وبعد مرور

بعض الوقت، لاحظ ياسوجي أن تيموجن ما زال ينظر إليه.

قال تيموجن عندما التقت نظراتهما، محاولاً كبح دموع الغضب: "سأفتقد تجمعات القبيلة، والسباقات".

نظر إليه ياسوجي بإمعان، وتعابير وجهه غير قابلة للتفسير: "ستنظم أولخونوت تجمعات كما نفعل تماماً. ستكون القدم البيضاء معك. وربما يسمحون لك بامتطائها في سباقات ضد أشقائك".

قال تيموجن مستعداً لضربة أخرى: "أفضّل البقاء هنا".

لم يبدُ أن ياسوجي قد سمعه، وقال: "ستعيش سنة معهم، كما فعل بكتر. سيكون الأمر صعباً عليك، لكن سيكون هناك الكثير من الذكريات الجميلة. ولا حاجة بي للقول إنك ستتعرف على نقاط قوتهم، وأسلحتهم، وأعدادهم".

قال تيموجن: "لسنا في نزاع مع أولخونوت".

هزّ والده كتفيه، وأجاب: "الشتاء طويل".

ارتفع رأس تيموجن تحت أشعة الفجر الواهنة فيما كان والده وإيلوك يضعان الطعام والأغطية على الجياد. كانت هولن تتحرك في الخارج، وابنتها الصغيرة ترضع من صدرها داخل معطفها. وكانت تتكلم وياسوجي بصوت منخفض، وبعد مرور بعض الوقت، انحنى إليها ووضع وجهه على عنقها. كانت تلك لحظة مودّة نادرة لم يكن لها أي تأثير في التخفيف من مزاج تيموجن الكدر. فقد كان يكره ياسوجي في ذلك الصباح بكل القوة التي يستطيعها فتى في الثانية عشرة من عمره.

تابع تيموجن، بصمت متجهم، شدّ لجام فرسه، وتفقد كل رباط وعقدة في الرسن والسرج. لم يكن ليمنح والده عذراً لانتقاده أمام أشقائه الصغار، رغم أنه لم يكن يستطيع رؤيتهم في أي مكان. كانت الخيمة هادئة تماماً بعد الشراب في الليلة السابقة. وكان يمكن سماع فرخ النسر الذهبي يسقسق طلباً للطعام، وتوارت هولن عن الأنظار عبر الباب لإطعامه قطعة من اللحم الطازج. فقد كانت تلك مهمتها عندما يكون ياسوجي بعيداً، لكن ذلك لم يكن ليشتت انتباهها عما يرضي زوجها وأن يكون لديه كل ما يحتاجه للرحلة.

زفرت الجياد، وصهلت على بعضها، وهي ترحب بقدوم يوم آخر. وكان المشهد هادئاً وتيموجن يقف في الوسط منزعجاً وكدراً ويبحث عن أصغر عذر لإلغاء الرحلة. ولم يكن يريد أن يجد لنفسه زوجة تشبه البقرة، كان يريد تربية الجياد والخروج مع الطائر الأحمر، وأن يكون معروفاً ومهاب الجانب. كان يشعر بأن إرساله بعيداً عقابٌ له، رغم أنه يعرف أن بكتر كان قد ذهب من قبل وعاد. في الوقت الذي سيعود فيه تيموجن، قد تكون زوجة بكتر في خيمة مع زوجها الجديد، وسيكون شقيقه رجلاً في أعين المحاربين.

كان بكتر جزءاً من المشكلة التي عكّرت صفو تيموجن. فلقد أصبحت عادة لديه أن يختبر كبرياء الابن البكر، وأن يرى من خلال ذلك أنه لم يصبح بكل وضوح المفضل لدى والدهم بعد. في غيابه، كان تيموجن يعرف أن الجميع سيعامل بكتر بصفته الوريث. وبعد انقضاء سنة، ربما يصبح حقه في الميراث طي النسيان.

لكن ما الذي يستطيع فعله؟ كان يعرف وجهة نظر ياسوجي بالأبناء العاقين. فإذا رفض السفر، سيتعرض للضرب بكل تأكيد، وإذا استمر في عناده، ربما يجد نفسه مطروداً من القبيلة. لطالما هدد ياسوجي بمثل ذلك الشيء عندما كان أشقاؤه يتسببون بضوضاء عالية أو يتقاتلون بعنف شديد مع بعضهم البعض. لم يبتسم قطّ من قبل عندما كان يطلق تهديداته، ولم يكن هناك سبب يجعلهم يعتقدون أنه يخدعهم. ارتعش تيموجن خوفاً من الفكرة. لقد كان مصير الهائم على وجهه دون اسم قاسياً. فلم يكن هناك أحد يراقب القطيع أثناء نومه، أو يساعده في تسلق تلة. كان شبه واثق أنه سيتضور جوعاً لوحده، أو أنه على الأرجح سيلقى حتفه في غارة يقوم بها على قبيلة طلباً للمؤن.

دارت في ذهنه ذكريات الأيام المبكرة عن التدافع والشجار مع أشقائه في الخيام. وهزّ تيموجن رأسه قليلاً فيما كان يشاهد والده يضع الحمولة على الجياد. كان يعرف جيداً أن عليه عدم إظهار أي تعبير وأن يبدو وجهه خالياً من أي انفعال. أصغى السمع فيما كان إيلوك وياسوجي يتبادلان أطراف الحديث، ويشدّان الحبال بإحكام قدر ما يستطيعان. ولم تكن حمولة ثقيلة لأنها مخصصة لهما فقط.

بقي تيموجن يراقب حتى أنهى الرجلان عملهما، ثم تجاوز إيلوك، وتفقد كل عقدة على فرسه مرة أخيرة، وبدا أن تابع والده قد تسمّر في مكانه، لكن تيموجن لم يكن ليهتم بمشاعره المجروحة. كان ياسوجي قد قال له

مراراً إن الرجل ينبغي أن لا يعتمد على مهارات الرجال الأدنى منه مرتبة. بالرغم من ذلك، لم يكن تيموجن مهتماً بتفقد عُقد ياسوجي، ولم يكن والده يبدو في مزاج طيب أيضاً. ربما كان ياسوجي سيجد في هذا التصرف أمراً ممتعاً، أو كان سيضرب ابنه لوقاحته.

تقطب حاجبا تيموجن من فكرة الرحلة التي تنتظره، مع وجود والده فقط بصحبته دون أي من أشقائه لكسر الصمت. هزّ كتفيه غير مبالٍ. وكان سيتحمل الأمر مثلما اكتشف أنه سيتحمل أي شيء آخر غير مريح. هل كان ذلك مجرد اختبار آخر؟ وكان بانتظار العواصف من ياسوجي وأب السماء. كان ياسوجي قد عانى العطش والجوع لدرجة أنه عض نفسه ذات مرة ليتذوق طعم دمه، وكان قد نجا من فصول الشتاء التي تجمدت فيها القطعان حتى الموت، ومن فصل صيف أحرق الجلد لدرجة ظهور تقرحات صفراء عليه. كان والده قد عانى من تلك الأشياء دون شكوى أو علامة على الضعف، وأظهر قدرة لا محدودة على التحمّل كانت محط إعجاب أولئك المحيطين به. وحتى تعابير وجه إيلوك البغيضة كانت تتغير بحضور ياسوجي.

كان تيموجن يقف متسمراً وشاحباً مثل عصا خشب البتولا، عندما ربتت هولن على عنق الفرس، وعانقت ابنها. استطاع الإحساس بالطفلة الصغيرة تتلوى على صدرها، وشمّ رائحة الحليب. وعندما تركته، بدأت الفتاة الصغيرة الضئيلة الحجم تزعق، وأصبح وجهها أحمر من المقاطعة غير المرغوب فيها. وشاهد تيموجن هولن تدفع بصدرها الكبير فوق الفم الذي يبحث عنه. ولم يكن يستطيع النظر إلى عيني والدته، وألقت هي نظرة خاطفة على المكان الذي يقف فيه ياسوجي في الجوار بفخر وصمت فيما كان يحدّق بعيداً، وتنهدت.

قالت بصوت مرتفع: "توقف عن ذلك يا ياسوجي".

ارتعش زوجها، وأدار رأسه ليظهر تورّد وجنتيه. وبدأ القول: "ما الذي...؟"

قاطعته: "تعرف ما أعنيه تماماً. لم تقل كلمة لطيفة للفتى، وتتوقع السير في الأيام الثلاثة المقبلة بصمت؟"

تقطب حاجبا ياسوجي، لكن هولن لم تكن قد انتهت منه.

"لقد أخذت طائر الفتى، وأعطيته لتابعك البشع ذاك. هل تتوقع منه أن يضحك ويشكرك على ذلك؟"

انتقلت نظرة ياسوجي الشاحبة بين إيلوك وابنه، وهو يفكر في ردّة فعله على الكلام.

تمتم: "إنه يافع للغاية".

هسّت هولن مثل قدر على موقد. "إنه فتى على وشك الزواج. إنه شاب وفخور جداً بنفسه، مثل والده العنيد تماماً. إنه يشبهك كثيراً لدرجة أنك لا تستطيع رؤية ذلك".

تجاهل ياسوجي ذلك، ولم يكن تيموجن يعرف ما يقوله عندما نظرت والدته إليه.

تمتمت: "إنه يصغي رغم أنه يتظاهر بخلاف ذلك يا تيموجن. إنه يشبهك في ذلك". ووصلت إليه لتمسك وجنته بأصابعها القوية. "لا تقلق من عائلات قومي. إنهم طيبو القلب، رغم أنه ينبغي عليك أن تخفض ناظريك بوجود الشباب. سيختبرونك، لكن ينبغي أن لا تخاف".

ومضت عينا تيموجن الصفراوان.

قال: "لست خائفاً". انتظرت منه متابعة الكلام، وتبدلت عبارة تحديه، وقال: "حسناً، أنا أصغي أيضاً".

أومأت برأسها، وتناولت من جيبها قطعة من حلوى الحليب، ووضعتها في يده.

"هناك قارورة من شراب الأعشاب الأسود في جيب السرج لتقيك البرد. إنها للرحلة. ستكون قوياً عندما تكبر، وكن لطيفاً مع الفتاة التي يختارونها لك".

أجاب تيموجن: "لطيفاً؟" وشعر للمرة الأولى منذ أخبره والده أنه سيغادر بوخز في معدته. كانت هناك غريبة في مكان ما ستصبح زوجته وتحمل أطفاله. ولم يستطع أن يتخيل شكلها، أو حتى ما يريده من مثل تلك المرأة.

قال مستغرقاً في التفكير: "آمل أن تكون مثلك".

ابتسمت هولن، وعانقته بقوة جعلت شقيقته الصغيرة تصرخ بصوتٍ عالٍ. وقالت: "أنت فتى طيب يا تيموجن. ستكون زوجاً رائعاً لها".

لدهشته، شاهد دموعاً تتلألأ في عينيها، وفركتهما فيما كان يشعر برعشة مفاجئة تنتابه. كانت دفاعاته تتداعى، ورأت خشيته من إظهار مشاعره أمام ياسوجي وإيلوك، ولكن الرجال الذين يكونون في طريقهم للزفاف لا يبكون مع أمهاتهم.

أمسكت هولن ابنها من عنقه قليلاً، ثم استدارت مبتعدة، وتبادلت بعض الكلمات همساً مع زوجها، فتنهد خان الذئاب بشكل ظاهر، وأومأ برأسه موافقاً عندما امتطى فرسه. وقفز تيموجن برشاقة إلى سرجه.

سمع تيموجن اسمه، فابتسم وأدار فرسه القدم البيضاء بضغطة لطيفة على اللجام. كان أشقاؤه النائمون قد استفاقوا أخيراً وخرجوا لتوديعه. وقف تيموج وخاسار حول فرسه، والإعجاب بادٍ على وجهيهما. وطرفت عينا كشيون في الضوء واستغرقه الأمر لحظة ليتفقد حافر الفرس المتعب. كانوا يشكلون مجموعة صاخبة مفعمة بالحياة، وشعر تيموجن بأن الثقل في صدره بدأ يخف.

خرج بكتر من الخيمة، وكان وجهه خالياً من التعابير. نظر إليه تيموجن،

وشاهد شرارة انتصار في نظرته الفارغة. كان بكتر قد فكّر أيضاً بأن حياته ستكون أسهل بكثير دون وجود تيموجن هناك.

رفع يده في إشارة وداعية أخيرة لوالدته، وحثّ القدم البيضاء على الهرولة لتمشي بجانب فرس والده، ولم يكن يعتقد أنه يستطيع النظر إلى الوراء، ولهذا لم يفعل ذلك. وسرعان ما تلاشت بسرعة أصوات أفراد القبيلة الذين أخذوا يستيقظون من النوم وصهيل جيادهم، وبعد وقت قصير لم يكن هناك سوى وقع حوافر فرسي ياسوجي وولده وجلبة عدّتهما، وكان القوم بعيدين خلفهم.

سار ياسوجي بصمت فيما كانت الشمس ترتفع أمامهما. وكان قوم هولن أقرب مما كانوا عليه قبل ثلاث سنوات، ولن تستغرق الرحلة منه سوى بضعة أيام مع ابنه. في نهايتها، سيعرف ما إذا كان الفتى يتمتع بقدرات تجعله يستطيع حكم القبيلة. كان قد عرف ذلك فيما يخصّ بكتر بمجرد انقضاء اليوم الأول. في الحقيقة، لم يكن ابنه البكر شعلة متقدة، لكن القبيلة تحتاج يداً ثابتة، وكان بكتر في طريقه ليصبح رجلاً رائعاً.

تقطب جبين ياسوجي فيما كان يسير ممتطياً فرسه. وجال بنظره على الأرض حولهما بحثاً عن عدو أو حيوان. لم يكن ممكناً أن يضل الطريق أبداً فيما كل تل محفور في ذهنه، وكل أذن ماعز مبتورة تحدد له مواقع القبائل المحلية.

كان قد استمتع بالرحلة مع بكتر، رغم أنه تحمل مشاق عدم إظهار ذلك، وكان من الصعب معرفة كيف يصبح فتى قائداً للرجال، لكن ياسوجي كان واثقاً أن ذلك لا يتم عبر تدليله أو جعله ليّناً. رفع بصره إلى أب السماء، وجالت في ذهنه صورة تيموج في خيام القبيلة. لو أن الفتى الصغير لم يكن لديه الكثير من الأشقاء الأقوياء، لكان ياسوجي قد أبعده عن تأثير والدته، وربما جعله يتزوج من قبيلة أخرى. ربما سيبعده عند عودته.

غيّر ياسوجي جلسته على السرج، غير قادر على الاستمرار في ذلك التفكير المعتاد فيما تيموجن يسير إلى جانبه. كان واضحاً للغاية أن الفتى ينظر إلى ما حوله بعناية، وأن رأسه يتحرك مع كل منظر جديد. لقد كان بكتر رفيقاً مسالماً، لكنّ شيئاً في صمت تيموجن أثار والده.

لم ينفعهما أن طريقهما إلى أولخونوت جعلهما يمرّان قرب التل الأحمر، وهكذا كان ياسوجي مجبراً على التفكير في دور ابنه في إحضار صغيري النسر، وشعر بعيني تيموجن تحدقان به فيما كان ينظر إلى المنحدرات الشاهقة، لكن الفتى العنيد لم يكن ليمنحه فرصة الحديث معه.

نخر ياسوجي بسخط، غير واثق من سبب تكدر مزاجه في مثل هذا اليوم الجميل الصافي.

قال: "كنتم محظوظين للوصول إلى العش على ذلك الارتفاع".

أجاب تيموجن: "لم يكن للحظ علاقة بذلك".

أطلق ياسوجي اللعنات في سره، فقد كان الفتى حاداً مثل دغلٍ من الأشواك.

"لقد كنت محظوظاً لأنك لم تسقط، أيها الفتى، حتى مع وجود كشيون لمساعدتك".

ضاقت عينا تيموجن، فقد كان والده يبدو ثملاً للغاية للإصغاء إلى أغاني تشاغاتي. هل تكلم مع كشيون؟ ولم يكن تيموجن واثقاً كيف يرد، لهذا لم ينبس ببنت شفة.

راقبه ياسوجي عن كثب، وبعد انقضاء بعض الوقت، هزّ رأسه، وفكّر في هولن. سيحاول مجدداً من أجلها، أو ربما لن يسمع نهاية القصة أبداً.

"كان التسلق رائعاً حسب ما سمعت. قال كشيون إنك كدت تسقط عن الصخور بسبب النسر الذي كان عائداً إلى العش".

انفرجت أسارير تيموجن قليلاً، وهزّ كتفيه دون مبالاة. لقد كان سعيداً

لأن والده أظهر اهتماماً، رغم أن وجهه الخالي من أي تعبير كان يخفي ذلك كله.

أجاب بفخر يظهره بعناية: "لقد أبعده باستعمال حجر". كان كشيون شقيقه المفضل حتى ذلك الوقت، لكنه كان قد تعلم إخفاء ما يحب وما يكره عن الآخرين، وأصبحت تلك بمثابة الصفة الكامنة فيه مع نهاية سنته الثانية عشرة.

أطبق الصمت على ياسوجي مجدداً، لكن تيموجن نقّب في أفكاره عن شيء لكسر الصمت قبل أن يستقر ويترسخ نهائياً.

قال: "هل اصطحبك والدك إلى أولخونوت؟"

زفر ياسوجي، وحدّق بولده.

"أعتقد أنك كبير بما فيه الكفاية لتسمع القصة الآن. لا، وجدت والدتك مع اثنين من أشقائها عندما كنت في رحلة. ورأيت أنها جميلة وقوية". تنهد، وتلمّظ بشفتيه، واتسعت عيناه تفكيراً بالماضي البعيد.

"كانت تمتطي أجمل مهرة، بلون مطر العاصفة عند الفجر. وكانت ساقاها عاريتين وبنيتين".

لم يكن تيموجن قد سمع القصة من قبل، فاقترب من والده أكثر.

قال: "هل سبيتها من أولخونوت؟" كان يعرف أن ذلك لم يكن ليفاجئه، وأن والده يحب الصيد والقتال، وكانت عيناه تومضان عندما يتذكر معاركه. وإذا كان الفصل دافئاً والطعام كثيراً، كان يرسل المحاربين المهزومين إلى عائلاتهم سيراً على الأقدام، مع آثار حمراء على جلودهم من صفع السياط. وفي الشتاء، عندما يكون الطعام قليلاً، كان الموت مصير هؤلاء. لقد كانت الحياة قاسية للغاية حتى يكون المرء رحيماً في شهور الظلام.

قال ياسوجي: "طاردت شقيقيها مثل زوجٍ من الماعز الصغير. ولم أكن

كبيراً بما فيه الكفاية لأخرج وحدي، لكنني لوّحت بسيفي فوق رأسي، وصرخت عليهما".

استحوذت عليه الذكرى، وأرجع رأسه للخلف، وأطلق صيحة عالية انتهت بضحكة.

"كان ينبغي أن تشاهد وجهيهما. لقد حاول أحدهما مهاجمتي، لكنني كنت ابن الخان يا تيموجن، ولست مجرد كلب صغير يمكن إخافته وإبعاده. لقد أطلقت سهماً على وركه وجعلته يجري هرباً".

تحسّر على نفسه.

"كانت تلك أياماً طيبة. كنت أعتقد أنني لن أشعر أبداً بالبرد في عظامي، عندها. كان لديَّ فكرة أنني لن أصاب بمكروه في حياتي، وأنني سأتخطى كل شيءٍ بذكائي وقوتي". ونظر إلى ابنه، وكان تعبير وجهه يدل على الأسف الذي كان تيموجن يستطيع تخمين سببه. "مررت بوقت أيها الفتى كنت أستطيع فيه التسلق للحصول على طائر أحمر بنفسي".

قال تيموجن، محاولاً فهم ذلك العبء الكبير الملقى على عاتق الرجل: "لو أنني كنت أعرف، لعدت أدراجي وأخبرتك".

هزّ ياسوجي رأسه، وضحك بصوت خافت. "ليس الآن! لقد أصبحت ثقيلاً للغاية للتأرجح على صخور وشقوق ضئيلة. وإذا حاولت القيام بذلك الآن، أعتقد أنني سأقع على الأرض مثل نجم يسقط من السماء. ما الهدف من تواجد الأبناء إذا لم يكبروا ليصبحوا أقوياء ويختبروا شجاعتهم؟ تلك حقيقة أتذكرها من والدي. لا يمكن ترك الشجاعة مثل العظام في كيس. ينبغي إخراجها وتعريضها للضوء مراراً وتكراراً، وهكذا تصبح أقوى في كل مرة. وإذا كنت تعتقد أنها تبقى للوقت الذي تحتاجها به، فستكون مخطئاً. إنها مثل أي جزء آخر من قوتك. إذا تجاهلتها، سيكون الكيس فارغاً عندما تحتاجها. لا، لقد كنت محقاً في التسلق إلى العش، وكنت أنا محقاً في منح

الطائر الأحمر إلى إيلوك".

لم يكن خفياً التشدد المفاجئ الذي ظهر في تصرفات تيموجن. وأصدر ياسوجي، نتيجة الإحباط، صوتاً عميقاً من حنجرته بدا مثل الهدير.

"إنه محاربي الأول، والشديد البأس أيها الفتى، وينبغي أن تصدق ذلك. وأفضّل أن يكون إيلوك إلى جانبي بدلاً عن خمسة من رجال القبيلة؛ أو عشرة من أولخونوت. ولن يحكم أولاده الذئاب، ولن يكون سيفه ماضياً مثل سيفي، هل تفهم ذلك؟ لا، أنت في الثانية عشرة من عمرك فقط. ما الذي تستطيع فهمه مما أقوله لك؟"

قال تيموجن بكلمات لاذعة: "كان عليك منحه شيئاً. هل هذا ما تعنيه؟"

"لا. لم يكن ذلك ردّاً للدين. لقد منحته شرف الحصول على الطائر الأحمر لأنه محاربي الأول، ولأنه كان صديقي منذ كنا طفلين معاً، ولم يشتكِ قطّ أن عائلته أقل من عائلتي بين الذئاب".

فتح تيموجن فمه ليرد. كان الطائر الأحمر سيتلطخ بين يدي إيلوك القذرتين، بجلدهما الأصفر السميك. لقد كان الطائر رقيقاً للغاية نسبة لتابع بشع. إلاّ أنه لم يتكلم، وبدلاً من ذلك حافظ على الانضباط الذي منحه وجهاً بارداً لا يظهر للعالم شيئاً. لقد كان ذلك دفاعه الحقيقي الوحيد ضد نظرة والده المتفحصة.

أمعن ياسوجي التفكير بالأمر، وأخرج زفيراً قوياً من أنفه.

عندما أقاما معسكرهما في تلك الليلة قرب جدول صغير، قام تيموجن بإنجاز الأعمال المعتادة التي ستمدهما بأسباب الحياة في اليوم التالي. وباستعمال سكينه، اقتطع قطعاً صغيرة من الجبن القاسي من كتلة كبيرة، ووضع القطع في أكياس جلدية مليئة بالماء حتى منتصفها. وكان المزيج الرطب سيبقى تحت سرجيهما، ويتعرض للخض من حركة الفرسين وللحرارة من جلدهما. وبحلول منتصف النهار، سيحظى ووالده بشراب دافئ من

اللبن الخاثر المنعش اللاذع الطعم.

حالما انتهت تلك المهمة، بدأ تيموجن يبحث عن روث الأغنام، وحالما وجدها بدأ يقلّبها بين أصابعه ليتأكد أنها جافة بما فيه الكفاية لتحترق جيداً دون أن تخلّف أثراً. جمع كومة من أفضل تلك المخلفات، ومرّر حجر صوان على سكين قديمة لإحداث الشرر عليها وإشعال النار. قطع ياسوجي بعض لحم الضأن المقدد، وأخرج بعض البصل البري المنقوع بدهن الغنم، وجعلت الرائحة الشهية لعابهما يسيل. كانت هولن قد أعطتهما خبزاً سرعان ما سيصبح قاسياً، لهذا عملا على تجزئة أرغفة الخبز ونقعها في الطعام.

جلسا متقابلين لتناول الطعام، يلحسان مرق اللحم من أصابعهما بين اللقمة والأخرى. لاحظ تيموجن أن نظرة والده تقع على القربة التي تحتوي شراب الأعشاب الأسود فجلبها له. وانتظر بصبر فيما كان الخان يرتشف جرعة كبيرة.

قال تيموجن: "أخبرني عن أولخونوت".

زمّ والده شفتيه في سخرية لا شعورية.

"إنهم ليسوا أقوياء، رغم عددهم الكبير، مثل النمل. أعتقد أحياناً أنني أستطيع الإغارة عليهم وقتل الكثيرين منهم قبل أن يستطيعوا إصابتي".

قال تيموجن متشككاً: "أليس لديهم محاربون؟" ولم يكن والده ليلفق أمامه قصة غريبة، لكنه بدا جاداً.

"ليس مثل إيلوك. سترى ذلك. إنهم يستعملون القوس بدلاً من السيف، ويقفون بعيداً جداً عن عدوهم، ولا يقتربون منه أبداً ما لم يكونوا مضطرين لذلك. وسيكونون موضع سخرية إذا ارتدوا الدروع، رغم أنهم سيقتلون الجياد بسهولة أكبر. إنهم يلسعون مثل الدبابير، لكن إذا وصلت إلى وسطهم، يتبعثرون مثل الأطفال. لقد أخذت والدتك بتلك الطريقة. لقد

تسللت بينهم، ثم وثبت عليهم".

سأل تيموجن: "كيف سأتعلم استعمال السيف إذاً؟"

كان قد نسي ردة فعل والده تجاه نبرة كتلك التي تحدث بها، ولم يستطع تفادي اليد التي امتدت لتعلّمه بعض التواضع. وتابع ياسوجي كما لو أن شيئاً لم يحدث.

"ينبغي عليك أن تتدرب بمفردك أيها الفتى. كان على بكتر القيام بذلك، أعرف ذلك". وتابع قائلاً: "إنهم لم يسمحوا له بلمس أحد أقواسهم أو سكاكينهم منذ اليوم الأول وحتى غادرهم. إنهم جميعاً جبناء. ورغم ذلك، نساؤهم جميلات جداً".

سأل تيموجن قلقاً من صفعة أخرى: "لماذا يتعاملون معك، ويزوجون بناتهم لأبنائك؟" كان ياسوجي يرتب سرجه للنوم، ووضعه على الأعشاب التي رعتها الأغنام.

"لا يرغب أي والد بتواجد بنات غير متزوجات يحدثن ضوضاء في خيامه. ما الذي سيفعلونه معهن إذا لم آتِ مع أحد أبنائي بين الفينة والأخرى؟ هذا ليس مستغرباً، خصوصاً عندما تلتقي القبائل. وتستطيع بتلك الطريقة تقوية دمائها ببذور من القبائل الأخرى".

سأل تيموجن: "هل يجعلنا ذلك أقوى؟"

أطلق والده صوتاً مثل الشخير دون أن يفتح عينيه.

"الذئاب قوية أصلاً".

التقطت عينا ياسوجي الثاقبتان فرق استطلاع أولخونوت في اللحظة نفسها تماماً التي شاهدته بها. وارتفعت أصوات أبواقهم الحادة نحو الخيام تحثّ المحاربين على الدفاع عن قطعانهم ونسائهم.

حذّر ياسوجي ابنه: "لن تتكلم ما لم يتكلموا معك. ليكن وجهك بارداً وخالياً من التعابير، بغض النظر عمّا يحدث. مفهوم؟"

لم يجب تيموجن، رغم أنه ابتلع ريقه بعصبية. لقد كانت الأيام والليالي التي قضاها مع والده غريبة بالنسبة له. وطوال حياته، لم يتذكر أنه حصل على اهتمام ياسوجي كل تلك الفترة الطويلة دون مرور أشقائه في مجال رؤية الخان وتشتيتهم انتباهه. في البداية، فكّر تيموجن أن الوضع سيكون بائساً عندما يقومان بالرحلة معاً. فهما لم يكونا صديقين، ولا يمكن أن يصبحا كذلك، لكن كانت هناك لحظات شاهد فيها وميضاً في عيني والده. وفي حال شاهده في عيني أي شخص آخر، كان تيموجن سيعتبره كبرياءً.

شاهد تيموجن الغبار يرتفع عن الأرض الجافة من مسافة بعيدة بعد أن قفز المحاربون الشباب على صهوة جيادهم، يصرخون طلباً للأسلحة. وأصبح فم ياسوجي خطاً رفيعاً قاسياً، وجلس باعتدال على سرجه، وكان ظهره مستقيماً ومشدوداً. وقلّده تيموجن بأفضل ما يستطيع، وشاهد سحابة الغبار تكبر فيما كان عشرات المحاربين يندفعون بأعداد كبيرة نحو الثنائي الوحيد.

قال ياسوجي بسرعة: "لا تستدر يا تيموجن. إنهم فتية يلعبون، وستلحق بي العار إذا منحتهم ذلك الشرف".

أجاب تيموجن: "أفهم ذلك. لكن إذا جلست مثل صخرة، سيحسبون أنك تهابهم. أليس من الأفضل أن تتحدث إليَّ، وأن تضحك؟"

شعر بأن ياسوجي نظر إليه، واختبر لحظة خوف في داخله. لقد كانت

تلك العينان الذهبيتان تريان أكثر من مجرد بعض أفراد القبائل الشباب. كان ياسوجي يجهز نفسه للأعداء، وسيطرت غرائزه على عضلاته وردود أفعاله. وعندما استدار تيموجن لينظر إلى والده، شاهده يحزم أمره، ويرتاح بشكل ملحوظ. ولم يكن فرسان أولخونوت المندفعون نحوهما قد اقتربوا كثيراً منهما بعد، وكان ضوء النهار قد أصبح أكثر سطوعاً نوعاً ما.

قال ياسوجي: "سأبدو مغفلاً إذا ألقوا بنا عن الفرسين أشلاء ممزقة". ورسم ابتسامة قاسية على شفتيه كانت ستبدو طبيعية للغاية على جثة.

ضحك تيموجن مما يقوم به بمتعة كبيرة. "هل تعاني من الألم؟ حاول إلقاء رأسك للخلف فيما تقوم بذلك".

فعل والده ما اقترحه تيموجن، وانطلقت منهما ضحكة بائسة في الوقت الذي وصل فيه خيّالة أولخونوت إليهما. تباطأت سرعة الخيالة الذين يطلقون الصيحات حتى توقفوا تماماً، وجعلوا جيادهم تسد طريق الغريبين. ووصلت سحابة الغبار التي تدفعها الرياح معهم، وتجاوزت المجموعة إلى حيث يقفان، وجعلتهم يغلقون عيونهم جميعاً.

صمتت مجموعة المحاربين فيما كان تيموجن وياسوجي ينفضان الغبار عن نفسيهما ويتظاهران بأنهما يشاهدان أولخونوت للمرة الأولى. بقي وجه تيموجن خالياً من أي تعبير قدر الإمكان، رغم أنه لم يستطع إخفاء فضوله بسهولة. وكان كل شيء يبدو مختلفاً تماماً عمّا اعتاد عليه. كانت سلالة جيادهم ممتازة، وكان المحاربون أنفسهم يرتدون قمصاناً خفيفة رمادية اللون مع علامات ذهبية فوق سراويل بنية داكنة. وكانوا أنظف وأكثر أناقة نوعاً ما من قومه، وشعر تيموجن بالامتعاض يعتمل في نفسه، ووقع بصره على من كان بكل تأكيد قائدهم. كان الخيّالة الآخرون يتراجعون احتراماً له فيما كان يتقدم نحوهم، وينظرون إليه في انتظار تلقي الأوامر منه.

لاحظ تيموجن أن المحارب الشاب يمتطي فرسه كما يفعل كشيون تماماً، لكنه كان رجلاً ناضجاً تقريباً، ويرتدي رداء خفيفاً يكشف عن ذراعين بنيتين. كان لديه قوسان معلقان بسرجه، وفأس حادة. ولم يستطع تيموجن أن يشاهد سيوفاً مع أي من الخيّالة الآخرين، لكنهم كانوا يحملون أيضاً فؤوساً صغيرة، وتساءل عن كيفية استعمالها ضد رجال مسلحين. وخامره شكّ بأن سيفاً ماضياً يمكنه تحويل فؤوسهم إلى حطب للنار في ضربة أو اثنتين، ما لم يلقوا بها.

كان تفحّصه لأولخونوت يقابل بالمثل. ودفع أحد الرجال فرسه للاقتراب من ياسوجي، ومدّ يده المتسخة ليضع إصبعه على ملابسه.

لاحظ تيموجن أن والده يكاد لا يتحرك، لكن راحة يد الرجل كانت قد تخضبت باللون الأحمر قبل أن يستطيع وضع إصبعه على مقتنيات ياسوجي، فصرخ خيّال أولخونوت وانسحب للخلف، وتحول ألمه مباشرة إلى غضب.

قال الشاب الذي يرتدي الثوب الخفيف فجأة: "لقد خاطرت كثيراً في القدوم إلى هنا دون أتباعك يا خان الذئاب. هل أحضرت لنا أحد أبنائك الآخرين لتعلّمه أولخونوت الرجولة؟"

استدار ياسوجي إلى تيموجن، وظهر ذلك الوميض الغريب في عينيه مجدداً.

"هذا ابني تيموجن. يا تيموجن، هذا ابن خالك كوكي. لقد أصبت والده في وركه يوم التقيت والدتك؟"

وافق كوكي، وقال دون أن يبتسم: "ومازال يعرج في مشيته".

بدا أن فرسه تتحرك دون إشارة منه، واقترب كثيراً ليربت على كتف ياسوجي. فسمح الرجل العجوز له بذلك، رغم وجود شيء في هدوئه كان يدل على أنه لن يسمح بذلك. وارتاحت أسارير المحاربين الآخرين عندما

ابتعد كوكي. وكان قد أظهر أنه ليس خائفاً من الخان، وكان ياسوجي قد قبل أن لا سلطة له حيث تنصب أولخونوت خيامها.

"لا بد أنكما جائعان. لقد أحضر الصيادون حيوانات غرير الربيع السمينة هذا الصباح. هل تأكلان معنا؟"

أجاب ياسوجي عن كليهما: "سنأكل".

منذ تلك اللحظة، كانا يتمتعان بحقوق الضيوف، وانفرجت أسارير ياسوجي التي كانت توحي بأنه سيشهر سيفه. وكان خنجره قد اختفى داخل ردائه المكسو بالفرو. وبالمقابل، شعر تيموجن بأن معدته تنقبض. فلم يكن معجباً تماماً بشعور الوحدة الذي سينتابه وهو محاط بالغرباء، وحتى قبل أن يصلوا إلى خيام أولخونوت الخارجية، كان يراقب والده عن كثب، خائفاً من اللحظة التي سيبتعد فيها على فرسه مخلّفاً ابنه وراءه.

كانت خيام أولخونوت البيضاء المائلة إلى اللون الرمادي مختلفة الشكل عما يعرفه تيموجن. وكانت جيادهم ضمن حظائر كبيرة خارج تجمعات الخيام، ولم يستطع معرفة عددها لكثرتها. وبوجود الأبقار، والماعز، والأغنام المشغولة باجترار الأعشاب على كل تل قريب، استطاع أن يلاحظ أن أولخونوت يتمتعون ببحبوحة كبيرة، كما قال ياسوجي، وأن أعدادهم كبيرة. وشاهد تيموجن فتية صغاراً بمثل عمر أشقائه يتسابقون في كل أنحاء المخيم، وكان كل منهم يحمل قوساً صغيراً ويبدو أنه يصوّب إلى الأرض مباشرة، يصرخ ويعدو ثم يكرر ذلك. وكان كل ذلك غريباً جداً، وتمنّى لو أن كشيون وخاسار كانا هنا معه.

قفز ابن خاله كوكي عن صهوة جواده، وأعطى اللجام إلى امرأة صغيرة الحجم وجهها متغضن مثل ورقة. وترجل تيموجن وياسوجي في الوقت نفسه، وتم أخذ فرسيهما بعيداً لتحصلا على الماء والعلف. وتبعثر الخيّالة الآخرون عبر المخيم، وعادوا إلى خيامهم أو تجمعوا في مجموعات لتبادل

أطراف الحديث. لم يكن مألوفاً وجود الغرباء في القبيلة، وشعر تيموجن بمئات الأعين تنظر إليه فيما كان كوكي يقود الذئبين وسط قومه بخطوات واسعة إلى الأمام.

استشاط ياسوجي غضباً لأنه كان مجبراً على المشي خلف الشاب. وكان الخان يمشي ببطء شديد نتيجة لذلك، وتوقف لتفحّص أعمال عُقد الزينة على خيمة عائلة متواضعة. وكان كوكي مضطراً لانتظار ضيفيه عابساً، أو مجبراً على الوصول إلى مقصده بدونهما. وربما أحب تيموجن الطريقة الماكرة التي قلب فيها والده لعبة المواقع الصغيرة لصالحه. وبدلاً من الهرولة خلف الشاب، قاما بجولة على خيام أولخونوت. وتكلم ياسوجي حتى مع رجل أو اثنين من القوم، لكنه لم يسألهما شيئاً لا يستطيعان الإجابة عنه أبداً، ولم يوجِّه لهما سوى المديح أو ملاحظة بسيطة فقط. وحدّق أفراد أولخونوت بالذئبين، واستشعر تيموجن أن والده يستمتع بالتوترات بقدر ما يحب المعركة.

في الوقت الذي وقفا فيه خارج خيمة ذات باب أزرق لامع، كان كوكي قد استشاط غضباً منهما، رغم أنه لم يستطع تحديد السبب بدقة.

قال ياسوجي: "هل والدك بخير؟"

كان المحارب الشاب مجبراً على التوقف عندما كان على وشك الدخول إلى الخيمة، وأجاب كوكي: "إنه قوي كما كان دائماً".

أومأ ياسوجي برأسه، وقال: "أخبره أنني هنا". وألقى نظرة خالية من أي معنى على نسيبه.

تلوّن وجه كوكي قليلاً قبل أن يختفي داخل العتمة. ورغم وجود عيون وآذان في كل مكان حولهما، إلاّ أن تيموجن وياسوجي كانا وحدهما.

تمتم ياسوجي: "تقيّد بآداب المجاملة عندما ندخل. إنها ليست العائلات التي تعرفها. وسيلاحظون كل هفوة ويفرحون بها".

أجاب تيموجن وشفتاه بالكاد تتحركان: "أفهم ذلك. كم عمر ابن خالي كوكي؟"

أجاب ياسوجي: "ثلاث أو أربع عشرة سنة".

رفع تيموجن بصره باهتمام، وقال: "إذاً هو على قيد الحياة فقط لأنك أصبت والده في وركه وليس قلبه؟"

هزّ ياسوجي كتفيه لا مبالياً. "لم أكن أسدد على الورك. أسدّد لأقتل، لكن لم يكن لديَّ سوى لحظة لإطلاق سهمي قبل أن يرمي شقيق والدتك الآخر فأساً عليّ".

سأل تيموجن وهو يتلفت حوله: "هل هو هنا أيضاً؟"

ضحك ياسوجي بصوت خافت. "لا، إلاّ إذا استطاع إعادة رأسه إلى جسده".

أطبق الصمت على تيموجن فيما كان يفكّر بذلك. ولم يكن لدى أفراد أولخونوت سبب ليحبوا والده، وكان لديهم أسباب كثيرة ليكرهوه، ورغم ذلك يرسل أبناءه إليهم بحثاً عن زوجات لهم. وكانت الحقائق المؤكدة التي عرفها بين أبناء قومه تتلاشى، وشعر بالضياع والخوف. وعقد تيموجن العزم بجهد، وتحكم بمعالم وجهه حتى أصبحت خالية من أي تعبير. وكان بكتر قد استطاع تمضية سنته مع القبيلة، رغم كل شيء. ولن يقتلوه، وكان واثقاً تقريباً أنه يستطيع احتمال أي شيء آخر.

تمتم لوالده: "لماذا لم يخرج؟"

همهم ياسوجي، وتوقف عن التحديق ببعض شابات أولخونوت اللواتي كن يحلبن الماعز.

"إنه يجعلنا ننتظر لأنه يعتقد أن ذلك يهينني. لقد جعلني أنتظر عندما جئت مع بكتر قبل سنتين. ولا شك أنه سيجعلني أنتظر عندما آتي مع خاسار. الرجل مغفل، لكن كل الكلاب تنبح على ذئب".

قال تيموجن بصوت منخفض أكثر: "لماذا تزوره أولاً، إذاً؟"

"علاقة الدم تضمن لي السلامة بينهم. ورغم أن وجودي بينهم يزعجهم، لكنهم منحوني شرف الزواج بوالدتك. ألعب دوري، ويحظى أولادي بزوجات".

سأل تيموجن: "هل سترى خانهم؟"

هزّ ياسوجي رأسه، وقال: "إذا رآني سانسار، سيكون مرغماً على تقديم خيامه ونسائه لي طالما بقيت هنا. وسيذهب في رحلة صيد، مثلما سأفعل إذا جاء إلى الذئاب".

قال تيموجن، وهو يراقب وجه والده عن كثب: "هل تحبه؟"

"يتمتع الرجل بشرف يمنعه من التظاهر بأنه صديق عندما لا يكون كذلك. أحترمه. وإذا قررت الاستيلاء على قطعانه، سأسمح له بالاحتفاظ ببعض الأغنام وامرأة أو اثنتين، وربما حتى قوساً وعباءة جيدة تقيه البرد".

ابتسم ياسوجي عندما خطرت له الفكرة، وحدّق بالفتيات اللواتي يتولين رعاية قطعان الماشية. وتساءل تيموجن ما إذا كنّ يعرفن أن الذئب قد أضحى بينهن آنذاك.

كانت الخيمة من الداخل معتمة، وتفوح منها رائحة الضأن والعرق. وحالما أحنى تيموجن رأسه ليعبر من تحت عتبة الباب العليا، خطر له للمرة الأولى كم يكون المرء غير حصين عندما يدخل منزل عائلة أخرى. وربما كان للأبواب الصغيرة وظيفة أخرى تؤديها إلى جانب وقاية الداخل من الشتاء.

كان يوجد داخل الخيمة أسرّة وكراسٍ من الخشب المنقوش، مع موقد صغير في الوسط. وشعر تيموجن بخيبة أمل كبيرة من المنظر العادي داخل الخيمة، رغم أن عينيه الثاقبتين لاحظتا قوساً جميلاً على الجانب البعيد، وبجانبه بوق ووتر. وتساءل ما إذا كانت ستسنح له فرصة التدرّب على

رمي السهام مع أولخونوت. وإذا منعوا عنه الأسلحة فترة طويلة، ربما يفقد مهاراته التي عمل جاهداً لاكتسابها.

وقف كوكي وهو يحني رأسه احتراماً، لكنّ رجلاً آخر نهض عندما دخل ياسوجي لتحيته، وعندما وقف لم يصل سوى إلى مستوى كتفي خان الذئاب.

قال ياسوجي بجدّية: "أحضرت لك ابناً آخر يا إنك. إن أولخونوت أصدقاء الذئاب ويمنحوننا شرفاً عظيماً بتقديم زوجات قويات لنا".

نظر تيموجن إلى خاله بذهول. وكان غريباً أن يفكر بوالدته تترعرع في تلك الخيمة نفسها، وربما تمتطي خاروفاً، كما يفعل الأطفال أحياناً.

كان إنك رجلاً ممشوق القوام مثل رمح، ويلتصق جلده بعظامه، ولهذا يمكن رؤية خطوط جمجمته الحليقة بسهولة. وحتى داخل الخيمة المعتمة، كان جلده يلمع من الدهن، ولم تكن هناك سوى خصلة واحدة كثيفة من الشعر الأشيب تتدلى من فروة رأسه بين عينيه. ولم تكن النظرة التي رمق بها تيموجن تدل على الترحيب به، رغم أنه شدّ على يد ياسوجي بقوة، وقامت زوجته بتحضير الشاي اللاذع الطعم ليجددا حيويتهما.

سأل إنك فيما كان الصمت يلفهم: "هل شقيقتي بخير؟"

أجاب ياسوجي: "لقد أنجبت لي ابنة. وربما ترسل أحد أبناء أولخونوت لي ذات يوم".

أومأ إنك برأسه، رغم أنه كان واضحاً أن الفكرة لا تروق له.

سأل ياسوجي: "هل دخلت الفتاة التي وجدتها لابني البكر فترة الحيض؟"

كشف إنك عن أسنانه من فوق كوب الشاي، وأجاب: "تقول والدتها إنها لم تحض بعد. ستأتي عندما تكون جاهزة". وبدا على وشك أن يتكلم مجدداً، ثم أغلق فمه بإحكام، وتغضنت التجاعيد حول شفتيه.

جثم تيموجن على حافة السرير، ولاحظ نوعية الأغطية الرائعة. وتذكر ما قاله والده، فتناول كوب الشاي الذي تم تقديمه له باليد اليمنى، فيما كانت يده اليسرى تضم مرفقه الأيمن بأسلوب تقليدي. ولم يكن أحد لينتقد آدابه أمام أولخونوت.

اعتدلا في جلستيهما، وشربا السائل بصمت. وبدأ تيموجن يسترخي.

سأل إنك ياسوجي بمكر: "لماذا لم يلقِ ابنك التحية عليّ؟"

تسمّر تيموجن في مكانه عندما تقطب جبين والده. ووضع كوب الشاي جانباً، ونهض مرة أخرى. ووقف إنك معه، وكان تيموجن سعيداً لاكتشاف أنه يعادل الرجل طولاً.

قال: "تشرفت بلقائك يا خالي. أنا تيموجن، الابن الثاني لخان الذئاب. ترسل لك والدتي تحياتها. هل أنت بخير؟"

أجاب إنك: "أنا بخير أيها الفتى. أرى أنك بحاجة لتتعلم آداب مجاملة قومنا".

تنحنح ياسوجي قليلاً، وأغلق إنك فمه على ما كان يوشك أن يخرج منه. ولم يخطئ تيموجن في ملاحظة وميض الغضب في عيني الرجل العجوز. وكان يغوص في عالم الراشدين الماكر، وبدأ مرة أخرى يخاف اللحظة التي سيتركه فيها والده خلفه.

تمتم ياسوجي: "كيف وركك؟"

ضاق فم إنك الرقيق عندما ابتسم رغماً عنه، وأجاب: "لا أفكر فيه إطلاقاً".

لاحظ تيموجن أنه يتحرك بصلابة عندما كان يجلس على كرسيه مرة أخرى وشعر بسعادة خاصة. ولم يكن عليه أن يحب هؤلاء الناس الغرباء. وفهم أن ذلك كان اختباراً أيضاً، مثل كل شيء آخر يُخضع ياسوجي أبناءه له، وسيتحمّل.

سأل ياسوجي: "هل توجد زوجة له، في خيام القوم؟"

كشّر إنك، وأفرغ ما تبقى من كوب الشاي في فمه، وأخرج الرواسب لإعادة استعمالها مجدداً.

"هناك عائلة لم تستطع إيجاد ند لابنتها. وسيكونون سعداء لجعلها تتناول لحم وحليب شخص آخر".

أومأ ياسوجي برأسه. "سأرى والدها قبل أن أغادركم. ينبغي أن تكون قوية وقادرة على حمل الأطفال للذئاب. من يعرف، ربما تكون أم القبيلة يوماً ما".

أومأ إنك برأسه، وارتشف السائل اللاذع الطعم، وغاص في تفكير عميق. لم يكن تيموجن يريد شيئاً أكثر من الابتعاد عن رائحة الرجل البغيضة وخيمته المعتمة، لكنه أرغم نفسه على البقاء ساكناً، واستمع إلى كل كلمة يقولها. لقد كان مستقبله معلقاً بتلك اللحظة، رغم كل شيء.

قال إنك: "سأجلبها لك". لكن ياسوجي هزّ رأسه معترضاً.

"علاقة الدم الوثيقة تأتي من الأصل الطيب يا إنك. سأرى والديها قبل أن أغادر".

أومأ إنك برأسه على مضض، وقال: "حسناً. ينبغي أن أتبول على كل حال".

نهض تيموجن، وتراجع للخلف فيما كان خاله يخرج من الباب. واستطاع سماع صوت رذاذ بوله مباشرة. ضحك ياسوجي بصوت خافت جداً، لكنه لم يكن صوتاً تألفه الأذن. وفي تواصل صامت، مدّ ياسوجي يده وأمسك بتيموجن من مؤخرة عنقه، ثم خرجا إلى ضوء الشمس الساطع.

بدا أن أفراد قبيلة أولخونوت يحملون فضولاً نهماً حول زائريهما. وحالما تأقلمت عينا تيموجن مع الضوء، شاهد العشرات منهم يتجمعون حول خيمة إنك، ورمقهم ياسوجي بنظرة منه. ومشى إنك عبر الحشود، وأبعد

كلبين أصفرين عن طريقه بالعصا التي يحملها. ومشى ياسوجي الهوينى خلفه، ونظر في عيني ابنه للحظة. وقابل تيموجن النظرة ببرود حتى أومأ ياسوجي برأسه، يطمئنه بطريقة ما.

كانت حالة إنك أكثر وضوحاً عندما مشيا خلفه، وكشفت كل خطوة إصابته القديمة. ولدى شعوره بأنهما يراقبانه، تورّد وجهه خجلاً فيما كان يقودهما عبر الخيام المنتشرة بكثافة نحو أطراف المخيم. وتبعهم أفراد أولخونوت وهم يثرثرون غير مبالين بإظهارهم اهتمامهم بالضيفين.

سمعوا وقع حوافر خلف مجموعتهم الصغيرة، وتلهف تيموجن للنظر إلى الوراء. شاهد والده يختلس النظر، وكان يعرف أن الخان سيشهر سيفه في حال الخطر. ورغم أن أصابعه انعقدت على مقبض السيف، إلاّ أن ياسوجي ابتسم وحسب. وأصغى تيموجن إلى وقع الحوافر يقترب أكثر وأكثر حتى اهتزت الأرض تحت أقدامهم.

في اللحظة الأخيرة الممكنة، تحرك ياسوجي بسرعة، واندفع دون أن يلحظه أحد ليمسك بالفارس. وجرت الفرس بعيداً، دون لجام أو سرج. وبعد أن تحررت من حملها، ركلت بقائمتيها مرتين، ثم هدأت، وخفضت رأسها تقضم الأعشاب الجافة.

استدار تيموجن حول نفسه عندما تحرك والده، وشاهد الرجل الضخم يُنزل طفلاً إلى الأرض كما لو أنه عديم الوزن.

ربما تكون فتاة، لكن لم يكن من السهل التأكد من ذلك. وكان الشعر قصيراً والوجه أسود تقريباً من الأوساخ. وقاومت بين يدي ياسوجي عندما وضعها أرضاً، تبصق وتولول، فضحك الأخير، واستدار إلى إنك وقد رفع حاجبيه.

قال ياسوجي: "أرى أن أولخونوت يجعلونهن متوحشات".

تلوّن وجه إنك مما يفترض أن يكون موقفاً مسلياً. وراقب الفتاة الصغيرة

المتسخة تهرب بعيداً وهي تصرخ ذعراً. وقال: "لنتابع طريقنا إلى والدها". وألقى نظرة على تيموجن قبل أن يتقدم.

حدّق تيموجن بالشكل الهارب، متمنياً لو أنه ألقى نظرة أفضل.

قال بصوت عالٍ: "هل هذه هي؟" لكنّ أحداً لم يجبه.

كانت جياد أولخونوت في الخارج عند حافة مخيم القبيلة، تصهل وتدفع برؤوسها في أعشاب الربيع بإثارة. وكانت آخر الخيام تقع على قطعة من الأرض المليئة بالغبار قرب الحظائر، خالية من أي زخارف. وحتى الباب كان من الخشب الذي يفتقر إلى الطلاء، مما يشير إلى أنه ليس لدى أصحاب الخيمة ما يمتلكونه سوى حياتهم ومكانتهم في القبيلة. تنهد تيموجن من فكرة قضاء سنته مع مثل تلك العائلة الفقيرة. وكان يأمل على الأقل بأن يحصل على قوس للصيد. ومن منظر الخيمة، كان يبدو أن حالة عائلة زوجته يرثى لها، وأنهم قد لا يستطيعون حتى إطعامه.

كان وجه ياسوجي خالياً من التعابير، وحاول تيموجن جاهداً تقليده أمام إنك. كان عاقد العزم حينها على أنه لن يحب الخال النحيل الذي لم يرحب بهما بحرارة. ولم يكن ذلك صعباً.

خرج والد الفتاة للقائهم، مبتسماً ومنحني الرأس. وكانت ملابسه سوداء تعلوها الأوساخ، طبقة فوق طبقة، واعتقد تيموجن أنه سيصبح جلداً على عظم بغض النظر عن الموسم. وكان فمه خالياً من الأسنان عندما ابتسم، راقبه تيموجن فيما كان يحك بقعة داكنة في شعره، ويبعد بعض الطفيليات غير المعروفة بأصابعه. وكان صعباً أن لا يثور تيموجن بعد أن قضى كل حياته في الخيمة التي حافظت والدته على نظافتها دائماً. وكانت رائحة البول نفاذة في الهواء، ولم يستطع تيموجن أن يشاهد مرحاضاً في الجوار.

أمسك بيد الرجل الداكنة عندما مدّها له، ودخل الخيمة لتناول كوب آخر من الشاي اللاذع الطعم، واتجه يساراً بعد والده وإنك. وتراجعت

معنوياته أكثر لرؤية أسرّة الخشب المحطمة وافتقارها للطلاء. وكان هناك قوس قديم على الجدار، لكنه لم يكن ثميناً وبدا عليه كثرة التصليحات. أيقظ الرجل العجوز زوجته بصفعة قاسية، وأرسلها لتغلي الماء على الموقد. كان واضحاً أنه يصبح عصبي المزاج بحضور الغرباء، وأنه يتمتم لنفسه باستمرار.

لم يستطع إنك إخفاء مزاجه المرح. وابتسم عندما شاهد اللباد المكشوف والخزانة الخشبية في حال يرثى لها من كثرة الإصلاح.

قال للمرأة التي قطبت جبينها قليلاً قبل أن تسكب لهم الشاي اللاذع الطعم في أوعية قليلة العمق: "تشرفنا بدخول منزلك يا شريا". وأصبح مزاج إنك المرح أكثر وضوحاً عندما توجّه بالحديث إلى زوجها: "أحضر ابنتك يا شولوي. يريد والد الفتى رؤيتها".

أظهر الرجل الضعيف الغريب لثته الخالية من الأسنان مجدداً، وخرج من الخيمة وهو يسحب سرواله الذي لا يوجد له حزام بعد كل خطوتين. وسمع تيموجن صوتاً عالياً يصرخ، ورد الرجل العجوز المقتضب، لكنه تظاهر بأنه لم يسمعه، وأخفى ذعره بتجرع كوب الشاي وشعر بأن مثانته تمتلئ كلّها.

أعاد شولوي الفتاة المتسخة إلى الداخل، وهي تقاوم كل الطريق. وتحت ناظري ياسوجي، ضربها ثلاث مرات بسرعة، على الوجه والساقين. وتلألأت الدموع في عينيها، رغم أنها قاومتها بالتصميم ذاته الذي قاومت به والدها.

قال إنك بمكر: "هذه بورت. أنا واثق أنها ستكون زوجة جيدة ووفية لابنك".

قال ياسوجي متشككاً: "تبدو كبيرة بعض الشيء".

أفلتت الفتاة من قبضة أبيها، وذهبت لتجلس في الطرف الآخر من

الخيمة في أبعد نقطة استطاعت الوصول إليها.

هزّ إنك كتفيه غير مبالٍ. "إنها في الرابعة عشرة، لكنها لم تحض بعد. ربما لأنها نحيلة. هناك آخرون يطلبون يدها، بالطبع، لكنهم يريدون فتاة هادئة بدلاً من فتاة تشتعل حيوية. ستكون أماً رائعة للذئاب".

التقطت الفتاة المعنية حذاء ورمته على إنك. وكان تيموجن قريباً بما فيه الكفاية ليلتقطه في الهواء، فحدّقت به ساخطة.

مشى ياسوجي عبر الخيمة، ورأت فيه بورت شيئاً دفعها للهدوء. وقد كان ضخماً بالنسبة لقومه وأكثر ضخامة بالنسبة لأولخونوت، ذوي الأجساد الرقيقة. ومدّ يده، ولمسها برقة تحت ذقنها، ورفع رأسها.

قال وهو ينظر في عينيها: "سيحتاج ابني إلى امرأة قوية. أعتقد أنها ستكون جميلة عندما تكبر".

كسرت الفتاة الصغيرة حاجز صمتها غير الطبيعي، وحاولت صفعه على يده، إلاّ أنه كان أسرع منها كثيراً. ابتسم ياسوجي، وأومأ برأسه.

"لقد أحببتها. أقبل الخطوبة".

أخفى إنك امتعاضه خلف ابتسامة باهتة.

قال: "أنا سعيد لأنك وجدت زوجة تناسب ابنك".

وقف ياسوجي، ومدّ جسده الذي خيّم عليهم جميعاً.

"سأعود لاصطحابه بعد سنة يا إنك. علّمه الانضباط، لكن تذكّر أنه يوماً ما سيصبح رجلاً وقد يعود لتسوية ديونه مع أولخونوت".

لم يكن إنك وشولوي غافلين عن التهديد، وأمسك الأول بفكّه بدلاً من أن يجيب، قبل أن يستعيد توازنه.

"الحياة صعبة في خيام أولخونوت. سنعيد لك محارباً بالإضافة إلى زوجة له".

أجاب ياسوجي: "لا أشك في ذلك".

انحنى كثيراً حتى يستطيع المرور عبر الباب الصغير، وأدرك تيموجن، وفي رعب مفاجئ، أن والده يغادر المكان. وبدا أن الرجل العجوز سيستغرق وقتاً طويلاً ليلحق به، لكنه أرغم نفسه على الجلوس فقط حتى غادرت الزوجة النحيلة، واستطاع المغادرة بعدها. وفي الوقت الذي وقف فيه خارجاً تطرف عيناه من ضوء الشمس، كانت فرس والده جاهزة للانطلاق، فامتطاها ياسوجي بسهولة، ونظر إليهم جميعاً. ووجدت نظرته الثابتة تيموجن أخيراً، لكنه لم يقل شيئاً، ودفع بكعبيه بعد لحظة على جانبي الفرس وانطلق مبتعداً.

حدّق تيموجن بوالده فيما كان ينطلق مبتعداً، عائداً إلى أشقائه، ووالدته، وكل ما كان يحب. ورغم معرفته بأن والده لن يُقدم على ذلك، إلاّ أنه كان يأمل بأن يلقي ياسوجي نظرة إلى الخلف قبل أن يغيب عن الأنظار، وشعر بالدموع تترقرق في عينيه، فسحب نفساً عميقاً لمنعها، وكان يعرف أن إنك سيكون سعيداً لرؤية ضعفه.

راقب خاله مغادرة ياسوجي، ثم أغلق أحد منخريه بإصبعه، ونفخ محتويات الآخر على الأرض المليئة بالغبار.

قال: "إنه مغفل متعجرف، ذلك الشخص، مثل كل الذئاب".

استدار تيموجن سريعاً بطريقة فاجأته، فامتعض وجه إنك.

"وجراؤه أسوأ من والدهم. حسناً، إن شولوي يضرب جراءه بالقوة نفسها التي يضرب بها بناته وزوجته. إنهم جميعاً يعرفون مكانتهم، أيها الفتى. وستعرف مكانتك فيما أنت هنا".

أشار إلى شولوي، وأمسك الرجل الصغير الحجم بذراع تيموجن بقبضة قوية مباغتة. وابتسم إنك من تعبير وجه الفتى.

بقي تيموجن صامتاً، وكان يعرف أنهم يحاولون إخافته. وبعد تريث، استدار إنك ومشى بعيداً، وكان الغضب ظاهراً على وجهه. شاهد تيموجن

أن خاله يعرج بشكل أسوأ عندما لا يكون ياسوجي موجوداً لرؤيته. وفي وسط مخاوفه ووحدته، منحته تلك الفكرة بعض الراحة. كان يعرف أنهم إذا عاملوه بلطف، ربما لن يصبح قوياً بما فيه الكفاية. ونظراً للوضع آنذاك، كانت الكراهية العارمة التي يشعر بها في داخله مريرة مثل طعم دم الفرس الذي تجرّعه في معدته.

لم ينظر ياسوجي للخلف عندما كان يتخطى آخر خيّالة أولخونوت. وكان قلبه يؤلمه لتركه ابنه الغالي في أيدي ضعفاء مثل إنك وشولوي، لكن حتى توجيه بعض الكلمات الطيبة إلى ولده كان سيعد انتصاراً لأولئك الذين ينتظرون مثل تلك الأشياء. عندما كان يمشي وحيداً عبر السهل، والمخيم يبتعد خلفه، سمح لابتسامة نادرة بأن تعلو شفتيه. لقد كان تيموجن يتمتع بصلابة أقوى من الآخرين، وربما أكبر مما يتمتع به أشقاؤه الآخرون. كان ياسوجي يعرف أن بكتر يرتد للانطواء على نفسه، وفكّر بأن تيموجن ربما يفاجئ أولئك الذين يعتقدون أنهم يستطيعون تعذيب ابن الخان بسهولة. على كل حال، سيبقى على قيد الحياة تلك السنة وسيكون الذئاب أقوى نتيجة تجاربه والزوجة التي سيصحبها إلى الديار. تذكر ياسوجي القطعان الكبيرة التي تتجول حول خيام قبيلة زوجته، ولم يكن قد وجد ضعفاً حقيقياً في دفاعاتهم، لكن إذا كان الشتاء قاسياً، ربما يأتي اليوم الذي ينطلق فيه بينهم مرة أخرى، والمحاربون إلى جانبه. وتهللت أساريره من فكرة رؤية إنك يهرب من أمام أتباعه. ولن تكون هناك ابتسامات ونظرات ماكرة من الرجل النحيل الرقيق عندها. ودفع بكعبيه على جانبي فرسه لتسرع عبر السهل الخالي، وامتلأ خياله بأفكار سارة عن النار والصراخ.

نهض تيموجن من نومه فزعاً عندما شدّته يدان بعنف عن مفرش القش نحو الأرض الخشبية. كانت الخيمة تغرق في ظلام دامس منعه من رؤية حتى أطرافه، وكان كل شيء غير مألوف بالنسبة له. كان يستطيع سماع شولوي يتمتم أثناء تحركه في الجوار، وافترض أن الرجل العجوز قد أيقظه. تملّك تيموجن شعور غامر بالكراهية نحو والد بورت، وزحف على أطرافه ثم كظم صرخة ألم عندما تعثّر بعقبة غير منظورة. لم يكن الفجر قد بزغ بعد، وكان الصمت مطبقاً على مخيم أولخونوت. ولم يكن يريد أن يدفع الكلاب للنباح. كان القليل من الهواء البارد سيدفع النعاس بعيداً عنه، كما اعتقد، وهو يتثاءب. ووصل إلى المكان الذي تذكر أنه شاهد فيه دلواً في الليلة السابقة، لكنّ يديه لم تمسكا بشيء.

قال شولوي من مكان ما قريب: "لم تستيقظ بعد؟"

استدار تيموجن نحو الصوت، وشدّ على قبضتيه في الظلام. كان هناك كدمة على طول جانب وجهه حيث ضربه الرجل العجوز في الأمسية السابقة. كانت تلك الصفعة قد تسببت بخروج دموع مخجلة من عينيه، وفكّر بأن إنك قد قال الحقيقة عن الحياة في ذلك المنزل البائس. كان شولوي يستعمل يديه الهزيلتين لتطبيق أوامره، سواء كان يبعد كلباً عن طريقه، أو يدفع بابنته أو زوجته لتنفيذ بعض الواجبات. وبدا أن الزوجة السليطة قد تعلمت أن تلوذ بالصمت مقطبة الجبين، لكن بورت كانت قد اختبرت قبضات والدها عدّة مرات في تلك الأمسية نفسها لمجرد اقترابها كثيراً من المكان الذي يشغله داخل الخيمة. فكّر تيموجن بأن جسدها مغطى بالكدمات تحت الملابس القديمة المتسخة. وتطلب الأمر من شولوي توجيه صفعتين قويتين له قبل أن يخفض رأسه أيضاً. كان يشعر بأنها تراقبه بعينيها آنذاك، وتنظر إليه بازدراء، لكن ما الذي يستطيع فعله؟ يقتل

الرجل العجوز؟ لم يكن يعتقد أنه سيعيش طويلاً بعد أن يطلق شولوي أولى صرخاته طلباً للمساعدة، وخصوصاً أنه محاط ببقية القبيلة. وفكّر بأنهم سيكونون سعداء جداً في تقطيعه إذا منحهم سبباً لذلك. كانت آخر فكرة خطرت له قبل أن ينام في الليلة السابقة تدور حول صورة جميلة عن سحب شولوي الملوث بالدماء خلف فرسه، لكن ذلك لم يكن سوى وهم نتيجة شعوره بالإذلال. وذكّر نفسه بأن بكتر تجاوز تلك السنة، وتنهد متسائلاً كيف استطاع الثور الكبير ضبط أعصابه.

سمع صرير المفصلات عندما فتح شولوي الباب الصغير الذي سمح بدخول ضوء النجوم، شاهد تيموجن الموقد، وغض الطرف عن جسدي بورت ووالدتها النائمتين. وفي مكان ما قريب، كان هناك خيمتان تضمان أبناء شولوي وزوجاتهم وأطفالهم المتسخين. وكانوا قد تركوا الرجل العجوز قبل سنوات، ولم يبقَ لديه سوى بورت فقط. ورغم أساليبه القاسية، إلاّ أن شولوي كان خاناً في منزله، ولم يكن تيموجن يستطيع فعل شيء سوى خفض رأسه وتجنب أكبر عدد ممكن من اللكمات والصفعات.

ارتعش جسده عندما خرج من الخيمة، وشبك ذراعيه فوق ردائه السميك حتى أضحى كمن يحضن نفسه. كان شولوي يفرغ مثانته مجدداً، كما كان يفعل كل ساعة أو نحوها في الليل. كان تيموجن قد استيقظ أكثر من مرة عندما تخطاه شولوي، وتساءل لماذا سحبه من تحت الأغطية هذه المرة. وشعر بألم شديد في معدته من الجوع وكان يأمل بشيء ساخن يبدأ به يومه. ومع القليل من الشاي الدافئ، كان واثقاً أن يديه ستتوقفان عن الارتعاش، لكنه كان يعرف أن شولوي سيضحك ويسخر منه إذا طلب ذلك قبل أن يتم إشعال الموقد.

كانت القطعان أشكالاً داكنة تحت ضوء النجوم، فيما كان تيموجن يفرغ مثانته على التراب، ويراقب البخار المنبعث منه. كانت الليالي ما تزال باردة

في الربيع، ولاحظ وجود قشرة من الجليد على الأرض. وبما أن الباب يطل على الجنوب، لم يجد مشكلة في إيجاد الشرق، وبحث عن إشارة تدل على بزوغ الفجر، ولم تكن هناك إشارة على ذلك، وكان يأمل ألاّ تكون من عادة شولوي أن ينهض في مثل تلك الساعة المبكرة كل يوم. وربما يكون الرجل دون أسنان، لكنه كان ممشوقاً وقوياً مثل عصا قديمة، وكان لدى تيموجن شعور دفين بأن اليوم سيكون طويلاً وقاسياً.

وحالما انتهى تيموجن مما كان يفعله، شعر بقبضة شولوي على ذراعه، تضغط عليه. كان الرجل العجوز يحمل دلواً خشبياً، وحالما أخذه تيموجن، التقط شولوي دلواً آخر ودفع به في يد الفتى الخالية.

قال: "املأهما، وعد بسرعة أيها الفتى".

أومأ تيموجن برأسه، واستدار نحو خرير مياه النهر القريب. كان يتمنى وجود خاسار وكشيون معه. وكان يفتقدهما آنذاك، ولم يكن صعباً تخيّل المشهد الهادئ الذي عرفه طوال حياته عندما كانوا يستيقظون في الخيمة وهولن تهزّهم لتبدأ واجباتها اليومية. كان الدلوان ثقيلين عندما عاد بهما، لكنه أراد أن يأكل ولم يكن يشك بأن شولوي سيجعله يتضور جوعاً إذا منحه الفرصة.

كان الموقد مشتعلاً عندما عاد، وكانت بورت قد اختفت من تحت أغطيتها. وكانت شريا، زوجة شولوي النحيلة المتجهمة، تثير جلبة حول الموقد، وتحرك النار قبل أن تغلق الباب بقوة. لم تكن قد تكلمت معه إطلاقاً منذ وصوله. نظر تيموجن متعطشاً إلى قدر الشاي، لكن شولوي دخل الخيمة في الوقت ذاته الذي وضع فيه الدلوين أرضاً، وأمسكه بإصبعين من أعلى ذراعه وقاده إلى الخارج حيث الظلام الدامس.

"ستتناول الطعام لاحقاً، عندما تشرق الشمس. هل تعرف جز الصوف؟"

بدأ تيموجن القول: "لا، لم يسبق لي أن...".

كشّر شولوي: "هذا لا ينفع معي أيها الفتى، هل تعرف ذلك؟ أستطيع حمل الدلاء بنفسي. وعندما ينبلج الفجر، ينبغي أن تكون قد جمعت روث الأغنام للموقد. هل تعرف رعي الماشية؟"

أجاب تيموجن بسرعة: "أتقنت ذلك". وكان يأمل بأن يحصل على فرسه ليرعى أغنام وماشية أولخونوت. كان ذلك على الأقل سيبعده عن عائلته الجديدة لفترة من الوقت كل يوم. شاهد شولوي تلهفه، وتكوّر فمه الخالي من الأسنان مثل قبضة رطبة متسخة.

"تريد العودة إلى والدتك أيها الفتى، أليس كذلك؟ هل تخاف القيام بالقليل من الأعمال المجهدة؟"

هزّ تيموجن رأسه، وقال: "أستطيع دبغ الجلود، وجدل الحبال لصنع اللجام والسروج، وأستطيع نحت الخشب، والحوافر، والعظام". ووجد نفسه يتورّد غضباً، رغم أنه كان يشك بأن شولوي يستطيع رؤية ذلك في الظلام، وسمع زفيراً عالياً من الرجل العجوز تعبيراً عن سخطه.

"لا أريد سرجاً لحصان لا أملكه، أليس كذلك؟ بعضنا لم يولد على الحرير والفراء".

شاهد تيموجن يد الرجل العجوز تمتد لتصفعه وتجعل رأسه يدور. لم يكن شولوي مغفلاً، وضربه حتى وقع على قطعة داكنة من الأرض حيث كان البول قد أزال الجليد. وفيما كان يكافح للوقوف، ضرب شولوي أضلاعه، وفقد تيموجن أعصابه، وقفز بسرعة ووقف يتمايل غير واثق فجأة مما سيفعله. كان الرجل العجوز يبدو مصمماً على إذلاله في كل كلمة يقولها، ولم يستطع أن يفهم ما يريده.

أطلق شولوي صفيراً تعبيراً عن غضبه ثم بصق، ووضع أصابعه القاسية على تيموجن الذي تراجع للخلف عاجزاً تماماً عن القيام برد فعل يتناسب وعذابه. تكوّر وحمى نفسه من سلسلة من الضربات، لكنّ بعضها تركت

آثاراً. كانت كل غرائزه تطلب منه الرد، لكنه لم يكن واثقاً ما إذا كان شولوي سيشعر بضرباته. وبدا كما لو أن الرجل العجوز قد كبر وأصبح مخيفاً في الظلام، ولم يستطع تيموجن أن يتخيل كيف يستطيع ضربه بقوة تكفي لإيقاف الهجوم.

صرخ قائلاً: "كفى، لا مزيد من الضربات".

ضحك شولوي بصوت خافت، وأمسك بطرف رداء تيموجن بقبضته القوية وهو يلهث كما لو أنه قد جرى ميلاً في حر الظهيرة.

"لقد ضربت جياداً بدت أفضل منك أيها الفتى، وتتمتع بروح معنوية أفضل أيضاً. لست أفضل مما كنت أعتقد".

كانت هناك نغمة ازدراء في صوته، وأدرك تيموجن أنه يستطيع رؤية ملامح الرجل العجوز. كانت أولى أشعة الشمس قد بزغت من الشرق، وبدأت القبيلة تستيقظ أخيراً. شعر كلاهما بوجود من يراقبهما في الوقت نفسه، وعندما استدارا، كانت بورت هناك، تحدّق.

كان احمرار تيموجن خجلاً أشد ألماً من الضربات الحقيقية التي تلقاها. وشعر بأن يدي شولوي أقل تأثيراً من تفحص بورت الصامت له، وبدا أن الرجل العجوز مرتبكٌ نوعاً ما. ودون أي كلمة أخرى، دفع بتيموجن جانباً، واختفى داخل ظلمة الخيمة الكريهة الرائحة.

شعر تيموجن بقطرة من الدم تنزل من أنفه إلى شفته العليا، فمسحها بحركة غاضبة من يده، منزعجاً من كل شيء. بدا أن الحركة أفزعت ابنة شولوي التي أدارت له ظهرها، وهربت بعيداً. بقي تيموجن وحيداً لبضع لحظات ثمينة، وشعر بالضياع والبؤس. لم تكن عائلته الجديدة، مما شاهده حتى ذلك الوقت، أفضل من الحيوانات إلاّ بقليل، وكانت تلك بداية اليوم الأول فقط.

جرت بورت بين الخيام تتفادى العوائق، وهربت من كلب نبح عليها

فيما كان يطاردها. وبعد عدّة جولات مطاردة سريعة، تركها الكلب لينبح ويزمجر بغضب ظاهر. كانت بورت تنبض حيوية عندما تجري، كما لو أنه لا يوجد شيء في العالم يستطيع لمسها. وعندما كانت تقف ساكنة بلا حراك، كان والدها يستطيع الوصول إليها بيديه، أو تنال ضربة من عصا والدتها الفضية على ظهرها. كانت ما تزال تحمل آثار الضرب العنيف الذي تعرضت له لأنها أراقت دلواً من اللبن البارد قبل يومين.

كانت بورت تلتقط أنفاسها بصعوبة، وتمنت أن تبقى الشمس ثابتة في مكانها في الأفق البعيد. وإذا بقيت القبيلة نائمة، يمكن أن تجد بعض الهدوء والسعادة بعيداً عن نظراتهم. كانت تعرف ما يقولونه عنها، وكانت هناك أوقات تمنت فيها أن تكون مثل باقي الفتيات في القبيلة، حتى أنها جربت ذلك عندما نادتها أمها مرة. وكان يوماً واحداً كافياً لتتعب من الخياطة والطهو وتعلم كيفية تخمير الشراب الأسود للمحاربين. أين المتعة في ذلك؟ حتى أن ظهرها كان يبدو مختلفاً عن الفتيات الأخريات، بشكلها النحيل ولا شيء سوى نهدين صغيرين يفسدان لوح الأضلاع الذي يشكل صدرها. كانت أمها تشتكي من أنها لا تأكل ما يكفي لتنمو، لكن بورت كانت قد سمعت رسالة مختلفة. ولم تكن تريد صدراً كبيراً مثل ضرع بقرة كبير يتدلى للأسفل حتى يستطيع رجل الحصول على الحليب منه. وكانت تريد أن تكون سريعة مثل الظبي ونحيلة مثل كلب بري.

كانت تطلق زفرات قوية أثناء جريها، ويتملكها فرح غامر من الإحساس بالهواء يلفح وجنتيها. كان والدها قد منحها لجرو الذئب دون أدنى تردد. وكان الرجل العجوز غبياً جداً ليسألها ما إذا كانت تريده أو لا! ولم يكن ليهتم بأي حال. وكانت تعرف أن والدها يستطيع أن يكون قاسياً جداً، وجُل ما تستطيع فعله هو الهرب والاختباء منه، كما فعلت آلاف المرات من قبل. كانت هناك نساء في أولخونوت يسمحن لها بقضاء الليلة في خيامهن

إذا كان شولوي العجوز غاضباً جداً. وكانت تلك أوقاتاً عصيبة إذا كان رجالهن في الخيام. كانت بورت تستمع دائماً إلى كلمات التملق والإعجاب التي تعني أنهم سيأتون إليها بعد حلول الظلام. ووجدت نفسها في موقف مماثل ذات مرة، ولن تسمح بحدوثه مجدداً، ما دامت تحمل سكينها الصغيرة، على الأقل.

تابعت الجري حتى اجتازت خيام القبيلة الأخيرة، وقررت الوصول إلى النهر دون أن تعي ما تفعل. وكشف ضوء الفجر سطح الماء الأسود الذي يتلوى مثل الأفعى، وشعرت بأنها لا تزال تستطيع الإسراع. وربما كانت تستطيع القفز واجتياز النهر دون أن تقع فيه، مثل مالك الحزين عندما يطير. ضحكت من فكرة الجري مثل تلك الطيور الثقيلة، والدفع بقدميها وأجنحتها في الهواء. وصلت إلى ضفة النهر، وأطلقت العنان لنفسها وقفزت. وارتفعت في الهواء، وخلال لحظة تباهي، رفعت بصرها إلى الشمس المشرقة واعتقدت أنها لن تسقط للأسفل. ونزلت قدماها على الحافة البعيدة لضفة النهر، ووقعت على الأعشاب التي كانت ما تزال قاسية من الصقيع، التقطت أنفاسها بصعوبة على وقع رحلاتها الخيالية. وكانت تحسد الطيور التي تستطيع التحليق عالياً بعيداً عن الأرض تحتها. وفكّرت كم أنها سعيدة بالحرية، ونظرت إلى السماء بحثاً عن أشكال الطيور الداكنة التي تطير نحو ضوء الفجر. لم يكن هناك شيء يمكن أن يجعلها أكثر سعادة من القدرة على فرد جناحيها وترك والدتها ووالدها خلفها مثل بقعتين بشعتين على الأرض. كانت واثقة أنهما سيكونان صغيرين تحتها، مثل الحشرات. كانت ستطير كل المسافة إلى الشمس، وسيرحب بها أب السماء، حتى يرفع هو أيضاً يده ضدها، وسيكون عليها أن تطير مجدداً. لم تكن بورت واثقة بشأن أب السماء. من خلال تجربتها، كان الرجال جميعهم يشبهون الأحصنة التي شاهدتها تعتلي أفراس أولخونوت. وتكون هذه الأحصنة

توّاقة قبل وخلال الفعل، مع أعمدتها الطويلة تتأرجح تحتها. وبعد الانتهاء، تجترّ العشب كما لو أن شيئاً لم يحدث، لم تكن ترى رقة في ذلك. ولم يكن ذلك سراً بعد العيش في الخيمة نفسها مع والديها طوال حياتها. ولم يكن والدها يبالي بوجود ابنته إذا قرر سحب شريا إليه خلال الليل.

كانت بورت تزفر الهواء من فمها وهي مستلقية على الأرض الباردة. وإذا كانوا يفكرون بأن جرو الذئب سيعتليها بالطريقة نفسها، فإنها ستبتر مكمن رجولته. وتخيلت أنها تحمله بعيداً معها مثل دودة حمراء، وأنه سيكون مضطراً لملاحقتها والمطالبة باستعادته. كانت الصورة مسلية، وقهقهت لنفسها فيما كانت أنفاسها تهدأ أخيراً. كانت القبيلة تستيقظ، وكان هناك عمل ينبغي إنجازه حول الخيام ومع الماشية. وكانت تعتقد بأن والدها سيستعمل قبضاته بقوة مع ابن الخان، لكن ينبغي عليها أن تبقى قريبة في حال كان يريد منها العمل على دبغ الجلود أو تحضير الصوف. وسيكون الجميع مشغولاً حتى يتم جزّ كل الخراف، وغيابها عنهم سيعني جولة أخرى من الضرب بالعصا إذا لم تعمل خلال النهار.

جلست على العشب، وتناولت سويقاً لتمضغه. تيموجن. قالتها بصوتٍ عالٍ، واستشعرت الطريقة التي يتحرك بها فمها. وكان الاسم يعني "رجل الحديد"، وهو اسم جيد إن لم تكن قد رأته يفزع من يد والدها. وكان أصغر منها وجباناً نوعاً ما، هل هذا هو الشخص الذي ستتزوجه؟ هل هذا هو الفتى الذي سيمنحها بناتاً وصبياناً أقوياء يستطيعون الجري مثلها؟

"أبداً". قالت ذلك بصوت عالٍ وهي تنظر إلى الماء المتدفق. وفجأة، انحنت فوق سطح الماء، وحدّقت بصورة وجهها المشوشة. وفكّرت أن زوجها قد يكون أي شخص يقص شعره بالموس وتعلوه الأوساخ مثل أي راعي. لم تكن جميلة، فقد كانت تلك حقيقة، لكن إذا كانت تستطيع الجري بسرعة كافية، لن يستطيع أحدهم الإمساك بها بأي حال.

تحت شمس الظهيرة، مسح تيموجن العرق عن عينيه، وكانت معدته تقرقر. وكانت والدة بورت بغيضة وكريهة مثل زوجها، وعيناها ثاقبتان مثل عينيه أيضاً. أفزعته فكرة الحصول على زوجة بشعة ومتجهمة. على الإفطار، كانت شريا قد أعطته كوباً من الشاي اللاذع الطعم وقطعة جبن بطول إبهامه قاسية مثل العظم وضعها داخل فمه ليمصها، ومع حلول الظهر بالكاد كانت قد بدأت تذوب. حصل شولوي على ثلاثة أرغفة خبز ولحم الضأن، وكان ينقلها جيئة وذهاباً بين يديه ليمنع عنها برد الصباح. وجعلت الرائحة لعاب تيموجن يسيل، لكن شريا كانت قد قرصت معدته وأخبرته أنه يستطيع التغاضي عن بعض الوجبات. وكانت تلك إهانة له، لكن ما الذي يستطيع فعله؟

فيما كان شولوي يمسح الجلود، ويتفقد حوافر كل خيول أولخونوت، كان تيموجن يحمل أكواماً كبيرة من الصوف إلى حيث كانت نساء القبيلة يضعنها على حصائر من الملابس الرثة. وكانت كل واحدة أثقل من أي شيء حمله في حياته من قبل، لكنه استطاع أن يمشي مترنحاً بها عبر المخيم، وجذب إليه أنظار وأحاديث الأطفال الصغار. بدأ يحس بالحرارة في ساقيه وظهره قبل انتهاء الجولة الثانية، لكن لم يكن مسموحاً له التوقف. وعند الحمولة العاشرة، توقف شولوي عن دهن الجلود لمراقبة مدى تقدمه، وشاهد تيموجن بعض الرجال يبتسمون ويتمتمون بالرهانات لبعضهم البعض. كان يبدو أن أفراد قبيلة ألخونوت يتراهنون على أي شيء، لكنه لم يكن مهتماً بما يجري عندما سقط أخيراً، بعد أن تداعت قدماه تحته. لم يأتِ أحد لمساعدته على النهوض، وفكّر بأنه لن يشعر بتعاسة ويأس مثل اللذين شعر بهما في لحظة الصمت التي كان فيها أفراد أولخونوت يراقبونه وهو ينهض. ولم يرَ أية شفقة أو تعاطف على أي من وجوههم القاسية، وعندما وقف أخيراً، شعر بأن كراهيتهم تغذّي نشاطه، ورفع رأسه عالياً.

ورغم أن العرق سال على عينيه، وبدا أن كل نفس لاهث يلفح وجهه، إلاّ أنه ابتسم لهم. ولسعادته، استدار البعض منهم بعيداً عندما نظر إليهم، رغم أن معظمهم حدّق به.

كان يعرف أن ثمة شخصاً يقترب، لقد بدا ذلك من طريقة تغير تعابير وجوه الآخرين. وقف تيموجن يوازن الحمولة على كتفه، وقد رفع كلتا ذراعيه لتثبيتها. لم يكن مرتاحاً لشعوره بأنه سهل المنال عندما استدار ليرى من لفت أنظار أفراد القبيلة. وحالما تعرف إلى ابن خاله، لاحظ أن كوكي كان يستمتع بما يراه في تلك اللحظة. كانت يداه إلى جانبيه، لكن كان من السهل على تيموجن أن يتخيلهما تضربان معدته التي تفتقر للحماية. حاول تيموجن أن يشد بطنه، وشعر بالإرهاق الشديد. وكانت الحمولة تلقي بثقلها عليه، وكانت قدماه ضعيفتين بشكل غريب. لم تظهر أي تعابير على وجهه فيما كان كوكي يقترب منه، وبذل قصارى جهده ليربك الفتى على أرضه.

لم يجدِ ذلك نفعاً. تقدم كوكي أولاً، لكن كان هناك فتية آخرون من العمر نفسه خلفه، تتقد أعينهم شرراً ويبدون خطيرين. من طرف عينه، شاهد تيموجن الراشدين يتغامزون ويضحكون. تحسر على نفسه، وتمنّى لو أن لديه سكيناً ليقتلع الغطرسة من وجوههم. هل عانى بكتر بهذه الطريقة؟ لم يكن قد ذكر ذلك إطلاقاً.

قال كوكي، مكشّراً: "ارفع تلك الحمولة أيها الفتى".

حالما فتح تيموجن فمه ليجيبه، شعر بدفعة جعلته يفقد الحمولة، وكاد يقع معها أرضاً. ترنح في مشيته نحو كوكي الذي دفعه بعيداً عنه. كان قد شارك في العديد من المشاجرات مع أشقائه ولن يسمح بحصول ذلك، وقام بتسديد لكمة مباشرة استقرت على مؤخرة رأس كوكي. خلال لحظات، كانا يتعاركان على الأرضية الترابية، وقد نسيا الحمولة تماماً. ولم يصرخ الفتية

الآخرون، ولكنّ أحدهم اندفع وركل تيموجن على معدته، وجعله يتلوى ألماً. صرخ تيموجن من الغضب، لكنّ فتى آخر ركله على ظهره فيما كان يكافح للابتعاد عن كوكي ويحاول النهوض. كان كوكي ينزف من أنفه، رغم أن الدماء لم تكن تسيل كثيراً، وتخثرت في الغبار المتصاعد فوراً. وقبل أن ينهض تيموجن على قدميه، أمسك به كوكي مجدداً، ودفع برأسه نحو الأرض فيما جلس آخران على صدره وساقيه، وثبتاه بوزنهما. كان تيموجن متعباً جداً، ولم يستطع إبعادهما بعد أن حمل أكوام الصوف لفترة طويلة. كافح بجنون، لكن الغبار ملأ أنفاسه وسرعان ما شعر بالاختناق وأصبح يحاول نشب أظفاره فيهم. كان هناك فتى آخر يمسك به من عنقه، وكوكي يضربه على رأسه. بعد ذلك، فقد وعيه قليلاً، وأخذت الضوضاء تبتعد شيئاً فشيئاً.

لم يستيقظ بالمعنى الدقيق للكلمة، كما أنه لم ينم أيضاً، لكنه صحا كما لو أنه يفيق من حلم عندما تم إفراغ دلو ماء فوق رأسه. التقط تيموجن أنفاسه بصعوبة فيما كان الماء البارد يسيل منه مع الدماء والأوساخ الموحلة. ساعده شولوي على النهوض، وشاهد تيموجن أن الرجل العجوز قد أبعد الفتية عنه على الأقل، والذين كانوا ما يزالون يسخرون ويضحكون من ضحيتهم. نظر تيموجن في عيني شولوي ولم يرَ فيهما سوى الغضب فيما كان الرجل العجوز يطقطق أصابعه أمام وجهه ليلفت انتباهه.

سمع شولوي يقول بصوت بدا بعيداً جداً: "ينبغي أن تجلب المزيد من الماء الآن بعد أن أفرغت هذا الدلو. بعد ذلك، ستساعد في تنظيف صوف الخراف حتى يحين وقت تناول الطعام. وإذا عملت جاهداً، ستحصل على اللحم والخبز الساخن ليمنحانك القوة". بدا مشمئزاً للحظة. "أعتقد أنه ما يزال مصاباً بالدوار. ينبغي أن يكون رأسه أقوى، هذا الفتى، مثل شقيقه. كان لذلك الفتى رأس مثل الثور".

قال تيموجن بنزق وهو يتخلص من آخر علامات ضعفه: "سمعتك".

وانتزع الدلو، دون أن يزعج نفسه بإخفاء غضبه. لم يستطع رؤية كوكي أو الآخرين، لكنه أقسم على إنهاء القتال الذي بدأوه. وكان قد تحمّل أعمال وسخرية أولخونوت، لكن تعرضه للضرب علانية كان فوق طاقته. كان يعرف أنه لا يستطيع الهجوم بشكل مباشر على الفتى الآخر، وكان فيه طفل يرغب القيام بذلك، ومحارب يتحين اللحظة المناسبة التي لا بد أنها ستأتي.

فيما كان ياسوجي يقود فرسه في وادٍ أخضر شاسع، شاهد خيالات فرسان يتحركون على مسافة بعيدة، وزمّ شفتيه امتعاضاً. ومن تلك المسافة البعيدة، لم يكن يستطيع أن يميز ما إذا كانت أولخونوت قد أرسلت محاربين لمرافقته إلى خيامه، أم أنها فرقة غزو من قبيلة جديدة على المنطقة. وسرعان ما تحطم أمله بأن يكونوا رعياناً عندما نظر حوله على سفوح التلال المكشوفة. ولم يكن هناك أغنام ضائعة بالقرب منه، وكان يعرف حق المعرفة أنه سيكون سهل المنال إذا قررت المجموعة مطاردته.

راقب حركتهم من طرف عينه، حريصاً على أن لا يُظهر خوفه منهم. وكان يأمل بأن لا يتعبوا أنفسهم بملاحقة فارس واحد، لكنه أطلق زفيراً قوياً من أنفه عندما شاهدهم يستديرون، ولاحظ ارتفاع الغبار خلفهم عندما أطلقوا العنان لجيادهم. كان أقرب فرسان ذئابه ما يزال بعيداً مسيرة يومين، وكان مرغماً على تضليل هؤلاء الخيّالة في مثل تلك الأرض المكشوفة. نخز فرسه لتعدو بسرعة، وكان سعيداً لأنها كانت قوية ومرتاحة تماماً. وربما كانت جياد مطارديه متعبة، ولهذا لن تكون قادرة على اللحاق به.

لم ينظر ياسوجي من فوق كتفه عندما كان يحث فرسه على السير بسرعة. في مثل ذلك الوادي الشاسع، كان يستطيع الرؤية حتى خمسة أو ستة أميال، وبالمقابل يمكن رؤيته من تلك المسافة. كان يعرف أن المطاردة ستكون طويلة، لكنهم يستطيعون الإمساك به إذا لم يكن حظه كبيراً أو إذا

لم يستطع إيجاد مخبأ. وجالت عيناه بشكل محموم على طول التلال، وشاهد الأشجار في أعلاها مثل أهداب بعيدة. وفكّر أنها لن تخفيه عن العيون. وكان يحتاج إلى وادٍ يحميه حيث تكون الغابة كثيفة الأشجار، وتغطيها أوراق النباتات المتساقطة وأوراق الصنوبر الرمادية. كان يوجد الكثير من تلك الأماكن، لكن تم رصده بعيداً عن أي منها. تابع السير، وهو يشعر بالغضب العميق في داخله. وعندما نظر إلى الخلف، كان الخيّالة قد اقتربوا منه، ولاحظ أن عدد مطارديه خمسة. وكان يعرف أنهم يجدّون في طلبه، وأنهم يشعرون بالإثارة ويصرخون رغم أن أصواتهم كانت تضيع قبل الوصول إليه. وكشف عن أسنانه للرياح فيما كان يتابع طريقه. إذا عرفوا من يطاردونه، لن يكونوا متهورين أبداً. ولمس بيده مقبض سيفه حيث كان معلقاً على جانب الفرس، يتمايل على جسدها. وكان السيف الطويل ملكاً لوالده، وكان يضعه في قراب من الجلد ليحفظه أثناء ترحاله. كان قوسه مربوطاً بإحكام إلى سرجه، لكنه كان يستطيع سحبه خلال لحظة. وتحت ردائه، كان قميص الدرع الحديدي القديم الذي ظفر به في إحدى الغارات يشكل ثقلاً مريحاً بالنسبة له. وقال في سره إنهم إذا حاصروه، فإنه سيذبح الكثيرين منهم، وشعر بالإثارة تسري في جسده. لقد كان خان الذئاب، ولا يخشى أحداً، وسيدفعون ثمن فعلتهم هذه غالياً.

انكمش تيموجن عندما آذى الصوف الخام أصابعه الحمراء للمرة المئة. كان قد شاهد ذلك في مخيم الذئاب، لكن العمل كان يُترك عادة للفتية الأكبر سناً والشابات. كان الأمر مختلفاً مع أولخونوت، وأدرك أن ليس لديه خيار آخر. وكان أصغر الأطفال يحمل دلاء مليئة بالماء ليرشه على كل طبقة من جزّات الصوف، للمحافظة على رطوبتها. وكان كوكي والفتية الآخرون يربطون الجزّات على هياكل خشبية ويضربونها بعصي طويلة مصقولة لساعات حتى يخرج الماء منها تماماً. وكان تيموجن يقوم بذلك العمل، وكان إغراء ضرب وجه كوكي البشوش بالعصا كبيراً.

بعد ضرب جزّات الصوف بالعصي لجعلها أنعم ملمساً، كانت النساء يستعملن طول أذرعهن الممتدة لقياس القطعة، ويعلّمن الجزّة بالطباشير. وعندما يحددن العرض المطلوب، ينشرن القطع على ملابس من اللباد، ثم ينعّمن ويمشطن الصوف ويخففن الألياف حتى تصبح شبيهة بحصيرة واحدة بيضاء. ويساعد رش المزيد من الماء في صقل طبقات اللباد القاسي، لكن هناك مهارة حقيقية في تحقيق السماكة المطلوبة. شاهد تيموجن يديه تحمرّان وتتقرحان بعد انقضاء النهار في العمل مع الآخرين فيما كوكي يسخر منه ويجعل النساء يقهقهن من تعبه. اكتشف تيموجن أن ذلك ليس مهماً، وقرر آنذاك تحيّن اللحظة المناسبة، واكتشف أنه يستطيع تحمّل الإهانات والسخرية. في الحقيقة، كان هناك سعادة خفية في معرفة أن الوقت سيحين عندما لا يكون هناك أحد في الجوار وأنه سيمنح عندها كوكي بعضاً مما يستحقه. فكّر أنه ربما يمنحه أكثر بقليل مما يستحقه. ومع شعوره بالألم الشديد في يديه والذي امتد حتى مرفقيه، كانت هناك صورة جميلة في ذهنه.

عندما تصبح الحصائر ناعمة ومستوية، كان يتم تحميلها على فرس

أولخونوت وربط لفة الصوف البيضاء على أسطوانة طويلة، والتي تصبح ناعمة جداً بقوة التدوير. وكان تيموجن مهتماً جداً بأن يكون ذلك الشخص الذي يقود الفرس لأميال بعيداً عن هؤلاء القوم، ولكن المهمة ذهبت إلى كوكي الضاحك، وأدرك تيموجن بأنه كان محبوباً في القبيلة، ربما لأنه يجعل النساء يبتسمن على حركاته المضحكة. ولم يكن تيموجن يستطيع فعل شيء سوى خفض رأسه وانتظار الاستراحة التالية للحصول على حليب الفرس وبعض الخضار ولحم الغنم. وكانت ذراعاه وظهره يؤلمانه كما لو أن شخصاً غرز سكيناً فيهما ويديرها مع كل حركة يقوم بها، لكنه تحمّل، ووقف مع الآخرين ليضعوا الحمولة التالية من جزات الصوف النظيفة على اللباد.

لاحظ أنه لم يكن الوحيد الذي يعاني. وبدا أن شولوي يشرف على العملية، رغم أن تيموجن لم يكن يعتقد أنه يمتلك أغناماً لنفسه. عندما اقترب صبي صغير كثيراً وأثار الغبار على جزّات الصوف الخام، أمسك به شولوي من ذراعه، وضربه دون رحمة بعصا، متجاهلاً صرخاته حتى لم يعد يصدر عنه سوى الأنين. كان ينبغي المحافظة على نظافة جزّات الصوف وإلاّ سيصبح اللباد ضعيفاً، وحرص تيموجن على ألا يقترف الخطأ نفسه. كان يجثو على طرف حافة الحصير ولا يسمح لحصى صغيرة أو للغبار بأن يفسد رقعته.

كانت بورت تعمل مقابله خلال إحدى فترات بعد الظهر، واستغل تيموجن الفرصة ليلقي نظرة متفحصة على الفتاة التي قبلها والده له. كانت نحيلة كثيراً حتى أنها تشبه مجموعة من العظام، مع خصلة من الشعر الأسود تتدلى فوق عينيها وبعض المخاط تحت أنفها. اكتشف أن تخيل فتاة أقل جاذبية أمر صعب، وعندما لاحظت أنه يحدق بها، تنحنحت وكانت على وشك أن تبصق قبل أن تتذكر جزّات الصوف النظيفة وتبلع ما في فمها. هزّ رأسه مذهولاً منها، متسائلاً عما قد يكون أعجب

والده فيها. كان من المحتمل أن كبرياء ياسوجي قد أرغمه على قبول ما يمنح له، وهكذا يمكنه إلحاق العار برجال صغار مثل إنك وشولوي. كان على تيموجن أن يواجه الحقيقة بأن الفتاة التي ستشاركه خيمته وتنجب له الأطفال متوحشة مثل قطة برية. فكّر بتعاسة أن ذلك يبدو مناسباً لتجربته مع أولخونوت حتى ذلك الوقت. لم يكن هؤلاء القوم كرماء. وإذا كانوا يرغبون بتزويج إحدى فتياتهم، لا بد أن تكون واحدة يريدون التخلص منها، حيث يمكنها إثارة مشكلة لقبيلة أخرى.

ضربت شريا ذراعه بعصاها، مما جعله يصرخ ألماً. بالطبع، ضحكت النساء الأخريات جميعهن بصوت خافت، حتى أن واحدة أو اثنتين منهن قلّدن صوت صراخه، ولهذا استشاط غضباً.

قالت والدة بورت، كما فعلت عشرات المرات من قبل: "توقف عن الحلم يا تيموجن".

كان العمل مملاً وحافلاً بالتكرار، وكانت النساء إما يثرثرن مع بعضهن أو يعملن بهدوء كبير، لكن ذلك كان ترفاً غير مسموح به للوافد الجديد. كان أقل إهمال يُقابل بالعقاب، وبدا أن الحرارة والشمس لا نهاية لهما. حتى ماء الشرب الذي كان يتم إحضاره دورياً إلى العمال كان ساخناً وأجّاجاً وجعله يتقيأ. كان يبدو أنه يضرب بعصاه صوفاً نتناً، أو كمن ينزع القمل من رأسه أو يحمله طوال حياته. كان يجد صعوبة في تصديق أنه يومه الأول وحسب.

في مكان ما إلى الجنوب، كان والده يقود فرسه إلى المنزل. وكان تيموجن يستطيع أن يتخيل كلبيه يثبان حوله وسعادة تعليم النسرين الصيد وعودتهما ليقفا على معصمه. كان واثقاً أن أشقاءه سيكونون جزءاً من التدريب، وأنه سيكون مسموحاً لهم حمل قطع من اللحم عالياً بأصابعهم المرتعشة. كان واثقاً أن كشيون لن يفزع عندما سيأخذ الطائر الأحمر

الطُعم، وكان يحسدهم على الصيف الذي سيقضونه.

ضربته شريا مجدداً، فنهض بسرعة كبيرة لينتزع العصا من يديها، ووضعها برفق على الأرض بجانبه. حدّقت به للحظة قبل أن تمسك بها مجدداً، لكنه وضع ركبته عليها، وهزّ رأسه، وشعر بالدوار فيما كان قلبه يخفق بقوة. شاهد عينيها تطرفان لشولوي، الذي كان يقف بالقرب منهما يراقب القطع الجديدة من جزّات الصوف الرطبة أثناء وضعها على الأرض. توقع تيموجن أن تصرخ، لكن لدهشته حينها، هزّت كتفيها غير مبالية، وسحبت يدها عن العصا. اختبر لحظة تردد، لكنه حسم أمره وأعادها لها، وهو على أهبة الاستعداد. وازنتها بين يديها للحظة، وكان واضحاً أنها لم تقرر ما ستفعله بعد، ثم أدارت ظهرها ببساطة، ومشت مبتعدة عنه. وضعها في مجال رؤيته بعض الوقت فيما كانت أصابعه تباشر عملها على جزّات الصوف، لكنها لم تعد، وبعد فترة من الوقت، انشغل بالعمل مرة أخرى.

أحضر إنك، خاله، قدراً مليئة بالحليب الخاثر ليمنحهم القوة حتى ينتهوا من عملهم. وحالما لامست الشمس التلال في الغرب، حصل كل منهم على حصة من السائل المعروف بالشراب الأسود، والذي يبدو مثل الماء، لكنه يغلي. كان أكثر سخونة من الشاي بالحليب الذي تناوله في الخيام، وكان تيموجن يغص بشرابه ويسعل. مسح فمه، ثم لهث ألماً عندما أصاب الشراب جلده المتعب ولسعه مثل النار. كان كوكي ينشر جزّات الصوف خلف فرسه، لكن شولوي شاهد انزعاجه وضحك حتى اعتقد تيموجن أنه سيصاب بنوبة مرضية ويموت مباشرة أمامه. كان يأمل بحدوث ذلك، لكن الرجل العجوز ضحك حتى ذرفت عيناه الدموع، وشق طريقه عائداً إلى القدر، ليغرف كوباً آخر. كان صعباً أن لا يمتعض شخص لم يفعل شيئاً معيناً من الكوب الثاني، لكنّ أحداً لم يكن ليهتم بذلك، وتلاشى الضوء ببطء، وتم

إدراج آخر جزة صوف على أسطوانة، وربطها خلف فرس أخرى.

قبل أن يعترض أحد، وثبت بورت على السرج بشكل فاجأ شولوي الذي كان يقف ممسكاً باللجام. ولم يتبادلا أي كلمة، لكنّ فم الرجل العجوز الخالي من الأسنان كان كمن يعض قطعة من غضروف لا يستطيع ابتلاعها. بعد لحظة تردد، ضرب على ردف الفرس، وأطلقها لتمنح اللباد شكله وقوته النهائيين. وكان ذلك اللباد سيبعد برد الشتاء عن الخيام، ويُصنع منه البسط الثقيلة وأغطية الجياد، أما القطع الصغيرة فهي مخصصة للأطفال الصغار الذين لا يستطيعون استعمال المراحيض مخافة الوقوع فيها. جلس تيموجن على عقبيه ومدد ظهره، وأغلق عينيه من الألم. كانت يده اليمنى خدرة، مما أقلقه. واستعمل يده اليسرى ليدلّك يمناه ويدفع الدماء في أصابعه. ولكن عندما حصل ذلك، تسبب الألم المرافق بذرف الدموع من عينيه. لم يكن قد عمل بهذا الشكل الشاق من قبل، وتساءل إذا كان ذلك سيجعله أقوى.

جاء شولوي فيما كان يدفع نفسه للوقوف على قدميه، وبدأ تيموجن يتحرك عندما لاحظ وجود الرجل العجوز. كان يكره عصبيته، لكن الصفعات المفاجئة كانت أكثر من أن يستطيع تفاديها. كان شراب الحليب الخاثر قد جعله يتجشأ طعماً حامضاً فيما كان شولوي يقوده بقبضة الإصبعين التي بدأ يعتاد عليها نحو الخيمة.

"تناول طعامك الآن ونم. غداً ستقطع الخشب استعداداً للشتاء".

كان تيموجن متعباً للغاية، ولم يستطع الرد، فتبعه في حالة إرهاق شديد، وكان يشعر بثقل في أطرافه.

كان ياسوجي قد وجد مكاناً بدا آمناً بما فيه الكفاية ليخيم فيه. وكان قد اقترب من نهاية الوادي الذي شاهد فيه مجموعة الخيّالة، قاد فرسه مباشرة عبر ممر قصير بين التلال. وكان يأمل بإيجاد مأوى لا يستطيع مطاردوه

العثور عليه فيه، ويعرف أن اقتفاء آثاره على الأرض الترابية لن يكون صعباً، لكنه لا يستطيع المضي قدماً طوال الليل والمخاطرة بكسر إحدى قوائم الفرس إذا داست في جُحر غرير. بدلاً من ذلك، دفع الفرس الصغيرة الشجاعة للصعود على منحدر شاهق نحو مجموعة أشجار متناثرة، وترجل عنها ليقودها من لجامها، ويشجعها على الاستمرار. كان التسلق صعباً وخطيراً، وامتلأت عينا الفرس بالخوف عندما انزلقت حوافرها على بقايا النباتات اللزجة. تحرك ياسوجي بسرعة، وشدّ اللجام حول جذع شجرة، وتابع التسلق وحيداً فيما كانت الفرس تدور حول نفسها. آلمته عضلات كتفه وصدره كثيراً في الوقت الذي وصل فيه إلى القمة، فيما كانت الفرس تصهل بصوت عالٍ يمكن سماعه من على بعد ميل. لم يكن يعتقد أنهم سيلحقون به إلى الأشجار بعد أن خيّم الظلام. كل ما كان عليه فعله هو البقاء بعيداً عن الأنظار، ويمكن لهؤلاء الخيالة البحث دون طائل عن أثر اختفى في أوراق الصنوبر الإبرية. كان سيضحك بصوت خافت من فكرة أنه يستطيع رؤيتهم، لكنه لم يفعل. كان حدسه ينبئه بأن مطارديه ما يزالون في مكان ما قريب، يبحثون ويصغون السمع بحثاً عن دليل عن مكانه. كان قلقاً من قيام فرسه بالصهيل فتدلهم على مكانه، لكن فرسه كانت تعبة جداً بعد التسلق والمسير الشاق. مع القليل من الحظ، وليلة دون نار، سيتخلون عن بحثهم، ويتابعون طريقهم في الصباح التالي. لم يكن مهماً أن يصل إلى خيام الذئاب متأخراً يوماً، بعد كل ذلك.

عالياً على قمة التل، سحب غصني شجرة وربط بهما اللجام، وراقب بمتعة فيما كانت الفرس تحاول الجثو على ركبتيها، فوجدت أنها لا تستطيع التمدد على جانبها بسبب اللجام المشدود. ترك السرج على ظهرها في حال اضطر للتحرك بسرعة، وحرر الحبل الذي يربطه بالبطن قليلاً. صهلت الفرس من ذلك الاهتمام، وارتاحت قدر الإمكان. بعد فترة من الوقت، رآها

تغلق عينيها وتنام، وفتحت فكها لتكشف عن أسنان صفراء قوية.

أصغى ياسوجي السمع إلى أي إشارة تفيد بأن مطارديه لم يستسلموا بعد. كان صعباً عليهم أن يقتربوا منه كثيراً دون أن ينتبه لهم على مثل تلك الأرض. وشدّ السير الجلدي الذي يبقي السيف في قرابه ثم سحبه بحركة رشيقة واحدة، وتفحص النصل. كان مصنوعاً من فولاذ جيد وكافياً بحدّ ذاته ليصبح هدفاً للصوص. لو أن إيلوك كان معه، لكان قد تحدى الرجال في السهل، لكن خمسة كانوا أكثر مما يستطيع أن يقاتل وحده، ما لم يكونوا فتية ضعفاء يمكن بث الرعب في قلوبهم بصرخة وبعض الحركات السريعة من سيفه. كان سيف والده حاداً كما كان دائماً، وكان ذلك لمصلحته. ولم يكن ليخاطر بأن يسمعوه يشحذه تلك الأمسية. بدلاً من ذلك، تناول بضع جرعات من قربة الماء الجلدية التي كانت معه، وابتسم من خفة وزنها. ستشعر الفرس بالعطش في الصباح الباكر. وإذا كانت الجداول القريبة قد جفت، سيواجه يوماً عصيباً، سواء شاهده الخيّالة أو لا. وهزّ كتفيه استخفافاً من التفكير بذلك، فقد مرّ بأوقات أصعب.

تمدد ياسوجي وتثاءب، وابتسم لرؤية الفرس النائمة فيما كان يسحب اللحم المقدد من الخُرج ويمضغه سعيداً بالطعم المتبّل بالبهارات. كان مشتاقاً لهولن والأولاد، وتساءل عما كانوا يفعلونه في تلك اللحظة.

فيما كان يستلقي على ظهره، ويضع يديه داخل ردائه استعداداً للنوم، أخذ يأمل بأن يتمتع تيموجن بالحيوية التي تجعله يتحمل قوم هولن. كان صعباً معرفة ما إذا كان الفتى يتمتع بالقوة في مثل ذلك العمر المبكر. لم يكن ياسوجي ليتفاجأ إذا اكتشف أن تيموجن قد هرب بعيداً عنهم، رغم أنه كان يأمل بأن لا يفعل ذلك. وسيكون عاراً عليه العيش في الحضيض، وستنتشر القصة بين القبائل في أقل من فصل واحد. وتلا ياسوجي دعاءً صامتاً عله يساعد ابنه. كان يعرف أن بكتر قد عانى، وكان الفتى البكر

يتكلم بكراهية عن أولخونوت عندما لا تكون هولن في الجوار. كانت تلك الطريقة الوحيدة للحديث عنهم، بالطبع. همهم ياسوجي لنفسه، وشكر أب السماء على منحه هؤلاء الأولاد الرائعين. علت ابتسامة شفتيه فيما كان يغط في النوم. كان لديه أبناء والآن ابنة. لقد بورك بذرية قوية وامرأة صالحة لتحملها. كان يعرف زوجات أخريات كن يفقدن قطعة بائسة من اللحم الأحمر في كل مرة يحين بها موعد ولادتهن، لكن أطفال هولن عاشوا جميعاً وكبروا أقوياء. وأصبح أحدهم بديناً ألا وهو تيموج وهي مشكلة يتعين عليه مواجهتها. أخيراً، غلبه النعاس، وأصبح تنفسه بطيئاً وثابتاً.

عندما فتح عينيه بسرعة، كان ضوء الفجر الأول يشع من الشرق، مع شريط من اللون الذهبي على التلال البعيدة. كان يحب تلك الأرض، وللحظة، كان شاكراً لأنه عاش ليرى يوماً آخر. ثم سمع رجالاً يقتربون منه، وسكنت الأنفاس في حنجرته. أبعد نفسه عن الأرض المتجمدة، وسحب شعره من حيث كان عالقاً في الجليد. كان قد نام مع سيفه الذي جرّده من غمده، ووضعه تحت ردائه. تلمّست أصابعه طريقها إلى المقبض والتفّت عليه. كان يعرف أن عليه النهوض حتى لا يستطيعوا أن يفاجئوه فيما لا يزال متسمراً في مكانه، لكنه لم يكن يعرف بعد إذا كانوا قد شاهدوه. وجال ببصره يميناً ويساراً، وأجهد أحاسيسه بحثاً عن مصدر الصوت. كان هناك احتمال بأن يكون مجرد راعٍ يبحث عن معزاة ضالة، لكنه كان يعرف بأن الأمر ليس كذلك. وسمع فرساً تصهل في مكان قريب، ثم استيقظت فرسه نفسها وبدأت تصهل، وهذا ما كان يخشاه. كان أحد مطارديه يمتطي فرساً ولم يكن يبعد أكثر من خمسين خطوة إلى يمينه وحين سمعت فرسه الصهيل أجابت بصهيل مماثل. نهض ياسوجي بسرعة، متجاهلاً الألم في ركبتيه وظهره. ودون تردد، أمسك بقوسه من السرج وداعب وتره، وسحب سهماً طويلاً من جعبته وشدّه على الوتر. لم يكن أحد يستطيع إطلاق السهم إلى

مسافة أبعد منه سوى إيلوك، ولم يكن يشك بقوة بصره. وإذا كانوا معادين، يستطيع إسقاط واحد أو اثنين منهم قبل أن يصبحوا في مدى سيفه. وكان يعرف أن عليه البحث عن القادة لتوجيه تلك الضربات السريعة الأولى عليهم، وترك الرجال الضعفاء بما فيه الكفاية ليقعوا فريسة سيفه.

بعد أن أصبحوا يعرفون موقعه آنذاك، لم يعد هناك صوت قادم من الأرض، وانتظر بصبر أن يظهروا أنفسهم. ووقف والشمس خلفه، وبعد لحظة تفكير، فكّ أزرار ردائه وارتداه بالمقلوب. وكان خائفاً كثيراً عندما وضع سيفه وقوسه أرضاً، لكنّ لون بطانة الثوب الداكنة ستناسب أغصان الأشجار بشكل أفضل من اللون الأزرق الذي كان سيجعله هدفاً سهلاً. أمسك بأسلحته مرة أخرى، ووقف ساكناً مثل الأشجار والأجمّة من حوله. ولاحظ صوتاً يصدر عن أنفاسه، وأسكته فوراً. لم يكن النوم سوى ذكرى، وسرعان ما اندفع الدم في شرايينه. ورغم التهديد، اكتشف أنه يستمتع بالتوتر.

نادى صوت من مكان بعيد إلى يساره: "مرحباً أيها الفارس".

أطلق ياسوجي اللعنات بينه وبين نفسه، وكان يعرف أنهم يحيطون به. ودون أدنى تفكير، ترك الفرس، وتحرك بين الأشجار متجهاً نحو الصوت. وأياً كان هؤلاء، أقسم أنهم لن يقتلوه بسهولة. خطر بباله أنهم قد لا يشكلون تهديداً له، لكن المرء ينبغي أن يكون أحمق ليجازف بحياته، وفرسه، وسيف والده على أمل زائف. في السهول، لا يستطيع حتى الرجل القوي النجاة إذا لم يحترس، وكان يعرف أنه صيد ثمين لفرقة الغزو، سواء كان أفرادها يدركون ذلك أم لا.

سال خيط من العرق على فروة رأسه فيما كان ينتظر. وجاء صوت آخر من على بعد عدّة خطوات فقط: "لا أستطيع رؤيته".

جثم ياسوجي في مكانه، وسحب القوس الذي صدر عنه صوت صرير.

قال رجل ثالث، وكان صوته أعمق من الآخرين: "فرسه هنا". بدوا جميعاً يافعين بالنسبة لأذن ياسوجي، رغم أن مهاراتهم في التعقب كانت موضع تساؤله. وحتى عندما أصبحوا قريبين منه بذلك القدر، لم يكن يستطيع سماعهم يتحركون.

بحرص شديد، أدار رأسه لينظر خلفه، واستطاع أن يرى عبر الدغل رجلاً يفك العقدة التي كان قد أحكمها في لجام الفرس. كشّر ياسوجي بصمت غاضب. ولم يكن يستطيع السماح لهم بسرقة فرسه وتركه هناك.

أخذ نفساً عميقاً، ونهض ليقف بكامل قامته مما تسبب بإفزاع الغريب الذي كان يقف بجانب الفرس. قفزت يد الرجل بحثاً عن سكين، لكنه لاحظ عندها القوس الموجه إليه وتجمد في مكانه.

قال الغريب بصوت عالٍ: "لا نرغب بالقتال أيها الرجل العجوز".

كان ياسوجي يعرف أنه يحذّر رفاقه، لقد خفق قلبه بسرعة عالية بسبب حفيف الأوراق إلى يمينه.

قال ياسوجي بصوت رنّان واضح: "اخرجوا إلى حيث أستطيع رؤيتكم إذاً، وتوقفوا عن التسلل من حولي".

توقف حفيف الأوراق، وأومأ الشاب الذي وقف بهدوء أعصاب تحت تهديد سهمه برأسه.

"افعلوا ما يقوله لكم. لا أريد أن أبقى عالقاً دون أن أتناول الفطور هذا الصباح".

أضاف ياسوجي: "اصرخوا قبل أن تتحركوا، أو ستموتون واحداً إثر الآخر".

أطبق الصمت لفترة طويلة وتنهد الشاب.

قال بسرعة: "اخرجوا من هناك، جميعكم". وكان واضحاً أنه يفقد هدوء

أعصابه وأن يده التي تمسك بالسهم لم تهتز أبداً.

راقب ياسوجي بعينين حذرتين فيما كان كل الرجال الأربعة الآخرون يظهرون بصخب من بين الأعشاب. وكان اثنان منهم يحملان أقواساً مع سهام حادة وجاهزة للإطلاق. وكانوا مسلحين جميعاً ويرتدون ثياباً مبطّنة، قماشها من النوع المخصص لإيقاف سهم من النفاذ عميقاً. عرف ياسوجي العلامات المميزة على ملابسهم، وتساءل ما إذا كانوا سيعرفون، بالمقابل، من يكون. ومن طريقة تصرف الرجل الذي كان بجانب الفرس، لا بد أنها كانت فرقة غزو تتارية، كان ياسوجي يعرف الرجال الأشدّاء عندما يراهم، والذين يخرجون لسرقة ما يستطيعون.

عندما أصبحوا جميعاً في مرمى النظر، أومأ الرجل الذي تحدث أولاً إلى ياسوجي.

"لقد جمعت الفرقة أيها الرجل العجوز. هل تمنحنا حقوق الضيف فيما نأكل؟"

تساءل ياسوجي ما إذا كانت قواعد المجاملة ستفيده عندما لا يكونون في مرمى سهامه، لكن مع خفض اثنين منهما للأقواس التي يحملونها، أومأ برأسه وخفف من شد وتر قوسه. وتنفس الشباب الصعداء بشكل ملحوظ، وحرك قائدهم كتفيه لإراحتهما.

قال الشاب بابتسامة: "اسمي يولغان من التتار. أنت من الذئاب، ما لم تكن قد سرقت ذلك الدرع والسيف".

أجاب ياسوجي: "أنا منهم". ثم أومأ برأسه قائلاً: "أرحب بكم لتناول الطعام والحليب في مخيمي".

قال يولغان وقد رفع حاجبيه: "واسمك؟"

قال ياسوجي دون تردد: "إيلوك. إذا كنت تستطيع إشعال النار، أستطيع تحضير كوب من شراب الأعشاب الأسود الذي سيدفئ دمك".

تحرك كل الرجال ببطء عندما انطلقوا لتحضير الوجبة، حريصين على عدم إفزاع بعضهم البعض بأي حركة مفاجئة. واستغرق الأمر منهم وقتاً أطول من المعتاد لجمع الصخور وإشعال النار بتحريك حجر الصوان على قطعة فولاذية، لكن عندما أشرقت الشمس، كانوا يتناولون وجبتهم من اللحم المقدد من خُرج ياسوجي وبعضاً من العسل النادر الذي أخرجه يولغان من جيب داخل ردائه. كان الطعم الحلو رائعاً بالنسبة لياسوجي، الذي لم يكن قد تذوق العسل منذ وجدت القبيلة خلية برية قبل ثلاث سنوات. لعق أصابعه ليحصل على القطرة الأخيرة من السائل الذهبي، الغني بالمواد الشمعية، إلاّ أن يده لم تبتعد أبداً عن سيفه وبقي السهم جاهزاً على الأرض أمامه. كان هناك شيء غير مريح في نظرة يولغان فيما كان يراقبه يأكل، رغم أنه كان يبتسم كلما نظر ياسوجي إليه. لم يتكلم أي من الرجال الآخرين عندما كانوا يتناولون طعام الفطور، وبقي التوتر سائداً مع كل حركة.

سأل يولغان بعد انقضاء بعض الوقت: "هل انتهيت؟"

شعر ياسوجي بأنهم يمكرون له شيئاً، وتحرك أحد الرجال إلى الجانب وفك سرواله ليتغوط على الأرض، ولم يحاول ستر نفسه، ولمح ياسوجي مكمن رجولته يتحرك أثناء ذلك.

تمتم ياسوجي: "في الذئاب، نتغوط بعيداً عن الطعام".

هزّ يولغان كتفيه لا مبالياً، ثم وقف ونهض ياسوجي معه حتى لا يكون تحت رحمته. وراقب بدهشة كيف مشى يولغان إلى حيث كان الرجل الآخر يتغوط وسحب سيفه.

كان سيف ياسوجي في يده قبل أن يدرك ما يفعل، لكنه لم يكن عُرضة للهجوم. وبدلاً من ذلك، شاهد يولغان يمرر سيفه على البراز الكريه حتى غطى كامل نصله.

تغضن أنف يولغان ورفع رأسه إلى الرجل الذي كانت جهوده سبباً في تلك الكومة من البراز.

"توجد علة في أمعائك يا ناسان، ألم أخبرك بذلك؟"

أجاب ناسان دون أن يضحك: "أخبرتني". وكرر ما كان يقوم به يولغان بسيفه. وأدرك ياسوجي عندها أن هذا اللقاء في السهول لم يكن بمحض الصدفة.

سأل بلطف: "متى عرفتني؟"

ابتسم يولغان، رغم أن عينيه كانتا باردتين.

"عرفنا عندما أخبرنا أحد أفراد أولخونوت أنك جئتهم مع ابن لك. لقد دفعنا لخانهم جيداً ليرسل فارساً إلى مخيمنا الصغير، لكن إقناعه لم يكن صعباً". ضحك يولغان في سره. "لست رجلاً محبوباً. وكانت هناك أوقات اعتقدت فيها أنك لن تأتي أبداً، لكن سانسار العجوز كان رجلاً يفي بكلمته".

خفق قلب ياسوجي بقوة عندما سمع ذلك، وخاف على تيموجن. وفيما كان يتأمل في فرص نجاته، حاول دفع عدوه لمتابعة الحديث. كان يعرف آنذاك أن يولغان رجل أحمق. ولم تكن هناك فائدة في الحديث مع رجل ستقتله، لكن المحارب الشاب كان يبدو مستمتعاً بفرض سيطرته عليه.

سأل ياسوجي: "لماذا تستحق حياتي أن تخرج طلباً لها؟"

ابتسم يولغان، وقال: "لقد قتلت الشاب الخطأ أيها الذئب. قتلت ابن خان لأنه كان أحمق وسرق من قطعانك. ووالده لا يصفح بسهولة".

أومأ ياسوجي برأسه، كما لو أنه يستمع بانتباه. ولاحظ أن الثلاثة الآخرين يقومون بتسميم سيوفهم بالقذارة نفسها، ودون سابق إنذار، قفز إلى الأمام وضرب عنق ناسان بقوة، واستدار ليواجههم. وسقط التتاري يصرخ صرخة الموت، وزأر يولغان غضباً، ودفع بسيفه إلى صدر ياسوجي

مباشرة. وكان التتاري سريعاً، لكن السيف لم يخترق الدرع تحت الرداء، واقتطع جزءاً من ملابس ياسوجي.

هاجم ياسوجي بسرعة ليستفيد من اللحظة السانحة. ورنّت السيوف مرتين فيما كان الثلاثة الآخرون يحيطون به، وشعر بالقوة في كتفيه. وكان سيريهم ما يعنيه أن يكون خان الذئاب.

تظاهر ياسوجي بالاندفاع إلى الأمام بسيفه، ثم عاد إلى الخلف بأسرع ما يستطيع ثلاث خطوات قادته إلى خارج الحلقة قبل أن تطبق الخناق عليه. واستدار أحد الرجال الثلاثة ليضربه بسيفه، وطعنه ياسوجي في صدره تحت كتفه، وانتزع سيف والده منه عندما كان يسقط. وشعر بألم فظيع في ظهره عندها، لكن خطوة أخرى أبعدته عنهما، وضربة أخرى تسببت في سقوط رجل آخر من المجموعة ونصف فكّه مبتور.

اندفع يولغان إلى الأمام، ووجهه متجهم لموت ثلاثة من أشقائه في المعركة.

استفزّه ياسوجي قائلاً: "كان ينبغي عليك إحضار المزيد للقضاء على خان. خمسة منكم إهانة لي". وجثا فجأة على ركبة واحدة ليتفادى ضربة يولغان. وفي ضربة عنيفة، استطاع ياسوجي دفع نصل سيفه في ساق الشاب. لم يكن ذلك جرحاً قاتلاً، لكن الدماء أغرقت حذاء يولغان، وفقد المحارب التتاري ثقته بنفسه فجأة.

فيما كان ياسوجي ينهض على قدميه، تحرك ذات اليسار ثم ذات اليمين، مما أفقد منافسه توازنه. كان يتدرب كل يوم مع إيلوك وأتباعه، ويعرف أن تلك الحركة هي مفتاح القتل بالسيوف. ويستطيع أي رجل تحريك سيف حول رأسه، لكن الحركة بالقدمين هي التي تفصل الهاوي عن الخبير. وابتسم ياسوجي فيما كان يولغان يمشي مترنحاً، ويشير إليه أن يقترب منه. أومأ التتاري إلى المحارب الوحيد المتبقي على قيد الحياة، وراقبه ياسوجي

فيما كان يتحرك إلى الجانب للقضاء عليه. كان توقيت يولغان جيداً، ولم يكن لدى ياسوجي مساحة للاندفاع بعيداً، ودَفْعِ سيفه في صدر ذلك الرجل الذي لم يكن يعرف اسمه، لكنّ النصل اصطدم بأضلاعه. وضرب يولغان سيفه بكل قوته، ودفع طرف نصله عبر الدرع إلى معدة ياسوجي. وأفلتت قبضة ياسوجي السيف الذي سقط بعيداً، وشعر بلوعة تعتصر قلبه على أولاده كانت أسوأ من الألم الذي يشعر به، لكنه استعمل يده اليمنى للإمساك بيولغان بإحكام. وبيده اليسرى، سحب خنجراً من حزامه.

شاهد يولغان الحركة، وكافح لتخليص نفسه، لكن قبضة ياسوجي كانت مثل الحديد. ونظر إلى التتاري الشاب وبصق في وجهه.

"سيتشرد قومك على الأرض لأجل هذا أيها التتاري. سيتم إحراق خيامكم، وسلب قطعانكم".

بضربة سريعة، قطع عنق الشاب وتركه يسقط بعيداً. وعندما كان يزحف مبتعداً، خرج سيف التتاري من جرح ياسوجي الذي صرخ من الألم، وسقط على ركبتيه. كان يشعر بدمه يسيل على فخذيه، واستعمل الخنجر لتمزيق قطعة كبيرة من ردائه، وشدّها على جرحه وهو يلعن الألم المبرح الذي يشعر به، واستطاع إغلاق عينيه لأنه لم يعد يرى أحداً هناك. وشدّت فرسه اللجام بعصبية، وصهلت بأسى. كانت خائفة من منظر ورائحة الدماء، وأرغم ياسوجي نفسه على التكلم إليها بهدوء. وكان يعرف أنه إذا تحررت الفرس وانطلقت مبتعدة، لن يستطيع العودة إلى قومه.

"كل شيء بخير أيتها الصغيرة. لم يستطيعوا قتلي. هل تتذكرين عندما وقع إيلوك على الشجيرات المحطمة التي انغرست في ظهره؟ لقد عاش رغم ذلك بعد أن سكب ما يكفي من الشراب المغلي على جرحه".

ابتسم عندما خطرت له تلك الفكرة، وتذكر كيف كان إيلوك الهادئ عادة يصرخ مثل طفل صغير. وبدا أن صوته يجعل الفرس تهدأ، توقفت عن

شدّ اللجام مما أدخل الراحة إلى نفسه.

"هكذا أيتها الصغيرة. ابقي واحمليني إلى الديار".

كاد الدوار يغلبه، لكن أصابعه أمسكت بالملابس حول خصره وشدّتها بقوة وإحكام. ورفع يديه وشمّهما، وفزع من رائحة البراز البشري من نصل يولغان. وفكّر بأن ذلك كان عملاً شريراً. لقد كانوا يستحقون الموت من أجل ذلك وحده.

كان يريد الجثو على ركبتيه وإبقاء ظهره مشدوداً. وكان سيف والده قريباً من يده، وارتاح لملمس المعدن البارد. وشعر بأنه يستطيع تمالك نفسه هناك لفترة طويلة ومشاهدة الشمس تشرق. كان جزء منه يعرف أنه لا يستطيع ذلك، إذا كان يريد لتيموجن أن يبقى على قيد الحياة. كان عليه الوصول إلى الذئاب وإرسال المحاربين طلباً للفتى. وكان عليه أن يعود، فقد كان جسده ثقيلاً وعبئاً عليه، لكنه استجمع قواه مرة أخرى.

نهض على قدميه مع صرخة أسى، وترنح في مشيته حتى وصل إلى الفرس التي كانت تراقبه وعيناها جاحظتان. أراح جبينه على خاصرة الفرس، ووضع السيف في قراب السرج، واستنشق أنفاساً عميقة مؤلمة. كانت أصابعه ثقيلة عندما فك اللجام، لكنه استطاع بطريقة ما امتطاء السرج. وكان يعرف أنه لا يستطيع النزول عن السفح الشديد الانحدار، لكن الجانب الآخر من التل كان أسهل ودفع بعقبيه على جانبي الفرس، ونظرته ثابتة بعيداً إلى حيث توجد دياره وعائلته.

عندما حل المساء، ترك بكتر فرسه ترعى العشب فيما جلس على تلة صغيرة، يترقب عودة والده. كان ظهره يؤلمه من الإرهاق بعد قضاء يوم على السرج مع القطيع. لم يكن الأمر مملاً على الأقل. وكان قد أنقذ تيساً سقط في مستنقع بالقرب من النهر، حين استعمل حبلاً مربوطاً إلى خصره، وخاض في الوحل الأسود لإحضار الحيوان الخائف قبل أن يغرق. لقد كافح التيس بقوة، لكن بكتر سحبه من أذنه، ووضعه على ضفة النهر الجافة، فنظر إليه الحيوان كما لو أنه السبب في محنته. وعندها جال بكتر ببصره على السهول ببطء، وحكّ بأظفاره بقعة من الوحل الأسود على جلده.

كان مستمتعاً بكونه بعيداً عن ثرثرة وضوضاء الخيام. وعندما كان والده غائباً، شعر بفرق واضح في طريقة معاملة الرجال الآخرين له، وخصوصاً إيلوك. كان الرجل متواضعاً بما فيه الكفاية بوجود ياسوجي ويؤدي له الطاعة، ولكن عندما يكونان وحدهما، كان بكتر يشعر بغطرسة التابع التي لا تريحه. لم يكن ذلك شيئاً يستطيع قوله لوالده، لكنه أخذ يتعامل بحذر مع إيلوك ويكتم سره في نفسه. ووجد أن أفضل السبل كانت ببساطة عن طريق البقاء صامتاً ومجاراة المحاربين في العمل والتدرب على القتال. كان يستطيع من خلال ذلك، على الأقل، إظهار مهاراته. وكان مفيداً عدم وجود تيموجن ينظر إلى مؤخرة عنقه فيما يستعمل قوسه. لم يشعر سوى بالراحة عندما غادر تيموجن إلى أولخونوت. في الحقيقة، كان يغمره شعور بالرضا على أمل أن يتعلم شقيقه شيئاً هناك، وأن يظهر بعض الاحترام للأكبر منه سناً.

تذكر بكتر بسعادة كيف حاول كوكي ضربه في يومه الأول هناك. ولم يكن الشاب نداً لقوة أو شراسة بكتر الذي أسقطه أرضاً وضربه حتى غاب عن الوعي. بدا أن أفراد أولخونوت قد ذهلوا من ذلك العنف، كما لو أن

الفتيان لا يتعاركون في قبيلتهم. بصق بكتر عندما تذكر وجوههم الشبيهة بالخراف التي كانت تظن به ظن السوء. لم يخاطر كوكي بالسخرية منه مجدداً. وكان ذلك درساً جيداً في وقت مبكر من وجود بكتر هناك.

كان إنك قد ضربه، بالطبع، بإحدى عصي صناعة اللباد، لكن بكتر تحمّل الضربات دون أن يصدر عنه أدنى صوت. بعد أن أصيب إنك بالإعياء والتعب، مدّ بكتر يده وسحب العصا من بين يديه، مظهراً قوته. بعد ذلك، تركه القوم وشأنه، ولم يعد إنك يجرؤ على جعله يجهد نفسه في العمل. كان أفراد أولخونوت ضعفاء كما قال ياسوجي من قبل، رغم أن نساءهم كن رقيقات مثل الزبدة البيضاء، ويثرن اهتمامه عندما يمشين بقربه.

فكّر أن خطيبته لا بد أن تكون قد حاضت الآن، رغم أن أولخونوت لم يرسلوها بعد. تذكر الخروج إلى السهول معها وطرحها أرضاً على ضفة جدول. في البداية، عارضت قليلاً عندما أدركت ما يفعله، لم يكن بارعاً. وفي النهاية، كان عليه إجبارها، رغم أن لديه كامل الحق بفعل ذلك. قال لنفسه إنها لم تكن لتلمسه في الخيمة إذا لم تكن تريد حدوث شيء، وابتسم عندما تذكر ذلك. ورغم أنها بكت قليلاً بعد ذلك، إلاّ أنه كان يعتقد أن الوميض في عينيها اختلف آنذاك. وشعر بأنه أصبح أقوى عندما تذكر عريها، وتساءل مجدداً متى سيرسلونها إليه. لم يكن والدها يحبه، لكن أولخونوت لن يجرؤوا على رفض ياسوجي. فكّر أنهم لن يمنحوها لرجل آخر بعد أن نثر بكتر بذوره فيها، وأنها ربما تكون حاملاً أيضاً. لم يكن يعتقد أن ذلك ممكن قبل أن تحيض، لكنه يعرف أن هناك أشياء غامضة لا يستطيع فهمها بشكل كامل.

كان البرد قارساً تلك الليلة، ولم يستطع أن يشغل نفسه بالأوهام، وكان يعرف تماماً أن عليه تركيز انتباهه على المراقبة. وكان واثقاً تقريباً أن عائلات الذئاب ستقبل بأن يقودها يوماً ما، رغم أنها بغياب ياسوجي كانت

تتلقى الأوامر من إيلوك الذي كان ينظم فرق الاستطلاع والحراسة، لكن ذلك سيكون مقبولاً فقط حتى يتزوج بكتر ويقتل ضحيته الأولى. حتى ذلك الوقت، سيبقى فتى في عيون المحاربين الأشدّاء، مثلما هم أشقاؤه بالنسبة له.

شاهد في الظلام الذي أخذ يصبح دامساً بقعة داكنة تتحرك في السهل تحت موقعه. نهض بكتر على قدميه مباشرة، وسحب بوقه بعد أن أخرج يديه من داخل ردائه. وتردّد عندما رفعه إلى شفتيه، وبحثت عيناه عن تهديد لا يأتي من فارس واحد. كان الارتفاع الذي اختاره يجعله يرى لمسافة بعيدة في المراعي، وبدا ذلك الرجل، مهما تكن صفته، وحيداً. تقطب جبين بكتر، وكان يأمل بأن لا يكون أحد أشقائه الحمقى الذي خرج دون أن يبلغ أحداً. ولن يكون وضعه في القبيلة جيداً إذا استدعى المحاربين أثناء تناولهم الطعام دون سبب وجيه.

اختار الانتظار، وراقب الشخص يقترب منه. وكان واضحاً أن الفارس لم يكن في عجلة من أمره. واستطاع بكتر أن يلاحظ أن الفرس تسير على غير هدى تقريباً، كما لو أن الرجل على ظهرها يتجول دون هدف محدد يصل إليه.

تقطب جبينه عبوساً من الفكرة، فقد كان هناك رجال يدّعون أنهم لا ينتمون إلى أي قبيلة معينة. وكانوا ينتقلون بين عائلات السهول، ويعملون طوال اليوم مقابل وجبة طعام أو يجلبون معهم أحياناً بضائع للتجارة. لم يكن هؤلاء موضع ترحيب، وكان هناك دائماً خطر قيامهم بسرقة كل ما يستطيعون وضع أيديهم عليه، ثم اختفائهم دون أثر. كان بكتر يعرف أنه ليس ممكناً الوثوق برجال لا ينتمون إلى أية قبيلة. وتساءل ما إذا كان الفارس أحد هؤلاء.

كانت الشمس قد اختفت خلف التلال والضوء يتلاشى بسرعة. وأدرك

بكتر أن عليه النفخ ببوقه قبل أن يضيع الغريب في الظلام. رفعه إلى شفتيه، وتردّد. وأثار انتباهه شيء في الشخص البعيد جعله يتوقف. لا يمكن أن يكون ياسوجي، بالتأكيد؟ والده لن يقود فرسه بتلك الطريقة أبداً.

كان قد انتظر وقتاً طويلاً عندما أطلق أخيراً نفير التحذير. كان الصوت طويلاً وحزيناً عندما تردّد صداه عبر التلال. أجابته أبواق أخرى من مراقبين حول المخيم، وأعاد بوقه إلى داخل ردائه، راضياً عما فعله. بعد أن أطلق ذلك التحذير، كان يستطيع النزول إلى حيث يمكنه التعرف على ذلك الفارس. امتطى فرسه، وتفقد سكينه وقوسه اللذين كانا في متناول يده. وفي سكون المساء، كان يستطيع سماع نداء الاستجابة وصوت الجياد أثناء خروج المحاربين من الخيام بسرعة. دفع بكتر بعقبيه على جانبي فرسه وقادها إلى أسفل التل، كان يريد الوصول إلى هناك قبل إيلوك والرجال الآخرين. وانتابه شعور بالتملك نحو الفارس الوحيد. لقد كان أول من رآه. وعندما وصل إلى الأرض المنبسطة ودفع فرسه للهرولة، اختفت الأفكار عن أولخونوت وخطوبته من ذهنه وبدأ قلبه يخفق بسرعة. كانت ريح المساء باردة، وكان متعطشاً ليثبت للرجال الآخرين أنه يستطيع قيادتهم.

أسرع الذئاب في الخروج من مخيمهم، وإيلوك على رأسهم. وفي آخر لحظات الضوء، شاهدوا بكتر يدفع بفرسه للإسراع وانطلقوا خلفه، دون أن يكونوا قد شاهدوا السبب الذي دفعه لإطلاق التحذير.

أرسل إيلوك عشرة محاربين يميناً ويساراً لتطويق المخيم، وكان يخشى وقوع هجوم من اتجاه آخر. فلا يصح أن يتركوا الخيام دون دفاع فيما ينطلقون خلف هجوم كاذب أو محاولة لتشتيت انتباههم. كان أعداؤهم ماكرين بما فيه الكفاية لسحب المراقبين بعيداً، ثم الهجوم عليهم، وكانت آخر لحظات الغسق مثالية لإحداث الفوضى بينهم. شعر إيلوك بالغرابة لأنه كان يقود فرسه دون وجود ياسوجي إلى يساره، لكنه وجد أنه يستمتع

بالطريقة التي ينظر بها الرجال الآخرون لقيادته لهم. أصدر إيلوك الأوامر بسرعة، وتجمع المحاربون حوله أثناء انطلاقهم نحو الهدف خلف بكتر.

تكرر صوت البوق في المقدمة مرة أخرى، وركّز إيلوك بصره محاولاً أن يرى ما يجري. ولم يستطع رؤية شيء تقريباً في الظلمة وكان في حث الفرس على الإسراع خطر عليها وعلى حياته، لكنه ضرب جانبي فرسه بتهور، وكان يعرف أن بكتر لن ينفخ في بوقه مجدداً إن لم يكن الهجوم حقيقياً. انتزع إيلوك قوسه، ووضع سهماً على الوتر بشكل غريزي، كما كان قد فعل آلاف المرات من قبل. وفعل الرجال حوله الشيء نفسه. ومهما يكن الذي تجرأ على مهاجمة الذئاب، سيلقى عاصفة من السهام الحادة قبل أن يقترب أكثر. وانطلق الرجال بصمت تام، ورفعوا قاماتهم عن السروج، وتوازنوا بشكل ممتاز مع ارتفاع وانخفاض جيادهم. زمّ إيلوك شفتيه في الرياح، مستشعراً خطر الهجوم. وجال في فكره أن الأعداء سيسمعون وقع الحوافر تتجه نحوهم، وسيخافون العقاب الذي سينزل بهم.

في الظلمة، كاد المحاربون المنطلقون يصطدمون بفرسين تقفان وحدهما في الأرض المكشوفة. وكاد إيلوك يفقد سهمه، لكنه سمع بكتر يصرخ عالياً، وجلس بعناء على السرج وخفّف من قوة شد وتره. كانت الدماء ما تزال تغلي داخله، وشعر بغضب مفاجئ من أن يكون ابن ياسوجي قد استدعاهم دون مبرر. ألقى إيلوك بقوسه فوق قربوس السرج، وانحنى قليلاً إلى الأمام وسحب سيفه. وكان الظلام يلفهم، ولم يكن يعرف ما يحدث حينها.

قال بكتر، بصوت عالٍ ومتعب: "إيلوك! ساعدني به".

وجد إيلوك الفتى يمسك جسد ياسوجي المتعب على الأرض، وشعر بقلبه ينبض ألماً عندما تلاشت آخر قواه وسقط أمامهما.

قال إيلوك بعد أن وصل إلى خانه: "هل هو جريح؟" ولم يكن يستطيع

رؤية شيء، لكنه فرك أصابعه وإبهامه معاً وشم رائحتهما. ورغم أن معدة ياسوجي كانت مربوطة بإحكام، إلاّ أن ملابسه كانت مليئة بالدماء.

قال بكتر، مذعوراً تقريباً: "لقد سقط يا إيلوك. سقط بين ذراعيّ، لم أستطع حمله".

وضع إيلوك يداً على الفتى ليشد من أزره قبل أن يقف ويصفر للفرسان الآخرين يدعوهم للاقتراب. وأمسك بلجام فرس أحد الفرسان الذين ضاعت ملامحهم في الظلام.

"باسان، اذهب إلى أولخونوت واكتشف حقيقة الأمر".

أجاب الرجل: "هل هي الحرب إذاً؟"

"ربما. قل لهم إنهم إذا لم يسمحوا لك بالمغادرة سالماً، سننطلق خلفك ونحرص على أن نحرق خيامهم حتى تصبح رماداً".

أومأ الرجل برأسه وانطلق مبتعداً، وسرعان ما اختفى وقع حوافر فرسه في الظلام.

تأوّه ياسوجي وفتح عينيه، وشعر بذعر مفاجئ من الظلال التي تتحرك حوله.

همس: "إيلوك؟"

جثم إيلوك إلى جانبه، وقال: "أنا هنا يا خاني".

انتظروا كلمة أخرى منه، لكن ياسوجي فقد الوعي مجدداً، وانقبض وجه إيلوك.

"ينبغي أن نعيده للعناية بجرحه. ابتعد أيها الفتى، لم يعد هناك شيء تستطيع فعله هنا".

وقف بكتر مذهولاً، غير قادر على استيعاب أن والده ممدّد لا حول له ولا قوة عند قدميه.

قال مجدداً، كما لو أن دواراً أصابه: "لقد وقع. هل يحتضر؟"

نظر إيلوك إلى الرجل المنهار الذي تبعه طوال حياته، وبأقصى ما استطاع من اللطف، أمسك بياسوجي من تحت إبطيه ورفعه على كتفه. وكان الخان رجلاً قوياً، وجعله الدرع المصنوع من السلاسل أثقل وزناً، لكن إيلوك كان قوياً ولم تظهر أي علامة على عدم ارتياحه.

"ساعدني على امتطاء الفرس يا بكتر. لم يمت بعد، وينبغي أن نوصله إلى الدفء. إن قضاء ليلة هنا سيقضي عليه". وخطرت له فكرة عندما وضع ياسوجي فوق سرجه، وكادت ذراعاه الطويلتان المتراخيتان تصلان إلى الأرض، وسأل: "أين سيفه؟ هل تستطيع رؤيته؟"

"لا، لا بد أنه سقط عندما وقع عن فرسه".

تنهد إيلوك فيما كان يمتطي فرسه. ولم تكن لديه فرصة للتفكير بما كان يحدث. وكان يشعر بحرارة جسد ياسوجي على صدره عندما انحنى إلى الأمام ليتكلم مع الابن.

"ضع علامة على الموقع بطريقة ما، بحيث تستطيع إيجاده مجدداً في الضوء. لن يشكرك لفقدان سيف والده".

استدار بكتر دون تفكير إلى أحد فرسان والده الآخرين، والذي كان يقف قريباً مصدوماً مما يشاهده.

"ستبقى هنا يا يونجن. ينبغي أن أعود إلى الديار مع والدي. ابحث في دوائر حالما تستطيع رؤية ما حولك، وأحضر لي السيف عندما تجده".

أجاب يونجن في الظلام: "سأفعل ما تطلبه مني".

تحرك بكتر إلى فرسه ليمتطيها، ولم يرَ تعبير وجه إيلوك على ما جرى. كان العالم يتغير في تلك اللحظات، ولم يكن إيلوك يعرف ما سيحمله النهار لأي منهما.

مسحت هولن الدموع عن عينيها عندما التقت أتباع زوجها. وجاء رجال ونساء الذئاب، متعطشين للحصول على المعلومات حالما انتشر نبأ إصابة

ياسوجي. كانت تتمنى أن تكون لديها معلومات أكثر تخبرهم بها، لكن ياسوجي لم يكن قد أفاق من غيبوبته بعد، ويتمدّد داخل الخيمة تحت الظلال الباردة، وجلده يشتعل من الحمّى. ولم يتزحزح أحد منهم من مكانه عندما حل النهار وارتفعت الشمس عالياً فوق رؤوسهم.

قالت: "ما زال حياً. لقد نظفت جرحه، لكن لم يستعد وعيه بعد".

أومأ إيلوك برأسه، ولم تستطع سوى أن تلاحظ كيف نظر المحاربون الآخرون إليه. وكان كشيون وتيموج هناك مع خاسار، يقفون مصدومين وشاحبين بعد رؤية والدهم في حالة يرثى لها. كان ياسوجي يبدو أصغر حجماً تحت الأغطية، وقد أخاف ضعفه أولاده أكثر من أي شيء عرفوه من قبل. لقد كان قوة كبيرة في حياتهم، ولم يكن احتمال عدم تعافيه بعيداً. كانت هولن تخاف عليهم جميعاً، رغم أنها لم تذكر ذلك علانية. دون وجود ياسوجي لحمايتهم، كانت ترى جشعاً في عيون الرجال الآخرين، وكان إيلوك على وجه الخصوص يخفي ابتسامة عندما يتكلم إليها رغم أن كلماته كانت لطيفة عموماً.

قالت للمحاربين: "سأخبركم إذا أفاق". ودخلت خيمتها بعيداً عن نظرات اهتمامهم البارد. كانت ابنتها تيمولن في المهد تبكي لأنها بللت نفسها. وبدا أن الصوت مطابق للصراخ في داخلها والذي استطاعت بالكاد كبحه. ولم تكن تستطيع إطلاقه، ليس فيما أولادها يحتاجون إليها.

دخل تيموج معها إلى الخيمة، وكان فمه الصغير يرتعش أسى. ضمته هولن بين ذراعيها ومسحت دموعه، رغم أن عينيها ذرفتا الدموع بقوة. وبكيا معاً إلى جانب ياسوجي. كانت تعرف أن الخان لا يستطيع سماعهما.

سأل تيموج: "ماذا سيحدث إذا لم يعش؟"

ربما كانت ستجيبه، لكن الباب انفتح بقوة ودخل إيلوك منه. وشعرت هولن بغضب عارم لأنه رآها على تلك الحال، ومسحت دموعها عن عينيها

بسرعة.

قال إيلوك: "أرسلت أبناءك الآخرين لرعاية القطعان هذا اليوم، وإبعاد أذهانهم عما حدث لوالدهم".

ربما تكون قد تخيلت ذلك، لكنها اعتقدت مجدداً أنها رأت وميض ارتياح عندما نظر إلى ياسوجي الذي يرقد بلا حراك، والذي سرعان ما اختفى.

قالت: "كنت قوياً عندما احتاجت القبيلة لذلك يا إيلوك. سيشكرك زوجي بنفسه عندما يسترد وعيه".

أومأ إيلوك برأسه كما لو أنه سمع ما قيل بصعوبة، ومشى في الخيمة إلى حيث يستلقي ياسوجي. وانحنى ليضع يده على جبين الخان، وأطلق صفيراً خافتاً عندما شعر بحرارته. شم الجرح، وكانت تعرف أنه يستطيع شم التعفن الذي أصاب اللحم.

قالت هولن: "سكبت سائلاً مغلياً على الجرح. لديَّ أعشاب للتخفيف من الحمّى". وشعرت بأن عليها أن تتكلم لتكسر الصمت وحسب. وبدا أن إيلوك تغير وأصبح أكثر مكراً منذ أن أعاد ياسوجي. كان يتحرك مختالاً مع الرجال، وعيناه تتحديانها كلما تكلمت. كانت تشعر بالحاجة لذكر ياسوجي في كل مرة يتحدثان فيها، كما لو أن اسمه يبقيه في العالم. كان التفكير بالخيار البديل مرعباً، ولم تكن تجرؤ على توقع ما سيحدث في المستقبل. ينبغي أن يبقى ياسوجي على قيد الحياة.

قال إيلوك بلطف: "ارتبطت عائلتي بعائلته منذ الولادة. لقد كنت مخلصاً دائماً".

"إنه يعرف ذلك يا إيلوك. أنا واثقة أنه يستطيع سماعك الآن ويعرف أنك الأول بين رجاله".

قال إيلوك بلطف: "إلاّ إذا مات". واستدار نحوها: "إذا مات، تنتهي عهودي".

نظرت هولن إليه باشمئزاز شديد. ورغم أن الكلمات لم تخرج من فمها، إلاّ أن العالم استمر في الدوران واستطاعت إخفاء رعبها. كانت تخاف أن يتكلم مجدداً عما قد يجرؤ على قوله.

قالت بصوت مرتعش خانتها نبرته: "سينجو من هذا يا إيلوك. ستزول الحمّى، وسيعرف أنك بقيت مخلصاً له في أشد حالاته سوءاً".

بدا أن شيئاً يسري بين أتباع زوجها، وهزّ إيلوك رأسه وقد اختفى الحرص من عينيه.

قال: "نعم. ما زال الوقت مبكراً". ونظر إلى وجه وصدر ياسوجي الشاحبين. كانت الضمادات مبللة بالدماء الداكنة اللون، لمسها وتلوثت أصابعه بلطخة حمراء. وقال كما لو أنه يحدث نفسه: "ورغم ذلك، لديَّ ولاء للعائلات. ينبغي أن تبقى قوية، وأن أفكر في الذئاب والأيام القادمة".

سحبت هولن أنفاسها بصعوبة بالغة فيما كانت حقائق حياتها تتحطم أمامها. وفكرت في أبنائها، ولم تستطع تفسير التعبير الذي ظهر على وجه إيلوك. إنهم أبرياء، وسيعانون الأمرّين.

غادر إيلوك دون أن ينطق بكلمة أخرى، كما لو أن آداب المجاملة لم تعد تعنيه. وربما كان الأمر كذلك، كانت قد رأت في وجهه رغبة عارمة لامتلاك السلطة، والتي لم يكن يحاول إخفاءها إطلاقاً. وحتى إذا قفز ياسوجي معافى عن سريره، كانت تعتقد أن الأمور لن تعود كما كانت في السابق مجدداً بعد أن أفصح إيلوك عن مكنونات قلبه.

سمعت تيموج ينشج وفتحت ذراعيها له مرة أخرى، واستراحت عندما عانقته بقوة. وبكت ابنتها التي افتقرت لرعاية أمها في المهد.

سألها الفتى الصغير وهو ينشج: "ماذا سيحدث لنا؟"

هزّت هولن رأسها فيما كانت تحتضنه لأنها لم تكن تعرف.

شاهد بكتر المحارب الذي تركه للبحث عن سيف والده. كان الرجل يمشي

بسرعة بين الخيام مطرقاً رأسه يفكر. وحيّاه بكتر، لكن بدا كما لو أنه لا يسمعه وأسرع الخطى. وتقطب جبين بكتر وجرى خلفه، وأمسك به من مرفقه.

سأله: "لماذا لم تأتِ إليَّ يا يونجن؟ هل وجدت سيف والدي؟" وشاهد عيني يونجن تطرفان من فوق كتفه، وعندما استدار، كان إيلوك هناك، يراقبهما.

لم يستطع يونجن النظر في عيني إيلوك عندما حدّق به.

قال يونجن: "لا، لا، لم أجده. أنا آسف". وسحب ردن ثوبه وتابع طريقه.

حدّق تيموجن من خلال الأعشاب الطويلة تحت ضوء القمر الأبيض. ولم يكن الابتعاد عن خيمة شولوي صعباً، كانت رائحة بوله ما تزال تفوح في الهواء. وكانت زوجة شولوي وابنته تغطان في نوم عميق عندما خرج الرجل العجوز من خيمته يترنح في مشيته ليريح مثانته قبل وقت قصير فقط. كان تيموجن يعرف أنه لن يمر وقت طويل قبل أن يلاحظوا غيابه، لكنه لم يكن يجرؤ على الاقتراب من حظائر الجياد. كان أولخونوت يحرسون جيادهم، وحتى إذا لم يكن الأمر كذلك، كان إيجاد فرسه القدم البيضاء في الظلام ضمن كل الجياد الأخرى أمراً مستحيلاً تقريباً. ولم يكن الأمر مهماً، لأن فريسته كانت تمشي سيراً على الأقدام.

كان لون السهول فضياً عندما تحرك تيموجن بهدوء بين الأعشاب، حريصاً على أن لا ترتطم قدمه بحجر ربما يلفت انتباه الفتى الأكبر سناً أمامه. لم يكن يعرف إلى أين يتجه كوكي. ولم يكن يهتم. وعندما شاهد شكلاً يتحرك بين الأعشاب، راقبه عن كثب، وبقي في مكانه صامتاً تماماً. وبعد قضاء سبعة أيام مع أولخونوت، أصبح يعرف مشية كوكي المختالة جيداً. وفي اللحظة التي تعرف بها تيموجن عليه، تبعه بصمت وقد تحفّز للمطاردة. ولم يكن قد خطط للأخذ بثأره في تلك الليلة، لكنه لم يكن ليفوِّت مثل تلك الفرصة الرائعة. كان العالم نائماً، وفي ضوء القمر الشاحب، لم يكن هناك سوى شخصين يتحركان في بحر الأعشاب.

راقب تيموجن الفتى الأكبر سناً بتركيز شديد. ومشى على أطراف أصابعه، مستعداً للجثو في مكانه إذا أحس به كوكي. في ضوء القمر، تخيل للحظة أنه يتبع شبحاً يستدرجه إلى حيث ستسرق الأرواح الشريرة حياته منه. كان والده قد روى قصصاً عن العثور على فرسان متجمدين حتى الموت، وعيونهم شاخصة على شيء مرعب بعيد، وقد سيطر عليهم الشتاء وأوقف

قلوبهم. ارتعش جسد تيموجن عندما تذكر ذلك. كانت الليلة باردة، لكنه كان يستمد الدفء من غضبه، الذي كان قد رعاه وربّاه خلال الأيام الصعبة مع القبيلة، ومن الإهانات والضربات التي تلقاها. قبض على أصابعه كمن يحمل سكيناً، لكنه فكّر بأنه قوي بما فيه الكفاية ليضرب كوكي بيديه العاريتين. ورغم أن قلبه خفق بقوة، إلاّ أنه شعر بالانتعاش والخوف معاً. وقال في نفسه فيما كان يتبع كوكي إن هذا الأمر يبعث فيه الحيوية، وأنه يستمد قوة من كونه الصياد.

لم يتجول كوكي على غير هدى. وشاهده تيموجن يدخل في ظل إحدى التلال. ومهما كان الذي سيلاحظه حراس أولخونوت، فلا بد أنهم سيعتقدون أنه عدو لهم. لن يشاهدوا أياً من الفتيين في ذلك الظلام الدامس، وأصاب تيموجن القلق من فقدانه لأثر فريسته. وهرول تيموجن عندما عبر كوكي الخط الأسود واختفى عن الأنظار. تسارعت أنفاس تيموجن قليلاً في صدره، لكنه تحرك بحرص كما تعلم، ولم يصدر عنه أي صوت سوى وقع حذائه الطري. وقبل أن يعبر الحد الفاصل إلى الظلال، شاهد كومة من الحجارة في طريقه، والتي كانت نوعاً من النصب التذكارية للأرواح. ودون أدنى تفكير، توقف والتقط حجراً بحجم قبضته، ووازنه في يده بسعادة بالغة.

طرفت عينا تيموجن عندما مشى إلى المنطقة التي يكللها الظلام الدامس، يبحث عن أثر لكوكي. ولن يكون مناسباً أن يتعثر به، أو الأسوأ، بمجموعة من فتيان أولخونوت يتجرعون شراب الأعشاب الأسود المسروق. كان الأكثر إزعاجاً أيضاً أن يكون كوكي يستدرجه عمداً ليتلقى جولة أخرى من الضرب المبرّح. هزّ تيموجن رأسه لطرد تلك الأفكار منه. لقد كانت طريقه مرسومة، ولن يعود أدراجه الآن.

سمع أصواتاً منخفضة أمامه وتجمد في مكانه، وحدّق في الظلام ليرى

المصدر. وبوجود التل الذي يحجب ضياء القمر، كان أعمى تقريباً، وسال العرق على جلده مع كل خطوة كانت تجعله أكثر قرباً من الصوت. كان يستطيع سماع ضحكة كوكي المنخفضة يتبعها صوت آخر بعدها، أكثر رقة. وابتسم تيموجن في قرارة نفسه. لقد وجد كوكي لنفسه فتاة مستعدة للمخاطرة بإثارة غضب والديها. وربما يكونان منشغلين بنفسيهما ويستطيع مفاجأتهما وهما غافلان. واستثارته الرغبة بأن يخطو باتجاههما ويهاجمهما، لكنه قرر الانتظار حتى يشق كوكي طريقه عائداً إلى المخيم. كان يعرف أن الفوز بالمعارك ممكن إما بالخدعة أو بالسرعة والقوة. لم يكن يستطيع تحديد مكانهما بالتحديد، لكنهما كانا قريبين منه بما فيه الكفاية منه ليسمع كوكي يبدأ الهمهمة بشكل متواصل. وابتسم تيموجن لدى سماعه الصوت، واستلقى إلى الخلف على صخرة وانتظر بصبر التحرك نحو الهجوم.

لم يستغرق الأمر طويلاً. وتحرك ضياء القمر عرض ذراع، وأضاء البقعة المظلمة عند أسفل التل، وسمع تيموجن أصواتاً تتكلم مرة أخرى، تبعها ضحكة الفتاة الخافتة. وتساءل عن الشابة التي خرجت في الظلام، ووجد نفسه يتخيل وجوه أولئك اللواتي عرفهن خلال قيامه بتنظيف جزّات الصوف. كانت واحدة - أو اثنتان - منهن سريعة البديهة، وقد أحرقت الشمس جلودهن. كان يجدهن مثيرات بشكل غريب عندما ينظرن إليه، رغم أنه افترض أن ذلك ما يشعر به كل الرجال نحو امرأة جميلة. كان مخجلاً أن لا يشعر بالشيء نفسه نحو بورت، التي كانت تبدو غاضبة دائماً عندما يكون موجوداً. في حال كانت فارعة الطول ورشيقة، لربما كان قد وجد بعض السعادة في خيار والده.

سمع تيموجن وقع أقدام وحبس أنفاسه. كان هناك شخص قادم على الطريق، ودفع نفسه على الصخرة التي كان يستلقي عليها، متمنياً أن لا

يشعرا بوجوده. وعرف بعد فوات الأوان أنه كان ينبغي عليه أن يخفي نفسه بين الأعشاب الطويلة. وإذا جاءا معاً، سيكون عليه مهاجمتهما معاً أو السماح لهما بالمرور. بدأت رئتاه تتحركان بقوة، وكان يشعر بنبضه مثل طبل كبير في أذنيه. وبدا أن الأنفاس تتمدد داخله فيما كان جسده يصرخ طلباً للهواء والشكل الغامض يقترب منه.

راقب تيموجن بانزعاج مؤلم شخصاً يمر على بعد خطوات منه. وكان شبه واثق أنه ليس كوكي. وكانت الخطوات رقيقة للغاية وشعر بأن الخيال ليس كبيراً بما فيه الكفاية ليكون لعدوه. وخفق قلبه بقوة عندما مرت الفتاة، واستطاع إطلاق أنفاسه ببطء. وللحظة، شعر بالدوار المترافق مع الإجهاد، ثم استدار إلى الجهة التي كان يعرف أن كوكي سيأتي منها، ومشى إلى الطريق لينتظره.

سمع خطوات أخرى وسمح للفتى الكبير بالاقتراب قبل أن يتكلم، مستسيغاً الصدمة التي سيسببها صوته.

همس تيموجن: "كوكي!"

قفز الخيال المتحرك رعباً.

همس كوكي بصوت يمتلئ رعباً وشعوراً بالذنب: "من هذا؟"

لم يسمح له تيموجن بأن يتدارك الموقف، وأطلق قبضته بالحجر الذي يحمله. وكانت ضربة ضعيفة في الظلام، لكنها جعلت كوكي يترنح. وشعر تيموجن بشيء ما، ربما مرفق في معدته، لكنه أطلق اللكمات بغضب عارم، انفلت من عقاله أخيراً. ولم يكن يستطيع رؤية عدوه، لكن الظلام منحه قوة فيما كانت قبضتاه وقدماه تضربان مراراً وتكراراً بهياج حتى سقط كوكي، وجثا تيموجن على صدره.

كان قد فقد الحجر في الصراع الصامت، وبحث عنه حوله فيما كان يمسك بالشكل المظلم تحته. حاول كوكي طلب المساعدة، لكن تيموجن ضربه

مرتين على وجهه، ثم تابع بحثه عن الحجر الذي وجدته أصابعه، والتفَّت حوله. وشعر بأن غضبه يزداد عندما كان يرفعه، وأصبح مستعداً لزهق حياة معذبه.

جاءه صوت من الظلام يقول: "تيموجن!"

تجمد كلا الشابين، رغم أن كوكي تأوه لدى سماعه الاسم. وتصرف تيموجن بشكل غريزي، فنهض عن غريمه وهجم بنفسه على التهديد الجديد. وارتطم بجسد صغير وجعله يرتطم أرضاً بعد أن أطلق صرخة تعرف عليها. وسمع كوكي ينهض خلفه على قدميه ويولي الأدبار، والحجارة تتطاير من وقع خطواته على الطريق.

أمسك تيموجن بذراعي الجسد الجديد، وعرف كم هما نحيلتان. وأطلق اللعنات في قرارة نفسه.

همس رغم أنه كان يعرف الجواب: "بورت؟ ما الذي تفعلينه هنا؟"

قالت: "لحقت بك".

كان يعتقد أنه يستطيع رؤية عينيها تومضان، وأنهما ستعكسان شعاعاً باهتاً لن يستطيع التل أن يحجبه. كانت تلهث خوفاً أو إجهاداً، وتساءل كيف استطاعت المشي خلفه دون أن يلحظ وجودها.

قال تيموجن: "تركته يهرب بعيداً". وللحظة، بقي يضغط عليها، غاضباً مما قد أخذته منه. وعندما يخبر كوكي بقية أفراد أولخونوت عما جرى، سيتعرض للضرب أو ستتم حتى إعادته إلى دياره محملاً بالعار. لقد تغير مستقبله بكلمة واحدة. ومع لعنة، سمح لها بالإفلات منه وسمعها تجلس وتفرك ذراعيها. كان يشعر بأن عينيها تحدقان به، ونتيجة لذلك، رمى بالحجر إلى أبعد ما يستطيع واستمع إلى صوت ارتطامه في مكان ما بعيد.

قال بصوت طبيعي أكثر: "لماذا لحقت بي؟" وكان يريد سماعها تتكلم مجدداً. وفي الظلام، لاحظ أن صوتها كان دافئاً وخافتاً، وأكثر عذوبة عندما

لا يرى هزالها وعينيها المتلألئتين اللتين تلفتان الأنظار.

أجابت: "اعتقدت أنك تهرب".

وقفت، ونهض معها، محاولاً الاستفادة من قربه منها، رغم أنه لم يكن يستطيع معرفة سبب ذلك.

قال: "كنت أعتقد أنك ستكونين مسرورة لرؤيتي أهرب".

"أنا... أنا لا أعرف. لم تقل لي كلمة طيبة منذ جئت إلى العائلة. لماذا أرغب ببقائك؟"

طرفت عينا تيموجن. وخلال وقت قصير جداً كانا قد تحدثا مع بعضهما البعض أكثر ما فعلاه في الأيام السابقة. ولم يكن يريد لذلك أن ينتهي.

"لماذا أوقفتني؟ سيهرب كوكي عائداً إلى إنك ووالدك. وعندما يكتشفان غيابنا، سيخرجان للبحث عنا. وسنواجه وقتاً عصيباً عندما يعثران علينا".

"ذلك الفتى مغفل. لكن قتله سيكون عملاً شريراً".

مدّ يده في الظلام دون أن يرى شيئاً، وأمسك بذراعها. وبعثت اللمسة الراحة في كليهما، وتكلمت مجدداً لتخفي حيرتها.

"ضربه شقيقك حتى كاد يقتله تقريباً يا تيموجن. لقد أمسك به وضربه حتى صرخ مثل طفل صغير. إنه خائف منك، ولهذا يكرهك. سيكون من الخطأ إلحاق الأذى به مجدداً. سيكون الأمر مثل ضرب كلب بعد أن يفرغ مثانته. إن روحه المعنوية محطمة سلفاً".

استنشق تيموجن الهواء ببطء، وخرج يرتعش منه. قال: "لم أكن أعرف". رغم أن وقع الكثير من كلماتها كان لها أصداؤها لديه، مثل عظام تطقطق في ذاكرته. لقد كان كوكي شريراً، لكن عندما فكّر تيموجن بالأمر، تذكر أن نظرة ذلك الفتى لطالما كانت مليئة بالخوف. وللحظة واحدة، لم يكن يهتم بذلك وتمنى لو أنه أنزل الحجر على وجهه، لكن بورت اقتربت منه آنذاك، ووضعت يدها على وجنته.

قالت: "أنت... غريب يا تيموجن". وقبل أن يجيب، مشت مبتعدة عنه في الظلام.

ناداها قائلاً: "انتظري! نستطيع أن نعود معاً".

قالت: "سيضربوننا. ربما سأهرب بدلاً من ذلك. ربما لن أعود على الإطلاق".

اكتشف أنه لم يعد يطيق فكرة أن يضربها شولوي، وتساءل عما سيقوله والده إذا اصطحبها معه قبل الأوان إلى خيام الذئاب.

"إذاً، تعالي معي. سنمتطي فرسي ونذهب للديار".

أطرق السمع انتظاراً لجوابها، لكنه لم يأتِ.

نادى: "بورت!"

انطلق يجري وعاد إلى حيث ضياء القمر يغطي المكان وقلبه يخفق بقوة. ورأى شكلها الممشوق بعيداً عنه، ووسع خطواته حتى أصبح يجري بأقصى سرعته على الأعشاب. خطرت له فكرة أنه سيكون مرغماً على الجري صعوداً وهبوطاً على التلال ولعابه يسيل، وأن عليه أن يبصقه في النهاية ليظهر أنه يتنفس من فمه بطريقة مناسبة. وكان يجري بسهولة دون جهد يذكر، وذهنه معلق باليوم الذي سيأتي. ولم يكن يعرف ما عليه فعله، لكنه كان قد وجد شيئاً ثميناً في الليل. ومهما حدث، كان يعرف أنه لن يسمح لأحد بإيذائها مجدداً. فيما كان يجري، سمع الحراس ينفخون في أبواقهم على التلال المحيطة كلها، ويطلقون الإنذار للمحاربين في الخيام.

كانت الفوضى تعمّ المخيم عندما وصل تيموجن إليه. وكانت ملامح الفجر الأولى قد بدأت بالظهور، لكن المشاعل كانت مضاءة، وتنشر من زيتها ضوءاً أصفر يكشف الأشكال التي تجري هنا وهناك. واعترض طريقه مرتين رجال متوترون يحملون أقواساً جاهزة لإطلاق السهام. كان المحاربون يمتطون جيادهم آنذاك وينطلقون في كل اتجاه، مثيرين الغبار والارتباك.

وفي عيني تيموجن، كانوا يفتقرون للتركيز ولوجود سلطة مركزية بينهم. وفي حال كان الأمر يخص الذئاب، كان يعرف أن والده سيهيمن على المشهد، ويرسل المحاربين لحماية الخيام من المهاجمين. شاهد للمرة الأولى ما كان ياسوجي قد رآه من قبل، فقد كان يوجد الكثير من رماة السهام والقناصين البارعين في أولخونوت، لكنهم لم يكونوا منظمين لخوض حرب.

شاهد تيموجن إنك يعرج بين الخيام، وأمسك به من ذراعه. ومع صوت غاضب، حرّر إنك نفسه، وأمسك بتيموجن بدوره.

صرخ إنك: "إنه هنا!"

أصيب تيموجن بالصدمة تلقائياً، ودفع بخاله ليتخلص من قبضته. وكانت هناك مجموعة من المحاربين تتحرك نحوه، وقبل أن يستطيع الهروب، أمسكت به يدان قويتان وحملتاه عبر الأرض المكشوفة. ومشى مترنحاً، كما لو أنه مصاب بالدوار، كان يأمل بأن تخف تلك القبضة برهة من الزمن وتسمح له بالتحرر منها. وكان ذلك أملاً زائفاً، لكنه لم يستطع أن يفهم ما يحدث، كان الرجال الذين يحملونه غرباء. إذا استطاع الوصول إلى فرسه، سيحظى بفرصة للهروب من العقاب الذي ينتظره. ومشى الجميع عبر فسحة يكشفها ضوء المشاعل، وابتلع تيموجن ريقه بصعوبة عندما شاهد أن أولئك الذين يقودونه هم أتباع الخان، وكانوا متجهمين ويرتدون دروعاً جلدية داكنة اللون.

كان قائدهم سانسار رجلاً لم يشاهده تيموجن سوى من بعيد في الأيام التي قضاها بين العائلات. وكافح لتحرير نفسه من قبضتهم لكنّ أحد الأتباع لطمه على وجهه مما جعل الشرر يتطاير من عينيه. ألقوه أرضاً دون سابق إنذار عند باب خيمة الخان. وقبل أن يستطيع الدخول إليها، فتّشه أحدهم بدقة كبيرة، ثم دفع به عبر الباب المفتوح ليسقط على أرض من الخشب الأصفر المصقول الذي يتوهج بلون الذهب في ضوء المشاعل.

في الخارج، استمر صهيل الجياد وصرخات المحاربين، لكن تيموجن نهض على ركبتيه على مشهد بالغ التوتر. وإضافة إلى الخان نفسه، كان هناك ثلاثة من أتباعه يقفون حراساً وسيوفهم خارج أغمادها. نظر تيموجن حوله إلى وجوه الغرباء، وشاهد فيها الغضب، ولدهشته، القليل من الخوف أيضاً. وربما كان سيبقى صامتاً، لكن بصره وقع على رجل يعرفه وصرخ من الدهشة.

قال وهو ينهض على قدميه: "باسان! ماذا حدث؟" وأرسل وجود تابع والده إشارة خوف إلى معدته.

لم يرد أحد، وأشاح باسان بنظره بعيداً خجلاً. وتذكر تيموجن نفسه وتورّد حياءً، وأخفض رأسه لخان أولخونوت.

قال بصوت منخفض: "مولاي الخان".

كان سانسار رجلاً نحيل الجسد، مقارنة بحجم إيلوك أو ياسوجي. ووقف وقد عقد ذراعيه خلف ظهره، وسيفه على ردفه. وكان تعبير وجهه هادئاً، وتعرق تيموجن عندما أحس بهم يتفحصونه. وتكلم سانسار أخيراً، بصوت واضح وقاسٍ.

قال: "سيشعر والدك بالعار إذا رآك تتكلم بهذه الطريقة. اضبط نفسك أيها الفتى".

فعل تيموجن ما طلب منه، وتحكم بتنفسه وشد ظهره. وعدّ حتى العشرة في ذهنه، ثم رفع عينيه مرة أخرى.

"أنا مستعد يا مولاي".

أومأ سانسار برأسه وعيناه تتفحصانه.

"أصيب والدك بجرح خطير أيها الفتى، وربما يموت".

شحب وجه تيموجن قليلاً، لكنه بقي خالياً من أي تعبير. واستطاع أن يرى الحقد على وجه خان أولخونوت، وعقد العزم فجأة على عدم إظهار

أي ضعف أمامه. لم يقل سانسار شيئاً، وربما كان يأمل برد فعل ما. وعندما لم يأتِ، تكلم مجدداً.

"أولخونوت تواسيكم في محنتكم. سأرسل من يطوف السهول بحثاً عن الذين تجرأوا على مهاجمة خان. سيعانون كثيراً".

منحت نبرة صوته النشيطة الكذبة بعض المصداقية. وسمح تيموجن لنفسه بإيماءة صغيرة، رغم أن ذهنه كان مشغولاً ويريد أن يطرح أسئلة على الأفعى العجوز الذي استطاع بالكاد إخفاء سعادته من محنته.

بدا أن سانسار يجد صمت تيموجن مثيراً للغضب. ونظر إلى باسان الذي كان يجلس مثل تمثال إلى يمينه.

"يبدو أنك لن تكمل سنتك مع قومنا أيها الفتى. هذا وقت خطير، وعندما تلوح نذر المخاطر، من الأفضل التصدي لها. ورغم ذلك، الصواب أن تعود لتحزن على والدك".

شدّ تيموجن على فكه بقبضته. ولم يكن يستطيع البقاء صامتاً بعد ذلك.

سأل: "هل يحتضر، إذاً؟"

هسّ سانسار، لكن تيموجن تجاهله، واستدار لينظر إلى تابع والده.

قال: "ستجيبني عندما أسأل يا باسان".

نظر إليه التابع ثم رفع رأسه قليلاً، وكان التوتر ظاهراً. وفي خيمة خان آخر، كان تيموجن يخاطر بحياة كليهما لخرقه التقاليد، حتى بعد سماعه مثل ذلك النبأ. وظهر من عيني باسان أنه يعرف الخطر، لكنه كان ذئباً أيضاً.

أجاب باسان بصوت ثابت: "أصيب بجرح بالغ. إنه قوي كما كان دائماً، واستطاع العودة إلى العائلات حياً، لكن... مضت ثلاثة أيام. لا أعرف".

أجاب تيموجن: "يكاد الفجر أن يبزغ". وثبت بصره على خان أولخونوت وأحنى رأسه مرة أخرى. "الأمر كما قلت يا مولاي. ينبغي أن أعود لقيادة

قومي".

تحرك سانسار قليلاً عندما سمع ذلك، ولمعت عيناه.

"اذهب مع بركتي يا تيموجن. ليس لديك سوى الحلفاء هنا".

أجاب تيموجن: "أفهم ذلك. أحيي أولخونوت. بعد إذنك، سأنصرف وأبحث عن فرسي. أمامي طريق طويلة".

وقف الخان وعانق تيموجن بشكل أفزعه.

قال: "أسأل الأرواح أن ترشد خطواتك".

أحنى تيموجن رأسه للمرة الأخيرة وخرج إلى الظلمة، وتبعه باسان.

عندما ابتعدا، استدار خان أولخونوت نحو أتباعه الموثوقين، وضرب قبضة إحدى يديه بالأخرى.

قال بحدّة: "كان ينبغي أن يكون الأمر سهلاً! بدلاً من ذلك، العظام تتطاير ولا نعرف أين ستقع". وتناول رشفة من شراب أسود من كوب يحمله، وسكب خيطاً رفيعاً من السائل إلى مؤخرة حلقه، ومسح فمه بغضب.

"كان ينبغي أن أعرف أن التتار لا يستطيعون قتل حتى رجل واحد دون أن يثيروا فوضى عارمة. لقد سلمته لهم. كيف تركوه حياً؟ لو أنه اختفى ببساطة، لن يكون هناك دليل على تورطنا في الأمر. إذا عاش، سيتساءل كيف استطاع التتار إيجاده. لن تُسفك الدماء قبل حلول الشتاء. أشيروا عليّ بما ينبغي فعله!"

كانت وجوه الرجال المتواجدين معه خالية من أي تعبير، وأصيب بالقلق عندما نظر إليهم. قال سانسار ساخراً: "اخرج وبدد مخاوف المخيم. ليس هناك أعداء هنا عدا أولئك الذين دعوناهم. ابتهل حتى يكون خان الذئاب ميتاً الآن".

مشى تيموجن بين الخيام دون هدى يبحث عن السكينة. وما عرفه كان

مستحيلاً. لقد كان والده محارباً بالفطرة، ولا يستطيع رجلان من الذئاب القضاء عليه بالسيف. وكان يعرف أن عليه سؤال باسان عن التفاصيل، لكنه لم يجرؤ على سماعها. وطالما بقي صامتاً، ربما يكون النبأ كذبة أو خطأ. وفكّر بوالدته وأشقائه، ثم توقف فجأة مما جعل باسان يصطدم به. لم يكن جاهزاً لتحدي بكتر، إذا كان النبأ صحيحاً.

سأل تابع والده: "أين فرسك؟"

أجاب باسان: "مربوطة إلى وتد في الطرف الشمالي من المخيم. آسف لأنني حملت مثل تلك الأنباء...".

"تعال معي أولاً. لديَّ شيء أقوم به قبل أن أغادر. اتبع أوامري". ولم ينظر ليرى كيف يتصرف باسان، وربما لذلك السبب أومأ الرجل برأسه وأطاع ابن ياسوجي اليافع.

مشى تيموجن بين خيام أولخونوت فيما كان أفراد القبيلة ينطلقون مسرعين في كل اتجاه وقد أفاقوا من الصدمة. كانت أبواق الإنذار قد انطلقت لدى اقتراب باسان، لكنهم تصرفوا بفزع. وتأفف تيموجن متسائلاً ما إذا كان سيقود يوماً ما فرقة لغزو هذه الخيام نفسها. أخيراً، بزغ الفجر، وعندما وصل إلى نهاية الخيام، شاهد شكل شولوي المميز يقف عند بابه وهو يحمل فأس حطب بين يديه. ولم يتردد تيموجن، ومشى إلى حيث يمكن للرجل العجوز أن يصيبه بسلاحه.

سأل: "هل بورت هنا؟"

تقطب جبين شولوي من التغير في أسلوب كلام الفتى، والذي كان سببه دون شك المحارب الذي يقف متجهماً للغاية إلى جانبه. ورفع شولوي رأسه بعناد.

"ليس بعد أيها الفتى. اعتقدت أنها ربما تكون معك. حاول شقيقك الشيء نفسه مع الفتاة التي منحوها له".

تردد تيموجن، وقد فقد زخم اندفاعه.

"ماذا؟"

"أخذ فتاته باكراً، مثل زوجين من الماعز. ألم يقل ذلك؟ إذا كنت قد فعلت الشيء نفسه، سأقطع يديك أيها الفتى، ولا تعتقد أنني أخاف من تابع والدك أيضاً. لقد قتلت رجالاً أشد منه بأساً بيديّ العاريتين وحدهما. ستتكفل الفأس بكما".

سمع تيموجن صوت الفولاذ عندما سحب باسان سيفه من غمده، لكن قبل أن ينفجر الموقف، وضع تيموجن يداً على ذراع المحارب، وأوقفه بلمسة واحدة.

"لم أؤذِها. لقد منعتني عن قتال كوكي. هذا كل شيء".

تقطب جبين شولوي.

"طلبت منها أن لا تغادر الخيمة أيها الفتى. هذا ما يهم".

اقترب تيموجن خطوة من الرجل العجوز.

"عرفت الليلة أكثر مما كنت أرغب بمعرفته. ومهما تكن الحقيقة، أنا لست مثل شقيقي. سأعود من أجل ابنتك عندما تحيض. سآخذها لتكون زوجة لي. وحتى ذلك الوقت، لن تضع يدك عليها مجدداً. ستجعلني عدوك إذا أصبتها بخدش واحد أيها الرجل العجوز. ولا تريدني أن أكون عدوك. وإذا منحتني سبباً، ستعاني أولخونوت".

أصغى شولوي والتجهم بادٍ على وجهه، وفمه يرغي. وانتظر تيموجن بصبر حتى يترك له مجالاً للتفكير فيما قاله.

"إنها تحتاج إلى رجل قوي أيها الفتى، ليسيطر عليها".

قال تيموجن: "تذكر ذلك".

أومأ شولوي برأسه، وراقب الذئبين يمشيان بعيداً، وكان منظر السيف الذي يشهره باسان يبعثر فتية أولخونوت أمامهما. ورفع شولوي الفأس إلى

كتفه، ورفع غطاء الجلد عن ساقيه، وأخذ نفساً عميقاً.

قال دون أن ينظر حوله: "أعرف أنك هنا أيتها الفتاة، تتسللين من حولي". ولم تكن هناك إجابة، لكن الصمت أصبح متكلفاً وابتسم لنفسه، كاشفاً عن لثة سوداء: "أعتقد أنك وجدت لنفسك زوجاً مناسباً، إذا بقي حياً. لو كنت مكانك، لن أراهن على هذين الغريبين".

سمع تيموجن أبواق الذئاب حالما أصبح وباسان في مرمى أنظارهم، كانت الشمس تغرب خلفهما. وقاد عشرة محاربين جيادهم بتشكيل منتظم لاعتراضه، وكانت تلك قوة متقدمة من المحاربين الأشدّاء التي تستطيع التصدي لأي فرقة غزو. ولم يستطع منع نفسه من مقارنة رد الفعل المباشر ذلك بالهلع الذي أصاب محاربي أولخونوت الذين تركهم خلفه. كان صعباً أن يجعل فرسه تخفف سرعتها، لكن الأحمق فقط من يخاطر بأن يلقى حتفه قبل أن يتعرف عليه الآخرون.

نظر إلى باسان، ورأى توتراً جديداً يظهر عليه، ويطغو على الإجهاد الذي أصيب به بعد أن دفعه تيموجن لقطع المسافة إلى الديار في يومين فقط. ومشى كلاهما بشكل متواصل دون أن يناما، وعاشا على الماء وبعض اللبن الخاثر. لم يجعلهما الوقت الذي قضياه معاً صديقين، وحالما أصبحا في أرض مألوفة بالنسبة لهما، شعر تيموجن بأن المسافة تزداد بينهما. وكان التابع يتردد في الكلام، كما أن سلوكه أقلق تيموجن كثيراً. وخطر له أن المحاربين الذين يقتربون منه ربما يكونون الآن أعداء. ولم يكن يستطيع التأكد من ذلك، وكل ما كان يستطيع فعله هو الجلوس مستقيماً على السرج، كما سيرغب والده منه، فيما كان هؤلاء يقتربون منهما.

عندما أصبح المحاربون ضمن مسافة التحية، رفع باسان ذراعه اليمنى، مبيناً أنه لا يحمل سيفاً. وتعرف تيموجن إلى إيلوك بينهم وشاهد فوراً كيف يطيع الآخرون تابع والده. كان هو من أعطى إشارة التوقف، وكاد شيء حول ثقته بنفسه يجعل تيموجن يذرف دموع الذل. لقد عاد إلى الديار، لكن كل شيء تغير. كان يرفض أن يبكي أمامهم جميعاً، لكنّ عينيه كانتا تلمعان.

مدّ إيلوك يده، وأمسك بلجام فرس تيموجن. والتف الآخرون حولهما،

وبدأت الجياد تمشي خبباً مع بعضها، ومشت فرس تيموجن بالطريقة نفسها دون أمر منه. كان ذلك شيئاً صغيراً، لكن تيموجن شعر بغضب عارم لشد لجام فرسه بتلك الطريقة. ولم يكن يريد أن يقوده أحد إلى قبيلة والده مثل طفل صغير، لكن يبدو أن حصافته قد خانته.

قال إيلوك: "ما زال والدك حياً. إن جرحه متعفن، وهو يهذي من الحمّى منذ أيام".

قال تيموجن دون أن يأمل كثيراً: "إنه مستيقظ إذاً؟"

هزّ إيلوك كتفيه لا مبالياً. "أحياناً، إنه يصرخ ويقاتل أعداءً لا يراهم أحد سواه. إنه رجل قوي، لكنه لا يتناول الطعام وقد ذاب عضله مثل الشمع. ينبغي أن تكون مستعداً. لا أعتقد أنه سيعيش أطول من ذلك".

أحنى تيموجن رأسه إلى صدره، مغلوباً على أمره. وأشاح إيلوك بنظره بعيداً حتى لا يكلله بالعار في لحظة ضعفه. دون سابق إنذار، مدّ تيموجن يده، وسحب لجام فرسه من قبضة إيلوك.

"من المسؤول؟ هل سمّاه؟"

"ليس بعد، رغم أن والدتك تسأله كلما أفاق. إنه لا يتعرف عليها".

تنهد إيلوك في قرارة نفسه، وشاهد تيموجن إجهاده ينعكس على الرجل. لا بد أن الذئاب مصابون بالصدمة والخوف لأن ياسوجي يهذي وقد شارف على الموت. ولا بد أنهم يبحثون عن قائد قوي.

قال تيموجن: "ماذا عن شقيقي بكتر؟"

تقطب جبين إيلوك، وربما خمّن إلى أين تقود أفكار تيموجن.

"لقد خرج مع الفرسان للبحث في السهول". وتردد عندها، كما لو أنه يفكر بما سيقوله للفتى. "ينبغي أن لا تأمل بإيجاد أعداء والدك الآن. ولا بد أن أولئك الذين نجوا قد تبعثروا في أصقاع الأرض قبل أيام. لن ينتظرونا حتى نجدهم".

كان وجهه جامداً، لكن تيموجن شعر بغضب يعتمل في داخله. وربما لم يكن يحب فكرة تأثير بكتر على المحاربين. كان لا بد من القيام بالبحث على الأقل، وكان بكتر خياراً واضحاً لكن إيلوك لم يكن يرغب بظهور ولاءات جديدة بعيداً عنه. كان تيموجن يعتقد أنه يستطيع قراءة تابع والده جيداً، رغم محاولاته إخفاء ما يدور في نفسه. وسيكون الرجل أحمق إذا لم يفكر بالخلافة في ذلك الوقت. كان تيموجن بالتأكيد يافعاً جداً، وبكتر على مشارف اكتمال الرجولة. ومع دعم إيلوك، يستطيع أي منهما قيادة القبيلة، لكن البديل كان واضحاً وخطيراً. وأجبر تيموجن نفسه على الابتسام عندما واجه الرجل الذي يشكل تهديداً أكبر من ذلك الذي تشكله أولخونوت.

"لقد أحببت والدي، مثلي تماماً، يا إيلوك. ما الذي سيرغب به للذئاب إذا مات؟ هل يريدك أنت أن تقودهم؟"

تسمّر إيلوك في مكانه كما لو أنه أصيب بصدمة، والتفت ووجهه ينقط سماً نحو الفتى الذي كان يمتطي فرسه إلى جانبه. ولم يفزع تيموجن من ذلك، ولكنه شعر بدوار، وفي تلك اللحظة، لم يكن يهتم إذا قتله إيلوك. ولا أهمية لما يحمله المستقبل، فقد اكتشف أنه يستطيع تبادل النظرات مع إيلوك دون وجل.

قال إيلوك: "كنت مخلصاً طوال حياتي، لكنّ أيام والدك قد انتهت. سيراقبنا أعداؤنا لاستغلال ضعفنا عندما ينتشر الخبر. وسيأتي التتار في الشتاء ليغيروا على قطعاننا، وربما حتى أولخونوت، أو كيريت، فقط ليتأكدوا أنه ما زال باستطاعتنا الدفاع عمّا هو لنا". وشدّ قبضته على لجام فرسه، وأشاح بوجهه بعيداً عن تيموجن، غير قادر على النظر إلى العينين الصفراوين الشاحبتين اللتين تراقبانه.

"تعرف ما كان يرغب بأن يحدث يا إيلوك. تعرف ما ينبغي عليك فعله".

"لا. لا، لا أعرف أيها الفتى. أعرف ما تفكر فيه، وسأقول لك الآن إنك

يافع جداً لتقود العائلات".

ابتلع تيموجن مرارته وكبرياءه بصعوبة بالغة.

"بكتر إذاً. لا تخن والدنا يا إيلوك. لقد عاملك مثل شقيق طوال حياته. أكرمه الآن بمساعدة ابنه".

لدهشة تيموجن، دفع إيلوك عقبيه على جانبي الفرس وقادها ليكون أمام المجموعة وقد تورّد وجهه غضباً. ولم يجرؤ تيموجن على النظر إلى الرجال حوله. ولم يكن يريد رؤية تعابير وجوههم، وعرف أن عالمه يتداعى. ولم يرَ نظرات الشك التي تبادلوها فيما بينهم، ولا أسفهم.

كان مخيم الذئاب ساكناً وهادئاً عندما ترجل تيموجن عن فرسه بالقرب من خيمة والده، وأخذ نفساً عميقاً. وشعر بأنه كان غائباً منذ سنوات. في المرة الأخيرة التي وقف فيها في تلك البقعة من الأرض، كان والده ما يزال ينبض بالحياة وقوياً، وكان لا يزال حقيقة مؤكدة في حياتهم جميعاً. ولم يكن ممكناً أن يفكر أن ذلك العالم قد اختفى ولا يمكن استعادته أبداً.

وقف متسمراً في مكانه في الخلاء، ينظر إلى خيام العائلات. وكان يستطيع معرفة اسم كل رجل، وامرأة، وطفل بمجرد إلقاء نظرة على تصميم بابهم. كان هؤلاء قومه، ولطالما كان يعرف مكانته بينهم. وكان التردد شعوراً جديداً بالنسبة له، كما لو أن هناك ثقباً كبيراً في صدره. واكتشف أن عليه أن يستجمع كل شجاعته فقط ليدخل الخيمة. كان سيقف في مكانه مدة أطول لو لم يرَ الناس قد بدأوا يتجمعون فيما كانت أشعة الشمس تتلاشى تدريجياً. ولم يكن يستطيع أن يتحمل شفقتهم، ومع تكشيرة على شفتيه، دخل عبر الباب المنخفض، وأغلقه أمام وجوههم التي تحدق به.

لم يكن قد تم وضع غطاء الليل على ثقب الدخان فوق رأسه، لكن الجو في الغرفة كان خانقاً من الحرارة والرائحة التي جعلته على وشك أن يتقيأ. وشاهد شحوب وجه والدته عندما استدارت نحوه، وانطلقت مشاعره

جياشة عندما اندفع إليها واحتضنته بذراعيها. واندفعت الدموع دون تحكم منه، وهزّته بصمت فيما كان ينظر إلى جسد والده الذابل.

كان جسد ياسوجي يرتعش مثل حصان ينتفض من الذباب. وكانت معدته مربوطة بضمادات نباتات قاسية مثل القصب. وشاهد تيموجن خطاً من القيح والدم يتحرك مثل دودة عبر الجلد إلى الأغطية. كان شعر والده ممشطاً ومدهوناً بالزيت، لكنه كان يبدو خفيفاً وقد غزاه الشيب بقوة أكثر مما يتذكر حتى أنه وصل إلى وجنتيه. وشاهد تيموجن الأضلاع بارزة بشكل واضح. كان الوجه هزيلاً وداكن التجاويف.

قالت والدته: "ينبغي أن تتكلم إليه يا تيموجن". وعندما رفع رأسه ليجيبها، شاهد أن عينيها كانتا حمراوين مثل عينيه. "لقد كان ينادي باسمك ولم أكن أعرف ما إذا كنت ستصل في الوقت المناسب".

أومأ برأسه، ومسح أثراً من المخاط الذي سال من أنفه بردن ثوبه فيما كان ينظر إلى الرجل الذي كان يعتقد أنه سيعيش إلى الأبد. كانت الحمّى قد أذابت عضلاته عن عظامه، ولم يكن تيموجن يستطيع أن يصدق أنه المحارب القوي نفسه الذي قاد فرسه بكل ثقة إلى مخيم أولخونوت. حدّق به لوقت طويل، غير قادر على الكلام. ولم ينتبه لوالدته التي بللت قطعة من الملابس في دلو من الماء البارد ودفعت بها إلى يده. وأمسكت بأصابعه ومررتها على وجه والده، ومسحا معاً العينين والشفتين. كان تيموجن يتنفس بصعوبة بالغة، ويجاهد لسحب أنفاسه. وكانت رائحة اللحم المتعفن مقززة، لكن والدته لم تظهر أي نفور وحاول أن يكون قوياً لأجلها.

اهتز ياسوجي من اللمسة وفتح عينيه، ينظر إليهما مباشرة.

قالت هولن بلطف: "إنه تيموجن يا زوجي، وقد عاد إلى الديار سالماً".

بقيت العينان فارغتين دون أي انفعال، وشعر تيموجن بأن عينيه ستذرفان الدموع من جديد.

قال لوالده وقد بدأ ينشج بشكل لاإرادي: "لا أريدك أن تموت، لا أعرف ما ينبغي فعله".

سحب خان الذئاب نفساً عميقاً حتى أن أضلاعه ارتفعت لتبدو مثل قفص. وانحنى تيموجن فوقه ووضع رأسه على رأس والده. كان الجلد ساخناً وجافاً جداً، لكنه لم يتراجع. وشاهد فم والده يتحرك وقرّب رأسه ليسمع ما يقوله.

قال: "عدت يا والدي". واشتدت القبضة بما فيه الكفاية حتى أصبحت موجعة. وحرك تيموجن يده الأخرى ليرفع أصابع والده، والتقت أعينهما للحظة واعتقد تيموجن أن والده تعرف إليه.

همس ياسوجي: "التتار". وأطلقت حنجرته الكلمات بصعوبة بالغة، وخرج الهواء المكبوت بتنهيدة كبيرة انتهت بطقطقة جافة. انتظر تيموجن النفس التالي، وعندما لم يأتِ، أدرك أن اليد التي يحملها قد أضحت رخوة. وأمسكها بقوة أكبر في لحظة يأس على أمل أن يسمع صوت نفس آخر.

تضرع قائلاً: "لا تتركنا هنا". لكنه كان يعرف أن كلماته تذهب أدراج الرياح. وغصّت هولن من خلفه، لكنه لم يستطع الابتعاد عن الوجه الغائر للرجل الذي يحب. هل أخبره؟ لم يكن يتذكر الكلمات، وأصابه خوف مفاجئ من أن والده سيذهب إلى الأرواح دون أن يعرف ما كان يعنيه لأبنائه.

همس: "كل ما أنا عليه جاء منك. أنا ابنك ولا شيء آخر. هل تسمعني؟"
شعر بيد والدته على يده.

قالت: "انتظرك يا تيموجن. لقد ذهب الآن". لكنه لم يستطع أن ينظر إليها.

قال: "هل تعتقدين أنه كان يعرف كم أحببته؟"

ابتسمت من خلال دموعها، وبدت للحظة جميلة مثلما كانت في شبابها.

"كان يعرف. كان فخوراً جداً بك، وكان يعتقد أن قلبه سيطير فرحاً بك. وكان ينظر إليّ كلما امتطيت فرسك، أو تصارعت مع أشقائك، أو جادلتهم. وكنت أستطيع عندها رؤية ذلك في ابتسامته. ولم يكن يريد إفسادك، لكن أب السماء منحه الأبناء الذين أرادهم وكنت موضع فخره، ومهجة قلبه. كان يعرف".

لم يستطع تيموجن احتمال سماع ذلك، وبكى دون خجل.

قالت هولن: "ينبغي أن نخبر العائلات أنه مات أخيراً".

أجاب تيموجن وهو يمسح دموعه: "ماذا الآن؟ لن يدعمني إيلوك لقيادة الذئاب. هل سيكون بكتر الخان؟" وتفحص وجهها بحثاً عن بعض الطمأنينة، لكنه لم يجد سوى الإرهاق والأسى الذي عاد ليكلل عينيها.

"لا أعرف ما سيحدث يا تيموجن. لو أن والدك عاش بضع سنوات أخرى، لما كانت تلك مشكلة، لكن الآن؟ لقد مات في الوقت غير المناسب، لكن هذه...".

بدأت بالبكاء، ووجد تيموجن نفسه يضع رأسها على كتفه. لم يكن يتخيل أن ذلك سيريحها، لكن يبدو أن الأمر حدث تلقائياً، وجعله ذلك أقوى نوعاً ما لمواجهة ما سيأتي. شعر بأن صغر سنه يمثل نقطة ضعفه، لكن مع وجود روح والده بالقرب منه، كان يعرف أن عليه أن يستجمع الشجاعة ليواجه العائلات. وطافت عيناه في أرجاء الخيمة.

"أين النسر الذي أحضرته له؟"

هزّت والدته رأسها، وقالت: "لم أستطع الاعتناء به. أخذه إيلوك إلى عائلة أخرى".

شعر تيموجن بكراهية عارمة تجاه الرجل الذي كان والده يثق به في كل شيء. وابتعد عن والدته، فيما نهضت هولن ونظرت للأسفل إلى جسد ياسوجي. وفيما كان تيموجن يراقب ما يجري، انحنت فوق زوجها وقبّلته

بلطف على فمه المفتوح. وبدا أنها ارتعشت من تلك الحركة، واهتز جسدها كله. وبأصابع ترتعد خوفاً، أغلقت عينيه، ثم تناولت غطاء ووضعته فوق جرحه. كان الهواء خانقاً وممتلئاً برائحة الموت، لكنّ تيموجن اكتشف أن ذلك لم يعد يزعجه آنذاك. وتنفس بعمق، وملأ رئتيه بالرائحة المنبعثة من والده فيما كان ينهض هو الآخر على قدميه. ورش الماء من الدلو على وجهه، ثم جففه بقطعة من القماش النظيف.

قال: "سأخرج وأخبرهم".

أومأت والدته برأسها، وكانت عيناها ما تزالان تنظران إلى لا شيء، عندما مشى إلى الباب الصغير، وخرج منه إلى هواء الليل المنعش.

ارتفعت أصوات نساء العائلات بالعويل إلى أب السماء حتى يعرف أن رجلاً عظيماً من السهول قد قضى نحبه. تجمع أبناء ياسوجي ليلقوا نظرة الوداع الأخيرة على والدهم. وعندما يبزغ الفجر، سيلفونه بقماش أبيض ويأخذونه إلى تلة عالية، ويتركون لحمه العاري لتنهشه الصقور والنسور العزيزة على الأرواح. وستتحول الذراعان اللتان علمتاهم استعمال القوس، والوجه القوي، وكل ما فيه إلى قطع صغيرة تنتزعها الطيور تحت ناظري أب السماء. ولن يكون على علاقة بالأرض بعد ذلك كما هي حالهم.

فيما كان الليل يقترب، التقى المحاربون في مجموعات، وتحركوا من خيمة إلى أخرى حتى تكلمت كل العائلات. ولم يشارك تيموجن في العملية، رغم أنه كان يتمنى وجود بكتر ليرى طقوس وشعائر الدفن. ورغم أنه لم يكن يحب شقيقه، إلاّ أنه كان يعرف أن بكتر سيتألم لعدم سماع القصص والحكايات التي تروى عن حياة ياسوجي.

لم ينم أحد. وعندما ارتفع القمر في السماء، تم إشعال نار عظيمة في وسط المخيم، وانتظر تشاغاتي القاص العجوز فيما كان أفراد القبيلة يتجمعون حوله، وتم تقديم أكواب من شراب الأعشاب الأسود لتقيهم

البرد. وحدها فرق الاستطلاع والحراسة بقيت على التلال. وجاء كل رجل، وامرأة وطفل ليبكوا علناً، ويكرّموا ذكرى ياسوجي. كانوا جميعاً يعرفون أن الدموع التي تذرف على الأرض ستكون يوماً ما جزءاً من أنهار ستروي عطش القطعان وعائلات كل القبائل. ولم يكن هناك خجل في البكاء على خان حافظ على سلامتهم خلال فصول الشتاء القاسية وجعل الذئاب قوة في السهول.

في البداية، جلس تيموجن وحيداً، رغم أن الكثيرين جاءوا ليربتوا على كتفه ويقولوا بضع كلمات مواساة. كان وجه تيموج أحمر من البكاء، لكنه جاء مع كشيون وجلسا بجانب شقيقهما، يتشاطرون الأسى دون أن ينبسوا ببنت شفة. وجاء خاسار أيضاً ليسمع تشاغاتي، وكان شاحباً وباهتاً عندما ضم إليه تيموجن. كانت هولن آخر من وصل، مع ابنتها تيمولن النائمة في لفّة داخل ردائها. وعانقت أبناءها واحداً بعد الآخر، ثم حدّقت بألسنة اللهب كما لو أنها ضائعة.

عندما اجتمع كل أفراد القبيلة، تنحنح تشاغاتي، وبصق على النار الملتهبة خلفه.

"عرفت الذئب عندما كان طفلاً صغيراً، ولم يكن أبناؤه وابنته سوى أحلام لدى أب السماء، ولم يكن الرجل الذي قاد العائلات دائماً. عندما كان فتياً، تسلل إلى خيمة والدي وسرق قرص عسل لفه بقطعة قماش، ودفن قطعة القماش تلك في التراب، لكن كان لديه كلب في تلك الأيام، كلب صيد أصفر وأسود. نبش الحيوان قطعة القماش وأحضرها له رغم إنكاره معرفة وجود العسل في ذلك المكان. لم يجلس معنا طوال أيام بعد ذلك!" توقف تشاغاتي فيما ابتسم المحاربون. "كرجل، قاد فرق الحرب بعد اثني عشر صيفاً فقط، وأغار على التتار مراراً وتكراراً للحصول على الخيول والأغنام. وعندما أراد إيلوك أن يتزوج، كان ياسوجي من أغار على الجياد ومنحها لوالد الفتاة،

وجلب معه ثلاث أفراس حمراء وعشر أنعام في ليلة واحدة. وسالت دماء رجلين براقة على سيفه، لكن حتى عندها لم يكن هناك أحد يستطيع مجاراته بالسيف أو القوس. وقد كان قاسياً مع تلك القبيلة، وعندما أصبح خاناً، تعلموا أن يخافوا ياسوجي والرجال الذين يقودهم".

تجرع تشاغاتي جرعة كبيرة من الشراب الأسود، وتلمظ بشفتيه.

"عندما جرت مراسم دفن والده، جمع ياسوجي كل المحاربين وقادهم أياماً عديدة، وجعلهم يعيشون على القليل من الطعام وما يكفي بالكاد من الماء لتبليل أفواههم. كل أولئك الذين ذهبوا في تلك الرحلة عادوا يشتعلون حماسة ويدينون بالولاء له في قلوبهم. ومنحهم الكبرياء، وأصبح الذئاب أقوياء يمتلكون اللحم والحليب".

أصغى تيموجن فيما كان الرجل العجوز يسرد انتصارات والده. وكانت ذاكرة تشاغاتي ما تزال حادة بما فيه الكفاية ليتذكر ما قيل وعدد الذين سقطوا بسيف أو قوس والده. لم يكن يعرف ما إذا كان العدد مبالغاً فيه. وأومأ المحاربون الكبار برؤوسهم وابتسموا عندما سمعوا الذكريات، وفيما كانوا يفرغون أكواب شراب الأعشاب، بدأوا يهللون إعجاباً فيما كان تشاغاتي يصف المعارك لهم مرة أخرى.

تابع تشاغاتي القول: "كان ذلك عندما فقد يكي العجوز ثلاثة أصابع من يده اليمنى. وكان ياسوجي من وجدها في الثلج وأحضرها له. شاهد يكي ما كان يحمله وقال إنه ينبغي رميها للكلاب. قال له ياسوجي إن من الأفضل ربطها إلى عصا، بحيث يستطيع يكي استعمالها ليحك نفسه".

ضحك خاسار بصوت خافت من ذلك، وتمايل مع كل كلمة مع أشقائه. كان ذلك تاريخ قبيلتهم، وقصص الرجال والنساء الذين صنعوا منهم ما هم عليه.

تغيرت أسارير تشاغاتي عندما أزاح كوب الشراب مرة أخرى عن فمه.

"ترك أبناء أقوياء ليتبعوا خطاه، وسيرغب بأن يقود بكتر أو تيموجن الذئاب. وقد سمعت الهمسات في العائلات. وسمعت المناقشات والوعود، لكن دماء الخان تجري في عروقهم، وإذا كان هناك شرف في الذئاب، ينبغي أن لا يجلبوا العار لخانهم بعد موته. إنه يراقبنا الآن".

أطبق الصمت على المخيم، رغم أن تيموجن سمع بعض المحاربين يتمتمون بالموافقة. وشعر بأن مئة عين تنظر إليه في الظلمة حول ألسنة اللهب. وشرع بالنهوض، لكنهم سمعوا جميعاً من مسافة بعيدة أبواق الحراس تصدح فوق التلال، وأفاق المحاربون من نشوة الشراب، ونهضوا بسرعة على أقدامهم وأصبحوا على أهبة الاستعداد. وظهر إيلوك على حافة الضوء ينظر بسخط إلى تشاغاتي. ولاحظ تيموجن أن القاص يبدو سهل المنال ومتعباً آنذاك، وأن نفوذه لم يعد كما كان. حرّكت نسمة هواء شعره للأمام والخلف عندما واجه إيلوك دون وجل. وفيما كان تيموجن يراقب ما يجري، حرّك إيلوك رأسه بحدّة كما لو أن قراراً قد اتخذ فعلاً. وتمّ إحضار فرس التابع إليه، وامتطاها بحركة واحدة سريعة، وقادها نحو الظلام دون أن ينظر خلفه.

توقفت الأبواق بعد وقت قصير عندما أدرك الحراس أنها فرقة الاستطلاع تعود إلى الديار. دخل بكتر على رأس عشرة محاربين، وتوجّه إلى حيث تمّ إشعال النار ليترجل عن فرسه. ورأى تيموجن أنهم يحملون دروعاً وأسلحة مختلفة عما يعرفه. وفي ضوء النار العظيمة، شاهد رؤوساً متعفنة معلقة من شعرها بسرج فرس بكتر. ارتعش تيموجن فجأة من رؤية الأفواه المفتوحة تتحرك كما لو أنها ما تزال تصرخ. ورغم أن الجلد كان أسود يكسوه الذباب، إلاّ أنه كان يعرف أنه ينظر إلى وجوه أولئك الذين قتلوا والده.

وحدها والدته، إضافة له أيضاً، سمعت ياسوجي يهمس باسم عدوه في

الخيمة، ولم تخبر سواء هي أو تيموجن أحداً بتلك المعلومات. كان مريحاً نوعاً ما سماع اسم التتار يتردد مجدداً على ألسنة المحاربين العائدين. كانوا يحملون أقواساً ودروعاً ملوثة بالدماء الجافة، واجتمعت العائلات حولهم تنظر بذهول مرعب، ومدّ أفراد من القبيلة أياديهم ليلمسوا وجوه الموتى العفنة.

مشى بكتر نحو ضوء النار كما لو أن قيادة القبيلة أمر مقرر سلفاً. وكان المشهد مريراً في مخيلة تيموجن، لكن بعد المخاوف التي راودته، شعر بسعادة بالغة. ليأخذ شقيقه القبيلة!

في البداية، كانت الأحاديث تدور بصوت عالٍ وتعالت الصرخات لدى وصف ما وجدوه. لقد كان هناك خمسة أجساد عفنة ملقاة حيث هاجموا خان الذئاب. كانت النظرات التي وقعت على أبناء ياسوجي تمتلئ دهشة. ورغم ذلك، صمت الجميع عندما اقترب إيلوك، وترجل ببطء عن سرجه ليواجه الأشقاء. وبعزيمة صادقة، وقف تيموجن ليصل إلى كتفي بكتر، ووقف معه خاسار وكشيون. وواجهوا إيلوك وانتظروا أن يتكلم. وربما كانت تلك غلطتهم، لأن إيلوك كان محارباً قوياً، ومقارنة به، كانوا يبدون فتية صغاراً.

قال إيلوك: "لقد رحل والدك أخيراً يا بكتر. لم يكن رحيلاً سهلاً، لكنها النهاية".

نظر بكتر بطرف عينه إلى تابع والده، وكان يعي التحدي والخطر اللذين يشكلهما. رفع رأسه وتكلم، وشعر بأنه لن يكون في موقف أقوى مما هو عليه في تلك اللحظة.

قال بوضوح: "سأكون فخوراً بقيادة الذئاب إلى الحرب".

حياه بعض المحاربين، لكن إيلوك هزّ رأسه ببطء، وأفزعت ثقته بنفسه القلة التي أظهرت التأييد. وأطبق الصمت مجدداً، ووجد تيموجن نفسه

يلتقط أنفاسه بصعوبة.

قال إيلوك: "سأكون الخان. اتخذ القرار".

مدّ بكتر يده إلى سيفه، ولمعت عينا إيلوك من السعادة. وكان تيموجن من أمسك بذراع شقيقه أولاً، رغم أن كشيون أمسك بها بسرعة أيضاً.

قال تيموجن فيما كان بكتر يحاول تخليص نفسه: "سيقتلك".

أجاب بكتر بسرعة: "أو سأقتله لنقضه العهد ذلك الوغد".

لم يكن لدى أحد منهم، نتيجة انشغالهم بالتدافع فيما بينهم، وقت ليتصرف عندما سحب إيلوك سيفه واستعمل المقبض كمطرقة ضرب بها بكتر وأوقعه أرضاً. ووقع معه تيموجن وتشابكت أطرافهما معاً، ورمى كشيون نفسه على تابع والدهم أعزل من السلاح، محاولاً إيقافه عن استعمال النصل لقتل شقيقيه. وصرخت هولن خوفاً خلفهم وبدا أن الصوت جعل إيلوك يتوقف بعد أن تقدم قليلاً وأزاح كشيون عنه بضربة من ذراعه. ونظر الرجل إليهم جميعاً ثم أعاد سيفه إلى غمده.

قال، ووجهه يثور غضباً: "إكراماً لوالدكم، لن أريق الدماء الليلة". ورفع رأسه ليجعل صوته مسموعاً. "سينتقل الذئاب من هنا! لن أبقى حيث روت دماء خاني الأرض. اجمعوا قطعانكم وجيادكم. وعندما تصل الشمس إلى كبد السماء، سنرحل جنوباً".

اقترب خطوة من هولن وأبنائها.

قال: "لكن ليس معكم. لن أراقب ظهري احتراساً من سكاكينكم. ستبقون هنا وتأخذون جسد والدكم إلى التلال".

تمايلت هولن قليلاً عندما انفرج الموقف، وكان وجهها شاحباً وممتعضاً: "ستتركنا لنموت؟"

هزّ إيلوك كتفيه لا مبالياً، وقال: "تموتون أو تعيشون، لن تكونوا من الذئاب. انتهى الأمر".

ظهر تشاغاتي خلف إيلوك عندها، وشاهد تيموجن الرجل العجوز يمسك به من ذراعه. ورفع إيلوك سيفه برد فعل، لكن تشاغاتي تجاهل النصل الحاد الذي كان قريباً جداً من وجهه.

قال تشاغاتي بغضب: "هذا عمل شرير! إنك تهين ذكرى رجل عظيم، لم يبقَ له أحد ليأخذ بالثأر ممن قتله. كيف سترتاح روحه؟ لا تستطيع ترك أولاده في السهول. إن هذا وكأنك تقتلهم بنفسك".

"ابتعد أيها الرجل العجوز. على الخان أن يتخذ قرارات صعبة. لن أريق دماء الأولاد أو النساء، لكن إذا ماتوا جوعاً، ستكون يداي نظيفتين".

تجهم وجه تشاغاتي بغضب صامت، وأمسك بدرع إيلوك، يضربه بقوة. وخدشت أظفاره لحم عنق إيلوك، كان ردّ الفعل مباشراً. ودفع إيلوك بسيفه في صدر الرجل العجوز بقوة ليخرج من ظهره. وسالت الدماء من فم تشاغاتي المفتوح، وجثت هولن على ركبتيها، تبكي وتنتحب فيما كان أبناؤها يقفون مذهولين. وكانت هناك صرخات أخرى على الجريمة، وجاء بعض المحاربين ليقفوا بين إيلوك وعائلة ياسوجي، وأياديهم جاهزة على سيوفهم. هزّ إيلوك رأسه وبصق على تشاغاتي فيما كان دمه يسيل على التربة الجافة.

قال وهو يعيد السيف إلى غمده ويمشي مبتعداً: "كان الأجدى بك ألاّ تتدخل أيها المغفل العجوز!"

ساعد المحاربون هولن لتقف على قدميها، وجاءت النساء لمساعدتها في العودة إلى خيمتها. وأشاحوا بوجوههم عن الأطفال الذين يبكون، بالنسبة لتيموجن كان ذلك سيئاً مثل أي شيء آخر حدث تلك الليلة. لقد هجرتهم العائلات، وفقدوا كل شيء.

تركت خيام الذئاب دوائر سوداء على الأرض الصلبة بعد تفكيكها، وظهر مكانها قطع من العظام القديمة والجلود المشقوقة والخزف المكسور.

وشاهد أبناء ياسوجي ما يجري كأنهم غرباء، ووقفوا مع والدتهم وشقيقتهم بشكل يثير الشفقة. كان إيلوك قاسياً، وتطلب الأمر من هولن أن تستعين بكل أبنائها الآخرين للإمساك ببكتر عندما أمر التابع بتحميل خيمتهم وكل ما فيها مع باقي الخيام. وصرخت بعض النسوة من تلك القسوة، لكنّ الكثيرين بقوا صامتين وتجاهلهم إيلوك جميعاً. لقد كانت كلمة الخان قانوناً.

هزّ تيموجن رأسه غير مصدق لما يجري فيما كان يتم تحميل العربات وسوق القطعان بالعصي والضربات. لاحظ أن إيلوك يضع سيف ياسوجي على خصره عندما كان يمشي حول المخيم. وأظهر بكتر امتعاضه عندما شاهد السيف، وكان غضبه واضحاً للعيان. وابتسم إيلوك لنفسه عندما تجاوزهم، مستمتعاً بنظراتهم الواهنة. وتساءل تيموجن كيف استطاع إيلوك إخفاء مثل ذلك الطموح داخله لسنوات عديدة. كان قد شعر بالأمر عندما منحه ياسوجي الطائر الأحمر، لكن حتى عندها لم يكن ليصدق أن ذلك ممكن، وأن إيلوك سيخونهم تماماً، وهزّ رأسه عندما سمع فرخي النسرين يسقسقان عند ربط أجنحتهما بإحكام استعداداً للرحلة. لم يكن يستطيع أن يشغل نفسه بالأمر. كان منظر جسد تشاغاتي الممد على الأرض يتراءى أمام عينيه مراراً وتكراراً، ويذكّره بالليلة السابقة. وكانوا سيتركون القاص العجوز في المكان الذي سقط فيه، وكان ذلك بحد ذاته يبدو جريمة مثل الجرائم الأخرى بالنسبة للفتية.

رغم أن الأبناء كانوا شاحبين ويلفّهم اليأس، إلاّ أن وجه هولن نفسها كان يشع غضباً ويلقي بظلاله على أي شخص أحمق كفاية لينظر في عينيها. وعندما جاء إيلوك ليأمر بتفكيك خيمة الخان، لم يستطع حتى هو النظر إليها، وحدق بدلاً من ذلك إلى العمل الجاري أمامه. وتم تفكيك الطبقات الكبيرة للّباد الثقيل ولفها، وانهار الإطار الخشبي إلى أقسام صغيرة، وتم

قطع عقد الربط بضربات سريعة. تم أخذ كل ما كان في الداخل، من أقواس ياسوجي إلى ألبسة الشتاء مع بطانتها من الفرو. وأطلق بكثر اللعنات وصرخ عندما شاهد أنه لم يبقَ لهم شيء، لكن هولن هزت رأسها ببساطة من قسوة إيلوك المعتادة. كانت الألبسة جيدة الصنعة وأثمن من أن تضيع على أولئك الذين لن يبقوا على قيد الحياة، وسيختطفهم الشتاء من الحياة بالتأكيد بسرعة سهم عندما يهطل الثلج أول مرة. رغم ذلك، واجهت العائلات بكرامة، ورأسها مرفوع، ووجهها خالٍ من الدموع.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. وكان كل شيء مصمماً ليتم نقله بسهولة، وفي الوقت الذي وصلت فيه الشمس إلى كبد السماء، كانت الدوائر السوداء خالية والعربات محمّلة، والرجال يشدّون الحبال لربط كل شيء بإحكام.

ارتعشت هولن عندما هبت الرياح بقوة أكبر. ولم يكن هناك مأوى آنذاك بعد أن تم تفكيك الخيام، وشعرت بأنها مكشوفة وخدرة. وكانت تعرف أن ياسوجي كان سيشهر سيف والده ويضرب به عشرة رؤوس لو أنه كان موجوداً ورأى ما يحدث. كان جسده مسجى على التراب، ملفوفاً بالملابس. وفي الليل، لفّ شخص من العائلات قطعة قديمة من الكتان حول جسد تشاغاتي الهزيل، مخفياً جرحه. وكانا يستلقيان جنباً إلى جنب ميتين، ولم تستطع هولن أن تنظر إلى أي منهما.

صرخ الرعاة عندما نفخ إيلوك في بوقه، واستعملوا عصياً أطول من قامة الرجل لحث الحيوانات على الحركة. ازدادت الضوضاء عندما أصدرت الأغنام والماعز ثغاء وركضت لتفادي اللمسة اللاسعة، وبدأت القبيلة بالتحرك. وقفت هولن مع أولادها مثل جذع شجرة مقطوع وراقبتهم يرحلون. وكان تيموج ينشج بصمت لنفسه، وأمسك كشيون بيده تحسباً في حال حاول الفتى الجري وراء القبيلة.

سرعان ما ابتلعت الأرض الواسعة صرخات الرعاة وأصوات قطعانهم. وراقبتهم هولن حتى أصبحوا على مسافة بعيدة عنها، وأطلقت أخيراً تنهيدة ارتياح. كانت تعرف أن إيلوك يستطيع إرسال رجل للبحث عنهم ووضع نهاية دموية للعائلة الوحيدة. وحالما أصبحت المسافة التي تفصلهم عن القبيلة أكبر من أن يستطيع أحد رؤيتهم عبرها، استدارت إلى أولادها وجمعتهم حولها.

"نحتاج إلى المأوى والطعام، لكن قبل كل شيء، ينبغي أن نبتعد عن هذا المكان. ستأتي حيوانات قريباً لتبحث في رماد النيران. لن تكون كلها تمشي على أربع قوائم. بكتر!" أخرجت نبرتها الحادة ابنها من ذهوله فيما كان يحدق في الحشد البعيد. "أحتاج إليك الآن لتعتني بأشقائك".

أجاب: "ما الفائدة؟" واستدار ليراقب السهل. "جميعنا أموات".

لطمته هولن بقوة على وجهه، وتمايل في مكانه وتطاير الشرر من عينيه. وسالت دماء جديدة من المكان الذي ضربه فيه إيلوك في الليلة السابقة.

"مأوى، وطعام يا بكتر. أبناء ياسوجي لن يلقوا حتفهم بصمت، كما يريد إيلوك. ولا زوجته أيضاً. أحتاج إلى قوتك يا بكتر، هل تفهم؟"

قال تيموجن وهو ينظر إلى جسد والده: "ماذا سنفعل... به؟"

ترنحت هولن للحظة عندما وقعت عيناها على ما ينظر إليه. وشدّت على قبضتها وهزّتها بغضب.

قالت بصوت منخفض: "هل كان كثيراً أن يترك لنا فرساً واحدة؟" وتراءى لها قيام رجال لا ينتمون إلى قبيلة معينة بسحب القماش عن جسد ياسوجي العاري والضحك عليه، لكن لم يكن هناك خيار. "إنه مجرد جسد يا تيموجن. لقد ذهبت روح والدك من هنا. لنجعله يرانا نحيا، وسيكون راضياً".

سأل تيموجن مذعوراً: "سنتركه للكلاب البرية إذاً؟"

كان بكتر من أومأ برأسه. "نحن مجبرون. كلاب أو طيور، لا يهم. ما هي المسافة التي نستطيع أنا وأنت أن نحمله فيها يا تيموجن؟ إنه منتصف النهار، وينبغي أن نصل إلى حيث توجد الأشجار".

قال كشيون فجأة: "التل الأحمر. يوجد مأوى هناك".

هزّت هولن رأسها، وقالت: "المكان بعيد جداً ولا يمكننا الوصول إليه قبل حلول الظلام. إلى الشرق توجد مغارة ستفي بالغرض حتى الغد. يوجد غابة هناك. سنموت في السهول، لكن في الغابة، سأبصق على إيلوك بعد عشر سنوات من الآن".

قال تيموج وهو يتباكى: "أنا جائع".

نظرت هولن إلى أصغر أبنائها وعيناها مليئتان بالدموع المتلألئة. ومدّت يدها إلى داخل ردائها وأخرجت منه حقيبة قماشية تحتوي على قطع الجبن الحلو الذي يفضله. وتناول كل واحد منهم قطعة أو اثنتين بوقار كما لو أنهم يقطعون عهداً.

"سننجو من هذا يا أبنائي. سنعيش حتى تصبحوا رجالاً، وعندما يصبح إيلوك عجوزاً، سيتساءل ما إذا كنتم قادمين إليه في كل مرة يسمع فيها وقع الحوافر في الظلام".

نظروا إلى وجهها بدهشة، ولم يشاهدوا سوى عزيمة قوية. وكانت قوية بما فيه الكفاية لتبدد بعضاً من يأسهم، واستمدوا جميعهم القوة منها.

صرخت بهم: "تحركوا الآن! المأوى، ثم الطعام".

هطلت زخات خفيفة من المطر فيما كان بكتر وتيموجن يجلسان إلى جانب بعضهما بعضاً، مبللين حتى العظم. وقبل حلول الظلام، كانوا قد وصلوا إلى شق صخري في التلال تحيط به الأشجار حيث كان جدول صغير يعبر الأرض السبخة المشبعة بالماء. وكان الفج الضيق في الأرض مليئاً بأشجار الصنوبر السوداء والبتولا الفضية الشاحبة مثل العظام. وكان صوت رذاذ الماء غريباً ومخيفاً فيما كان الفتية يرتعشون فوق جذور متشابكة داكنة اللون.

قبل أن يتلاشى الضوء، كانت هولن قد أرسلتهم ليجمعوا الأغصان المتساقطة، ويسحبوا قطع الخشب المتعفنة عبر الأوراق والطين ليضعوها على جذع شجرة قليلة الارتفاع. وشعروا بألم كبير في صدورهم وأذرعهم، لكن هولن لم تترك لهم مجالاً للراحة. وحتى تيموج حمل ملء ذراعيه من أوراق الصنوبر الإبرية وألقاها فوق أغصان صغيرة، وترنح في مشيته مراراً وتكراراً وهو يجلب المزيد منها حتى انتهى بناء المأوى البدائي. ولم يكن كبيراً بما فيه الكفاية ليتسع بكتر وتيموجن، لكن هولن قبّلت كلاهما امتناناً، ووقفا بفخر عندما زحفت إلى الفسحة الداخلية مع الطفلة، وتكور خاسار مثل كلب يرتعش بين قدميها وزحف تيموج إلى الداخل بعدهما، وهو ينشج بصوت خافت. ووقف كشيون مع شقيقيه الأكبر سناً برهة من الزمن، يترنح قليلاً من الإجهاد. وأمسكه تيموجن من ذراعه ودفع به خلف الآخرين. لم يكن هناك متسع حتى له.

انكفأ رأس والدتهم ببطء نحو صدرها فيما كانت الطفلة ترضع. وابتعد تيموجن وبكتر بهدوء قدر استطاعتهما، وبحثا عن أي شيء يقي وجهيهما من المطر حتى يستطيعا النوم.

لم يجدا شيئاً. وبدا أن كتلة الجذور ليست أفضل كثيراً من الاستلقاء على

الأرض الرطبة، وجعلتهما النتوءات والكتل الخفية عن الأنظار يتألمان كيفما تقلّبا. وعندما كان النعاس يغلب عليهما، كانت رشة من الماء المثلج تضرب وجهيهما وتدفعهما للاستيقاظ منهكين يتساءلان عن المكان الذي يتواجدان فيه. وبدا أن الليل لن ينتهي أبداً.

عندما أفاق تيموجن مجدداً وحرك ساقيه المتشنجتين، أخذ يفكر باليوم الذي سيطلع عليهم. وكان غريباً أن يبتعد عن جسد والده. كانوا قد نظروا جميعاً إلى الخلف لرؤية البقعة التي تركوه فيها وهم يبتعدون عنها شيئاً فشيئاً. وكانت هولن قد لاحظت النظرات الكئيبة وتضايقت منهم.

قالت: "لطالما كانت العائلات حولكم. لم يكن عليكم الاختباء من اللصوص والمتسكعين من قبل. ينبغي أن نختبئ الآن. حتى متسكع واحد يستطيع قتلنا جميعاً، ولن تكون هناك عدالة".

جعلت الحقيقة الجديدة القاسية أبدانهم تقشعر رهبة مثلما جعلها المطر الذي بدأ يهطل ترتعش برداً، وثبّط معنوياتهم أكثر فأكثر. طرفت عينا تيموجن من قطرات ماء سالت من مكان ما في الأعلى. ولم يكن واثقاً أنه نام أصلاً، رغم أنه شعر بأن الوقت قد انقضى. كانت معدته خالية وتؤلمه وتساءل عمّا سيفعلونه للحصول على الطعام. ولو أن إيلوك ترك لهم قوساً واحداً فقط، كان تيموجن يستطيع إطعامهم جميعاً حيوانات الغرير البدينة. ودون قوس، قد يموتون جوعاً في غضون بضعة أيام فقط، ونظر للأعلى وشاهد أن الغيوم قد انقشعت، وسمح ذلك للنجوم بأن تسطع على الأرض تحتها. وكانت الأشجار ما تزال تقطر ماءً، لكنه كان يأمل بأن يكون الصباح أكثر دفئاً. وكان كل شيء فيه مشبعاً بالماء وملابسه مكسوة بالطين والأوراق. وشعر بالوحل اللزج على أصابعه عندما شد على قبضته وفكّر بإيلوك. انغرزت إبرة صنوبر أو شوكة في راحة كفه، لكنه تجاهلها، ولعن بصمت الرجل الذي خان عائلته. وشد قبضته عمداً حتى اهتز كل جسده

واستطاع أن يرى وميضاً أخضر تحت جفنيه.

قال متضرعاً لأب السماء: "أبقِني حياً. أبقِه قوياً معافى. أبقِه حياً، من أجلي لأقتله".

همهم بكتر في نومه بجانب تيموجن الذي أغلق عينيه مجدداً متأملاً على أمل أن تنقضي الساعات حتى يبزغ الفجر. وكان يريد الشيء نفسه الذي يريده أصغرهم: أن تطوّقه والدته بذراعيها وتحل كل مشاكله. بدلاً من ذلك، كان يعرف أن عليه أن يكون قوياً، من أجلها وأجل أشقائه. كان متأكداً من شيء واحد فقط هو أنهم سيعيشون إلى اليوم الذي سيجد فيه إيلوك ويقتله، ويأخذ سيف ياسوجي من يده بعد أن يموت. وبقيت الفكرة تراوده حتى غلبه النعاس.

نهضوا جميعاً حالما انتشر ما يكفي من الضوء ليروا وجوه بعضهم بعضاً متّسخة. كانت عينا هولن منتفختين كأنهما تعرضتا لكدمة نتيجة الإجهاد، لكنها جمعت أطفالها حولها، وهي تشاهد قربة الماء الوحيدة تطوف من يد إلى أخرى. وكانت ابنتها الصغيرة تصرخ، وقد لوثت نفسها بالغائط من جديد. ولم تكن هناك ملابس إضافية، وبدأت الرضيعة نوبة من الصراخ جعلت وجهها يحمر وبدا أنها لن تتوقف أبداً. ولم يكن بمقدور هولن سوى أن تتجاهل الصرخات بعد أن رفضت الطفلة الرضاعة من صدرها مراراً وتكراراً. في النهاية، نفد صبر والدتهم وتركت صدرها العاري يتدلى فيما كانت الطفلة الصغيرة تشد قبضتيها وتصرخ.

قالت لهم: "إذا كنا نريد أن نعيش، ينبغي أن نجهز مكاناً دافئاً ونقوم بصيد السمك والحيوانات. أروني ما لديكم حتى نستطيع أن نتدبر الأمر جميعاً". ولاحظت أن بكتر تردد، واستدارت نحوه قائلة: "لا تخفي شيئاً يا بكتر، قد نموت جميعنا خلال دورة واحدة للقمر إذا لم نقم بالصيد ونحصل على الدفء".

عند الفجر، كان إيجاد مكان مفروش بالأوراق الرطبة وليس المشبعة بالماء أكثر سهولة. خلعت هولن رداءها، وارتعش جسدها فيما كانت تقوم بذلك. واستطاعوا جميعاً أن يشاهدوا البقعة الداكنة على ملابسها حيث أفرغت شقيقتهم أمعاءها عليها أثناء الليل. وهبت الرائحة عليهم جميعاً، مما دفع خاسار ليضع يده على وجهه. وتجاهلته هولن التي زمّت شفتيها من الانزعاج. واستطاع تيموجن أن يشعر بأنها تضبط أعصابها بصعوبة عندما فرشت رداءها على الأرض. وبرفق، وضعت ابنتها على الملابس، ودفعت تلك الحركة الفتاة الصغيرة الضئيلة الحجم للتحديق حولها على أشقائها بعينين تملؤهما الدموع. وكان مؤلماً رؤيتها ترتعش.

كشّر بكتر، وسحب سكيناً من حزامه، ووضعها أرضاً. واختبرت هولن النصل بإبهامها وأومأت برأسها. ومدّت يدها إلى خصرها لتفك حبلاً ثقيلاً من شعر الفرس المجدول والذي خبأته تحت ردائها في الليلة السابقة أثناء بحثها عن أي شيء ربما يساعدهم في محنتهم. وكانت اللفافات صغيرة لكنها قوية وانضمت إلى سكاكين الأشقاء عندما وضعوها أرضاً في كومة واحدة.

إلى جانب سكينه الصغيرة، كل ما استطاع تيموجن وضعه كان قطعة القماش التي تشد رداءه عليه، والتي كانت طويلة ومنسوجة جيداً. ولم يكن يشك بأن هولن سوف تستفيد منها بطريقة ما.

أخذوا يراقبون جميعاً بإعجاب فيما كانت هولن تخرج علبة صغيرة من العظم من إحدى جيوب ثيابها الداخلية. وكانت تحتوي على قطعة صغيرة من الفولاذ وعدداً لابأس به من حجارة الصوان التي وضعتها جانباً بوقار. وكانت العلبة الصفراء الداكنة جميلة الصنع، ومررت إبهامها فوقها تستعيد ذكرياتها فيما كان أولادها يشاهدون ما يجري.

قالت: "أهداني والدكم هذه العلبة عندما تزوجنا". ثم أمسكت حجراً، وحطمت العلبة إلى أجزاء. وكانت كل كسرة من العظم حادة جداً، وفرزتها

بكل عناية، وانتقت الأفضل بينها وحملتها بين يديها.

"هذه القطعة لصنارة السمك، وهاتان لرؤوس السهام. خاسار؟ ستأخذ شعر الفرس المجدول وتبحث عن حجر جيد لشحذ الصنارة. استعمل سكيناً لحفر الأرض بحثاً عن الديدان. نحتاج إلى حظك اليوم".

أمسك خاسار بكسرة العظم دون أثر لإشراقته المعتادة، وقال: "أفهم ذلك". ولف شعر الفرس حول قبضته.

قالت له فيما كان يقف: "اترك لي ما يكفي لصنع فخ. نحتاج إلى أحشاء وأوتار لصناعة قوس".

استدارت إلى بكتر وتيموجن، وأعطت شظية من العظام الحادة لكل منهما.

"ليأخذ كل منكما سكيناً واصنعا لي قوساً من شجرة بتولا. لقد رأيتما كيفية القيام بذلك مرات عديدة من قبل".

دفع بكتر بحافة الشظية في راحة كفه، يختبرها. وشرع بالقول: "لو أن لدينا قرناً، أو جلد حصان لصناعة الوتر...".

سكنت حركة هولن تماماً، وصمت عندما نظرت إليه. "فخ واحد لحيوانات الغرير لن يبقينا أحياء. لم أقل إنني أريد قوساً يجعل والدك فخوراً بك. اقطع شيئاً تستطيع أن تقتل به وحسب. أو ربما ينبغي أن نستلقي بين الأوراق وننتظر البرد والجوع حتى يقضيا علينا؟"

تقطب جبين بكتر، وانزعج من انتقادها له أمام الآخرين. ودون أن ينظر إلى تيموجن، التقط سكينه، ومشى مبتعداً يمسك بشظية العظام بإحكام في قبضته.

قال كشيون: "أستطيع ربط سكين إلى عصا وصنع رمح، ربما لصيد السمك".

نظرت إليه هولن بامتنان، وسحبت شهيقاً عميقاً. والتقطت أصغر سكين

ووضعتها بين يديه.

قالت: "فتى طيب". ومدّت يدها لتلمس وجهه. "لقد علمكم والدكم الصيد جميعاً. لا أعتقد أنه كان يتخيل أن الأمر سيكون مهماً إلى هذا الحدّ، لكن مهما كان الذي تعلمتموه، نحن بحاجة إليه".

نظرت إلى العدد القليل من الأشياء المتبقية على القماش وتنهدت. "تيموج؟ أستطيع إشعال نار إذا وجدت لي شيئاً جافاً يحترق. أي شيء".

نهض الفتى الصغير البدين، وكان فمه يرتعش. ولم يكن قد تعود بعد على سوء وضعهم الجديد، ولا حالتهم الميؤوس منها. واستطاع الفتية الآخرون أن يلاحظوا أن هولن على حافة الانهيار، لكن تيموج كان ما يزال يراها صلبة مثل صخرة وتقدم منها لتعانقه. وسمحت له بقضاء لحظة بين ذراعيها قبل أن تدفعه بعيداً عنها.

"جد ما يمكنك يا تيموج. لا تستطيع شقيقتك احتمال ليلة أخرى دون نار".

فزع تيموجن عندما انهار الفتى الصغير ينشج، وعندما رفضت هولن أن تنظر إليه، جرى مبتعداً تحت الأشجار الباسقة.

مدّ تيموجن يده ببطء في محاولة لمنح والدته بعض الراحة. وأمسك بكتفها، ولسعادته، أمالت رأسها حتى لامس وجهها يده لبرهة من الزمن.

قالت، بعد أن رفعت عينيها لتنظر إليه: "اصنع لي قوساً قاتلاً يا تيموجن. ابحث عن بكتر وساعده".

ابتلع ريقه بألم من جوعه وتركها هناك مع الطفلة، وكان صدى صرخات بكائها يتردد بين الأشجار الرطبة.

وجد تيموجن بكتر عند سماعه لصوت سكينه تحزّ غصناً في شجرة بتولا. وأطلق صفيراً خافتاً حتى يعرف شقيقه الأكبر أنه يقترب منه ويتفادى أي مشكلة قد تقع. دون أن ينبس ببنت شفة، ثبّت تيموجن جذع الشجرة

الرفيع ليعمل فيه نصل سكين شقيقه. وكانت السكين قطعة متينة من الفولاذ القاسي وتقطع عميقاً في غصن الشجرة. وبدا أن بكتر يصبّ جام غضبه على الخشب، وتطلب الأمر من تيموجن شجاعة كبيرة حتى يثبت يديه فيما كان النصل يترك آثاره ضربة إثر أخرى بالقرب من أصابعه.

لم يستغرق الأمر طويلاً قبل أن يستطيع تيموجن الضغط على الغصن للأسفل ويكسر النسيج الباهت للخشب الطري. وفكّر مكتئباً أن القوس سيكون عديم الفائدة تقريباً. وكان صعباً ألاّ يفكر في الأسلحة الجميلة في كل خيام الذئاب. وكان يتم لصق نواة خشب البتولا بقطع طويلة مغلية من قرون الخراف وتحضير أوتار متينة ثم تركها لسنة كاملة في مكان معتم جاف قبل أن يتمّ وصلها ببعضها. وكان كل منها مثالاً للإبداع، وقادراً على القتل من مسافة تزيد عن مئتي خطوة.

سيكون القوس الذي كدح وشقيقه لصنعه أفضل بقليل من لعبة أطفال مقارنة بتلك الأقواس، وهو الذي ستعتمد حياتهم عليه. تأفف تيموجن بمرارة عندما أغلق بكتر إحدى عينيه وانتزع أخيراً غصن الشجرة الذي كان ما يزال مغطى باللحاء والأوراق. وشاهد فك بكتر يتحرك أثناء ذلك، وراقب بدهشة فيما كان شقيقه يسحب الغصن بشدة ويكسره على جذع شجرة أخرى، ويرمي بالأجزاء على الأوراق.

قال بكتر غاضباً: "هذه مضيعة للوقت".

نظر تيموجن إلى السكين التي كان يحملها، وأصبح فجأة قلقاً من وجودهما وحدهما.

سأل بكتر: "ما هي المسافة التي يستطيعون قطعها في يوم واحد. تستطيع تقفّي الأثر. نعرف الحراس وكذلك إخواننا. أستطيع التسلل بينهم".

سأله تيموجن: "ماذا ستفعل؟ تقتل إيلوك؟" وشاهد عينا بكتر تلمعان

للحظة عندما جالت الفكرة في خاطره، ثم هزّ رأسه.

"لا. لن نصل إليه أبداً، لكننا نستطيع أن نسرق قوساً! قوساً واحداً فقط وبعض السهام، وهكذا نستطيع أن نأكل. ألست جائعاً؟"

حاول تيموجن أن لا يفكر في الألم الذي يعتصر معدته. وكان قد اختبر الجوع من قبل، لكن كان هناك دائماً وجبة ساخنة تنتظره في النهاية. وهنا، كان الأمر يبدو أسوأ وكانت بطنه تزعجه ويتألم لمجرد لمسها. كان يأمل بأن لا تكون تلك أولى علامات الإسهال. في مثل هذا المكان، أي ضعف سيقتله. وكان يعرف، مثل والدته، أنهم سيمشون على الخط الرفيع الفاصل بين النجاة والتحول إلى كومة من العظام عندما يحل الشتاء.

قال: "أتضور جوعاً، لكننا لن ندخل إلى أية خيمة دون أن ينطلق الإنذار. وحتى إذا فعلنا ذلك، سيتعقبوننا إلى هنا، ولن يدعنا إيلوك ننجو مرة ثانية. تلك العصا المكسورة هي كل ما نملك".

نظر كلا الشابين إلى الغصن المكسور، والتقطه بكتر بغضب عارم، ولوّح بقطعة الخشب الصلبة ثم رماها على الأرض.

قال متجهماً: "حسناً، لنبدأ مجدداً. رغم أنه ليس لدينا وتر، وليس لدينا سهام، وليس لدينا غراء. لدينا فرصة كبيرة لاصطياد حيوان بإلقاء الحجارة عليه!"

لم يتفوه تيموجن بشيء، مذهولاً من نوبة غضب بكتر. ومثل كل أشقائه، كان معتاداً على وجود شخص يعرف ما يفعل. وربما كانوا قد اعتادوا على تلك الحقيقة. منذ شعر بيد والده تلمس يده وهو ضائع. كانت هناك أوقات شعر فيها بأن القوة التي يحتاجها بدأت تضطرم في صدره، لكنه كان يتوقع أن ينتهي كل ذلك ويستعيد حياته القديمة.

"سنمزق قطعاً من الملابس لصنع وتر. أعتقد أنها ستصمد لإطلاق سهمين. وليس لدينا سوى نصلين".

همهم بكتر، ومدّ يده إلى غصن آخر لين وبعرض إبهامه.

قال وهو يرفع النصل الثقيل: "ثبّت هذا جيداً يا شقيقي، سأصنع قوساً يكفي لإطلاق سهمين قاتلين. وإذا فشل ذلك، سنأكل الأعشاب".

لحق كشيون بخاسار في أعلى الصدع الصخري بين التلال. وكان شكل شقيقه الأكبر سناً ساكناً للغاية حتى أنه كاد يفقده عندما كان يتسلق الصخور، لكن نظرته تحولت إلى حيث يصب الجدول في بركة وشاهد شقيقه على الحافة. كان خاسار قد صنع لنفسه عصا بسيطة من غصن شجرة طويل. وأطلق كشيون صفيراً لينبِّه شقيقه أنه موجود هناك واقترب بصمت قدر المستطاع، وحدّق بالماء الصافي.

همس خاسار: "أستطيع رؤيتها. لا شيء أكبر من إصبع حتى الآن. يبدو أنها لا تحب الديدان".

حدّق كلاهما بالقطع الصغيرة من اللحم التي تسبح في الماء على بعد ذراع من الضفة. وتجهم كشيون وهو يفكر.

قال: "سنحتاج إلى أكثر من واحدة أو اثنتين إذا أردنا أن نأكل جميعنا الليلة".

تأفّف خاسار عندما سمع ذلك، وقال: "إذا كانت لديك فكرة، قلها إذاً. لا أستطيع جعلها تعلق في الصنارة".

بقي كشيون صامتاً لفترة طويلة من الزمن، وكان كلا الفتيين سيستمتعان بالهدوء إن لم يكن الجوع يقرص معدتيهما. أخيراً، وقف كشيون، وبدأ بحلّ قماش الخصر البرتقالي من ردائه. كان بطول ثلاث قامات، ويمتد بطول ثلاثة رجال مستلقين من رؤوسهم إلى أقدامهم. وربما لم يكن ليفكر باستعماله لو أن تيموجن لم يلقِ برباط خصره على كومة هولن. ونظر إليه خاسار، وابتسامة تعلو فمه.

قال: "هل ستسبح؟"

هزّ كشيون رأسه وقال: "الشبكة ستكون أفضل من الصنارة. نستطيع الحصول على كل السمك عندها. كنت أفكر بحجز مياه الجدول بقطعة القماش هذه".

سحب خاسار الدودة المتسخة من المياه، ووضع الصنارة الثمينة على الأرض.

قال: "قد ينجح هذا. سأمشي عكس التيار، وأضرب الماء بعصا في طريق عودتي إلى هنا. إذا استطعت إغلاق الجدول بقطعة الملابس، ربما تستطيع دفع بعض منها إلى الضفة".

نظر كلا الفتيين بتردد إلى المياه المتجمدة. وتنهد كشيون لنفسه، ولف قطعة الملابس حول ذراعيه.

قال: "حسناً، هذا أفضل من الانتظار". وارتعش جسده عندما دخل إلى البركة.

جعلهما البرد يلهثان ويفزعان، لكن كلا الفتيين عملا بسرعة لربط قطعة القماش عبر مجرى الجدول. وكان جذر إحدى الأشجار نقطة تثبيت مثالية عند أحد الجانبين، ووضع كشيون صخرة على الطرف الآخر، وعاد من حيث جاء وهو ممسك القماش بحيث أصبح القماش مطوياً طبقتين على نفسه. كان هناك أكثر مما يكفي، ونسي القشعريرة التي يشعر بها لفترة من الزمن عندما شاهد أسماكاً صغيرة تلمس الفاصل البرتقالي وترتد إلى الخلف. وشاهد خاسار يقطع شريطاً من الملابس ويثبت سكيناً بعصا ليصنع رمحاً قصيراً.

قال خاسار: "تضرع إلى أب السماء ليرسل لنا بعض الأسماك الكبيرة. ينبغي أن نصيد تلك الأسماك".

بقي كشيون في الماء يكافح بقوة كبيرة حتى لا يرتعش فيما مشى شقيقه مبتعداً عنه حتى غاب عن الأنظار. ولم يكن بحاجة لأن يخبره أحد بما

يفعله.

حاول تيموجن أخذ القوس من يدي شقيقه، فضربه بكتر على مفاصله بمقبض سكينه.

قال بكتر بغضب: "إنه لي".

راقب تيموجن فيما كان الفتى الأكبر سناً يحني الغصن ليتوافق مع عقدة الوتر على الطرف الآخر. فزع متوقعاً أن ينكسر الغصن وتكون تلك نهاية محاولتهما الثالثة. منذ البداية، كان قد امتعض من طريقة بكتر العصبية في صنع السلاح، كما لو أن الخشب والوتر كانا عدوين ينبغي أن يؤديا فروض الطاعة. كلما حاول تيموجن تقديم يد المساعدة، كان بكتر يصده بخشونة، وفقط عندما تكررت محاولاته الفاشلة، سمح لشقيقه بأن يمسك القطعة الخشبية فيما يقومان بثنيها معاً. طقطق القوس الثاني، ولم يصمد أول وترين سوى قليلاً بعد شدهما إلى القوس، وأفلتا أيضاً من مكانهما. وانتقلت الشمس لتصبح فوق رأسيهما وازداد غضبهما عندما تكرر الفشل إثر الآخر.

كان الوتر الجديد مؤلفاً من ثلاثة شرائط قماش رفيعة تم قطعها من حزام خصر تيموجن. كان سميكاً وضخماً بشكل سخيف، وأخذ يهتز بشكل واضح للعيان عندما خفف بكتر من انحناءة القوس، فزعاً مما قد يحدث. ولم ينكسر القوس، وأطلق كلا الفتيين تنهيدة ارتياح. ومرر بكتر إبهامه على الوتر المشدود فصدر عنه صوت رنين عميق.

قال لتيموجن: "هل انتهيت من السهمين؟"

أجاب تيموجن: "واحد فقط". وعرض عليه قضيباً مستقيماً من شجر البتولا مع شظية من العظام مثبتة بقوة في الخشب. واستغرق الأمر منه وقتاً طويلاً حتى يشكل السهم بالطريقة التي يريدها، ويستطيع إحداث شق رفيع يضع فيه شظية العظام بين شقي الخشب. كان قد حبس أنفاسه

خلال جزء من تلك العملية لأنه يعرف أنه إذا فقد النصل، لن يستطيع إيجاد بديل له.

قال بكتر وهو يمد يده إليه: "أعطِني إياه إذاً".

هزّ تيموجن رأسه، وأجاب بعد أن أبعده عن متناول يده: "اصنع سهمك بنفسك. هذا لي".

رأى الغضب في عيني بكتر، ثم فكّر بأن الفتى الأكبر سناً ربما يستعمل القوس الجديد ليضربه به. وربما كان الوقت الذي قضياه في صنعه قد منعه من القيام بذلك، لكن بكتر أومأ برأسه أخيراً.

"كان ينبغي أن أتوقع ذلك، منك".

وضع بكتر بحركة ظاهرة للعيان القوس بعيداً عن متناول يد تيموجن، ووجد حجراً ليشحذ نصله. ووقف تيموجن بصلابة يراقب ما يجري، والغضب يتملكه من اضطراره للتعاون مع مغفل.

قال: "أولخونوت لا يتكلمون عنك بالحسنى يا بكتر، هل تعرف ذلك؟"

تأفف بكتر، وبصق على الحجر وتابع العمل على شحذ شظية العظام.

أجاب متجهماً: "لا أهتم لما يظنونه بي يا شقيقي. لو أنني أصبحت الخان، كنت سأغير عليهم في أول شتاء، وسأجعلهم يدفعون ثمن كبريائهم".

قال تيموجن: "تأكد من قول ذلك لوالدتك، عندما نعود. ستكون مسرورة لسماع ما كنت تخطط له".

رفع بكتر بصره إلى تيموجن، ونظر إليه بعينين صغيرتين داكنتين حاقدتين.

قال بعد برهة من الزمن: "إنك مجرد طفل. لا يمكن لك أن تقود الذئاب أبداً".

شعر تيموجن بنار الغضب تشتعل داخله، رغم أنه لم يُظهر شيئاً.

قال: "لن نعرف الآن، أليس كذلك؟"

تجاهله بكتر، وتابع شحذ قطعة العظم ليصبح شكلها مناسباً للسهم.

"بدلاً من الوقوف هناك وحسب، لماذا لا تفعل شيئاً مفيداً مثل إيجاد جحر غرير؟"

لم يزعج تيموجن نفسه بالإجابة عليه، وأدار ظهره لشقيقه، ومشى مبتعداً.

كانت الوجبة تلك الليلة هزيلة بشكل يرثى له. وكانت هولن قد أشعلت ناراً، إلاّ أن الدخان تصاعد من الأوراق الرطبة. وربما كان قضاء ليلة أخرى في البرد كفيلاً بقتلهم، لكنها كانت خائفة أن يرى أحد الضوء. وكان الصدع الصخري في التلال يخفي موقعهم، لكنها رغم ذلك جعلتهم يجتمعون حول الشعلة، ويمنعون ضوءها من الانتشار بأجسادهم. وكان الجوع قد أرهقهم جميعاً، والمنطقة حول فم تيموج خضراء بعد أن ابتلع أعشاباً برية وتقيأها.

كانت سمكتان حصاد يوم عملهم، ويعود الفضل في الإمساك بهما للحظ وليس لمهارة الصيد من النهر. ورغم أنهما كانتا صغيرتين، إلاّ أن منظر أصابع اللحم السوداء المشوية استحوذ على أنظار الفتية.

كان تيموجن وبكتر غاضبين من بعضهما البعض بعد ظهيرة محبطة للآمال. وبعد أن وجد تيموجن جحر غرير، رفض بكتر أن يسلمه القوس، وهاجمه تيموجن بغضب، وتعاركا معاً على الأرض الرطبة. وانكسر أحد السهمين تحتهما، وأوقف الصوت قتالهما. حاول بكتر الإمساك بالآخر، لكن تيموجن كان أسرع منه. وكان قد قرر أن يستعير سكين كشيون ويصنع قوساً خاصاً به في اليوم التالي.

ارتعشت هولن، وشعرت بالضعف فيما كانت تمسك القضيبين على النار، وتساءلت من سيتضور جوعاً بين أبنائها. وكان كشيون وخاسار يستحقان أن يتذوقا طعم اللحم على الأقل، لكنها كانت تعرف أن قوتها أهم ما يمتلكونه. وإذا بدأت تضعف من الجوع، أو حتى ماتت، سيفنى الآخرون.

ظهر الغضب على وجهها عندما وقعت عيناها على الفتيين الأكبر سناً. وكان كلاهما يحمل علامات كدمات جديدة، وكانت تريد أن تضربهما بالعصا لغبائهما. لم يكونا قد فهما أنه لن يهب أحد لنجدتهم، أو أنهم لن ينعموا بفترة راحة بعد الآن. وكانت حياتهم معلقة بسمكتين صغيرتين على النار، تكفيان بالكاد للقمة واحدة.

تحسست هولن السمكتين السوداوين بإظفرها، محاولة ألاّ تستسلم لليأس. ونزل سائل صافٍ من إحدى السمكتين على إصبعها فيما كانت تعصرها، ووضعت العصارة في فمها، وأغلقت عينيها وشيء يشبه البهجة يتملكها. وتجاهلت معدتها التي تؤلمها وقطعت السمكة إلى قسمين، وأعطت إحداهما لكشيون والآخر لخاسار.

هزّ كشيون رأسه، وقال: "أنت أولاً". مما جعل الدموع تفيض من عينيها.

سمعه خاسار وتوقف فيما كان يرفع قطعة السمك إلى فمه. وكان يشم رائحة اللحم المشوي، وشاهدت هولن أن لعابه يسيل ويجعل شفتيه رطبتين.

قالت: "أستطيع الاحتمال أكثر منك يا كشيون. سآكل غداً".

كان ذلك كافياً لخاسار الذي أطبق بفمه على قطعة السمك ومصّ الحسك بصوت مسموع، وكانت عينا كشيون تعتصران ألماً من جوعه، لكنه هزّ رأسه.

قال مجدداً: "أنتِ أولاً". وقدّم لها رأس السمكة فأخذته هولن منه برفق.

"هل تعتقد أنني أستطيع أخذ الطعام منك يا كشيون؟ يا ابني العزيز؟" وأضحى صوتها قاسياً عندما قالت: "تناولها، وإلاّ سأرميها في النار".

فزع من الفكرة وأخذها منها فوراً. وكانوا جميعاً يستطيعون سماع الحسك يتكسر عندما سحقه إلى عجينة في فمه وهو يستمتع بآخر قطرة من الغذاء.

قال تيموجن لوالدته: "دورك الآن". ومدّ يده نحو السمكة الثانية، ينوي أن يمررها لها. وضربه بكتر على ذراعه ليبعدها، وكاد تيموجن يهجم عليه مجدداً بغضب مفاجئ.

قال تيموجن بعد أن سيطر على غضبه: "لست بحاجة للطعام الليلة. ولا بكتر أيضاً. اقتسمي السمكة الأخيرة مع تيموج".

لم يكن يستطيع احتمال العيون الجائعة حول النار، ووقف فجأة مفضلاً أن لا يشاهد ما يحدث. وترنح قليلاً نتيجة شعوره بالوهن، لكن بكتر مد يده وأخذ السمكة، وقسمها إلى نصفين. ووضع القطعة الأكبر في فمه وأعطى الباقي لوالدته، دون أن يستطيع النظر إلى عينيها.

أخفت هولن غضبها، وكانت منزعجة من حالة عائلتها بسبب الجوع. كانوا جميعاً يشعرون بأن الموت قريب، وكان صعباً عليهم البقاء أقوياء. صفحت عن بكتر، ولكن القطعة الأخيرة من السمك ذهبت إلى تيموج، الذي انشغل بتناولها وهو ينظر حوله طلباً للمزيد. بصق تيموجن على الأرض، وأصاب عمداً طرف رداء بكتر بالبلغم. وقبل أن يتمكن شقيقه الأكبر من النهوض على قدميه، اختفى تيموجن في الظلام. وسرعان ما أصبح الهواء الرطب بارداً بعد غياب الشمس، وجهزوا أنفسهم لقضاء ليلة أخرى شديدة البرودة.

وقف تيموجن ثابتاً فيما كان ينظر إلى المسار الذي سيتبعه السهم. ورغم أن كل حيوانات الغرير هربت لدى وصوله، إلاّ أنها مخلوقات غبية ولن يمضي وقت طويل قبل أن تعود. ومع قوس جيد وسهام مع ريش، كان واثقاً أنه سيأخذ حيواناً سميناً إلى المنزل لإطعام عائلته.

كانت أقرب منطقة صيد إلى الصدع الصخري في التلال مكشوفة بشكل خطير. وكان تيموجن يفضل الجلوس في أيكة صغيرة يختبئ داخلها، لكن بدلاً من ذلك كان عليه الجلوس بسكون تام وانتظار أن تخاطر الحيوانات الجبانة بالعودة. وبقي يراقب التلال حوله في الوقت نفسه، في حال ظهر متسكع على قمة إحداها. وكانت هولن قد زودتهم بتحذيراتها حتى أصبحوا يخافون الظلال ويراقبون الأفق كلما غادروا مأوى الصدع الصخري.

كانت الريح تهبّ على وجه تيموجن ولهذا لم تكن رائحته لتنذر فريسته، لكن كان عليه الإبقاء على القوس نصف مشدود لأن أقل حركة كانت ستدفع بتلك الحيوانات للعودة إلى جحورها مثل خطوط بنية عبر الأرض. كانت ذراعاه ترتجفان من الإرهاق وكان هناك دائماً صوت خافت في رأسه يخبره أن عليه قتل حيوان هذه المرة، مفسداً عليه هدوءه. بعد أربعة أيام من العيش على أصابع السمك الصغيرة والقليل من البصل البري، كان أبناء وزوجة ياسوجي يتضورون جوعاً حتى الموت. كانت هولن قد فقدت حيويتها وتجلس فاترة الهمة فيما ابنتها تضرب بيديها وتصرخ. وحدها الطفلة كانت قد حصلت على طعام جيد خلال الأيام الثلاثة الأولى، لكن حليب هولن بدأ يجف بعد ذلك وكان نشيجها يثير شفقة الأبناء.

تسلق كشيون وخاسار إلى أعلى الصدع، واستطلعا الأرض بحثاً عن أي حيوان ربما يكون ضل بعيداً عن قطيعه وضاع في البرية. صنع كشيون لنفسه قوساً صغيراً وثلاثة سهام. وتمنى لهما تيموجن التوفيق، لكنه كان

يعرف أنه يحظى بفرصة أفضل لإنقاذهم، فقط إذا استطاع توجيه ضربة جيدة. وشعر أنه يستطيع تقريباً أن يتذوق لحم الغرير الساخن عندما ظهر على بعد عشرين خطوة منه. كانت تلك رمية يستطيع طفل تحقيقها إذا كانت السهام جيدة. وكان تيموجن مرغماً في تلك الحالة على الانتظار فيما كان الألم يعتصر ذراعيه. ولم يكن يجرؤ على الكلام بصوت عالٍ، لكن في ذهنه، كان يدعو المخلوقات القلقة لأن تبتعد قليلاً عن منطقة الأمان، وتقترب منه أكثر.

طرفت عيناه بعد أن لسعهما العرق فيما كان الغرير ينظر حوله مستشعراً بوجود مفترس في مكان قريب. بقي تيموجن يراقب الحيوان حتى تجمد في مكانه، وكان يعرف أن الحركة التالية تعني اختفاءه إذا شعر بالخطر. أطلق زفيراً وأفلت السهم، منزعجاً من إمكانية رؤيته يفقد ضالته.

ضرب السهم الغرير في عنقه، ولم تكن الضربة قوية جداً، وبقي السهم معلقاً بالحيوان الذي تخبّط بجنون وضربه بمخالبه. ألقى تيموجن القوس، وقفز على قدميه، وجرى نحو فريسته قبل أن تتدارك نفسها وتختفي تحت الأرض. وشاهد فراء البطن الناعم واهتزاز الساقين عندما كان يجري بشكل جنوني نحو الحيوان وهو بأشد الحاجة للاستفادة من فرصته.

وقع على الغرير، وأمسك به بهياج شديد. وتملّص الحيوان من بين يديه، وكاد في حالته الضعيفة أن يفقده عندما حاول أن يفلت من قبضته. سقط السهم بعيداً، وانتشر الدم على الأرض الجافة. ذرف تيموجن دموع الراحة من عينيه عندما سحب العنق وفتله. كان الغرير ما يزال يركل بقائمتيه ويرتعش عندما وقف تيموجن يلهث من التعب، لكنهم سيأكلون. وانتظر زوال الدوار الذي يشعر به، وشعر بثقل الحيوان الذي اصطاده. كان سميناً وموفور الصحة وكان يعرف أن والدته ستحصل على بعض اللحم الساخن والدم في تلك الليلة. كان سيتم وضع الأوتار على الأرض ولصقها بغراء

السمك إلى قوسه ليصبح أقوى. وسيكون مدى رميته التالية أطول، والصيد مؤكداً. وضع يديه على ركبتيه وأطلق ضحكة خافتة انفرجت لها أساريره. لقد كان ذلك شيئاً صغيراً، لكنه يعني الكثير، وكان صعباً عليه المضي قدماً.

سمع صوتاً يعرفه خلف ظهره.

قال بكتر وهو يمشي بين الأعشاب نحو شقيقه: "ما الذي حصلت عليه؟" وكان يحمل قوسه على كتفه، ولم يكن يبدو متعباً وجائعاً مثل الآخرين. كان كشيون أول من شك بأن بكتر لم يكن يجلب ما يصطاده إلى العائلة. وكان يقبل حصته من الطعام عن طيب خاطر، لكن خلال الأيام الأربعة التي قضوها في ذلك المكان، لم يجلب شيئاً من كدح يديه إلى النار. وقف تيموجن مباشرة، غير مرتاح للطريقة التي تنظر بها عينا بكتر إلى الطريدة التي اصطادها.

قال وهو يرفع الحيوان إلى الأعلى: "غرير".

انحنى بكتر إلى الأمام ليراه ثم حاول اختطافه. قفز تيموجن إلى الخلف، وسقط الحيوان الرخو على الأرض. وأمسك به كلا الفتيين، وركلا وضربا بعضهما بعضاً بعنف. كان تيموجن ضعيفاً للغاية، ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يدفع بكتر للخلف قبل أن يتلقى ضربة قاسية تركته ينظر إلى السماء الزرقاء، وصدره يلهث.

قال بكتر وهو ينظر إلى الأسفل إلى تيموجن مبتسماً: "سآخذ هذا الحيوان إلى والدتي. كنت ستسرقه وتأكله وحدك".

كان مزعجاً أن يجد شبهة كشيون قد تحولت نحوه، وحاول تيموجن أن يكافح، لكن بكتر ثبته على الأرض بقدمه. ولم يستطع تيموجن قتاله، وبدا أن قوته قد تلاشت.

"أمسك بحيوان آخر لنفسك يا تيموجن. لا تعد قبل أن تفعل ذلك".

ضحك بكتر، واختطف الغرير الرخو، وأسرع الخطى إلى سفح التل حيث

النباتات داكنة ومتشابكة. وشاهده تيموجن يمضي، وكان غاضباً جداً حتى اعتقد بأن قلبه سينفجر. اختلج صدره وتساءل برعب ما إذا كان الجوع قد أضعفه. لم يكن يستطيع أن يموت فيما إيلوك يحكم الذئاب، أو فيما بكتر يفلت من العقاب.

كان قد استعاد زمام نفسه مرة أخرى في الوقت الذي نهض فيه. وكانت حيوانات الغرير الحمقاء قد عادت أثناء استلقائه هناك، رغم أنها تبعثرت في الأرجاء عندما نهض. ووقف متجهماً، والتقط سهمه ووضعه على الوتر المنحني، وجلس مجدداً ساكناً مثل صياد. آلمته عضلاته، وكادت ساقاه تتشنجان من الإرهاق، لكن قلبه كان يخفق بقوة.

كان هناك حيوان غرير واحد لإطعام العائلة تلك الليلة. واستعادت هولن حيويتها عندما جلبه بكتر لها، وأشعلت ناراً كبيرة لتطهوه. ورغم أن يديها ارتعشتا، إلاّ أنها شقت البطن بإتقان وأخرجت الأحشاء والأعضاء منه، وملأته بالحصى الساخنة بما يكفي لجعله ينضج. وأبقت رداءها ملفوفاً حول يديها، لكنها فزعت مرتين عندما لسعت الحرارة أصابعها. نضج اللحم من الداخل ثم تكوّر الجلد على الجمر، واحترق حتى أضحت رائحته لذيذة. وتم شي القلب أيضاً في الرماد حتى نضج تماماً. لن يتم هدر شيء.

بدا أن الرائحة وحدها قد أعادت بعض اللون إلى وجنتي هولن، وعانقت بكتر، وتحول ارتياحها إلى دموع لم تكن تشعر بها على ما يبدو. ولم يقل تيموجن شيئاً عمّا حدث. كانت تريد منهم العمل معاً، وسيكون من القسوة اتهام شقيقه المبتسم فيما هي ضعيفة للغاية.

استمتع بكتر بكونه مركز الاهتمام، ولم ينظر إلى تيموجن إلاّ في فترات متباعدة. كان تيموجن يحدق متجهماً بشقيقه عندما لا تكون والدته تنظر إليه. ولاحظ كشيون ذلك عندما كان الظلام يخيم، ووخز شقيقه بمرفقه.

همس الفتى الصغير عندما جلسوا لتناول الطعام: "ما الخطب؟"

هزّ تيموجن رأسه لأنه لم يكن راغباً بأن يشاطره الضغينة. لم يكن يستطيع التفكير بشيء سوى قطع اللحم المقددة التي دفعها بكتر إلى يديه، والذي كان يختار الحصص مثل خان يطعم رجاله. شاهد تيموجن أنه احتفظ بالإبط، أفضل قطعة، لنفسه.

لم يكن أحدهم قد تذوق شيئاً شهياً مثل ذلك اللحم. أصبحت العائلة أكثر سعادة وتفاؤلاً بعد أن تناولت اللحم الساخن. كانت رمية واحدة من القوس سبب كل تلك التغييرات، رغم أن كشيون كان قد أضاف ثلاث سمكات صغيرات أخريات وبعض الصراصير إلى النار. كانت تلك وليمة آلمت وأحرقت بطونهم لأن الفتية الصغار دفعوا الطعام بسرعة كبيرة إلى أفواههم، وكان عليهم شرب الماء للتخفيف من الحرارة. وربما كان تيموجن سيصفح عن السرقة لو أن أشقاءه لم يبالغوا في توجيه عبارات المديح لبكتر، والتي قبلها كأنها حق مكتسب له، وومضت عيناه الصغيرتان بسعادة داخلية لم يكن سوى تيموجن يفهمها.

لم تهطل الأمطار تلك الليلة، ونام الفتية في المأوى البدائي الثاني الذي شيّدوه، واختفى جزء صغير من جوعهم، وكان ما يزال موجوداً، يؤلمهم، لكن أصبح بمقدورهم أن يتحملوه مرة أخرى وأن يتجاهلوا انزعاجهم بعد أن ابتعدوا عن شفير الهاوية التي لا يمكن السيطرة عليها.

لم ينم تيموجن، ونهض بصمت على قدميه، ومشى في الظلام، ينظر إلى القمر وهو يرتجف. وفيما كان يمشي أدرك أن الصيف لن يدوم طويلاً. وكان الشتاء آتياً وسيقتلهم جميعاً بالتأكيد مثل سكين في الصدر. كانت حيوانات الغرير تنام في جحورها خلال شهور الشتاء الباردة، بعيداً تحت الأرض، حيث لا يمكن الوصول إليها. وكانت الطيور ترحل جنوباً ولا يمكن نصب أفخاخ لها. كان الشتاء قاسياً كثيراً على العائلات في الخيام الدافئة، والتي تحيط بها الماشية والجياد. وسيكون قاتلاً لعائلة ياسوجي.

بعد أن وقف وأفرغ مثانته على الأرض، انصب تفكيره على أولخونوت والليلة التي تسلل بها خلف كوكي. لقد كان طفلاً عندها، ولا شيء يفعله أفضل من القتال مع الفتية الآخرين. وتألم عندما تذكر البراءة في تلك الليلة، وتمنى لو أن بورت كانت معه لتدعمه. تأفف من تلك الفكرة، وكان يعرف أن بورت في مكان دافئ وتتناول طعاماً جيداً فيما يكاد يموت جوعاً.

شعر تيموجن بوجود أحد خلفه واستدار على عقبيه، وجثم في مكانه مستعداً للهجوم أو الفرار.

جاءه صوت كشيون: "لا شك بأن سمعك مرهف يا شقيقي. أنا مثل نسمة صامتة في الليل".

ابتسم تيموجن لشقيقه، وانفرجت أساريره: "لماذا أنت مستيقظ؟"

هزّ كشيون كتفيه دون مبالاة، وقال: "الجوع. كنت قد توقفت عن الشعور به طول نهار أمس، ثم جلب بكتر القليل من لحم الغرير، واستيقظت معدتي مجدداً".

بصق تيموجن على الأرض، وقال: "الغرير خاصتي. أنا قتلته، وكان هو الشخص الذي أخذه مني وحسب".

كان صعباً تفسير وجه كشيون في ضوء القمر، لكن تيموجن استطاع أن يشاهد امتعاضه.

"خمّنت ذلك. لا أعتقد أن الآخرين لاحظوا".

أطبق الصمت عليه، وتجهم وجهه في الظلام. وشاهد تيموجن أن هناك بروزاً في رداء شقيقه ووخزه بإصبعه.

سأله تيموجن مستغرباً: "ما هذا؟"

تلفّت كشيون إلى الخلف نحو المخيم بقلق قبل أن يسحب شيئاً من داخل ردائه، ويمسك به حتى يراه تيموجن. كان هيكل غرير آخر، وتحسس تيموجن العظام بيده، غاضباً. كان مكسوراً بطريقة تدل على أن رجلاً جائعاً

قام بذلك ليحصل على أفضل قطع اللحم. لم يخاطر بكتر بإشعال نار، وكانت العظام طازجة لم يمضِ عليها أكثر من يوم واحد.

قال كشيون بانزعاج: "وجدتها في المكان الذي كان بكتر يصطاد فيه".

قلب تيموجن العظام الصغيرة الهشة بين يديه، ومرر أصابعه على الجمجمة. وكان بكتر قد ترك الجلد عليه رغم أن العينين كانتا قد اختفتا. كان قد اصطاده في يوم لم يكن هناك شيء آخر في المخيم ليأكله أي منهم.

جثم تيموجن على ركبتيه، وبحث عن أي قطع صغيرة من اللحم. كانت هناك رائحة تعفن في العظام، لكنها لم تكن لتفسد تماماً في يوم واحد. وجثم كشيون معه ومصّا كل عظمة مكسورة مجدداً، محاولين سحب نقيها. ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً.

سأل كشيون بعد أن انتهيا: "ماذا ستفعل؟"

كان تيموجن قد اتخذ قراره، ولم يكن يشعر بأي أسف.

"هل سبق أن شاهدت قرادة على حصان يا كشيون؟"

أجاب شقيقه: "بالطبع". وكان كلاهما قد شاهد الطفيليات البدينة الكبيرة مثل المفصل الأخير في إبهاميهما. وعندما كان يتم نزعها، كانت تترك أثراً من الدماء يستغرق وقتاً طويلاً حتى يتخثر.

قال تيموجن بلطف: "القرادة حشرة خطيرة عندما يكون الحصان ضعيفاً. هل تعرف ما ينبغي عليك فعله عندما تجد واحدة؟"

همس كشيون: "اقتلها".

عندما غادر بكتر المخيم عند بزوغ الفجر في اليوم التالي، تسلل تيموجن وكشيون وراءه. وكانا يعرفان المكان الذي يفضل الاصطياد فيه، وتركاه يبتعد مسافة كبيرة عنهما، حتى لا يشعر بأنه مراقب.

ألقى كشيون نظرات قلق على تيموجن عندما كانا يتسللان بين الأشجار. ولاحظ تيموجن خوفه واستغرب أنه لا يشعر هو بالشيء ذاته. كان الجوع

يسبب ألماً مستمراً في أحشائه، وتوقف مرتين وتقيأ سائلاً أخضر من معدته، ومسح فمه بأوراق رطبة. وشعر بالدوار والضعف، لكن الجوع كان قد أحرق أي شعور بالشفقة ربما يشعر به. ظنّ أنه مصاب بحمّى خفيفة، لكنه أرغم نفسه على المتابعة، رغم أن قلبه كان يخفق ويرتعش ضعيفاً. وأدرك أن ذلك ما يتطلبه الأمر ليكون ذئباً. لا خوف أو أسف، وإنما مجرد ضربة واحدة ليخلصوا أنفسهم من عدو.

لم يكن صعباً تعقّب بكتر على الأرض الطينية. فهو لم يحاول إخفاء آثاره، وكان الخطر الوحيد أن يتعثروا به بعد أن يجثم ساكناً في انتظار فريسته. سار تيموجن وكشيون بصمت خلفه، وكانت أعصابهما مشدودة. عندما شاهدا زوجاً من طيور القبرة على شجرة أمامهما، لمس كشيون ذراع شقيقه بلطف تحذيراً له، ودارا حول المكان حتى لا يجعلا الطائرين يصرخان.

توقف كشيون، واستدار تيموجن إليه، وفزع من الطريقة التي تبدو بها جمجمة شقيقه مرئية بشكل واضح تحت الجلد الشاحب. كان مؤلماً رؤيتها وافترض تيموجن أنه يبدو قريباً من الموت هو الآخر. وإذا أغلق عينيه، كان يبدو أن ذلك سيفقده توازنه، ولهذا ترنح وقاوم الدوار الذي يشعر به. وتطلب منه الأمر بذل جهد كبير ليسحب شهيقاً طويلاً بطيئاً ويجعل خفقات قلبه أبطأ.

رفع كشيون ذراعاً ليدل على شيء ما، وحدّق تيموجن إلى حيث يشير، وتجمد عندما شاهد بكتر قد اتخذ موقعاً على بعد مئة خطوة أمامهما، يطل على الجدول. وكان صعباً أن لا يخافا من الشكل الذي يجثم مثل تمثال بين الشجيرات. كانوا جميعاً قد اختبروا قوة قبضات بكتر وثقله عليهم في ألعابهم الطفولية. راقب تيموجن بكتر، متسائلاً حول كيفية الاقتراب منه بما يكفي لتحقيق إصابة مؤكدة. ولم يكن هناك شك في ذهنه. وبدا أن بصره قوي رغم وجود غشاوة عليه، وأفكاره قاسية وتتوارد على ذهنه ببطء، لكن

مساره كان محدداً.

اهتز كشيون وتيموجن عندما أطلق بكتر سهماً إلى الماء من حيث يختبئ. وتراجع الفتيان إلى الوراء حتى لا يراهما، وسمعا خفق أجنحة وصوتاً مذعوراً وشاهدا ثلاث بطات تطير بسرعة، وتطلق تحذيرات متأخرة جداً.

قفز بكتر من مكانه وخاض في الجدول. وضاع عن الأنظار عندها خلف شجرة، لكن عندما عاد إلى الضفة، شاهدا أنه يحمل جسداً متراخياً لبطة حمراء.

استرق تيموجن النظر عبر الأغصان والأشواك، وتمتم قائلاً: "سننتظر هنا. فتش عن بقعة على الجانب الآخر من الطريق. سننال منه في طريق عودته".

ابتلع كشيون شعوراً بالضعف كان يراوده، محاولاً عدم إظهار قلقه. لم يكن يحب القسوة الجديدة التي رآها في تيموجن، وندم لأنه عرض عليه عظام الغرير في الليلة السابقة. وفي ضوء النهار، أخذت يداه تهتزان من التفكير بما ينويان القيام به، لكن عندما نظر تيموجن إليه، لم يجرؤ على التحديق به. وانتظر الفتى الأصغر سناً حتى أدار بكتر ظهره ليندفع على الدرب، وقد جهّز قوسه.

ركّز تيموجن بصره عندما شاهد بكتر يستعيد السهم ويدفع بالبطة إلى داخل ردائه. وشعر بغصّة وبخيبة أمل عندما تمطّى بكتر ومشى مبتعداً في الاتجاه الخطأ، صعوداً إلى أعلى الصدع الصخري. رفع تيموجن راحة كفه مبسوطة إلى حيث كان كشيون يختبئ، رغم أنه لم يكن يستطيع رؤيته. وفكّر في بكتر وهو يلتهم البطة السمينة في مكان ما خاص به، وأراد أن يقتله عندها. ولو أنه كان قوياً، وهناك ما يكفي من الحليب واللحم في بطنه، ربما كان سيلحق به، لكن في حالة الضعف التي كان عليها، لم يكن سوى للهجوم المباغت فرصة النجاح. أراح تيموجن ساقيه قبل أن تتشنجا.

وتقلصت أمعاؤه ألماً مما جعله يغلق عينيه ويتكور على نفسه حتى زالت النوبة. لم يكن يجرؤ على إنزال سرواله أثناء انتظاره، تحسباً لأن يشمّ أنف بكتر الحساس الرائحة. كان ياسوجي قد ربّاهم جميعاً على أن يكونوا حذرين، ولم يكن تيموجن يريد أن يفقد أفضليته. تحامل على انزعاجه وجلس في مكانه ينتظر.

كانت أسوأ لحظة عندما جاءت يمامة لتقف على شجرة ليست بعيدة عن الموقع الذي يربض فيه الفتيان المختبئان في مكان رطب تحتها. راقبها تيموجن بغصة، وكان يعرف أنه يستطيع إصابتها بالسهم بسهولة على بعد عدّة خطوات منه. وبدا أن الطائر لا يدرك وجودهما قربه، وجعل الجوع معدته تتشنج مراراً وتكراراً فيما كان يحاول تجاهله. كان يعرف، من خبرته، أن بكتر في طريق العودة آنذاك، وأن كل طائر بالقرب منهما سيطير عن الأشجار ويكشف مكانهما إذا أطلق تيموجن سهماً على اليمامة. رغم ذلك لم يكن يستطيع النظر بعيداً، وعندما طارت، تابعها ببصره حتى اختفت عن نظره وظل يسمع خفق جناحيها بعد وقت طويل من ذهابها.

عاد بكتر بعد أن أصبحت الشمس فوق الصدع الصخري والظلال متطاولة. وسمع تيموجن وقع قدميه ودفع نفسه للاستيقاظ من نعاس كاد يغشاه. تفاجأ عندما اكتشف انقضاء ذلك الوقت الطويل، وتساءل عما إذا كان قد نام فعلاً. وكان جسده ضعيفاً ولن يستطيع ماء الجدول أن يطفئ الألم المبرح في معدته.

شدّ تيموجن سهمه على القوس وانتظر، وهزّ رأسه ليبعد عنه الدوار ويجعل رؤيته أوضح. حاول أن يقول لنفسه إن بكتر سيقتله إذا أخطأ الرمية، حتى يدفع جسده للتأهب ويسعفه قليلاً. كان ذلك صعباً، وفرك عينيه بغضب ليجعل بصره أكثر حدة. وكان يستطيع سماع بكتر يقترب، ثم حانت اللحظة الحاسمة.

مشى على الطريق على بعد خطوات قليلة فقط من بكتر. وسحب تيموجن القوس وفغر بكتر فمه دهشة. كانت هناك لحظة بحث فيها بكتر عن سكين في حزامه، ثم أطلق تيموجن السهم، وشاهد النصل المصنوع من العظام ينغرز في صدر شقيقه. وفي اللحظة نفسها، أطلق كشيون السهم من الخلف، واندفع بكتر إلى الأمام عند تلقيه الإصابة الثانية.

تمايل بكتر في مشيته وصرخ غضباً. وسحب سكينه وتقدم خطوة إلى الأمام، ثم واحدة أخرى قبل أن تنهار ساقاه ويقع على وجهه بين الأوراق. كان كلا السهمين قد أصابا منه مقتلاً، واستطاع تيموجن أن يسمع هسيس الرئة المثقوبة. ولم تكن هناك شفقة عليه. أصيب تيموجن بدوار، وتقدم إلى الأمام خطوة قبل أن يرمي القوس ويأخذ سكين بكتر من بين أصابعه.

نظر إلى وجه كشيون المذعور، ثم كشّر، وجثم على ركبته ودفع بالنصل في عنق بكتر محرراً دمه وحياته.

قال تيموجن: "انتهى الأمر". ونظر للأسفل إلى العينين اللتين تحدقان به فيما كان وميضهما ينطفئ. لم يكن يشعر بثقل في جسده عندما فتش رداء بكتر بحثاً عن البطة. ولم تكن موجودة هناك، ركل تيموجن الجثة، ومشى مبتعداً عنها مصاباً بدوار شديد حتى اعتقد أنه سيقع مغشياً عليه. ووضع جبينه على شجرة بتولا رطبة وباردة وانتظر حتى يهدأ نبضه وخفقان قلبه.

سمع كشيون يقترب، وكانت خطواته رقيقة على الأوراق عندما ابتعد عن جثة شقيقه. وفتح تيموجن عينيه.

قال: "لنأمل أن يكون خاسار قد أحضر شيئاً لنأكله". وعندما لم يجب كشيون، أخذ تيموجن أسلحة بكتر، ووضع القوس البالي حول كتفه.

قال كشيون بصوت بائس: "إذا شاهد الآخرون سكين بكتر، سيعرفون ما جرى".

مدّ تيموجن يده وأمسك بعنقه، يحاول الوقوف ثابتاً مثل شقيقه. وكان

يستطيع سماع الذعر في صوت كشيون، وشعر بأول صدى له داخل نفسه. ولم يكن قد فكر بما سيحدث بعد موت عدوه. لن يستطيع بكتر الأخذ بالثأر، ولا أن يحظى بفرصة لاستعادة خيام الدهم وقطعانه. وسيتعفن حيث هو. تلك الحقيقة كانت قد بدأت تعتمل في نفسه، وكان تيموجن لا يكاد يصدق أنه فعل ذلك حقاً. كانت الحالة النفسية الغريبة قبل أن يطلق السهم قد زالت، ولم يكن يوجد مكانها سوى الضعف والجوع.

قال تيموجن: "سأخبرهم". وشعر بأن بصره يتجه إلى جثة بكتر مرة أخرى كما لو أن هناك ثقلاً غير مرئي يسحبه إلى هناك. "سأخبرهم بأنه كان يجعلنا نتضور جوعاً جميعنا. لا مكان هنا للرحمة. سأخبرهم بذلك".

سارا عائدين إلى الصدع الصخري مرة أخرى، وكل منهما يستمد الراحة من وجود الآخر.

شعرت هولن بأن شيئاً ليس على ما يرام في اللحظة التي شاهدت فيها الفتيين يعودان إلى المخيم. وكان خاسار وتيموج يجلسان معها فيما الصغيرة تيمولن مستلقية على قطعة من الملابس قرب النار التي تبثّ الدفء حولها. نهضت هولن ببطء، وقد ظهر الخوف على وجهها الرفيع. وفيما كان تيموجن يدنو، لاحظت أنه يحمل قوس بكتر، وتسمرت في مكانها، متلهفة لسماع التفاصيل. لم يستطع سواء تيموجن أو كشيون النظر في عينيها، وكان صوتها خافتاً عندما تكلمت أخيراً.

قالت: "أين شقيقكما؟"

حدّق كشيون في الأرض، ولم يكن يستطيع الإجابة. ومشت خطوة إلى الأمام عندما رفع تيموجن رأسه وابتلع ريقه بصعوبة.

شرع يقول: "كان يأخذ الطعام، ويحتفظ به لنفسه...".

أطلقت هولن صرخة غضب شديدة ولطمته بقوة كانت كافية لتدير رأسه إلى الجانب الآخر.

سألته بصوت حاد ثاقب: "أين شقيقك؟ أين ولدي؟"

كان أنف تيموجن ينزف والدماء تسيل فوق فمه، حتى أنه وجد نفسه مرغماً على أن يبصق. وكشف عن أسنان حمراء لوالدته، وألمه مما فعلته.

قال بحدة: "لقد مات". وقبل أن يستطيع متابعة الكلام، لطمته هولن مجدداً، مراراً وتكراراً، حتى لم يعد يستطيع سوى التكور على نفسه والتراجع للخلف مترنحاً في مشيته. ولحقت به وهي تشعر ببؤس لا تستطيع احتماله.

انتحبت قائلة: "أنت من قتله؟ أي صنف من الناس أنت؟"

حاول تيموجن أن يمسك بيديها، لكنها كانت قوية جداً بالنسبة له، وتتالت الضربات تباعاً على وجهه وكتفيه، وفي كل مكان استطاعت الوصول

إليه.

صرخ تيموج قائلاً: "توقفي عن ضربه من فضلك!" لكن هولن لم تكن تستطيع سماعه. كان هناك هدير في أذنيها، وغضب يشتعل داخلها ويهدد بأن يمزقها إرباً. أسندت تيموجن إلى شجرة وأمسكت به من كتفيه، تهزّ جسده النحيل بقوة كبيرة اهتزّ لها رأسه قليلاً.

صرخ كشيون وهو يحاول أن يبعدها عنه: "هل ستقتلينه أيضاً؟"

أمسكت تيموجن من شعره الطويل، ورفعت رأسه للأعلى حتى أرغمته على النظر في عينيها.

"لقد ولدت مع خثرة من الدماء في يدك، مع الموت. قلت لوالدك إنك لعنة علينا، لكنه كان أعمى". لم تكن تستطيع الرؤية من خلال دموعها، وشعرت بيديها تنشبان مثل مخالب بفروة رأسه.

صرخ تيموجن: "كان يخفي الطعام عنا جميعاً، ويتركنا نتضور جوعاً. يتركك أنت تتضورين جوعاً!" وبدأ ينتحب نتيجة الهجوم المتواصل، وشعر بأنه وحيد أكثر من أي وقت مضى. ونظرت هولن إليه كما لو أنه موبوء.

أجابت: "لقد سرقت مني ابني، ولدي أنا". عندما ركزت نظرها عليه، رفعت يداً فوق رأسه وشاهد أظفارها المكسورة تهتز فوق عينيه. كانت تلك لحظة استغرقت وقتاً طويلاً فيما كان يحدق برعب، ينتظر منها أن تمزقه إرباً.

تلاشت القوة في ذراعيها بالسرعة نفسها التي ظهرت بها وانهارت متكورة على نفسها، وقد فقدت الوعي. ووجد تيموجن نفسه يقف وحيداً يرتعش خوفاً. وتشنجت معدته، وكاد يتقيأ، إلاّ أنه لم يكن يوجد فيها سوى سائل أصفر حامض.

فيما كان يخطو مبتعداً عن والدته، لاحظ أن أشقاءه يحدقون به وصرخ بهم بصوت عالٍ: "كان يأكل حيوانات الغرير السمينة فيما نتضور جوعاً!

كان قتله عملاً صائباً. إلى متى تعتقدون أننا كنا سنعيش وهو يأخذ حصتنا مما يصيده؟ رأيته يصطاد بطة اليوم، لكن هل هي هنا لتمنحنا القوة؟ لا، إنها في بطنه".

تحركت هولن على الأرض خلفه، وقفز تيموجن خائفاً من هجوم آخر تشنّه عليه. كانت عيناه مليئتين بالدموع عندما نظر إلى والدته التي يحبها حباً جمّاً. كان يستطيع أن يخفي عنها ما جرى لو عرف أن الأمور ستؤول إلى ما آلت إليه، وربما لفّق قصة عن سقوط بكتر وموته. لكنه كان يرفض ذلك في قرارة نفسه، لأن ذلك لم يكن خطأ. لقد كان بكتر قرادة مخفية، ويأخذ أكثر من حصته ولا يعطي شيئاً بالمقابل فيما يموت من حوله. ستعرف هولن ذلك في الوقت المناسب.

فتحت والدته عينيها المحتقنتين، وجلست على ركبتيها تنوح أسى بصوت خافت. لم تكن لديها القوة لتقف على قدميها مجدداً، كان على تيموج وخاسار أن يساعداها للنهوض. فرك تيموجن لطخة من الدماء على جلده وواجهها مقطب الجبين. وكان يفضل الهروب بعيداً على أن تنظر إليه مجدداً، لكنه أرغم نفسه على الوقوف.

قال: "كان سيقتلنا".

ألقت هولن عليه نظرة فارغة ارتعش منها.

قالت: "قل اسمه. قل اسم ولدي البكر".

فزع تيموجن، وتملّكه الدوار فجأة. وشعر بأن أنفه الملوث بالدماء ساخن وكبير في وجهه، وكان يستطيع رؤية ومضات داكنة أمام عينيه. وكل ما كان يريده هو أن ينهار وينام، لكنه بقي هناك يحدق في والدته.

قالت مجدداً وقد حل الغضب مكان الفتور في عينيها: "قل اسمه".

أجاب تيموجن وهو يبصق الكلمة: "بكتر سرق طعامنا بينما كنا نتضور جوعاً".

قالت هولن بصوت خافت يثير الرعب أكثر من غضبها: "كان ينبغي أن أقتلك عندما شاهدت القابلة تفتح يدك. كان ينبغي أن أعرف عندها ما أنت عليه".

شعر تيموجن بأنه يتمزق من الداخل، ولم يستطع إيقافها عن إلحاق الأذى به. كان يريد الاندفاع نحوها لتحتضنه بذراعيها وتحميه من البرد، وأن يفعل أي شيء حتى لا يرى البؤس الشنيع الذي تسبب به.

قالت والدته بصوت خافت: "ابتعد عني أيها الفتى. إذا رأيتك نائماً، سأقتلك لما اقترفته يداك، لما سلبته مني. لم تكن من اعتنى به عندما برزت أسنانه. لم تكن هناك لتطفئ الحمّى عنه بالأعشاب وتهزّه في أسوأ حالاته. لم تكن موجوداً عندما أحببت وياسوجي الفتى الصغير. عندما كنا يافعين وكان كل ما لدينا".

أصغى تيموجن السمع، مكبد الأحاسيس من الصدمة. ربما لم تكن والدته قد فهمت الرجل الذي أصبح عليه بكتر. لقد أضحى الطفل الذي داعبته لصاً قاسياً، ولم يستطع تيموجن إيجاد الكلمات ليخبرها بذلك. حتى عندما أصبحت على طرف لسانه، عض عليها بأسنانه، لأنه كان يعرف أنها عديمة الجدوى، أو أسوأ، إنها ستثيرها مجدداً لمهاجمته. وهزّ رأسه.

قال: "أنا آسف". وعندما نطق بها كان يعرف أنه آسف على الألم الذي تسبب به وليس على القتل.

همست هولن: "ابتعد من هنا يا تيموجن. لا أستطيع احتمال النظر إليك".

عندها تنهد واستدار ليتجاوز أشقاءه، وكان كل نفس يخرج أجشاً من حنجرته وهو يشعر بطعم الدماء في فمه.

لم يروه بعد ذلك خمسة أيام. ورغم أن كشيون بحث عن شقيقه، إلاّ أن الدليل الوحيد على وجوده كان الصيد الذي أحضره وتركه على حافة

مخيمهم الصغير. كان هناك يمامتان في اليوم الأول، وكانتا ما تزالان دافئتين والدماء تسيل من منقاريهما. ولم ترفض هولن الهدية، رغم أنها لم تتكلم عمّا حدث مع أي منهم. وتناولوا اللحم بصمت بائس، وتبادل كشيون وخاسار النظرات فيما كان تيموج ينشج وينتحب كلما تركته هولن وحده. وربما كان موت بكتر مصدر راحة للفتية الصغار لو أنه حدث عندما كانوا بأمان في خيام الذئاب. كانوا سينوحون عليه ويسجون جسده ويستمدون الراحة من الشعائر المرافقة لذلك. لكن في الصدع الصخري بين التلال، لم يكن ذلك سوى تذكير آخر بأن الموت يسير معهم. وكان ما يحدث مغامرة لبعض الوقت في البداية حتى جعل الجوع جلودهم تتمدد فوق عظامهم. وفي تلك الحال، كانوا يعيشون مثل الحيوانات البرية، ويحاولون ألاّ يقلقوا بشأن الشتاء القادم.

كان خاسار قد أضاع ضحكته في الصدع الصخري بين التلال، وبدأ يعتني بهم بعد أن ابتعد تيموجن، وكان هو من صفع تيموج لإزعاجه والدتهم كثيراً. وبغياب بكتر، كانوا يبحثون جميعاً عن أدوار جديدة، كان خاسار من يقود الصيد كل صباح مع كشيون، ووجهه متجهم. وكانا قد وجدا بركة أفضل بعيدة عن الصدع الصخري، رغم أنه كان عليهما اجتياز البقعة التي لقي فيها بكتر مصرعه للوصول إليها. فتش كشيون المنطقة واكتشف المكان الذي سحب تيموجن الجثة إليه وغطاها بالأغصان. وكان لحم شقيقهم يجتذب الحيوانات، وعندما وجد كشيون كلباً هزيلاً ميتاً على حافة المخيم في الأمسية الثانية، كان عليه إرغام نفسه على ابتلاع ريقه. لم يستطع سوى أن يتخيل تيموجن يقتل الحيوان الذي جذبته رائحة بكتر، لكن كشيون كان بحاجة للطعام، وكان الكلب أفضل وجبة وجدوها منذ مجيئهم إلى ذلك المكان.

عاد تيموجن إلى المخيم في أمسية اليوم الخامس. وتجمدت عائلته من

وقع خطواته، وأخذ الصغار يراقبون هولن تحسباً لرد فعلها. راقبته يأتي، وشاهدته يحمل تيساً صغيراً بين ذراعيه، وكان ما يزال حياً. كان ابنها يبدو أقوى، كما أدركت، وقد أصبح لون جلده داكناً خلال الأيام التي قضاها على التلال معرضاً للرياح والشمس. كان محيراً ما تشعر به. فلقد شعرت بالراحة تسري في بدنها لأنه بخير، وشعرت بالغضب ولم تستطع الصفح عنه بداخلها بالرغم من أن الكراهية لما فعله قد ذبلت.

كان تيموجن يمسك التيس من أذنه، ودفعه إلى داخل دائرة عائلته.

قال: "هناك راعيان على بعد عدّة أميال إلى الغرب من هنا. إنهما وحدهما".

قالت هولن فجأة بشكل أدهشهم جميعاً: "هل شاهداك؟"

نظر تيموجن إليها، وأصبحت نظرته الثابتة غير واثقة.

"لا. أخذت هذا الحيوان عندما ذهبا خلف تلة. ربما فقداه، لا أعرف. كانت فرصة جيدة لم أستطع تجاهلها". ونقل مركز ثقله من إحدى قدميه إلى الأخرى فيما كان ينتظر والدته لتقول شيئاً آخر. ولم يكن يعرف ما سيفعله إذا أبعدته مجدداً.

قالت هولن: "سيبحثان عنه ويجدان آثارك. ربما تكون قد أحضرتهما إلى هنا خلفك".

تنهد تيموجن، ولم تكن لديه قوة لخوض جدال آخر. وقبل أن تستطيع والدته الاحتجاج، جلس واضعاً ساقاً على ساق بجانب النار وسحب سكينه.

"ينبغي أن نأكل لنعيش. إذا وجدانا، سنقتلهما".

شاهد وجه والدته يصبح قاسياً مجدداً، وانتظر العاصفة التي ستهب دون شك. كان قد جرى لأميال ذلك اليوم، وكل عضلة في جسده النحيل تؤلمه. ولم يكن يستطيع احتمال قضاء ليلة أخرى وحده، وربما كان ذلك الخوف بادياً على وجهه.

تكلم كشيون ليكسر التوتر الرهيب.

قال: "ينبغي أن يقوم أحدنا بحراسة المخيم الليلة تحسباً لمجيئهما".

أومأ تيموجن برأسه دون أن ينظر إليه، وكان بصره مركزاً على والدته.

قال: "نحتاج إلى بعضنا بعضاً. إذا كنت مخطئاً بقتل شقيقي، لن يتغير ذلك".

ثغا التيس، وحاول دفع نفسه في الفسحة بين هولن وتيموج. ومدّت هولن يدها وأمسكت به من عنقه، وشاهد تيموجن في ضوء النار أنها كانت تبكي.

تمتمت: "ماذا ينبغي أن أقول لك يا تيموجن؟" وكان التيس دافئاً، ودفنت وجهها في فرائه فيما كانت تبكي وتنتحب. "لقد مزقت قلبي، وربما لم أعد مهتمة بأي شيء آخر".

قال تيموجن: "إنك تهتمين بالآخرين رغم ذلك. نحتاج إليك لننجو من الشتاء، وإلاّ سننتهي جميعاً". وشدّ من قامته عندما كان يتكلم وبدت عيناه الصفراوان تلمعان في ضوء ألسنة اللهب.

أومأت هولن لنفسها، ودندنت أغنية من طفولتها فيما كانت تداعب أذني التيس الصغير. كانت قد شاهدت اثنين من أشقائها يموتان من وباء جعلهما متورمين وأسودين، وهجرتهما قبيلة والدها في السهول. كانت قد سمعت محاربين يصرخون من جراح لا يمكن البراء منها، وكانت نوبات ألمهم تستمر أياماً حتى تخرج الحياة منهم أخيراً. كان البعض منهم يطلب رحمة سيف يشق حناجرهم، ويتم منحها لهم. وكانت قد مشت مع الموت طوال حياتها، وربما تستطيع فقدان ابن والتعايش مع الأمر، كأم للذئاب.

لم تكن تعرف إذا كانت تستطيع أن تحب الرجل الذي قتله، رغم أنها كانت تعتصر ألماً لتحتضنه وتواسيه في محنته. لم تفعل ذلك، وإنما أخرجت سكينها.

كانت قد صنعت أوعية من لحاء أشجار البتولا للمخيم أثناء غياب أولادها للصيد، ورمت بواحد لخاسار وكشيون. وزحف تيموج للأمام ليأخذ وعاء آخر، ولم يبقَ عندها سوى وعائين بدائيين، ونظرت هولن بعينين حزينتين إلى ابنها الأخير.

قالت بعد برهة من الزمن: "خذ وعاءً يا تيموجن. سيمنحك الدم القوة".

أخفض رأسه لدى سماعه تلك الكلمات، وعرف أنه سيكون مسموحاً له البقاء. ووجد أن يديه ترتعشان عندما أخذ الوعاء وأمسك به مع الآخرين. تنهدت هولن، وأمسكت التيس بقبضة قوية قبل أن تدفع النصل وتقطع شرايين عنقه. وسالت الدماء على يديها، وتدافع الفتية فيما بينهم للحصول عليه قبل أن يُراق. وبقي التيس ينازع فيما كانوا يملؤون الأوعية ويشربون السائل الحار، ويتلمظون بشفاههم ويشعرون به يصل إلى عظامهم، ويخفف من ألمهم.

عندما أصبح السائل قليلاً، أمسكت هولن بالحيوان المضطرب بإحدى يديها وملأت بصبر وعاءها حتى آخره قبل أن تشرب بدورها. كان التيس ما يزال يضرب بقوائمه في الهواء، لكنه كان يحتضر أو قد نفق أصلاً، وكانت عيناه كبيرتين وداكنتين.

قالت لهم: "سنطهو اللحم ليلة الغد، عندما أتأكد أن النار لن تجلب الراعيين بحثاً عن التيس المفقود. إذا جاءا إلى هنا، ينبغي ألاّ يغادرا ليكشفا مكان تواجدنا. هل تفهمون؟"

لعق الفتية أفواههم المليئة بالدماء فيما كانوا يهزّون رؤوسهم بوقار. وسحبت هولن شهيقاً عميقاً سحق حزنها في مكان عميق داخلها حيث كانت لا تزال تنوح على ياسوجي وكل ما ضاع منهم. كان ينبغي احتجازه بعيداً حيث لا يمكنه تدميرها، لكن في مكان ما، كانت تبكي باستمرار.

سأل تيموج بصوته المرتفع وهو ينظر بقلق إلى التيس المسروق: "هل

سيأتيان لقتلنا؟"

هزّت هولن رأسها، وسحبته إليها لتمنحه الطمأنينة وتستمد منه بعض الراحة.

"نحن ذئاب أيها الصغير، ولا نموت بسهولة". وعندما تكلمت، كانت عيناها على تيموجن الذي ارتعش من قسوتها الباردة.

حدّق تيموجن بالراعيين ووجهه محشور بين الأعشاب البيضاء المتجمدة. وكانا نائمين على ظهريهما، يغطيان نفسيهما بردائين سميكين، وأذرعهما مكشوفة حتى الأردان. وكان أشقاؤه يستلقون على بطونهم إلى جانبه، والصقيع يتسلل إلى عظامهم. كانت الليلة هادئة تماماً. كانت الحيوانات نائمة والرجلان غافلين عن أولئك الذين يراقبونهم ويتعطشون للنيل منهم. ركز تيموجن بصره في الظلمة. وكان كل الفتية الثلاثة يحملون أقواساً وسكاكين، ولم يكن هناك إشراق في تعابير وجوههم فيما كانوا يراقبون ويقدّرون فرص نجاحهم. كانت أي حركة ستدفع الماعز إلى الثغاء ذعراً، وسيقفز الرجلان متنبهين خلال لحظة واحدة.

همس خاسار: "لا نستطيع الاقتراب أكثر".

تقطب جبين تيموجن عندما كان يفكّر بتلك المشكلة، وحاول أن يتجاهل الألم في جسده من الاستلقاء على أرض متجمدة. سيكون الراعيان رجلين صلبين ولا بد أن لديهما أقواساً في متناول اليد، ولا بد أنهما معتادان على الوثب وقتل ذئب يحاول سرقة حمل. ولن يشكل فرقاً إذا كانت الفريسة ثلاثة فتية، خصوصاً في الليل.

ابتلع تيموجن ريقه بصعوبة بالغة، وحدّق بالمشهد الهادئ. ربما كان سيوافق مع شقيقه ويتراجع عائداً إلى الصدع الصخري في التلال لو لم يكن يسعى خلف الحصان الهزيل الذي قيّده الرجلان بالقرب منهما. كان ينام واقفاً، ورأسه يكاد يلمس الأرض. وتاق تيموجن للحصول عليه، ليذهب في

جولة مجدداً. كان ذلك يعني أنه سيستطيع الصيد في مناطق أبعد من قبل، ويسحب حتى فريسة أكبر خلفه. وإذا كانت فرساً، ربما تمنحهم حليباً، واستشعر لسانه المذاق في ذاكرته. ولا بد أن الرجلين يحملان عدداً من الأشياء المفيدة لهما، ولم يكن يحتمل أن يدعهما وشأنهما ببساطة، بغض النظر عن الخطر. وكان الشتاء قادماً، واستطاع أن يشعر به في الجو والصقيع الذي يخز مثل الإبر جلده المكشوف. ودون صوف الغنم ليحميهم، إلى متى سيصمدون؟

تمتم تيموجن: "هل تستطيعون رؤية الكلاب؟" لم يجب أحد. لا بد أن الحيوانات ستكون مستلقية وذيولها ملتصقة بها اتقاء من البرد، كان مستحيلاً تحديد مكانها. وكان يكره فكرة أن تقفز عليه في الظلام، لكن لم يكن هناك خيار. وكان على الراعيين أن يموتا حتى تعيش عائلته.

سحب شهيقاً عميقاً، وتفحص ما إذا كان وتر قوسه جافاً وقوياً.

"لديَّ أفضل قوس. سأمشي نحوهما، وأقتل الرجل الذي ينهض أولاً. وستأتيان خلفي، وتقتلان الكلبين عندما تنطلق نحوي. مفهوم؟" في ضوء القمر، كان يستطيع رؤية مدى قلق شقيقيه. وقال تيموجن حتى يكون واثقاً: "الكلبان أولاً، ثم من أترك واقفاً". وعندما هزّا رأسيهما، نهض بصمت على قدميه، ومشى نحو الرجلين النائمين بالاتجاه الذي تهبّ منه الرياح حتى لا تنبه رائحته القطيع.

بدا أن البرد قد خدّر ساكني المخيم الصغير. واقترب تيموجن أكثر فأكثر منهما، وسمع أصوات أنفاسه خشنة في أذنيه. أبقى قوسه جاهزاً عندما أخذ يجري. وبالنسبة لشخص تدرب على إطلاق السهام من على حصان يهرول، لن يكون الأمر صعباً، أو هكذا كان يأمل.

بعد أن قطع ثلاثين خطوة، تحرك شيء ما بالقرب من الرجلين النائمين، وكان شكلاً داكناً يقفز ويعوي. وعلى الطرف الآخر، اندفع كلب آخر نحوه،

وهو يعوي فيما يقترب منه. صرخ تيموجن خوفاً، وحاول يائساً التركيز على الراعيين.

أفاقا من النوم وهما يتخبطان، ونهضا على أقدامهما بسرعة فيما كان تيموجن يسحب الوتر ويطلق سهمه الأول. في الظلام، لم يكن يجرؤ على الرمي مرة أخرى، واندفع سهمه عبر الرداء وأصاب الرجل في صدره، وجعله يسقط للخلف على ركبة واحدة. سمعه تيموجن يصرخ من الألم لرفيقه وشاهد الثاني يتدحرج مبتعداً، ثم ينهض مع قوس في يده. وثغت الأغنام والماعز برعب، وهربت بجنون نحو الظلام، حتى أن بعضها تجاوز تيموجن وأشقاءه، وغيرت اتجاهها عندما شاهدت الضواري بينها.

أسرع تيموجن ليسبق الراعي في الرمي. وكان سهمه الثاني في رباط خصره فشدّه بقوة، وأطلق اللعنات عندما علق النصل. ووضع الراعي سهمه على قوسه بثقة محارب، واختبر تيموجن لحظة يأس. ولم يستطع تحرير سهمه، وأصابه صوت الزمجرة إلى يساره بالرعب. استدار فيما كان أحد الكلاب يقفز نحو حنجرته، وسقط للخلف فيما كان سهم الراعي يطن فوق رأسه. وصرخ تيموجن رعباً عندما أطبقت أنياب الكلب على ذراعه، ثم اخترق سهم خاسار عنق الحيوان وتوقفت الزمجرة المتوحشة.

كان تيموجن قد ألقى قوسه، وشاهد أن الراعي يضع بهدوء سهماً جديداً على وتر قوسه. والأسوأ من ذلك أن الرجل الجريح كان يقف مجدداً على قدميه. وكان قد وجد هو الآخر قوساً، وفكر تيموجن في الهرب. كان يعرف أنه ينبغي إنهاء الأمر هنا وإلاّ سيلحق بهم الرجلان وسينالان منهم واحداً بعد الآخر تحت ضوء القمر. وانتزع سهمه الذي خرج في يده. ووضعه على الوتر بيدين مرتعشتين. أين هو الكلب الآخر؟

أصاب سهم كشيون الراعي الواقف تحت ذقنه. وللحظة، وقف هناك مع قوسه واعتقد تيموجن أنه سيطلق السهم قبل أن يموت. وكان قد سمع عن

محاربين أشداء للغاية يستطيعون إعادة سيوفهم إلى أغمادها حتى بعد أن يلقوا حتفهم، لكن فيما كان يراقب ما يجري، انهار الراعي.

كان الراعي الذي جرحه تيموجن يحاول جاهداً في الإمساك بقوسه، ويصرخ من الألم فيما يحاول سحب الوتر، وكان سهم تيموجن قد مزق عضلات صدره، ولم يكن يستطيع سحب السلاح بما يكفي لرمي السهم.

شعر تيموجن بقلبه يهدأ، وعرف أنهم فازوا بالمعركة. اقترب منه خاسار وكشيون، وراقب ثلاثتهم الرجل فيما كانت أصابعه تنزلق على القوس مراراً وتكراراً.

تمتم تيموجن: "الكلب الثاني".

لم يكن كشيون يستطيع أن يشيح بنظره بعيداً عن الرجل الذي يحتضر، والذي تضرع لنفسه فيما كان يواجه مهاجميه.

"لقد قتلته".

ربت تيموجن على ظهر شقيقه امتناناً.

"إذاً دعونا ننهي هذا".

شاهد الراعي أطول المهاجمين يأخذ سهماً من أحد الاثنين الآخرين ويسحب القوس. واستسلم عندها وترك القوس يقع من يده، وسحب سكيناً من ردائه ونظر للأعلى إلى النجوم والقمر. وصمت صوته وأصابه سهم تيموجن في وسط حنجرته. وحتى عندها، وقف للحظة، يترنح، قبل أن يسقط إلى الأرض.

تحرك الأشقاء الثلاثة بحرص نحو الجسدين، يراقبون أي إشارة على الحياة فيهما. وأرسل تيموجن خاسار خلف الحصان، الذي استطاع الهرب من رائحة الدم رغم اللجام المربوط حول قائمتيه. استدار نحوه كشيون، وأمسك به من مؤخرة عنقه، وسحبه للأمام حتى تلامس جبيناهما.

قال تيموجن مبتسماً: "سننجو من الشتاء".

شعر كشيون بطيب مزاجه، وأطلقا معاً صرخة نصر فوق السهول الفارغة. ربما كان ذلك عملاً أحمق، إلاّ أنهما كانا لا يزالان يافعين رغم قيامهما بالقتل.

جلس إيلوك يحدق بألسنة اللهب، ويفكّر في الماضي. خلال السنوات الأربع التي انقضت منذ غادر ظلال ديليون - بولداخ والأراضي حول التل الأحمر، تمتع الذئاب بالرخاء، وازدادوا عدداً وثروة. وكان ما يزال في القبيلة أولئك الذين يكرهونه لأنه تخلّى عن أبناء ياسوجي، لكن لم يكن هناك دليل على مآله إلى نهاية بشعة. شهدت بشائر الربيع الأولى في السنة التالية ولادة حملان أكثر مما يستطيع أي شخص أن يتذكر، وملأ عشرة رضّع الخيام بصراخهم. ولم يمت أحد أثناء الولادة، كان ذلك مصدر رضا لأولئك الباحثين عن الرموز.

همهم إيلوك لنفسه، مستمتعاً بالطريقة التي ضعفت بها رؤيته، وأضحت غير واضحة بعد الكوب الثاني من شراب الأعشاب الأسود. وقد كانت تلك السنين جيدة ورزق بثلاثة أطفال يركضون حول المخيم ويتعلمون استعمال القوس والسيف. كان قد ازداد وزنه رغم أن ذلك كان غلظة في الجسم وليس دهناً زائداً. كانت أسنانه وعيناه ما تزال قوية، واسمه يبث الخوف بين القبائل. وكان يعرف أن عليه أن يكون قانعاً.

كان الذئاب قد انتقلوا جنوباً في تلك السنين، حتى وصلوا إلى أرض موبوءة بالذباب والهواء الرطب، حيث كانوا يتعرقون طوال النهار، وقد تقرحت جلودهم من الطفح. كان إيلوك قد تاق إلى الرياح الدافئة الجافة عند التلال الشمالية، ولكن حتى عندما قاد الذئاب للعودة على الطريق القديم، كان يتساءل عمّا حل بعائلة ياسوجي. كان جزء منه ما زال يتمنى لو أنه أرسل تابعاً ليضع نهاية لذلك الأمر، لم يكن ذلك نابعاً من شعوره بالذنب، ولكن من إحساسه بالإزعاج المتواصل بأنه لم ينهِ ما كان يتوجب عليه فعله.

تأفف، وردّ الكوب إلى فمه ليجده خالياً. وبإشارة متثاقلة، طلب كوباً

آخر قدمته له شابة. نظر إيلوك إليها بإمعان عندما انحنت أمامه مطأطأة الرأس، ولم يستطع أن يتذكر اسمها من جراء ثمله، لكنها كانت نحيلة وطويلة الساقين، مثل مهر الربيع. شعر بالرغبة تثور فيه، ومدّ يده ليلمس وجهها، ورفعه حتى تنظر إليه. وبتأنٍ شديد، أمسك بيدها ومررها على شفته، وجعلها تشعر برغبته. كانت الشابة تبدو قلقة، لكن ذلك لم يعنِ له شيئاً أبداً، فلا يمكن رفض الخان. وسيدفع لوالدها بإحدى الأفراس المولودة حديثاً إذا جعلته سعيداً.

قال بتثاقل: "اذهبي إلى خيمتي وانتظريني". وراقبها عندما انسلت مبتعدة عنه. ولاحظ أن ساقيها جميلتان، وفكّر في اللحاق بها. وسرعان ما تلاشى الحافز وعاد للتحديق بألسنة اللهب.

كان ما يزال يتذكر كيف تجرأ أبناء ياسوجي على التحديق به عندما تركهم خلفه. لو أنهم فعلوا ذلك اليوم، لكان شطرهم بنفسه إلى نصفين. قبل أربع سنوات، كان بالكاد قد وضع يديه على قيادة القبيلة، ولم يكن يعرف إلى أي حدّ سيتحدونه. كان قد تعلم كيفية التصرف في مثل تلك المواقف من ياسوجي. كانت القبائل تتحمل الكثير من أولئك الذين يقودونها، لكن يوجد دائماً نقطة ينبغي الاكتراث لها، وخط ينبغي عدم تجاوزه.

هل قضى الشتاء حقاً على أولئك الأطفال الهزيلين ووالدتهم؟ كان أمراً غريباً أن تعود الذئاب إلى منطقة فيها كل تلك الذكريات. كان المخيم تلك الليلة مؤقتاً، ومكاناً ترعى فيه الجياد مجدداً الأعشاب الطرية. في غضون شهر أو نحوه، سيعودون إلى الأرض حول التل الأحمر. كان إيلوك قد سمع أن أولخونوت قد عادت أيضاً إلى المنطقة، وكان قد قاد الذئاب شمالاً مع أكثر من مجرد أحلام الفتوحات التي لم تكتمل بعد. بثّ الشراب الحرارة في دمه - أو ربما المرأة التي تنتظر في خيمته - وجعله يتلهف للقتال.

سحب إيلوك شهيقاً عميقاً، وأنعشه الهواء الشديد البرودة. كانت شهوته قد ثارت بعد حلول البرد في ليالي الجنوب الرطبة، عندما أصبح جلده أحمر اللون من اللدغ والطفيليات الغريبة التي كان ينبغي إزالتها بطرف سكين. كان الهواء في الشمال يبدو أنظف، فيما بدأ مرض السعال ينحسر آنذاك من القبيلة. كان رجل عجوز وطفلان قد ماتوا وتركتهم القبيلة على التلال للصقور، لكن الذئاب كانوا صاخبين أثناء ترحالهم عائدين إلى الأرض التي كانوا يعرفونها.

نادى إيلوك: "تولي". رغم أن الفكرة لم تكن قد تبلورت في ذهنه بعد. وألقى نظرة خاطفة إلى جانبه، حيث نهض تابعه من مربضه ووقف ليصل إلى كتفه. راقب إيلوك الشخص الضخم فيما كان يحني رأسه، وشعر بالرضا الذي كان ينتابه عندما ينظر إلى قطعانهم الكبيرة. كان الذئاب قد أبلوا حسناً في آخر تجمع كبير للقبائل، وفازوا باثنين من السباقات القصيرة وخسروا أطولها بفارق ذراع. وتم تكريم رماة السهام لديه، وشق اثنان من أتباعه طريقهما إلى الجولات النهائية من مسابقة المصارعة. ووصل تولي إلى الدور الخامس وحصل على لقب الباز، قبل أن يهزمه أحد رجال نيمنز. وجعله إيلوك تابعاً له كمكافأة، وبعد أن تزداد قوته في غضون سنة أو اثنتين، سيراهن إيلوك بأن تولي سيهزم كل الآخرين. كان الشاب القوي وفياً بشدة، ولم تكن مصادفة أن ينادي إيلوك شخصاً ترعرع على يديه.

قال إيلوك: "كنت مجرد طفل عندما انتقلنا آخر مرة من الشمال". أومأ تولي برأسه، دون أن تظهر أي علامة في عينيه الداكنتين. "كنت هناك يوم تركنا أطفال الخان القديم وزوجته".

أجاب تولي، بصوت عميق وواثق: "رأيت ذلك، لكن لم يكن هناك متسع لهم".

ابتسم إيلوك. "هذا ما حدث. لم يكن هناك متسع لهم. لقد أصبحنا أكثر

غنىً منذ ارتحلنا جنوباً. لقد باركنا أب السماء جميعاً".
لم يجب تولي، وترك إيلوك الصمت يطبق فيما كان يفكّر بما يرغب بفعله. لم يكن الأمر أكثر من أشباح وجراح قديمة، لكنه كان ما يزال يحلم بهولن، ويستيقظ وهو يتصبب عرقاً. كانت أحياناً تتلوى عارية تحته، ثم يرى عظامها تبرز من لحمها. لم يكن ذلك شيئاً يذكر، لكن الأرض حول الجبل القديم بعثت ذكريات الماضي من الرماد.
قال إيلوك: "خذ رجلين تثق بهما".
شدّ تولي قامته، وأطل من فوق خانه متلهفاً لإسعاده.
قال: "أين سترسلنا؟" وانتظر جواباً فيما كان إيلوك يملأ فمه بالشراب ويبتلعه.
قال أخيراً: "عد إلى أرض الصيد القديمة، واكتشف إن كان أي منهم لا يزال على قيد الحياة".
سأل تولي: "هل أقتلهم؟"
لم يكن هناك شيء سوى فضول بسيط في صوته، وأخذ إيلوك يفرك بطنه المنتفخ فيما كان يفكر. كان إلى جانبه السيف الذي كان ملك ياسوجي ذات مرة. وسيكون مناسباً لإنهاء تلك المسألة ببضع ضربات سريعة من نصله.
"إذا كانوا لا يزالون على قيد، سيكونون مثل الحيوانات. افعل ما تريده بهم". توقف عن الكلام لبرهة من الزمن، وهو يتذكر تمرد بكتر وتيموجن فيما يشاهد ألسنة اللهب. "إذا وجدت الفتيين الكبيرين، اسحبهما إلى هنا، إليّ. سأجعلهما يشاهدان ما أصبح عليه الذئاب تحت سلطة خان قوي قبل أن نمنحهما للطيور والأرواح".
أحنى تولي رأسه الثقيل وتمتم: "كما تشاء". قبل أن يستدير مبتعداً لينادي مرافقيه في الرحلة. راقبه إيلوك يذهب في ضوء النار، وشاهد كيف يمشي بخطوات ثابتة واثقة. كانت القبيلة قد نسيت أبناء ياسوجي، وكان

يعتقد أحياناً أنه الوحيد الذي يتذكرهم.

انطلق تولي من المخيم مع باسان ويونجن. وكان كلا مرافقيه يقتربان من الثلاثين من العمر، لكنهما لم يكونا مولودين ليتوليا القيادة مثله. كان تولي يتمتع بقوة كبيرة، رغم أنه لم يكن قد شهد سوى ثمانية عشر شتاءً، كان يعرف أنهما يخافان غضبه. بالنسبة للتابع الشاب القوي، كان بالكاد يخفي ذلك، ويستمتع بنظرات القلق التي يرمقه بها الرجلان الأكبر سناً. وكان يشاهد كيف يتحركان بحرص في الشهور الباردة ويخضعان لأوامره. كان تولي يستطيع الاستيقاظ من النوم وهو يثب مستعداً للعمل أو القتال، فخوراً بشبابه.

وحده إيلوك لم تظهر عليه أي علامات تردد أبداً، وعندما تحداه تولي في المصارعة، رماه الخان بقوة تسببت بكسر إصبعين وضلع فيه. كان تولي فخوراً جداً بأن يكون تابعاً للرجل الوحيد الذي يضاهيه قوة، ولم يكن هناك أحد أكثر ولاء منه بين الذئاب.

انطلقوا على صهوة جيادهم دون أن يتكلموا خلال الأيام الثلاثة الأولى. وحافظ المحاربان الأكبر سناً على مسافة معينة بعيداً عن التابع المفضل لدى إيلوك، كانا يعرفان السرعة التي قد يتبدل بها مزاجه. استطلعوا الأرض وصولاً إلى التل الأحمر، ولاحظوا أن الأعشاب كثيفة ورطبة لترعاها القطعان التي سيقودها إيلوك إلى هناك عند وصول القبيلة. كانت أرضاً جيدة، ولم تكن هناك قبيلة أخرى تنزل بها في ذلك الموسم. وكان يوجد بعض الرعاة البعيدين الذين يفسدون مشهد وحدتهم في السهول الشاسعة.

في اليوم الثاني عشر، شاهدوا خيمة منفردة بجانب نهر، ودفعوا جيادهم للإسراع نحوها. وصاح تولي "نوخوي خور" ليمسك الرعاة المتجولون بكلابهم، ثم قفز عن صهوة جواده على أعشاب الربيع، وسار نحو الباب المنخفض ودفع نفسه إلى الداخل. تبادل باسان ويونجن النظرات قبل أن

يتبعاه، وكان وجهاهما قاسيين وخاليين من التعابير. كان كلا الرجلين يعرفان بعضهما البعض منذ كانا طفلين، قبل حتى أن يحكم ياسوجي الذئاب. كان يزعجهما أن يقودهما شاب متغطرس مثل تولي، لكنهما كانا يتشبثان بفرصة رؤية ما قد حدث لأولئك الذين تركوهم خلفهم.

قبل تولي وعاء الشاي بالحليب اللاذع الطعم، وأمسك به بيديه الضخمتين، وشربه بصوت مسموع فيما كان يجلس على سرير قديم. انضم إليه الرجلان الآخران بعد أن أحنيا رأسيهما للراعي وزوجته، اللذين كانا ينظران إلى الغرباء برعب واضح من الجانب الآخر لخيمتهما.

قال باسان لهما عندما تناول كوبه من الشاي: "لا داعي للخوف". ورمقه تولي بنظرة ازدراء لقوله ذلك. لم يكن التابع الشاب يكترث البتة لأولئك الذين لم يكونوا من الذئاب.

قال تولي: "نبحث عن امرأة وخمسة أبناء وابنة". وكان صوته العميق واضحاً للغاية في الخيمة الصغيرة. رفعت زوجة الراعي نظرها بقلق، وشعر باسان ويونجن بأن نبضهما يتسارع فجأة.

كان تولي قد لاحظ أيضاً ردّ فعلها.

قال، وهو ينحني للأمام: "هل تعرفانهم؟"

تراجع الراعي إلى الخلف، وكان واضحاً أنه خائف من حجم هذا المحارب الغريب. وهزّ رأسه.

قال: "سمعنا بهم، لكننا لا نعرف مكانهم".

لاحظ تولي نظرة الرجل، لكن جسده كان ساكناً تماماً. وفتح فمه قليلاً ليكشف عن أسنان بيضاء. وأصبح جو الخيمة متوتراً، وكانوا جميعاً يشعرون بذلك.

قبل أن ينطق أحد بكلمة أخرى، دخل فتى يافع يركض عبر الباب، وتوقف فجأة عندما شاهد الغرباء في خيمة والديه.

قال وهو يجول بعينيه الواسعتين الداكنتين في المكان: "رأيت الجياد".

ضحك تولي في سره، وقبل أن يستطيع أحد التحرك، مدّ يده وأمسك بالفتى من ركبته وقلبه رأساً على عقب، وأخذ يهزه ذات اليمين وذات الشمال. وقهقه الفتى الصغير، لكن وجه تولي كان قاسياً وتسمّر الراعي وزوجته في مكانيهما رعباً.

قال تولي بصوت أعلى من ضحكة الفتى: "ينبغي أن نجدهم". كان يحمله دون جهد يذكر وذراعاه ممدودتان، وقلب الطفل حتى وقف منتصباً على ركبتي تولي.

قال الفتى وهو يتنفس بصعوبة: "مرة أخرى!"

لاحظ تولي أن الزوجة بدأت تنهض، لكن زوجها أمسك بذراعها.

قال تولي بكل ثقة: "أنتما تعرفانهم. أخبرانا وسنغادر". مرة أخرى، قلب ابنهما رأساً على عقب متجاهلاً الصرخات المرحة. وأمال تولي رأسه ليشاهد ردّ فعلهما، وكان وجه الأم متغضناً.

همست: "يوجد امرأة مع فتية على بعد مسيرة يوم إلى الشمال في مخيم صغير. خيمتان وبعض الجياد فقط. إنهم قوم مسالمون".

أومأ تولي برأسه، مستمتعاً بتأثيره عليها فيما كان ابنها يضحك بصوت خافت بين ذراعيه غافلاً عمّا يجري. وعندما لم يعودوا يستطيعون تحمل الأمر وقتاً أطول، وضع الفتى على الأرض ودفعه نحو والديه. احتضنت الأم ابنها، وأغلقت عينيها عندما أمسكت به.

قال تولي: "إذا كنتما تكذبان، سأعود". كان الخطر واضحاً في عينيه الداكنتين واليدين اللتين كانتا تستطيعان كسر ابنهما بسهولة بالغة. لم ينظر الراعي إليه، وحدّق في قدميه حتى غادر تولي ورفيقاه.

فيما كانوا يمتطون جيادهم في الخارج، لاحظ تولي كلباً بديناً يمشي متثاقلاً خلف الخيمة. وكان الحيوان عجوزاً للغاية على الصيد، وحدّق بالغرباء

بعينين يغلب عليهما البياض واللتين توحيان بأنه أعمى تقريباً. كشف تولي عن أسنانه أمام الكلب الذي ردّ بإطلاق نباح خافت وعميق من حنجرته. عندها ضحك بصوت خافت، وشد وتر قوسه بحركات سريعة وواثقة. كان باسان يراقب وهو مقطب الجبين عندما أرسل تولي سهماً نفذ من حنجرة الكلب. تشنج الحيوان، وسعل فيما كانوا يدفعون بأعقابهم على جوانب جيادهم وينطلقون مبتعدين.

بدا أن تولي في مزاج طيب عندما طهوا وجبتهم في تلك الليلة. وكان لحم الضأن المقدد ما يزال طازجاً والجبن لم يفسد بعد، وكان المذاق لذيذاً على اللسان عندما مضغوه وابتلعوه. مكتبة الرمحي أحمد

سأل باسان: "ما هي أوامر الخان عندما نجدهم؟"

رمق تولي الرجل الأكبر سناً منه بنظرة خاطفة، وتقطب حاجباه كما لو أن السؤال في غير محله. كان يستمتع بإخافة المحاربين الآخرين بنظراته، مدعوماً دائماً بقوة تستطيع إخضاع فرس بضربة واحدة. لم يجب حتى أشاح باسان بنظره بعيداً عنه وعرف أنه فاز بمعركة صغيرة أخرى.

قال مستمتعاً بالفكرة: "ما أختاره يا باسان، إلاّ أن الخان يريدنا أن نجر الفتيين الكبيرين إلى الديار. سأوثق رباطهما إلى ذيول جيادنا وأجعلهما يركضان".

ذكّر يونجن المحارب الشاب قائلاً: "ربما ليسوا من نبحث عنهم. لديهم خيام وجياد، وهذا كل شيء".

قال تولي وهو يبتسم من الفكرة: "سنرى. إذا كانوا هم، سنأخذ الجياد معنا، أيضاً". لم يكن إيلوك يتخيل وجود غنائم، ولكن لم يكن أحد ليجادل في حق تولي في امتلاك مقتنيات عائلة ياسوجي. كان مصيرهم معروفاً منذ اليوم الذي تركتهم فيه القبيلة. لم تكن قوانين الضيافة تنطبق عليهم، وكانوا مجرد متجولين دون خان يحميهم. تجشأ تولي فيما كان يضع يديه داخل

ردائه استعداداً للنوم. لقد كان يوماً طيباً، ولا يستطيع المرء أن يطلب أكثر من ذلك.

مسح تيموجن العرق عن عينيه فيما كان يربط آخر قطعتين من الخشب مع بعضهما البعض ليبني حظيرة صغيرة تستطيع أغنامهم وماعزهم الولادة فيها. كان القطيع الصغير قد ازداد عدداً، بوجود عدد قليل من الأفواه التي ينبغي إطعامها، وقبل سنتين، كان الأشقاء قد اختلطوا بالمتجولين لمقايضة الصوف واللحم باللباد. واستطاعوا الحصول على ما يكفي لصنع خيمتين صغيرتين واللتين لم تفشل رؤيتهما في رفع روح تيموجن المعنوية أبداً.

كان خاسار وكشيون يتدربان على رمي السهام في مكان قريب، مع دريئة مصنوعة من طبقات سميكة من اللباد المغطّى بالملابس. وقف تيموجن، وأراح عضلاته المتشنجة، واستند إلى السياج يراقبهما ويفكر بالأشهر الأولى عندما كان الموت والشتاء يرافقان كل خطوة. كان ذلك الوقت صعباً عليهم جميعاً، لكن وعد والدتهم كان صحيحاً، وقد عاشوا. دون بكتر، نمت بين الأشقاء عروة ثقة وقوة عندما كانوا يعملون طوال ساعات النهار. كان ذلك قد جعلهم أقسى جميعاً، وعندما لم يكونوا يعملون مع القطيع أو يجهزون البضائع للتجارة، كانوا يقضون كل لحظة يشحذون مهاراتهم باستعمال الأسلحة.

لمس تيموجن السكين في حزامه، والتي كانت دائماً حادة بما يكفي لقطع الجلود. وكان في خيمته قوس يماثل شيئاً امتلكه والده من قبل، وهو سلاح جميل مع قطعة داخلية منحنية مصنوعة من مادة قرنية لامعة. كان الأمر شبيهاً بدفع نصل سكين في الأصابع لسحب الوتر إلى الخلف، وكان تيموجن قد أمضى شهوراً في جعل يديه تعتادان على احتمال الوزن. ولم يكن ذلك القوس قد قتل رجلاً بعد، لكنه كان يعرف أنه سيطلق سهماً مباشراً ونافذاً إذا احتاج إليه.

هبت نسمة دافئة عبر السهول الخضراء وأغلق عينيه، واستمتع بالطريقة التي جففت بها عرقه. كان يستطيع سماع والدته في الخيمة مع تيموج وتيمولن الصغيرة، تغني لكلا طفليها الصغيرين. ابتسم لسماع الصوت، ونسي لبعض الوقت كفاحهم للحياة. ولم يكن يجد السَكينة غالباً، حتى على فترات متباعدة. ورغم أنهم كانوا يتعاطون التجارة مع رعاة منفردين وعائلاتهم، إلاّ أن وجود مجتمع آخر دون القبائل الكبيرة منتشر عبر الأرض كان مفاجئاً لهم. وكان بعضهم منفياً لارتكابهم جرائم عنف أو شبق. وولد آخرون دون حماية خان. وكانوا أشخاصاً حذرين، ولم يتعامل معهم تيموجن سوى للبقاء على قيد الحياة. بالنسبة لشخص ولد في خيمة خان، كان هؤلاء ما يزالون رجالاً ونساءً دون قبائل، ولا شأن لهم. ولم يكن تيموجن يستمتع بأن يكون واحداً منهم، وشاركه أشقاؤه الإحباط نفسه. وعندما اشتد عودهم وأصبحوا رجالاً، لم يستطيعوا سوى أن يفكروا بالطريقة التي كان ينبغي أن تسير عليها حياتهم. كان يوم واحد قد سلبهم كل مستقبلهم، وأصيب تيموجن باليأس عندما أخذ يفكّر بشظف العيش مع بعض الماعز والأغنام حتى يصبح عجوزاً وضعيفاً. كان ما سلبه إيلوك منهم، ليس حقهم الطبيعي وحسب، وإنما القبيلة، والعائلة الكبيرة التي يحمي أفرادها بعضهم بعضاً وتجعل الحياة ممكنة. ولم يستطع تيموجن أن يصفح عن تلك السنين القاسية.

سمع كشيون يصرخ فرحاً، ففتح عينيه ليرى سهماً في منتصف دائرة الهدف. شدّ تيموجن قامته، ومشى بهدوء نحو شقيقيه، ومسح ببصره الأرض حولهما بشكل تلقائي كما فعل آلاف المرات من قبل. لا يمكن أن يكونوا بأمان أبداً، وقد عاشوا مع الخوف بأن يشاهدوا إيلوك يغير عليهم مع عشرة من الرجال الشرسين في أي لحظة.

كان ذلك الهاجس ثابتاً في حياتهم، رغم أن حدّته تراجعت بمرور الوقت.

كان تيموجن قد لاحظ أنه من الممكن العيش دون أن تلاحظهم القبائل الكبيرة كما تفعل عائلات المتجولين الأخرى. إلاّ أن فرقة غزو واحدة تخرج للتسلية قد تسلبهم كل ذلك، وتصطادهم مثل حيوانات، وتقوم بتمزيق خيامهم أو سرقتها.

قال كشيون: "هل رأيت الرمية يا تيموجن؟"

هزّ تيموجن رأسه: "كنت أنظر إلى الناحية الأخرى يا شقيقي، لكنه قوس جميل". كان قوساً شبيهاً بالموجود في خيمته، كان قد تم تجفيف ذلك القوس لسنة قبل أن يتم لصق قطع مغلية من قرون الخراف على الإطار لتغطيته بها. بقيت رائحة صمغ السمك الكريهة عالقة في الخيام طوال أسابيع بعد ذلك، لكن الخشب أصبح صلباً مثل الحديد بطبقته الجديدة وكانوا فخورين بما صنعوه.

قال كشيون وهو يقدم القوس لشقيقه: "جرب رمية".

ابتسم له تيموجن، ولاحظ مجدداً ما أصبحت عليه كتفاه والطول الفارع الذي وصل إليه. كان أبناء ياسوجي جميعاً طوال القامة، إلاّ أن تيموجن كان أطول من الآخرين، وكان بمثل طول والده في سنته السابعة عشرة.

أمسك القوس بقبضة قوية، ووضع سهماً له رأس من العظام، وسحبه للخلف بمفاصل أصابعه القوية. وحبس نَفَسه، وفي اللحظة التي كان على وشك أن يتنفس بها، أطلق السهم وشاهده يضرب بجانب سهم كشيون.

قال: "إنه قوس رائع". ومرّر يده على طول المقبض المصنوع من المادة القرنية الصفراء. كان وجهه كئيباً عندما واجههما، وكان أول من لاحظ ذلك كشيون الحساس دائماً لأفكار شقيقه.

سأل كشيون: "ما الأمر؟"

قال تيموجن وهو ينظر إلى الأفق: "سمعت من هورغز العجوز أن أولخونوت قد عادوا إلى الشمال".

أومأ كشيون برأسه، وفهم ما يعنيه مباشرة. كانت قد نمت عروة خاصة بينه وبين تيموجن منذ اليوم الذي قتلا فيه بكتر. في البداية، كافحت العائلة لتعيش ببساطة في ذلك الشتاء والذي تلاه أيضاً، لكن في الشتاء الثالث كان لديهم ما يكفي من اللباد لبناء الخيام، وكان تيموجن قد قايض قوساً وصوفاً بفرس أخرى لتحل محل الفرس العجوز المتعبة التي استولوا عليها من الراعيين في الأيام الأولى. أصابهم القلق جميعاً عندما حل ربيع السنة الرابعة، رغم أنه أثّر على تيموجن بشكل خاص. وكان لديهم أسلحة ولحم ويخيمون في مكان قريب بما يكفي من الغابة ليختبئوا من قوة لا يستطيعون صدها. وكانت الكآبة التي لازمت والدتهم قد زالت، ورغم أنها كانت ما تزال تحلم ببكتر والماضي، إلاّ أن الربيع أيقظ شيئاً من المستقبل في أبنائها.

كان تيموجن ما يزال يفكّر ببورت في أحلامه الخاصة، رغم أن أولخونوت اختفت من السهول، دون أثر يدل عليها. حتى إذا استطاع إيجادهم، كانوا سيحتقرون متجولاً أشعث. لم يكن لديه سيف، أو شيء يمكن أن يقايض به واحداً، لكن الفتية ساروا أميالاً حول مخيمهم الصغير، وتحدثوا إلى المتجولين، واستمعوا إلى الأنباء. كانت أولخونوت قد شوهدت في أيام الربيع الأولى، ولم يعرف تيموجن الراحة منذ ذلك الوقت.

سأل كشيون، وهو يجول ببصره على المخيم: "هل ستجلب بورت إلى هذا المكان؟"

تابع تيموجن نظرته، وابتلع مرارة رؤيته لخيامهم الرثة وأغنامهم التي تطلق ثغاءها. عندما شاهد بورت آخر مرة، كان ذلك مصحوباً بوعد غير منطوق بأنها ستزف إليه وتصبح زوجة خان. وكان يعرف مكانته عندها.

قال تيموجن بتجهم: "ربما تكون قد تزوجت من آخر الآن. كم سيكون عمرها؟ ثمانية عشر؟ لم يكن والدها ليتركها تنتظر كل تلك المدة".

تأفف خاسار، وقال: "كانت مخطوبة لك. إذا تزوجت من آخر، يمكنك أن تتحداه".

ألقى تيموجن نظرة خاطفة على شقيقه، وشاهد مجدداً الافتقار إلى الفهم الذي يعني أنه على الأقل لا يستطيع حكم الذئاب أبداً. لم يكن خاسار يتمتع بالإلهام الداخلي الذي يتمتع به كشيون، والذي يستطيع من خلاله أن يلتقط الخطط والاستراتيجيات مباشرة. ورغم ذلك تذكر تيموجن الليلة التي قتلوا فيها الراعيين، وكيف قاتل خاسار إلى جانبه. كان هناك شيء من والده فيه بالمحصلة، رغم أنه لم يكن يتمتع بحدة الذكاء التي كان يتميز بها ياسوجي. في حال كان والدهم قد عاش، كان سيأخذ خاسار إلى أولخونوت في السنة التالية. إلاّ أن مجرى حياته قد تغير أيضاً نتيجة خيانة إيلوك.

أومأ تيموجن بتردد، وقال: "لو كان لديَّ رداء جديد، لأمكنني الذهاب إليهم ورؤية ما حل بها. على الأقل كنت سأتأكد".

وافق خاسار مبتهجاً: "سنحتاج جميعاً إلى نساء. أنا أشعر بالرغبة بنفسي، ولا أريد أن أموت دون أن أعاشر إحداهن".

قال كشيون: "ستفتقد الماعز لحبك".

حاول خاسار أن يصفعه، لكن شقيقه مال مبتعداً عن الضربة.

قال تيموجن لخاسار، وهو ينظر إليه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه: "ربما أستطيع اصطحابك إلى أولخونوت بنفسي. ألست خان هذه العائلة الآن؟ إنك غلام جميل الطلة، رغم كل شيء".

كان ذلك صحيحاً، رغم أنه قاله على سبيل الدعابة. كان خاسار ينمو ليصبح قوياً، وكان داكن البشرة ونحيلاً، ويكلل رأسه غطاء من الشعر المنسدل الذي يصل إلى كتفيه. لم يكونوا يهتمون بشأن حلاقة شعرهم، وعندما كانوا يزعجون أنفسهم بوضع سكين عليه، كان ذلك ليتخلصوا فقط

من الشعر الزائد الذي قد يشوه رؤيتهم أثناء الصيد.

قال تيموجن: "عشر من النعاج حوامل. وإذا احتفظنا بالحملان، نستطيع بيع بعض الماعز وكبشاً أو اثنين. ويمكننا الحصول على ملابس جديدة، وربما لجاماً أفضل. كان هورغز العجوز مهتماً بعقد صفقة عندما تحدثت إليه. أعتقد أنه يريد مني التقدم بعرض".

حاول خاسار إخفاء اهتمامه، لكن وجه المحارب القاسي كان قد اختفى بينهم منذ زمن طويل. ولم تكن هناك حاجة لحماية أنفسهم بالطريقة التي علمهم إياها ياسوجي والتي لم يتدربوا عليها. في حالتهم الفقيرة تلك، كان القرار يعود لتيموجن وحده وقد قبل الأشقاء منذ وقت طويل بحقه في قيادتهم. وكان يرفع من معنوياته أن يكون خاناً على خيمتين وبعض الجياد الهزيلة.

قال تيموجن: "سأرى الرجل العجوز وأعقد معه صفقة. سنذهب معاً، لكنني لا أستطيع تركك هناك يا خاسار. نحتاج إلى مهارتك في استعمال القوس كثيراً. وإذا كان هناك فتاة قد حاضت، سأتكلم معهم من أجلك".

تغيرت معالم وجه خاسار وربت كشيون على ذراعه تعاطفاً.

"ما الذي نستطيع تقديمه؟ سيعرفون أننا لا نملك شيئاً".

شعر تيموجن بسعادته تنحسر وبصق على الأرض.

قال كشيون فجأة: "يمكننا الهجوم على التتار. وإذا ذهبنا إلى أراضيهم، نستطيع أخذ كل ما نجده".

أجاب خاسار بنزق دون أن يكون قد لاحظ الضوء الذي لمع في عيني تيموجن: "ونجعلهم يطاردوننا".

قال تيموجن: "لم تتم تسوية قضية موت والدنا". وعرف كشيون ما يرمي إليه، وشدّ على قبضته عندما تابع تيموجن الكلام. "نحن أقوياء بما يكفي، ويمكننا أن نضرب حتى قبل أن يعرفوا أننا هناك. لِمَ لا؟ سترحب بنا

أولخونوت إذا جئنا مع ماشية وجياد ولن يهتم أحد إذا كانت تحمل علامة التتار".

أمسك بشقيقيه من كتفيهما، وشدّ قبضتيه عليهما.

"نستطيع ثلاثتنا استعادة القليل مما يدينون لنا به. من أجل كل ما فقدناه بسببهم". وبدأ خاسار وكشيون يقتنعان بالفكرة، وكان يستطيع رؤية ذلك، لكن جبين كشيون تقطّب فجأة.

قال: "لا نستطيع ترك والدتنا دون حماية مع الصغار".

فكّر تيموجن بسرعة: "سنأخذها إلى هورغز العجوز وعائلته. لديه زوجة وفتية يافعون. ستكون بأمان هناك مثل أي مكان آخر. سأعده بخُمس ما نستطيع إحضاره معنا وسيفعل ذلك، أعرف أنه سيفعل".

عندما كان يتكلم، لاحظ أن كشيون ينظر إلى الأفق. وتسمّر تيموجن في مكانه عندما شاهد ما لفت انتباه شقيقه.

هتف كشيون لوالدتهم: "فرسان!"

استداروا جميعاً عندما ظهرت عند باب الخيمة الأقرب إليهم.

قالت: "كم عددهم؟" ومشت نحوهم وحاولت رؤية الغرباء البعيدين، لكنّ عينيها لم تكونا ثاقبتين مثل عيون أبنائها.

قال كشيون واثقاً: "ثلاثة لوحدهم. هل نهرب؟"

قالت هولن بلطف: "أنتم مستعدون لهذا يا تيموجن. القرار لك".

شعر تيموجن بأنهم ينظرون إليه جميعاً، رغم أنه لم يشح ببصره عن البقع الداكنة على السهول. وكان ما يزال يفكر بالكلمات التي تبادلها مع شقيقيه وأراد أن يبصق في الهواء ويتحدى الوافدين الجدد. لن تخاف عائلة ياسوجي، ليس بعد أن وصلوا إلى هذا الحد. وسحب نفساً عميقاً وترك أفكاره تهدأ. قد يكون الرجال فرقة متقدمة لآخرين كثر، أو ثلاثة فرسان جاءوا ليحرقوا، ويسلبوا، ويقتلوا. وشد على قبضتيه، لكنه اتخذ القرار

عندها.

قال بغضب: "اذهبوا إلى الغابة، جميعكم. خذوا الأقواس وكل ما تستطيعون حمله. إذا كانوا قد جاءوا ليسرقوا منا، سننال منهم، أقسم بذلك".

تحركت عائلته بسرعة، واختفت هولن داخل الخيمة لتظهر مع تيمولن على ردفها وتيموج يهرول إلى جانبها. وكان ابنها الصغير قد فقد بدانته في السنوات العجاف، لكنه بقي ينظر خلفه برعب فيما كانوا يشقون طريقهم إلى الغابة ويتعثر بجانب والدته.

انضم تيموجن إلى خاسار وكشيون عندما أمسكا بسهامهما وأقواسهما، ووضعوا حقائبهم على أكتافهم وركضوا إلى صف الأشجار. وكانوا يستطيعون سماع الفرسان يصرخون خلفهم عندما شاهدوهم يهربون، لكنهم سيكونون بأمان. وابتلع تيموجن المرارة في حنجرته عندما دخل بين الأشجار وتوقف هناك، يلهث، وينظر للخلف. وأياً كان هؤلاء، فقد كرههم لأنهم جعلوه يركض، في حين أنه أقسم أن لا أحد سيدفعه لذلك مجدداً.

قاد المحاربون الثلاثة جيادهم بحذر نحو المخيم الصغير، ولاحظوا أن خيطاً رفيعاً من الدخان ما زال ينبعث من إحدى الخيمتين، وكانوا يستطيعون سماع ثغاء الماعز والأغنام، لكن ما عدا ذلك كان الصباح هادئاً بشكل غريب واستطاعوا جميعاً أن يشعروا بوطأة عيون متوارية عن الأنظار.

كانت الخيمتان الصغيرتان والحظيرة المتداعية بجانب جدول في أسفل تل حرجي. كان تولي قد شاهد الأشكال الهاربة تختفي بين الأشجار وكان حريصاً على أن يترجل عن فرسه بحيث يحجبه جسدها عن هجوم مباغت أو سهم تائه. وكان باسان ويونجن يرتديان تحت ملابسهما درعاً جلدياً مثل درعه، والذي يشكل طبقة ستحمي صدورهم وتمنحهم أفضلية حتى ضد هجوم مباشر.

أبقى تولي يديه منخفضتين خلف عنق فرسه عندما أشار للآخرين. كان على أحدهما أن يتفقد الخيمتين قبل أن يمضوا قدماً، أو يخاطروا بتلقي سهم من الخلف، وكان باسان من أومأ برأسه، وقاد فرسه إلى ظل إحدى الخيمتين واستعملها ليحجب نفسه عن الأنظار فيما كان يدفع نفسه للداخل. انتظر تولي ويونجن فيما كان يفتش في الداخل، وعيونهما تجوب صف الأشجار. استطاع كلا الرجلين أن يشاهدا أكواماً كبيرة من الأغصان كثيفة الأشواك المربوطة بخيوط قنب إلى جذوع الأشجار، والتي ترغم أي مطارد على الاقتراب مشياً على الأقدام. كانت الأرض معدّة من قبل شخص ما يتوقع غارة، والأغصان منتقاة بعناية. وللوصول إلى الأشجار، سيكون على التابع قطع ثلاثين خطوة في الأرض المكشوفة، وإذا كان أبناء ياسوجي بالانتظار مع أقواس، سيكون ذلك عملاً شاقاً ودامياً.

تقطّب حاجبا تولي فيما كان يفكّر بوضعهم. ولم يكن لديه شك آنذاك

بأن الأشكال الهاربة كانت لهؤلاء الأبناء الذين تركوهم خلفهم. إذ لم تكن عائلات المتجولين القليلة التي تجوب السهول ستستعد لمعركة كما فعل هؤلاء. وشدّ وتر قوسه لا شعورياً دون أن يرفع ناظريه عن الغطاء النباتي الداكن الذي قد يخفي جيشاً. كان يعرف أنه يستطيع العودة أدراجه والرجوع مع ما يكفي من الرجال لمطاردتهم، لكن إيلوك لم يشاهد أكوام الأشواك وسيعتقد أن تولي قد فقد أعصابه. لن يترك الخان يسيء الظن به، وبدأ يجهّز نفسه للقتال. تغيرت أنفاسه من حركات شهيق طويلة وبطيئة إلى أخرى سريعة زادت من خفقان قلبه وأمدته بالقوة، فيما كان باسان الذي دخل الخيمة الثانية يخرج منها ويهزّ رأسه.

شدّ تولي قبضته ثم مد ثلاثة أصابع بإشارة حادة. وأومأ باسان ويونجن ليشيرا بأنهما قد فهما. كانا قد جهّزا قوسيهما وانتظرا أن ينطلق أولاً. شعر تولي بالقوة، وكان يعرف أن درعه الجلدي لن يسمح سوى لسهم قوي جداً بأن يؤذيه. ورفع قبضته واندفع الرجال الثلاثة يركضون معاً، وابتعدوا عن بعضهم عندما وصلوا إلى الأرض المكشوفة.

أخذ تولي يلهث فيما كان يركض ويراقب ظهور أية حركة. ومن أحد الجوانب، سمع شيئاً يخترق الهواء ورمى نفسه على الأرض مثل مصارع، ونهض بسرعة بعد أن طنّ شيء فوق رأسه. راوغ الرجلان الآخران بجسديهما عندما كانا يقتربان منه، لكنّ تولي كان قد شاهد عندها أنه لا سبيل لعبور صف الأشجار الأول. كانت كل فجوة مغلقة بلفافة كبيرة من الأشواك المتشابكة. ولا بد أن أبناء ياسوجي قد أغلقوا الفجوة الأخيرة خلفهم، ووجد تولي نفسه متردداً فيما كان قلبه يخفق بقوة لأنه في موقع مكشوف تماماً.

قبل أن يتخذ قراراً، اندفع سهم في صدره، وجعله يترنح. كان الألم كبيراً، لكنه تجاهله وهو واثق بأن الدرع سيمنعه من النفاذ بعيداً، وأدرك أن

لديهم أقواساً جيدة.

توقف الذئاب الثلاثة في أسوأ موقع، بمواجهة لفافات الأشواك. ورغم ذلك، كانوا يستطيعون كرماة سهام إصابة طائر في جناحه: لم يكن الموقف كارثياً كما كان تولي يخشى. وحتى يستطيع أعداؤهم إطلاق سهامهم، كان ينبغي عليهم أن يظهروا أنفسهم، ولو للحظة فقط. وإذا فعلوا ذلك، سيطلق أحد الأتباع الثلاثة سهماً بطرفة عين، وسيكون سريعاً جداً ولا يمكن تفاديه.

لابد أن أبناء ياسوجي قد أدركوا ضعف تكتيكهم لأن الصمت خيّم على المكان، وامتد ليطبق حتى على الأشجار. كانت كل الطيور قد طارت خوفاً من الاندفاع المفاجئ للمحاربين، وكان الصوت الوحيد المسموع آنذاك لهاث الرجال خوفاً على حياتهم، والذي أمكن السيطرة عليه ببطء.

انتقل تولي خطوتين ببطء إلى اليمين، ونقل ساقاً فوق الأخرى بتوازن رائع فيما كان باسان ويونجن ينتشران إلى يساره. كانت كل حواسهم متأهبة فيما كانوا يراقبون الموقف مستعدين للقتل أو الموت. كان من السهل جداً عليهم أن يتخيلوا سهماً يمزق لحمهم، لكن تولي اكتشف أنه يستمتع بالإحساس بالخطر. وأبقى رأسه شامخاً، ثم فجأة، صرخ على العدو المختبئ.

قال بصوت عالٍ وواضح: "اسمي تولي وأنا من الذئاب. تابع إيلوك الذي كان مرة تابع ياسوجي". وسحب نفساً عميقاً. "لا حاجة للقتال. إذا منحتمونا حقوق الضيوف، سنعود إلى الخيام، وسأنقل لكم رسائلي".

انتظر جواباً، رغم أنه لم يكن يتوقع فعلاً أن يسلموا أنفسهم بسهولة كبيرة. ومن طرف عينه، شاهد باسان يغير مركز ثقله قليلاً، مبدياً انزعاجه.

تمتم باسان: "لا نستطيع الوقوف هنا طوال اليوم".

تحركت أعينهما بشكل متواصل فيما كان تولي يهمس قائلاً: "هل تريد أن ندعهم يهربون؟"

لم تتحرك سوى شفتي باسان ليجيب: "نعرف الآن أنهم أحياء، وينبغي أن نعود بالأنباء إلى الخان. ربما يكون لديه أوامر جديدة".

أدار تولي رأسه قليلاً ليجيب، وكادت تلك الحركة أن تتسبب بمقتله. وشاهد فتى ينهض ويسحب بسلاسة سهماً. بالنسبة لتولي، زأر العالم في أذنيه عندما كان يطلق سهمه في اللحظة نفسها التي ترنح فيها من سهم آخر أصابه في صدره فوق درعه، أسفل حنجرته تماماً. أدرك من خلال ألمه أن الرمية كانت متسرعة. وسمع يونجن يطلق سهماً نحو الأكمة، وصرخ تولي غضباً فيما كان ينهض ويضع سهماً آخر على وتر قوسه.

أطلق باسان سهماً بتهور وشاهد شيئاً يتحرك، ولم يسمعوا صرخة ألم. ألقى تولي نظرة إلى يساره ليشاهد يونجن على الأرض، وقد اخترق سهم حنجرته من الأمام إلى الخلف. وكان بياض عينيه ظاهراً ولسانه يتدلى رخواً من فمه. أطلق تولي اللعنات، ولوّح بقوسه إلى الأمام والخلف غضباً.

صرخ: "لقد طلبتم الموت بطريقة صعبة وسأمنحه لكم!" وللحظة، فكّر في الهرب إلى الجياد، لكنّ كبرياءه وغضبه أبقياه هناك، وكان بأمس الحاجة لمعاقبة أولئك الذين تجرأوا على مهاجمته. وتصلب رداؤه مكان السهمين ونزعهما بحركة سريعة من يديه عندما أعاقا حركته.

قال باسان: "أعتقد أنني أصبت أحدهم".

عاد الصمت ليطبق مرة أخرى مع نذير بحدوث معركة أخرى.

تابع باسان القول: "ينبغي أن نعود إلى الجياد. نستطيع الالتفاف حول سياج الأشواك ومهاجمتهم من مكان مكشوف".

أظهر تولي أسنانه غضباً. وكان رأسا السهمين قد تسببا له بجرحين ينبضان ألماً، وأخذ يطلق كل كلمة مثل أمر.

قال وهو ينظر إلى الأشجار: "اثبت مكانك. اقتل أي شيء يتحرك".

جثم تيموجن خلف سياج الأشواك الذي كان قد جهّزه قبل شهور. وكان

السهم الذي أطلقه هو الذي أصاب يونجن في حنجرته، وانتابه شعور كبير بالرضا. وتذكر كيف أن يونجن سلم سيف والده إلى إيلوك. كان تيموجن قد حلم مرات عديدة بأن ينال ثأره. وحتى جزء صغير منه كان بطعم العسل البري بالنسبة له.

كان قد خطط مع أشقائه لصد مثل ذلك الهجوم، رغم أنه ما يزال مصدوماً من رؤية أتباع الذئاب يقفون في مخيمهم البائس. كان تيموجن قد جهّز أرضاً يستطيع فيها قتل غزاة ليسوا بقوة الرجال الذين سيختارهم إيلوك ليكونوا أفضل المحاربين. وشعر تيموجن بالفخر لأنهم نالوا من أحدهم، رغم أن ذلك كان ممزوجاً بالرهبة. كان هؤلاء محاربي والده، وهم الأسرع والأفضل. وكان قتل أحدهم يبدو مثل خطيئة نوعاً ما، حتى وإن كان يونجن. لكن ذلك لن يمنع تيموجن عن قتل الآخرين.

تذكر تولي عندما كان لا يزال طفلاً صغيراً بعينيه المليئتين بالتحدي، رغم أنه لم يكن أحمق ليتدخل بشؤون أبناء ياسوجي، لكن حتى عندها كان واحداً من أقوى الأطفال في مخيم الذئاب. ومن نظرة خاطفة ألقاها تيموجن عندما أطلق سهمه، كان تولي قد أصبح أكثر قوة وغطرسة. لقد تطور في عهد إيلوك.

نظر تيموجن عبر فجوة صغير في الأشواك يراقب تولي وباسان في مكان وقوفهما. كان باسان يبدو غير سعيد، وتذكر تيموجن كيف تم إرساله إلى أولخونوت لإعادته إلى الديار. هل كان تولي يعرف ذلك عندما اختاره؟ ربما لا. كان العالم مختلفاً عندها، ولم يكن تولي سوى مصارع صغير وضيع يورط نفسه في المشاكل دائماً، إلاّ أنه الآن يرتدي درع ورداء تابع الخان، ولهذا أراد تيموجن أن يحطم كبرياءه.

حافظ تيموجن على هدوئه فيما كان يفكر بما ينبغي فعله. وببطء شديد، أدار رأسه لينظر إلى حيث يربض كشيون. وفي أي لحظة، كان يتوقع

أن تلفت الحركة بصر باسان الحاد وأن ينفذ سهم عبر الأشواك ليصيبه. وسال العرق على جبينه.

عندما شاهد تيموجن شقيقه، طرفت عيناه بقلق. كان كشيون ينظر إليه، وينتظر بصمت أن يلاحظه. اتسعت عينا الفتى الأصغر من الألم والصدمة، واستطاع تيموجن رؤية السهم وقد أصاب ساقه مباشرة. كان وجه كشيون خالياً من التعابير في ذلك الصباح الذي شهد زحف الموت إليهم. كان يجلس ساكناً مثل تمثال، لكنّ معالم وجهه تشنجت وشحبت عندما نظر إلى شقيقه دون أن يجرؤ على أن يومئ له. ورغم سيطرته على نفسه، إلاّ أن ريش السهم كان يهتز قليلاً، وكان على وشك أن يفقد حواسه، كان تيموجن يستطيع سماع حركة الأوراق الخافتة. وفكّر تيموجن بأن تولي سيرى ذلك، وسيطلق سهماً آخر قاتلاً. ولم يكن مستحيلاً أن يشم أحد رجلي إيلوك رائحة الدماء عبر نسيم الهواء.

نظر تيموجن إلى عيني كشيون لفترة طويلة، وراقب كل منهما الآخر بيأس صامت. ولم يكونا يستطيعان الهرب. كان خاسار محجوباً عن بصر تيموجن، لكنه كان يعاني من مشكلة هو الآخر أيضاً، سواء كان يعرف ذلك أم لا.

أدار تيموجن رأسه للخلف ببطء شديد حتى يستطيع رؤية تولي وباسان. كانا ينتظران أيضاً، رغم أن الغضب كان بادياً على تولي الذي نزع السهمين العالقين في صدره فيما كان تيموجن يراقب ما يجري. وكانت ثورة الشاب ستبهج تيموجن لو أن السهم الذي جرح كشيون لم يفسد كل خططهم.

أدرك تيموجن أن المواجهة لن تدوم إلى الأبد. وكان هناك احتمال بأن ينسحب تولي ليعود مع المزيد من الرجال. وإذا فعل ذلك، سيتوفر له ولخاسار ما يكفي من الوقت لنقل كشيون إلى بر الأمان.

صرّ تيموجن على أسنانه، يفكر في القرار الذي ينبغي اتخاذه. لم يكن

يعتقد أن تولي سيضع ذيله بين قدميه ويهرب إلى حيث توجد الجياد، ليس بعد خسارة يونجن. ولم يكن كبرياء الرجل ليسمح له بذلك. إذا أمر باسان بالتقدم إلى الأمام، سيكون على خاسار وتيموجن أن يخاطرا بإطلاق سهم آخر، رغم أن إصابة حنجرة رجل يرتدي درعاً أمر مستحيل تقريباً إذا أبقى رأسه منخفضاً وهو يركض. أدرك تيموجن أن عليه التحرك قبل أن يستطيع تولي التوصل إلى النتيجة نفسها، ربما يبتعد عنهم ويباغتهم من اتجاه آخر. كان الفتية قد سدّوا الطرق إلى الغابة حول المخيم، لكن كانت هناك أماكن يستطيع محارب واحد النفاذ عبرها.

لعن تيموجن حظه، ولم تكن قد مرت سوى لحظات منذ تبادلوا إطلاق السهام، لكنّ الوقت بدا طويلاً فيما كان ذهنه في سباق مع الزمن. كان يعرف ما ينبغي عليه فعله، لكنه كان خائفاً. أغلق عينيه للحظة، وعقد العزم، فالخان يتخذ قرارات صعبة وهو يعرف أن والده كان ليتحرك آنذاك. وكان ينبغي سحب باسان وتولي بعيداً قبل أن يجدا كشيون ويجهزا عليه.

بدأ تيموجن يزحف للخلف، وبقي يرمق المتطفلين بعينيه كلما سنحت له الفرصة. واستطاع أن يراهما يتحدثان، رغم أنه لم يكن يستطيع سماع الكلمات. وعندما قطع عشرة أو عشرين ذراعاً، استفاد من شجرة بتولا لإخفاء حركته فيما كان ينهض على قدميه، ويسحب سهماً آخر من جعبته على ظهره. لم يكن يستطيع رؤية أي من الرجلين آنذاك، كان ينبغي عليه الرمي استناداً إلى ذاكرته. تضرع إلى أب السماء ليمنحه بضع لحظات ارتباك، ثم سحب القوس إلى الخلف، وأطلق السهم إلى حيث كان تولي يقف.

سمع تولي السهم في اللحظة التي اخترق بها الأوراق قادماً من المجهول. وكان قد أطلق سهمه قبل أن يصل الآخر إليه، والذي تسبب بخدش طويل على ساعده قبل أن يدور على نفسه محاولاً الابتعاد دون جدوى. وصرخ ألماً

ودهشة ثم شاهد شكلاً يهرب بين الأشجار، وأطلق سهماً آخر على أمل أن يحالفه الحظ، لكنه ضاع في أيكة التل الكثيفة وتغلب غضب تولي على حذره.

صرخ على باسان الذي كان يتحرك آنذاك: "اذهب خلفه!" وركضا معاً إلى الشرق من الحواجز، محاولين إبقاء الشكل الهارب في مرمى النظر فيما كانا يبحثان عن طريق بين الأشجار.

عندما وجدا فجوة، دفع تولي نفسه عبرها دون تردد، رغم أن باسان بقي خارجاً يراقب تحسباً أن يكون الهجوم للتمويه. صعد تولي التل بثبات، وركض باسان للحاق به. وشاهدا أن الشاب يحمل قوساً، وشعرا بإثارة المطاردة. كانا في كامل طاقتهما وقوتهما، وكلاهما واثق من نفسه عندما تجاوزا الأغصان الكثيفة وقفزا فوق جدول صغير. ولم يتوقف الشخص لينظر إلى الخلف، رغم أنهما شاهداه يتخذ مساره نحو أجمّة كثيفة جداً.

بدأ تولي يلهث، وأصبح وجه باسان أحمر اللون من التسلق، لكنهما شهرا سيفيهما ومضيا قدماً، متجاهلين المشقة.

نظر كشيون للأعلى عندما وقع ظل خاسار على وجهه. وبحثت أصابعه عن سكينه قبل أن يعرف من كان ذلك الشخص واسترخى في مكانه.

قال لشقيقه: "منحنا تيموجن بعض الوقت".

نظر خاسار عبر الأشجار إلى حيث استطاع كلاهما رؤية الرجال يركضون إلى أعلى التل. لم تكن أشجار البتولا والصنوبر تغطي سوى نصف المسافة إلى الأعلى تقريباً، وعرفا أن تيموجن سيكون مكشوفاً حتى يستطيع الوصول إلى الوادي على الطرف الآخر حيث توجد غابة أخرى. ولم يكونا يعرفان إن كان يستطيع الإفلات من مطارديه، لكن كلا الشقيقين كانا خائفين، وارتاحا لأن تابعي إيلوك تركاهما.

سأل خاسار نفسه تقريباً: "ماذا الآن؟"

حاول كشيون التركيز من خلال ألمه الذي بدا مثل شيء يأكل لحم ساقه. كان الألم يأتي ويذهب على شكل موجات فيما كان يكافح حتى لا يفقد وعيه.

قال فزعاً من الفكرة: "سنزيل هذا السهم الآن".

كانوا جميعاً قد شاهدوا كيفية القيام بذلك عندما كان الرجال يعودون من غارات صعبة. كان الجرح في ساقه نظيفاً وقد تباطأ تدفق الدم حتى أصبح خيطاً هزيلاً. وبالرغم من ذلك، جمع خاسار رزمة كبيرة من الأوراق ليعض عليها كشيون. ودفع بقطعة قماش متسخة في فم شقيقه، ثم أمسك بالسهم، وانتزعه بسرعة فيما كانت عينا كشيون تتسعان ويصبح لونهما أبيض من الألم. ورغماً عنه، انطلق أنين خافت من بين شفتيه ووضع خاسار يده فوق فم كشيون ليكتم الصوت، وخنقه حتى وضع السهم على الأرض. وبحركات سريعة وبارعة، اقتطع خاسار شرائط من قماش حزامه وضمّد الساق.

قال وهو يرفع كشيون ليقف على قدميه: "استند إلى كتفي". كان واضحاً أن شقيقه الأصغر يعاني من الدوار عندما بصق الأوراق الرطبة من فمه، لكن خاسار كان ما يزال ينظر إليه ليعرف ما سيقومان به بعد ذلك.

قال كشيون بعد أن استعاد توازنه: "سيعودان. أحضر الآخرين إلى هنا. إذا أسرعنا، نستطيع أخذ كل الجياد والوصول إلى المخيم الثاني".

بقي خاسار معه ما يكفي من الوقت ليضعه على سرج فرس تولي. وثبت كشيون بيد على كتفه، ووضع اللجام بين أصابعه قبل أن ينطلق إلى حيث تختبئ والدتهم مع الطفلين الآخرين. كان تيموجن قد أعدّ مخبأً للفرار، وكان خاسار ممتناً لبصيرة شقيقه عندما انطلق على الفرس. كان ظهور محاربي إيلوك قد لازم كل أحلامهم حتى مرحلة معينة في السنوات التي قضوها وحدهم. وساعدهم أن تيموجن كان قد راجع مراراً وتكراراً

الخطط، رغم أن خاسار كان منزعجاً من فكرة العودة إلى الصدع الصخري نفسه في التلال حيث قضوا لياليهم الأولى. كان تيموجن قد أصر على وضع خيمة صغيرة هناك، لكنهم لم يحلموا أنهم سيحتاجون إليها بتلك السرعة. وسيكونون وحيدين مرة أخرى، ومطاردين.

فيما كان خاسار ينطلق مسرعاً، تضرع أن يستطيع تيموجن الهروب من مطارديه. وعندما يتمكن من العودة، سيعرف ما يفعله. كانت فكرة عدم نجاة تيموجن مرعبة جداً لخاسار.

جرى تيموجن حتى ضعفت ساقاه، وأخذ رأسه يهتز مع كل خطوة. في البداية، كان يتمتع بالقوة والسرعة ليقفز ويتفادى أي شيء يعترض طريقه، لكن عندما أصبح طعم لعابه مريراً في فمه وتلاشت طاقته، لم يكن يستطيع سوى أن يتخبط في مشيته، وكانت آلاف الأغصان والأشواك قد وخزت جلده.

كان أسوأ جزء هو عبور قمة التل العارية مثل حجر في نهر. وأطلق تولي وباسان سهاماً نحوه، وكان تيموجن مرغماً على السير الهوينى تقريباً ليراقب السهام القادمة ويدفع بجسده المتعب بعيداً عن مسارها. كانا قد اقتربا منه عبر تلك المساحة الشاسعة الخالية، لكنه وجد نفسه بعد ذلك يترنح في مشيته بين الأشجار المعمّرة مجدداً وتابع قدماً، كانت رؤيته مشوشة، وشعر بأن كل نفس يحرق حنجرته.

فقد قوسه عندما علق في كتلة متشابكة من نباتات العليق، ولم يستطع أن يحركه سوى بالكاد قبل أن يتركه في مكانه. ولعن نفسه على ذلك عندما كان يجري، وكان يعرف أن عليه نزع الوتر، أو حتى قطعه، وأن يفعل أي شيء حتى لا يفقد سلاحاً يمنحه فرصة قتالهما عندما يقتربان منه. ولم تكن سكينه الصغيرة ستنفعه ضد تولي.

لم يستطع أن يسبق التابعين. وأفضل ما استطاع فعله كان البحث عن

مكان يجثم فيه. وفيما كان يترنح في مشيته عبر الغابة، بحث عن مكان يختبئ فيه. وكان الخوف الذي يشعر به كبيراً ولم يستطع التخلص منه. منحته نظرة إلى الخلف رؤية مهزوزة لرجلين يتقدمان بثبات عبر الأشجار. وشعر عندها باليأس. ولم يكن قد خطط لمطاردة تستمر أميالاً، ولا طائل من التمني بأن يكون قد أعدّ مخبأ سرياً للأسلحة، أو فخاً من النوع الذي يوقع بالذئاب في الشتاء. وتحوّل لهاثه إلى دمدمة، ثم أضحى صوتاً واضحاً، وكان كل نفس بمثابة صرخة من جسده ليتوقف. ولم يكن يعرف المسافة التي قطعها. وكانت الشمس ما تزال في كبد السماء فوق رأسه، ولم يكن يستطيع سوى المضي قدماً إلى الأمام، حتى ينفجر قلبه أو يجد سهم طريقه إلى مؤخرته.

اعترض جدول صغير دربه وانزلقت قدمه على حجر رطب، وجعله ذلك يقع مخلفاً رذاذاً كبيراً من الماء الشديد البرودة. أيقظه ذلك من ذهوله، وزحف خارجاً من الماء، وجرى وقد أحكم سيطرته على نفسه وقلبه يخفق بقوة. وأصغى السمع عندما جرى حينها، وعدّ خطواته حتى سمع تولي وباسان يخوضان عبر المياه نفسها. وكانا على بعد ثلاث وخمسين خطوة خلفه، وقريبين بما فيه الكفاية للإمساك به مثل ظبي إذا منحهما فرصة واحدة فقط. فرفع رأسه، واستجمع قواه ليمضي قدماً. وكان جسده منهكاً، لكنه تذكر ياسوجي عندما أخبره أن إرادة الإنسان يمكن أن تحمله لمسافة أطول بعد أن يستسلم اللحم الضعيف.

أخفاه غور ظهر أمامه فجأة عن أنظارهما وتجاوز جذع شجرة بتولا قديمة. وكان العلّيق هناك بارتفاع رجل، ورمى بنفسه داخلها دون تفكير، واندفع بجنون بين الأشواك المؤلمة ليصل إلى منطقة آمنة مظلمة. كان يائساً، وكاد يصاب بالذعر، لكن عندما بدأ ضوء النهار يتلاشى، تكوّر على نفسه ورقد دون حراك قدر ما يستطيع.

ضجت رئتاه طلباً للهواء فيما كان يرغم نفسه على عدم الحراك. وازداد انزعاجه وسال العرق على جلده. وشعر بأن وجهه يلتهب حرارة ويديه ترتعشان، لكنه شدّ بإحكام على كل عضلة في فمه ووجنتيه فيما كان يستنشق الهواء بصعوبة بالغة، وكان ذلك كل ما تجرأ على القيام به.

سمع تولي وباسان يقتربان منه، ويناديان على بعضهما البعض. وكان واثقاً أنهما لن يبتعدا كثيراً حتى يعودا للبحث عنه. ورغم أنه لم يكن يريد شيئاً أكثر من إغلاق عينيه والانهيار في مكانه، إلاّ أنه استفاد من الوقت الثمين للاندفاع أكثر داخل البقعة المظلمة. ووخزته الأشواك، لكنه لم يستطع أن يصرخ واندفع ببساطة نحوها حتى انكسرت داخل جلده. ولم يكن مثل ذلك الألم مهماً مقارنة بوقوعه في قبضتهم.

أرغم نفسه على التوقف عن الزحف على غير هدى. ولبرهة من الزمن، لم يفكر بشيء سوى الظلام والأمان، مثل حيوان مطارد. وكان الجزء الذي يمثل والده فيه يعرف أن الأوراق المرتعشة ستكشف مكانه إذا لم يوقف كل سكناته. وراقبت تلك النفس الداخلية حركاته بترفّع، وحاول أن يستعيد السيطرة على جسده. وفي النهاية، جعله صوت تولي يتجمد مكانه ويغلق عينيه. ولم يكن هناك شيء آخر يستطيع فعله.

قال تولي بوضوح، ومن مكان قريب بشكل مخيف: "إنه مختبئ". لا بد أن الرجلين قد حثّا الخطى عائدين بسرعة حالما غاب عن ناظريهما.

ضاق صدر تيموجن ووضع يده داخل فمه اللزج ليعض على الألم. وركّز على صورة والده في الخيمة، ورأى مجدداً الحياة التي انسلخت منه.

نادى تولي وهو يلهث: "نعرف أنك تستطيع سماعنا يا تيموجن". وكان قد عانى أيضاً من قطع كل تلك الأميال، لكنّ التابعين كانا صلبين ولائقين صحياً كما ينبغي للرجل أن يكون، وكانا يستعيدان نشاطهما بسرعة.

استلقى تيموجن وصدره يضغط على أوراق قديمة، ويشم رائحة تعفن

النباتات القديمة التي لم ترَ ضوء النهار أبداً. كان يعرف أنه يستطيع الهرب منهما في الظلام، لكن ذلك لن يدوم طويلاً ولم يستطع التفكير بأية طريقة أخرى لتحسين فرص نجاته. وكره الرجلين اللذين كانا يبحثان عنه، وكرههما بشدة كان يعتقد أنهما يستطيعان الشعور بها.

نادى تولي مجدداً: "أين شقيقك بكتر؟ أنت وهو الوحيدان اللذان نريدهما، هل تفهم؟"

بنبرة مختلفة، سمع تيموجن تولي يهمهم همساً لباسان. "لا بد أنه اختبأ في مكان ما هنا. ابحث عنه واصرخ إذا رأيته".

كان الصوت القاسي قد استعاد بعضاً من ثقته، وتضرع تيموجن لأب السماء ليضرب الرجل بصاعقة، ليحرقه، ليمزقه إرباً بشرارة من البرق مثل المرة التي شاهد فيها ذلك يحدث لشجرة. وبقي أب السماء صامتاً، هذا إن كان قد سمعه أصلاً، لكنّ الغضب ثار في صدر تيموجن مجدداً وراودته رؤى عن أعمال انتقام دموية.

هدأت أنفاس تيموجن اللاهثة قليلاً، لكنّ قلبه بقي يخفق بقوة ولم يستطع منع نفسه من الحركة أو اللهاث بصوت عالٍ. سمع وقع أقدام بالقرب منه، وتكور على الأشواك والأوراق. وكان هناك بقعة ضوء نحو الخارج، وركز تيموجن بصره عليها، وشاهد ظلالاً تتحرك. وأثار الرعب في نفسه أن شاهد قدماً تنتعل حذاء تعبر الضوء ثم اختفت تماماً عندما أطل وجه عليه، واتسعت العينان عندما شاهدتاه ينظر إليهما، وكشف عن أسنان مثل كلب بري. وللحظة طويلة جداً، حدّق وباسان ببعضهما بعضاً، ثم اختفى التابع.

نادى باسان وهو يبتعد عنه: "لا أستطيع رؤيته".

شعر تيموجن بالدموع تتجمع في عينيه، ورغم الضجيج في أذنيه، استطاع فجأة أن يشعر بكل الآلام والجروح التي تلقاها جسده الضعيف المنهك في

المطاردة. وتذكر أن باسان كان وفياً لياسوجي إلاّ أن ذلك لم يجعله يشعر بالراحة.

سمع صوت تولي ينادي من بعيد، ولوقت طويل، كان وحيداً مع همسات أنفاسه فقط. وغربت الشمس خلف التلال البعيدة، وحلّ الظلام باكراً على تل العليق. استطاع تيموجن سماع الرجلين يناديان على بعضهما بعضاً، لكن الأصوات بدت بعيدة جداً. وأخيراً، سرق الإجهاد يقظته بشكل مفاجئ ونام.

استيقظ ليرى وميض شعلة صفراء يتحرك في مجال رؤيته، ولم يستطع في البداية أن يفهم ما كان ذلك، أو سبب استلقائه متشنجاً ومتكوراً على نفسه ضمن تلك الشجيرات الشائكة الكثيفة لدرجة أنه بالكاد يتحرك. وكان مخيفاً أن يجد المرء نفسه محشوراً في الظلام بين الأشواك، ولم يكن يعرف كيف يخرج حتى يتذكر كيف دخل في المقام الأول.

شاهد عبر الاشواك آثار احتراق الشعلة في مجال رؤيته، ورأى وجه تولي في الضوء الذهبي. كان التابع ما يزال يبحث عنه، ويبدو آنذاك متجهماً ومتعباً. وكان الرجلان دون أدنى شك جائعين ومجهدين، كما كان تيموجن نفسه.

صرخ تولي فجأة: "سأسلخ جلدك إذا لم تظهر. إذا جعلتني أبحث عنك طوال الليل، سأضربك حتى تسيل منك الدماء".

أغلق تيموجن عينيه، وحاول مدّ عضلاته كلما ابتعدت الشعلة. لم يكن تولي ليلاحظ اهتزاز الشجيرات الشائكة في الظلام، وبدأ تيموجن يعد نفسه للهرب مجدداً. وأبعد ساقيه اللتين كانتا تضغطان على صدره، وكاد يتأوه من شعوره بالراحة. كان كل شيء بارداً ومتشنجاً، وفكّر بأن آلامه قد أيقظته وليس صرخات تولي.

استعمل يديه ليفرك عقد العضلات في فخذيه، ويريحهما. فاندفاعته الأولى ينبغي أن تكون سريعة. وكل ما يحتاجه بداية صغيرة وسيتكفل

الظلام بإخفائه عن ناظريهما. كان يعرف أن العائلة ستكون قد وصلت إلى الصدع الصخري في التلال، وإذا حثّ نفسه، يستطيع الوصول إليهم قبل الفجر. ولن يستطيع تولي وباسان تقفي آثاره أبداً فوق الأرض العشبية الجافة، وسيكون عليهما العودة لجلب المزيد من الرجال. وأقسم تيموجن صامتاً أنهما لن يمسكا به مجدداً. وسيأخذ عائلته بعيداً جداً عن ذئاب إيلوك ويبدأ حياة أخرى حيث سيكونون بأمان.

كان مستعداً للتحرك عندما وقع ضوء الشعلة على بقعة الأرض التي يوجد فيها وتجمد مكانه. واستطاع رؤية وجه تولي، وبدا أن التابع ينظر إليه مباشرة. لم يتحرك تيموجن، حتى عندما بدأ تابع إيلوك يشد أطراف نبات العليق. ونتج عن ضوء الشعلة ظلال متحركة وقفز قلب تيموجن خوفاً مرة أخرى. ولم يجرؤ على أن يستدير لينظر، رغم أنه سمع طقطقة الشعلة في الأشواك حول ساقيه. ولا بد أن تولي دفع الشعلة عميقاً في تلك المنطقة ليلقي الضوء على ما يشتبه فيه.

شعر تيموجن بيد تمسك بكاحله، ورغم أنه اندفع مبتعداً عنها وركلها إلاّ أن القبضة كانت مثل الحديد، فمد يده بحثاً عن السكين في حزامه، وأمسك بها فيما كان يتم سحبه على طول الأرض، وخرج إلى العراء وهو يصرخ من الخوف والغضب.

كان تولي قد رمى الشعلة ليمسك به، ولم يستطع تيموجن أن يرى بوضوح الرجل الذي أمسك به بإحكام من ردائه ورفع قبضته. وضربت يد ضخمة معصم اليد التي تحمل السكين، وتلوّى تيموجن لا حول له ولا قوة. وبالكاد استطاع أن يرى اليد التي ضربته قبل أن يقع مغشياً عليه في عالم مظلم.

عندما استفاق مجدداً، كان ذلك على مشهد نار ورجلين يدفئان نفسيهما حولها. وكانا قد أحكما وثاقه إلى شجيرة بتولا باردة جعلت ظهره يتجمد.

لعق تيموجن الدماء التي كانت على فمه، واستعمل لسانه ليبعد شفتيه الملطختين بوحل لزج عن بعضهما بعضاً. كانت ذراعاه مربوطتين عالياً وراء ظهره، ولم يكن يستطيع لمس العقد. ولم يكن تابع الذئاب ليترك الحبل رخواً بحيث يستطيع تيموجن الوصول إليه بأصابعه. وفي غضون وقت قصير جداً، عرف تيموجن أنه لا يستطيع الهرب وراقب تولي بعينين باهتتين، متمنياً موت التابع بكل ما أوتي من جموح خياله. لم يكن يعرف ما يفعله بباسان. كان الرجل يجلس على الطرف، ووجهه نحو النار. ولم يكونا قد أحضرا طعاماً معهما وكان واضحاً أنهما يفضلان قضاء ليلة في الغابة بدلاً من سحبه إلى مكان تواجد الجياد في الظلام. شعر تيموجن بالدماء تسيل عبر حنجرته وسعل مختنقاً، وجعل الرجلين يستديران نحوه.

تهللت أسارير تولي سعادة عندما رآه يستيقظ. ونهض فوراً، فيما كان باسان خلفه يهز رأسه وينظر بعيداً.

قال تولي بسعادة: "أخبرتك أنني سأجدك".

نظر تيموجن إلى الشاب الذي يتذكره كفتى. كانت ذراعاه وساقاه ضخمتين بالمقارنة مع باقي جسده. بصق دماء على الأرض، وشاهد وجه تولي يتجهم. وظهرت سكين من حيث لا يدري أحد في قبضة التابع، وشاهد تيموجن باسان ينهض من مكانه بجانب النار.

قال تولي: "يريدك الخان حياً، لكنني أستطيع اقتلاع عين، ربما، لأنك جعلتنا نلاحقك؟ ما رأيك بذلك؟ أو أشق لسانك إلى نصفين مثل أفعى؟" وصدرت عنه إيماءة كما لو أنه يمسك بفك تيموجن وضحك، ترفيهاً عن نفسه.

تابع تولي الكلام وهو يلوح بالسكين قريباً من عيني تيموجن: "من الغريب التفكير في الأيام التي كان بها والدك الخان، أليس كذلك؟ كنت أراقبك وبكتر عندما كنتما يافعين، لأرى إذا كان هناك شيء مميز فيكما،

شيء يجعلكما أفضل مني". ابتسم وهزّ رأسه.

"كنت يافعاً جداً. ولا يمكن معرفة ما يجعل رجلاً خاناً وما يجعل آخر عبداً. إنه هنا". وضرب بيده على صدره، وعيناه تلمعان.

رفع تيموجن حاجبيه، مستغرباً من موقف الرجل. وكانت رائحة دهن الضأن الزنخة التي يدهن بها تولي جسده قوية، وحالما استنشقها تيموجن، تراءى له نسر يخفق بجناحيه على وجهه. وشعر بالانفصال عن واقعه، وفجأة لم يعد هناك خوف.

قال ببطء: "ليس هناك يا تولي، وليس فيك". ورفع بصره ليحدق بالرجل الضخم الذي هدده. "أنت مجرد ثور غبي، ولا يناسبك سوى حمل ألواح الخشب".

ألقى تولي يده على وجه تيموجن بصفعة قوية أدارت رأسه إلى الجانب الآخر. كانت الثانية أسوأ، وشاهد الدماء على كفه. وكان قد شاهد كراهية وفرحة شريرة في عيني تولي، ولم يكن يعرف إذا كان سيتوقف حتى تكلم باسان من خلف كتف تولي، وأدهشه لاقترابه الشديد منه.

قال باسان بلطف: "دعه وشأنه. ليس هناك شرف في ضرب رجل مقيد".

تأفف تولي، وهزّ كتفيه لا مبالياً. وقال بسرعة بعد أن أدار وجهه إلى رفيقه: "إذاً ينبغي عليه الإجابة عن أسئلتي". لم يتكلم باسان مجدداً، وشعر تيموجن بقلبه يغوص عميقاً في صدره، وكان يعرف أنه لن يحصل على مساعدة أخرى منه.

سأل تولي: "أين بكتر؟ أدين لذلك الفتى بضربات حقيقية". وبدا أن عينيه غارتا في محجريهما عندما ذكر اسم بكتر، وتساءل تيموجن عما جرى بينهما.

قال: "لقد مات. أنا وكشيون قتلناه".

كان باسان من تكلم، وقد نسي تولي للحظة: "حقاً؟" ولعب تيموجن على

التوتر بينهما عندما وجّه إجابته إلى باسان بشكل مباشر.

"كان شتاء قاسياً وسرق طعامنا يا باسان. اتخذت قرار خان".

كان يمكن لباسان أن يجيب، لكنّ تولي اقترب خطوة إلى الأمام، ووضع يديه الضخمتين على كتفي تيموجن.

"لكن كيف أعرف أنك تقول الحقيقة أيها الشاب؟ قد يكون يزحف إلينا الآن، وأين سنصبح عندها؟"

عرف تيموجن أن الأمر ميؤوس منه. وكل ما استطاع فعله كان محاولة الاستعداد لتلقي الضربات. وأظهر وجهاً قاسياً خالياً من التعابير.

"كن حذراً في حياتك يا تولي. أريدك مستعداً وقوياً عندما آتي من أجلك".

فغر تولي فمه لدى سماعه ذلك، وهو غير واثق ما إذا كان ينبغي عليه أن يضحك أو يغضب. في النهاية، اختار أن يوجّه لكمة إلى بطن تيموجن ويضربه ضرباً مبرحاً مستمتعاً بقوته والضرر الذي يستطيع إحداثه.

ضربه تولي مجدداً عندما اكتشف أن الجياد قد اختفت. كان التابع الشاب غاضباً جداً من جرأة أشقاء تيموجن الكبيرة، وكانت ابتسامة واحدة متهورة من أسيره كفيلة بإخراج غضبه المتولد من إحباطه الشديد. تدخل باسان، لكن الإرهاق والضربات كانت قد فعلت فعلها، ومرّت ساعات الفجر على تيموجن وهو يغيب فيها عن الوعي ويصحو مجدداً.

كان النهار دافئاً ولطيفاً عندما أحرق تولي الخيمتين اللتين بناهما تيموجن وأشقاؤه. وتصاعدت أعمدة من الدخان الأسود نحو السماء خلفهم وألقى تيموجن نظرة خاطفة إلى الخلف مرة واحدة ليثبت ما حدث في ذهنه، ويتذكر شيئاً آخر ينبغي دفع ثمنه. وتعثر خلف آسريْه عندما بدأوا مسيرتهم الطويلة، واهتز مع الحبل حول معصميه.

بدايةً، قال تولي لباسان إنهما سيأخذان جوادين جديدين من المتجولين الذين مرّوا بهم من قبل. لكن عندما وصلوا إلى ذلك المكان بعد يوم شاق، لم يكن هناك شيء بانتظارهم سوى دائرة من الأعشاب السوداء التي تدل على المكان الذي كانت فيه الخيمة ذات مرة. وأخفى تيموجن ابتسامته تلك المرة، لكنه كان يعرف أن هورغز العجوز سينشر الخبر بين عائلات المتجولين ويسلك طريقاً بعيدة عن محاربي الذئاب القساة أولئك. لم يكونوا يشكلون قبيلة واحدة، لكن التجارة والعزلة تجمع أولئك الضعفاء. كان تيموجن يعرف أن خبر عودة الذئاب سينتشر بسرعة وإلى أماكن بعيدة. وكان قرار إيلوك بالعودة إلى الأراضي حول التل الأحمر مثل إلقاء حجر في بركة. وستسمع به كل القبائل على مسير مئة يوم، وتتساءل إذا ما كان الذئاب أعداء أم حلفاء. وسيكون أولئك مثل هورغز العجوز الذين يتجولون دون حماية العائلات الكبيرة أكثر قلقاً من تداعيات النظام الجديد. فالكلاب الصغيرة تنسل بعيداً عندما تطوف الذئاب بالمكان.

شاهد تيموجن العالم من الجانب الآخر للمرة الأولى. وربما كان سيكره القبائل للطريقة التي تنتقل بها عبر السهول، لكن بدلاً من ذلك، حلم بأن يهرب الرجال في يومٍ ما أمام وقع أقدامه. كان ابن والده، وشقّ عليه أن يرى نفسه واحداً من المتجولين الذين لا ينتمون إلى قبيلة ما. وحيثما يكون تيموجن، يستمر نهج الذئاب الحقيقي في داخله. كان التخلي عن ذلك يعني جلب العار لوالده وكفاحهم من أجل البقاء. وخلال ذلك كله، كان تيموجن يعرف حقيقة واحدة بسيطة: يوماً ما، سيصبح خاناً.

لم يكن هناك شيء سوى ماء نهر صغير ليطفئ عطشه ولا أمل في أن ينقذه أحد، وكاد أن يضحك في سره لتلك الفكرة. كان عليه أن يهرب أولاً من المصير الذي يعدّه تولي وإيلوك له. واستغرق في أحلام اليقظة فيما كان يهرول مقيداً بالحبل. وفكّر بأن يتقدم إلى الأمام ويضع أنشوطة حول عنق تولي، لكنّ الشاب القوي كان حذراً منه بشكل دائم، وحتى إذا سنحت له فرصة مناسبة، كان تيموجن يشك بأن لديه القوة الكافية لكسر عنق التابع الضخمة.

حافظ تولي على الصمت التام أثناء المسير. وخطر بباله بأنه يعود مع أحد أبناء الخان فقط وليس البكر حتى، وأن الفرسين القيمتين قد سُرقتا وأن يونجن ممدد ميت خلفه. لو لم يكن معهم هذا الأسير الوحيد، لكانت نتيجة الغارة كارثة كاملة. راقب تولي الأسير باستمرار، قلقاً من أنه قد يختفي بطريقة ما ويتركه دون أي شيء يعيده إلى الديار سوى الخزي. وعندما خيّم الليل، وجد تولي أن النوم يجافيه وأن عليه تفقد الحبال على فترات منتظمة. كلما فعل ذلك، كان يجد تيموجن مستيقظاً ويراقبه بمتعة خفية. كان هو الآخر يفكر بعودتهم، وانتابته مشاعر السعادة لأن أشقاءه الأصغر سناً قد فوتوا، على الأقل، الفرصة على تولي لإضافة أسباب جديدة يتباهى بها أمام إيلوك. كان في العودة مشياً على الأقدام خزي كبير للتابع

المتكبر، ولو أنه لم يكن منهكاً وبائساً للغاية، لربما كان تيموجن استمتع بعودة تولي الكئيبة.

دون طعام في جيوب السرج، أصبحوا جميعاً أضعف حالاً. وفي اليوم الثاني، بقي باسان ليحرس تيموجن فيما أخذ تولي قوسه واتجه نحو صف أشجار على صخور عالية. وكانت تلك الفرصة التي لطالما انتظرها تيموجن، ورأى باسان تلهفه حتى قبل أن يفتح فمه.

قال: "لن أطلق سراحك يا تيموجن، لا. لا تستطيع طلب ذلك مني".

ضاق صدر تيموجن كما لو أن الأمل قد خرج منه مع أنفاسه، وتمتم قائلاً: "لم تخبره عن المكان الذي كنت مختبئاً فيه".

تورد وجه باسان وأشاح بنظره بعيداً. "كان ينبغي أن أفعل ذلك. منحتك فرصة واحدة، إكراماً لذكرى والدك، لقد وجدك تولي على أي حال. ولو أن الوقت لم يكن مظلماً، ربما كان أدرك ما فعلته".

قال تيموجن: "لم يكن ليدرك شيئاً، لأنه أحمق".

ابتسم باسان فقد كان تولي شاباً صاعداً في خيام الذئاب، وكانت مكانته تصبح أسطورية. كان قد مرّ وقت طويل منذ سمع أي شخص يجرؤ على إهانته بصوت عالٍ، حتى عندما لم يكن حاضراً ليسمعه. كانت رؤية تيموجن يقف قوياً أمامه بمثابة تذكير أن هناك عالماً خارج الذئاب. وعندما تكلم باسان مجدداً، كان صوته يمتلئ مرارة.

"يقولون إن الذئاب أقوياء يا تيموجن... ونحن كذلك، برجال مثل تولي. لقد ربّى إيلوك وجوهاً جديدة ليكونوا أتباعه، رجال دون شرف. وجعلنا نركع له، وإذا جعله شخص ما يضحك أو جاء إليه حاملاً ظبياً، أو غزا عائلة، يقوم إيلوك برمي كوب من شراب الأعشاب الأسود عليه مثل كلب أتقن عمله". كان يحدق على التلال فيما يتكلم، ويتذكر عهداً مختلفاً.

قال بلطف: "لم يجعلنا والدك نركع أبداً. وعندما كان على قيد الحياة،

كنت سأضحي بحياتي من أجله دون تردد، لكنه لم يجعلني أشعر بأنني أقل من رجل".

كان ذلك خطاباً طويلاً من رجل قبيلة قليل الكلام، وأصغى تيموجن السمع وكان يدرك أهمية كسب باسان كحليف له. لم يكن لديه حليف آخر في الذئاب، ليس بعد انقضاء ذلك الوقت. كان يستطيع أن يطلب المساعدة مجدداً لكن باسان لم يكن يتكلم باستخفاف. كان شرفه يعني أنه لن يسمح لتيموجن بالهرب آنذاك بعد أن أمسكا به. قبل تيموجن ذلك، رغم أن السهول المكشوفة كانت تناديه ليحاول الهرب من الموت البشع الذي كان إيلوك قد أعده له. كان يعرف أن عليه ألاّ يتوقع الرحمة مرة ثانية، وخصوصاً بعد أن أصبح إيلوك آمناً في موقعه. عندما تكلم، اختار الكلمات بعناية، وكان بحاجة ليدفع باسان لأن يتذكر وأن يسمع أكثر من مجرد توسل أسير.

"ولد والدي ليحكم يا باسان. كان يعامل الرجال الذين يثق بهم بلطف. إيلوك ليس... واثقاً جداً من نفسه. لا يمكن أن يكون كذلك. ولا أجد مبرراً لما قد فعله، لكنني أتفهمه وأعرف السبب الذي دفع برجال مثل تولي للوقوف إلى جانبه. إن ضعفهم يجعلهم شرسين، وأحياناً يصبح رجال مثل هؤلاء محاربين أشدّاء". وشاهد أن باسان يرتاح عندما يتكلم، وأن أفكاراً صعبة تجول في ذهنه كما لو أن أحدهما ليس أسيراً لدى الآخر.

تابع تيموجن مسترسلاً: "ربما كان ذلك ما رآه إيلوك في تولي. ولم يسبق لي أن شاهدت تولي في غارة، لكن ربما كان يغطي خوفه بأعمال شجاعة مبالغ فيها".

لم يكن تيموجن ليقول ذلك لو أنه لم يؤمن به. كان تولي الذي عرفه وهو فتى متبجحاً، وكان على الأرجح سيهرب منتحباً إذا آذى نفسه. أخفى تيموجن سعادته خلف تعابير وجهه القاسية عندما بدا باسان مرتبكاً، يمعن

التفكير في الذكريات في ضوء كلمات تيموجن.

قال باسان وهو يهزّ رأسه: "لم يكن والدك ليعتبره تابعاً. لقد كان أعظم شرف لي على الإطلاق عندما تم اختياري من قبل ياسوجي. وكان ذلك يعني حينها أكثر من مجرد امتلاك القوة والدرع لمهاجمة العائلات الضعيفة والإغارة على قطعانها. كان ذلك يعني...". وهزّ رأسه محرراً نفسه من الذكريات.

كان تيموجن يريده أن يتابع الكلام في ذلك الموضوع، لكنه لم يجرؤ على الضغط عليه أكثر. ووقفا صامتين لفترة طويلة، ثم تنهد باسان.

تمتم بصوت خافت للغاية: "مع والدك، كنت أستطيع أن أكون فخوراً. كنا الثأر والموت لأولئك الذين يهاجموننا، لكن ليس للعائلات على الإطلاق، وليس للذئاب. لقد جعلنا إيلوك نمشي زهواً حول الخيام مرتدين دروعنا، ولم نعد نعمل في تحويل الصوف إلى لباد أو التسابق على الجياد. إنه يسمح لنا بأن نصبح بدينين وأن نقبل العطايا. ولا يعرف الصغار شيئاً غير ذلك، لكنني كنت نحيلاً وقوياً وواثقاً يا تيموجن. أتذكر ما كان عليه الحال عندما كنا ننطلق مع ياسوجي لمهاجمة التتار".

همس تيموجن متأثراً بذكريات الرجل عن والده: "ما زلت تحترمه". ورداً على ذلك، شاهد وجه باسان يهدأ، وعرف أنه لن يسمع شيئاً آخر منه في ذلك اليوم.

عاد تولي مبتهجاً مع حيواني غرير معلقين إلى حزامه. وقام مع باسان بطهوهما بحجارة ساخنة وضعاها داخل الجسد، سال لعاب تيموجن عندما شم رائحة اللحم في نسيم الهواء. وسمح تولي لباسان برمي أحد الهيكلين إلى حيث يستطيع تيموجن الوصول إليه، وقام بنزع قطع اللحم الصغيرة بعناية بالغة، لأنه كان بحاجة لأن يبقى قوياً. بدا تولي مسروراً بشد الحبل كلما مدّ تيموجن يده ليضع الطعام في فمه.

حالما انطلقوا مجدداً، كافح تيموجن ضد الإرهاق والألم والتقرح في معصميه. ولم يشتكِ، وكان يعرف أن ظهور أي ضعف عليه سيرضي تولي. وكان يعرف أن التابع سيقتله بدلاً من أن يسمح له بالهروب، ولم يكن تيموجن يرى فرصة للفرار من الرجلين اللذين أسراه. كانت فكرة رؤية إيلوك مجدداً تثير الخوف في بطنه الخاوية، وعندما اقترب المساء، توقف تولي فجأة وعيناه ثابتتان على شيء بعيد. ونظر تيموجن بسرعة عبر أشعة الشمس التي كانت تغرب وأصابه اليأس.

لم يكن هورغز العجوز قد ابتعد كثيراً، رغم كل شيء. وعرف تيموجن فرسه الرقطاء والعربة التي تجرها، والتي تتكدس عليها مقتنيات العائلة الرثة. كان قطيعهم الصغير من الماعز والأغنام يمشي أمامهم، والهواء يحمل صوت ثغاءها البعيد. ربما لم يكن هورغز يدرك الخطر. وكان صعباً على تيموجن أن يتخيل بقاء الرجل العجوز في المنطقة ليرى ما حل بالعائلة التي صادقها.

لم يكن هورغز أحمق، ولم يقترب من التابعين اللذين يسيران على الأقدام، رغم أنهم كانوا جميعاً يستطيعون رؤية شحوب وجهه عندما استدار ليراقبهم. وحثّه تيموجن بصمت على المضي بعيداً وسريعاً قدر ما يستطيع.

لم يكن تيموجن يستطيع فعل شيء سوى مراقبة ما يحدث متوقعاً الأسوأ عندما سلم تولي الحبل إلى باسان وسحب قوسه عن كتفيه مخفياً إياه عن العيون فيما كان يجهز الوتر بيديه. مشى بسرعة نحو الرجل العجوز وعائلته، ولم يستطع تيموجن أن يتحمل أكثر من ذلك. وبحركة جعلت باسان يلتف حول نفسه، رفع يديه ولوح بهياج للرجل العجوز، يطلب منه يائساً الابتعاد.

تردد هورغز بشكل ظاهر، واستدار في السرج، وحدّق إلى الخلف على الشكل الوحيد الذي يتقدم نحوه. وشاهد إيماءة تيموجن المسعورة، لكن

الوقت كان متأخراً جداً. وكان تولي قد وصل إلى مداه، وشدّ قوسه واضعاً قدمه على المقبض، ورفع السلاح في برهة من الزمن. وقبل أن يستطيع هورغز فعل أي شيء سوى إطلاق صرخة تحذير لزوجته وأطفاله، كان تولي قد سحب السهم وأطلقه.

لم تكن رمية صعبة لرجل يستطيع إطلاق السهام من على صهوة حصان يعدو بسرعة. تأوه تيموجن عندما شاهد هورغز يدفع بعقبيه على جانبي فرسه، وكان يعرف أن الفرس المتعبة لن تكون سريعة بما فيه الكفاية. تابع التابعان وأسيرهما مسار السهم. وكان تولي قد أطلق سهماً آخر والذي كان يبدو معلقاً بشكل غامض في الهواء فيما كانت الأشكال البشرية تتحرك ببطء شديد، وبعد فوات الأوان.

صرخ تيموجن عندما أصاب السهم هورغز العجوز في ظهره، مما جعل فرسه ترفع قائمتيها الأماميتين فزعاً. وحتى على ذلك البعد، استطاع تيموجن أن يشاهد جسد صديقه يهتز، وذراعاه تتحركان بضعف. وتبع السهم الثاني مسار السهم الأول نفسه تقريباً، وغاص نصله في السرج الخشبي عندما كان هورغز يسقط إلى الأرض كومة من الملابس على السهل الأخضر. فزع تيموجن بعد أن شاهده يقع على الأرض. وزأر تولي ابتهاجاً، وأسرع يهرول مثل صياد، وجهّز قوسه عندما اقترب من العائلة المذعورة مثل ذئب يمشي نحو قطيع من الماعز.

حررت زوجة هورغز الفرس من العربة ووضعت ابنيها على السرج بعد أن انتزعت السهم منه. وربما كانت ستضرب الحيوان الصغير ليجري مسرعاً، لكن تولي كان يطلق صرخة تحذير عندها. وعندما رفع قوسه مرة أخرى، تلاشت قواها، وسقطت على الأرض مغلوبة على أمرها.

شاهد تيموجن بيأس فيما كان تولي يمشي مقترباً منهم، وهو يضع سهماً آخر على وتر قوسه.

صرخ تيموجن: "لا!" لكن تولي كان يستمتع بما يقوم به. وأصاب سهمه الأول المرأة في صدرها ثم قتل الطفلين اللذين كانا يصرخان. كانت قوة تأثير ما جرى قد جعلتهما يقعان عن الفرس، وبقيا هناك ممدين على الأرض الترابية.

سأل تيموجن: "ما الضرر الذي ألحقوه به يا باسان؟ أخبرني عن ذلك!"

نظر إليه باسان بدهشة، وكانت عيناه كئيبتين وتتساءلان.

"إنهم ليسوا من قومنا، هل نتركهم أحياء بعد سلبهم حتى يتضوّروا جوعاً".

أشاح تيموجن ببصره عن منظر تولي يركل جسد أحد الطفلين ليبعده عن طريقه ويمتطي الفرس. وشعر جزء منه بالجريمة التي شهدها، لكن الكلمات عجزت عن وصف ما جرى. ولم يكن هناك رابطة دم أو مصاهرة مع هورغز العجوز أو عائلته، ولم يكونوا من الذئاب.

قال فيما كان لا يزال يبحث عن الفكرة المناسبة: "إنه يقتل مثل جبان. هل واجه رجالاً مسلحين بمثل تلك السعادة الغامرة؟"

شاهد باسان يتجهم، وعرف أن تلك النقطة أصابت هدفها. كان صحيحاً أن عائلة هورغز العجوز ما كانت لتنجو من الشتاء، وأدرك تيموجن أنه حتى ياسوجي كان ليأمر بالشيء نفسه، لكن مع الأسف والإدراك بأن ذلك سيكون نوعاً من الرحمة في أرض قاسية. تأفف تيموجن فيما كان التابع يعود نحوهما. كان تولي شخصاً صغيراً رغم بنيته الضخمة وقوته الكبيرة. وكان قد أزهق أرواحهم ليبدد شعوره بالإحباط، وكان يرسم ابتسامة كبيرة على شفتيه عندما استدار نحو اللذين يراقبانه. وكرهه تيموجن عندها، لكنه أخذ على نفسه عهداً ضمن أفكاره الخاصة ولم يتكلم مع باسان مجدداً.

تناوب تولي وباسان على امتطاء الفرس الرقطاء، فيما كان تيموجن يترنح

ويقع خلفهما. وتركوا الأجساد للحيوانات حالما انتزع تولي سهامه منها. استأثرت العربة الصغيرة باهتمام التابع فترة كافية لتفتيشها، لكن لم يكن هناك سوى اللحم المقدد والملابس الرثة. ولم يكن لدى متجولين من أمثال هورغز كنوز مخفية. ذبح تولي تيساً وشرب دمه بمتعة واضحة قبل أن يربط الذبيحة خلف السرج ويسوق الماعز الأخرى معهم. وسيكون لديهم أكثر مما يحتاجونه من اللحم للوصول إلى خيام الذئاب.

نظر تيموجن إلى وجوه هورغز وعائلته الساكنة الشاحبة عندما تجاوزها. وكانوا قد رحبوا به وقدموا له الشاي اللاذع الطعم واللحم عندما كان جائعاً. شعر بالذهول والضعف من المشاعر التي انتابته، لكن فيما كان يتركهم خلفه، عرف في لحظة إلهام أنهم قبيلته، وعائلته. ليس برابطة الدم، ولكن بالصداقة التي تجمعهم وعروة البقاء الأوسع في الأوقات الصعبة. وصمم على أن يأخذ بثأرهم كما لو أنه ثأره.

أمسكت هولن تيموج من كتفيه وهزّته. وكان قد كبر مثل أعشاب الربيع في السنوات التي تلت مغادرتهم للذئاب، ولم يكن هناك دليل على بدانة الطفولة الآن، إلاّ أنه لم يكن قوياً في المواقف التي تتطلب منه ذلك. كان يساعد أشقاءه في العمل، لكنه يفعل ما يُطلب منه فقط وغالباً ما كان يتجول بعيداً ويقضي يومه وهو يسبح في الجدول، أو يتسلق التل ليشاهد منه المنظر الذي يطل عليه. كانت هولن تستطيع التعامل مع الكسل العادي طالما تستطيع ضربه. وكان تيموج فتى صغيراً تعيساً، وما زال يحلم بالعودة إلى ديار الذئاب وكل ما فقده. كان بحاجة لقضاء وقت بعيداً عن عائلته، وإذا تم حرمانه من ذلك، سيكبر عصبياً وكئيباً حتى تفقد هولن صبرها وترسله إلى الخارج لتدع الهواء النقي يعصف بأفكاره مثل خيوط العنكبوت.

كان تيموج يبكي عندما حل المساء، وينشج في الخيمة الصغيرة حتى

فقدت هولن صبرها.

قال متنهداً، وهو يمسح المخاط اللامع العريض مثل أنفه: "ماذا سنفعل؟"

كتمت هولن غضبها، ومسحت على شعره بيديها الخشنتين. لقد بدا رقيقاً للغاية وهذا ما حذّرها منه ياسوجي. وربما تكون قد أفسدته بالدلال.

"سيكون بخير يا تيموج. لن يكون شقيقك صيداً سهلاً أبداً". وحاولت إبقاء صوتها مرحاً، رغم أنها بدأت آنذاك في التفكير بمستقبلهم. كان باستطاعة تيموج البكاء، لكن على هولن أن تضع خطة، وتكون ذكية، وإلاّ فقد تفقدهم جميعاً. كان أبناؤها الآخرون مذهولين وبائسين من ذلك التغيير الذي طرأ على حياتهم. ومع تيموجن، كانوا قد بدأوا يعرفون القليل من الأمل. كانت خسارته تعني عودتهم إلى اليأس المطلق لأيامهم الأولى وحدهم، وأعاد لهم الصدع الصخري المظلم في التلال تلك الذكريات مثل صخرة معلقة فوق أرواحهم.

خارج الخيمة، سمعت هولن إحدى الجياد تصهل بصوت خافت. وفكّرت في الصوت فيما كانت تتخذ القرارات التي يبدو أنها ستمزق قلبها في صدرها. وأخيراً، عندما كان تيموج ينشج في زاوية ويحدق على المجهول، تكلمت إليهم جميعاً.

"إذا لم يعد تيموجن إلينا غداً مساء، سيكون علينا أن نغادر هذا المكان". استحوذت على كامل انتباههم عندها، حتى تيمولن الصغيرة، التي توقفت عن اللعب بعظامها الملونة وحدّقت بعينين متسعتين بوالدتها. "ليس لدينا خيار الآن إذا كان الذئاب سيعودون إلى التل الأحمر. سيستكشف إيلوك المنطقة لمسافة مئة ميل وسيعثر على مخبئنا الصغير هنا. وستكون تلك نهايتنا".

كان كشيون من أجاب، وانتقى كلماته بعناية.

قال: "إذا غادرنا، لن يستطيع تيموجن إيجادنا مجدداً، لكنك تعرفين

ذلك. يمكنني البقاء وانتظاره، إذا أخذت الجياد. اخبريني فقط عن الاتجاه الذي ستسلكونه وسألحق بكم عندما يأتي".

قال خاسار: "وإذا لم يأتِ؟"

تقطّب حاجبا كشيون، وقال: "سأنتظر أطول فترة ممكنة. وإذا جاء الذئاب للبحث في الصدع الصخري، سأختبئ منهم أو أرحل ليلاً وراءكم".

ربتت هولن على كتف كشيون وهي تبتسم، وأرغمت نفسها على تجاهل يأسها. ورغم أنها ابتسمت، إلاّ أن عينيها لمعتا انزعاجاً.

قالت: "أنت شقيق طيب، وابن رائع. سيكون والدك فخوراً بك". وانحنت إلى الأمام، والقلق بادٍ عليها. "لكن لا تخاطر بحياتك إذا رأيته أسيراً، هل تفهم؟ لقد ولد تيموجن مع خثرة دموية في يده، وربما يكون هذا قدره". وتغضن وجهها دون سابق إنذار. "لا أستطيع فقدان كل أبنائي، واحداً تلو الآخر". وأثارت ذكرى بكتر نوبة من البكاء المفاجئ، والتي هزّتهم جميعاً. مدّ كشيون يده، ولفّ ذراعيه حول كتفي والدته، وفي الزاوية، بدأ تيموج ينشج وحده مرة أخرى.

جلس إيلوك في خيمة أكبر بكثير من أي خيمة أخرى في المخيم، على عرش من الخشب والجلد اللامع. كان ياسوجي مترفعاً عن مثل رموز السلطة تلك، لكن إيلوك كان يستمد الراحة من تعاليه على أتباعه. ليتذكروا من هو الخان! وأصغى إلى طقطقة المشاعل وأصوات القبيلة البعيدة. كان ثملاً مجدداً، أو على وشك ذلك، ولهذا كانت يداه ترتعشان عندما مدّهما أمام عينيه. وفكّر في طلب المزيد من الشراب الذي سيجعله يفقد وعيه تماماً، لكنه جلس بدلاً من ذلك بصمت كامل يحدق في أرضية الخيمة. وكان أتباعه يعرفون أن من الأفضل ألاّ يحاولوا رفع معنويات خانهم عندما يواجه أوقاتاً عصيبة.

كان نسره يجثم على مسند خشبي إلى يمينه. ولم يكن وجود الطائر المغطى الرأس ملحوظاً لأنه يستطيع الوقوف في مكانه ساكناً تماماً لفترة طويلة جداً، ثم يتحرك فجأة عند أدنى صوت، ويميل رأسه كما لو أنه يرى عبر الجلد السميك. وبقيت مسحة اللون الأحمر على ريشه، والذي كان يلمع عندما يقع ضوء المشاعل على جناحيه. كان إيلوك فخوراً بحجمه وقوته. وكان قد راقبه يصطاد تيساً ويكافح للطيران في الهواء فيما الجسد الرخو يتدلى تحته. ولم يكن يسمح له بأكثر من قطعة واحدة من اللحم بعد كل صيد، بالطبع، لكنها كانت لحظة رائعة. كان قد منح نسر ياسوجي إلى عائلة أخرى، وارتبط معهم بعروة الامتنان لهدية الخان. كان يتوق إلى عرض النسرين على تيموجن أو بكتر، وتمنى أن يكونا حيين فقط ليشاهد غضبهما مرة أخرى.

تذكر ذلك اليوم عندما تلقى الطائر من يدي ياسوجي. ورغماً عن إرادته، سالت دموع مفاجئة من عينيه، وأطلق الشتائم بصوت عالٍ، ولعن الشراب الذي أوصله إلى تلك الحالة الكئيبة. كان أصغر سناً عندها، وكل شيء

للشباب أفضل، وأكثر نقاء وصفاء من أولئك الذين سمحوا لأنفسهم بأن تترهل أجسادهم وأن يثملوا كل مساء. ورغم ذلك كان يعرف أنه ما يزال قوياً بما يكفي ليهزم كل من يجرؤ على تحديه.

نظر إيلوك مشوش الرؤية حوله بحثاً عن تولي، وكان قد نسي للحظة أنه لم يعد بعد. وكان الذئاب يرتحلون ببطء، ويسيرون شمالاً منذ غادرهم تولي مع باسان ويونجن. وكان ينبغي أن يكون اكتشاف ما إذا كان أبناء ياسوجي ما زالوا أحياء بسيطاً، أو إيجاد عظامهم على الأقل. عاد إيلوك بتفكيره إلى أول شتاء قضاه كخان، وهزّ كتفيه غير مبالٍ. وقد كان الأمر مريراً حتى بعد أن ارتحلوا جنوباً. بالنسبة لأولئك الذين بقوا في الشمال، لابد أن الطقس كان قاسياً كثيراً، على الصغار والكبار على حدٍّ سواء. وكان شبه واثق أن هولن وصغارها لم يكونوا ليصمدوا طويلاً، إلاّ أن ذلك كان مصدر إزعاج دائم له. ما الذي جعل تولي والرجلين الآخرين يتأخرون؟ كان إيلوك يعرف أن المصارع الشاب رجل يمكن الاعتماد عليه. ولم يكن ولاؤه موضع تساؤل، مقارنة بولاء بعض الرجال الأكبر سناً. كان إيلوك يعرف أن هناك بعض الأشخاص الذين ما زالوا ينكرون حقه في قيادة القبيلة، وهم الحمقى الذين لم يقبلوا العهد الجديد. كان قد وضعهم تحت مراقبة دائمة، وعندما يحين الوقت، سيجدون رجالاً مثل تولي خارج خيامهم عند بزوغ فجر أحد الأيام. كان سيقطع رؤوسهم بنفسه كما ينبغي للخان أن يفعل، ولم يكن بعيداً عن أفكاره أبداً أنه فاز بالقبيلة بالقوة، ووحدها القوة تستطيع المحافظة على ذلك. يمكن لعدم الولاء أن يزداد دون أن يلاحظه أحد حتى يجد هؤلاء الأشخاص الشجاعة ليتحدوه. ألم يشعر ببذور ذلك قبل وقت طويل من موت ياسوجي؟ لقد شعر بذلك في أعماق قلبه.

عندما صدحت الأبواق، ترنح إيلوك على قدميه، وتناول سيفه من حيث كان على ذراع كرسيه. وسقسق الطائر الأحمر، لكنه تجاهله، وهزّ رأسه

ليجعل ذهنه صافياً فيما كان يخرج إلى الهواء البارد. كان يستطيع الشعور آنذاك بالدماء تغلي في عروقه والإثارة التي يستسيغها. كان يأمل بأن يكونوا غزاة، أو تولي عائداً مع أولاد الخان القديم. وكان أحد الأمرين كفيلاً بجعل الدماء تسيل على سيفه، ولم يكن يستمتع بالنوم أو يجد لذة وراحة كما هو الحال عندما يقتل رجلاً.

تم إحضار فرسه إليه فامتطاها بحذر حتى لا يتعثر. وكان يشعر بالشراب في عروقه، لكن ذلك كان يجعله أقوى. نظر بعينين حمراوين مشوشتين على أتباعه فيما كانوا يتجمعون حوله، ثم دفع بعقبيه على جانبي فرسه التي انطلقت مسرعة لمواجهة التهديد.

صاح إيلوك أثناء انطلاقه في الجو البارد فيما كان الخيالة يتجمعون حوله بتشكيل رائع. كانوا ذئاباً، وينبغي أن يخشاهم الآخرون. لم يشعر أبداً بمثل تلك الحيوية التي اجتاحته في تلك اللحظة، عندما لم يعد الولاء مسألة ينبغي التفكير بها، وليس هناك سوى عدو واحد ينبغي مواجهته. كان ذلك ما يتوق إليه، بدلاً من مشاكل ونزاعات العائلات التافهة. لماذا كان يهتم بتلك الأمور؟ لقد كان سيفه وقوسه جاهزين للدفاع عنهم، وكان ذلك كل ما ينبغي عليه أن يمنحه لهم. لقد أصبحوا أكثر قوة وعدداً، تماماً كما هي حال الماعز تحت رعايته. ولم يكن هناك شيء آخر يهمه طالما أن المحاربين كانوا ينطلقون ممتطين جيادهم بقيادته.

عندما أخذت الجياد تهرول، وضع إيلوك سيفه فوق أذني الحصان وصرخ: "تشو!" طلباً للمزيد من السرعة، وشعر بأن الشراب يشتعل داخله. وتمنى أن يكون هناك عدو يهاجمهم، ومعركة ليختبر شجاعته ويشعر مجدداً بنشوة السير بجانب الموت. بدلاً من ذلك، لم يرَ سوى شكلين على السهل، يمتطيان فرسين بنيتين تحملان أوزاناً ثقيلة بحيث لا يمكن أن يشكلا تهديداً. كانت خيبة الأمل مريرة في حنجرته، لكنه ابتلعها وأصبح وجهه قاسياً

وخالياً من أي تعابير. سيستولي الذئاب على كل ما قد يمتلكه الرجلان، ويبقيان على حياتهما إلاّ إذا اختارا القتال. كان إيلوك يتمنى أن يختارا القتال فيما كان يقترب منهما ورجاله يتحركون حوله ويتخذون مواقعهم.

ترجل إيلوك عن فرسه متثاقلاً، ومشى ليواجه الغريبين. ولدهشته، رأى أنهما مسلحان، رغم أنهما لم يكونا أحمقين ليستلا سيفيهما. كان من النادر رؤية نصال طويلة في أيدي متجولين. كانت مهنة تسوية الفولاذ وطرقه تحتل مكانة رفيعة بين القبائل، ويعد السيف الجيد من المقتنيات الثمينة. ورغم ذلك لم تبدُ علامات الغنى على الرجلين. ربما كانت ملابسهما من نوعية جيدة فيما مضى، لكنهما كانا أشعثين من التراب والأوساخ. ورغم سريان الشراب الأسود في دمائه، إلاّ أن ذلك أثار انتباه إيلوك.

راقب الرجلين بحذر فيما كان يقترب منهما، وتذكر دروس ياسوجي في الحكم على الأعداء. كان أحدهما عجوزاً بما فيه الكفاية ليكون والد الثاني، لكنه كان يبدو قوياً رغم شعره الأشيب، وكان قد لف شعره المدهون بالزيت على شكل ضفائر انسدلت خلف ظهره. وشعر إيلوك بالخطر من الطريقة التي كان يقف بها، وتجاهل الأصغر سناً لأنه أدرك بغريزته أن عليه مراقبة العجوز لأن الحركة الأولى ستأتي منه. ولم يستطع أن يجد تفسيراً لقراره ذاك، لكنه كان قد أنقذ حياته أكثر من مرة.

رغم أنهما كانا محاطين بمحاربين يمتطون جياداً، إلاّ أن أياً من الرجلين لم يحنِ رأسه. وعبس إيلوك في وجهيهما، مستغرباً من تحفّظهما وثقتهما بنفسيهما. وقبل أن يتكلم، بدا أن الرجل الأكبر سناً سيقول شيئاً، وكانت عيناه الحادتان قد لاحظتا صورة الذئب المتوثب للقفز على درع إيلوك. وتمتم شيئاً ما لرفيقه وانفرجت أساريرهما.

قال الرجل العجوز بوضوح: "اسمي أرسلان، وهذا ابني جيلم. نحن ندين للذئاب وقد وجدناكم أخيراً". وعندما لم يجب إيلوك، نظر الرجل حوله على

وجوه التابعين وقال: "أين المدعو ياسوجي؟ لقد وفيت بعهدي. لقد وجدتكم أخيراً".

حدّق إيلوك بالغريبين فيما كانا يجلسان في دفء خيمته. ووقف تابعان خارج الباب في البرد، مستعدين للدخول عند طلبه. في الداخل، وحده إيلوك كان مسلحاً. وبالرغم من ذلك، شعر بتوتر دائم بوجودهما، ولم يكن هناك سبب واضح لذلك. وربما يكون للأمر علاقة بعدم ظهور الخوف على أي منهما. لم يكن أرسلان مندهشاً أو يشعر بالرهبة في الخيمة العظيمة التي كان إيلوك قد شيدها. كان قد سلم سيفه دون نظرة واحدة إلى الخلف. وعندما جال أرسلان ببصره على الأسلحة المعلقة على الجدران، كان إيلوك شبه واثق أنه رأى السخرية تعلو وجهه، والتي اختفت بالسرعة نفسها التي ظهرت بها. لم يلفت انتباهه سوى الطائر الأحمر، مما أثار انزعاج إيلوك، وأصدر أرسلان طقطقة من حنجرته، ومرر يده على الريش الذهبي الموشح بالأحمر على صدره. ولم يتحرك الطائر من مكانه، وشعر إيلوك بأن غضبه يتصاعد.

قال إيلوك بعد أن جلسوا وتناولوا الشاي: "قتل التتار ياسوجي قبل خمس سنوات تقريباً. من أنتما لتأتيا إلينا الآن؟"

فتح الشاب فمه ليجيب، لكن أرسلان لمسه برفق على ذراعه فسكن تماماً.

"كنا سنأتي إليكم قبل ذلك لو أنكم بقيتم في الشمال. مشيت وولدي أكثر من ألف يوم لنجدكم وأفي بالوعد الذي قطعته لوالدك".

قال إيلوك بسرعة: "لم يكن والدي. كنت قائد تابعيه". وشاهد الرجلين يتبادلان النظرات.

سأل أرسلان بلطف: "إذاً، لم يكن ما سمعناه شائعة حول هجرك لزوجة ياسوجي وأبنائه في السهل؟"

وجد إيلوك نفسه في موقف دفاعي من كلام الرجل الدقيق والهادئ.

أجاب: "أنا خان الذئاب. أحكمهم منذ أربع سنوات، وهم الآن أقوى مما كانوا عليه. وإذا كنت مديناً للذئاب، فهذا يعني أنك مدين لي".

مرة أخرى، شاهد أرسلان وابنه يتبادلان النظرات وتملك الغضب إيلوك.

قال: "انظر إليَّ عندما أتكلم إليك".

امتثل أرسلان، وواجه الرجل على عرش الخشب والجلد دون أن يقول شيئاً.

سأل إيلوك: "كيف حصلتما على سيفين طويلين مثل اللذين تحملانهما؟"

قال أرسلان بلطف: "إن تصنيعها مهنتي يا مولاي. كنت مرة صانع أسلحة نيمنز".

سأله إيلوك مباشرة: "هل تمّ نفيك". وتمنى لو أنه لم يشرب كثيراً قبل أن يأتيا. وشعر بأن أفكاره بليدة، وكان ما يزال يحس بالخطر من الرجل العجوز، رغم كلامه الهادئ. ولم يكن يتحرك كثيراً، وأدرك إيلوك أن تلك علامة على صلابته. ربما كان الرجل صانع سيوف، لكنه محارب أيضاً. وكان ابنه نحيلاً مثل حبل، لكنه لم يكن يتمتع بما يجعل الرجل خطيراً، وكان إيلوك يستطيع صرفه عن ذهنه.

أجاب أرسلان: "تركت الخان بعد أن أخذ زوجتي له".

اندفع إيلوك فجأة، بعد أن تذكر قصة كان قد سمعها قبل سنوات مضت.

قال وهو يعتصر ذاكرته: "سمعت بهذا. أنت من تحدى خان نيمنز؟ أنت من حنث بالقسم؟"

تنهد أرسلان وهو يتذكر واقعة قديمة مؤلمة.

"كان ذلك قبل وقت طويل، لكن نعم. كان الخان رجلاً قاسياً، ورغم أنه قبل التحدي، إلاّ أنه عاد أولاً إلى خيمته. تبارزنا وقتلته، لكن عندما ذهبت لأستعيد زوجتي، وجدت أنه قد قطع عنقها. إنها قصة حزينة، ولم أعد أفكر

بها منذ سنوات عديدة".

كانت عينا أرسلان داكنتين حزناً، ولم يصدقه إيلوك.

"سمعت بذلك حتى في الجنوب حيث الهواء حار ورطب. وإذا كنت الرجل نفسه، يقال إنك ماهر جداً بصنع السيوف. هل هذا صحيح؟"

هزّ أرسلان كتفيه لا مبالياً. "هناك مبالغة في القصص دائماً. ربما كنت كذلك ذات يوم. ابني أفضل مني الآن. ورغم ذلك لديَّ منفاخ وأستطيع بناء كير. ما زلت أحتفظ بمهاراتي ويمكنني صنع أسلحة الحرب. لقد التقيت ياسوجي عندما كان يصطاد مع نسره. وأدرك قيمة ما أفعله للعائلات التي يحكمها، وعرض أن يكسر التقاليد وأن نكون في عداد قبيلته". توقف عن الكلام للحظة، واسترجع تلك السنوات الغابرة. "كنت وحيداً ويائساً عندما وجدني. وكان شخص آخر قد سلبني زوجتي، ولم أكن أرغب بالحياة. وعرض أن يمنحني ملاذاً مع الذئاب إذا استطعت الخروج من هناك مع ابني. لقد كان رجلاً عظيماً، على ما أعتقد".

أجاب إيلوك منزعجاً من كيل المديح لياسوجي في خيمته: "أنا أعظم شأناً منه. وإذا كنت تتمتع بالمهارات التي تدّعيها، فإن الذئاب سيرحبون بك بكل شرف".

لم يجب أرسلان أو يشح ببصره بعيداً لوقت طويل. كان إيلوك يشعر بالتوتر يتصاعد في الخيمة، وكان عليه أن يرغم نفسه حتى لا يمد أصابعه إلى مقبض سيفه. وشاهد الطائر الأحمر ينظر إلى الأعلى وهو مغطى الرأس، كما لو أنه شعر أيضاً بالجو المشحون بينهم.

قال أرسلان: "قطعت وعداً لياسوجي وورثته".

تأفف إيلوك، وقال: "ألست الخان هنا؟ الذئاب تحت سلطتي، وقد عرضت نفسك على الذئاب. أقبل بكما، وسأقدم لكما خيمة، وأغناماً، والأمان".

مرة أخرى، أطبق الصمت وأصبح الجو مشحوناً حتى كاد إيلوك أن يطلق اللعنات. ثم أومأ أرسلان، وأحنى رأسه، وأجاب: "تمنحنا شرفاً عظيماً".

ابتسم إيلوك. "لقد تمّ حسم المسألة إذاً. لقد جئتما في وقت أحتاج فيه إلى أسلحة جيدة. سيكون ابنك واحداً من أتباعي إذا كان سريعاً باستعمال السيف كما تقول. وسنذهب إلى الحرب مع سيوف من صنعك. وصدقني عندما أقول إن الوقت قد حان لنهضة الذئاب".

في الظلمة الداكنة لخيمة جديدة، استدار جيلم إلى والده، وأبقى صوته منخفضاً.

"هل سنبقى هنا إذاً؟"

هزّ والده رأسه دون أن يراه في العتمة. ونظراً لقلقه من الآذان التي قد تسترق السمع، كان صوته بالكاد أعلى من صوت أنفاسه الخافتة.

"لن نبقى هنا، الرجل الذي يدعو نفسه خاناً ليس سوى كلب ينبح، ويداه ملطختان بالدماء. هل تراني في خدمة خان آخر مثل خان نيمنز؟ كان ياسوجي رجلاً شريفاً، رجلاً أستطيع العمل تحت قيادته دون أسف. لقد التقيته عندما كنت أجمع البصل البري، ولا شيء أحمله سوى سكين صغيرة. وكان باستطاعته سرقة كل ما لديَّ، لكنه لم يفعل ذلك".

قال جيلم وهو يبتسم في الظلام: "كنت ستقتله لو أنه حاول ذلك". كان قد شاهد والده يقاتل ويعرف ذلك، وحتى وهو أعزل، كان أكثر من ند لمعظم أولئك الذين يحملون السيوف.

أجاب أرسلان دون تباهي: "ربما كنت أستطيع مفاجأته، لكنه لم يكن يعرف ذلك. لقد كان يصطاد وحيداً، وشعرت أنه لا يرغب برفقة أحد، لكنه عاملني بشرف. وشاركني اللحم والملح". تنهد أرسلان وهو يتذكر ما حدث: "لقد أحببته. وأنا آسف لسماع أنه قد غادر السهول. إيلوك هذا ضعيف فيما كان ياسوجي قوياً. لن أضع سيوفي الجميلة بين يديه".

قال جيلم: "عرفت ذلك. لم تمنحه وعدك، وخمّنت ذلك. لم يسمع حتى الكلمات التي استعملتها. الرجل أحمق، لكنك تعرف أنه لن يدعنا نذهب".

قال أرسلان: "لا، لن يفعل. كان ينبغي أن استمع إلى الإشاعات حول الخان الجديد. ولم يكن ينبغي أن أعرضك للخطر".

تأفف جيلم. "إلى أين عساي أذهب يا والدي؟ مكاني إلى جانبك". وفكّر للحظة، ثم قال: "هل ينبغي أن أتحداه؟"

قال أرسلان بصوت خافت أجش: "لا! رجل يترك أطفالاً في السهول ليتجمدوا مع والدتهم؟ سيدعهم يضربون عنقك دون حتى أن يشهر سيفه. لقد ارتكبنا خطأ بقدومنا إلى هنا، لكن كل ما نستطيع فعله الآن هو ترقب فرصة للمغادرة. سأبني الكير باستعمال قطع آجر جديدة وسيستغرق هذا وقتاً. وسأرسلك إلى الخارج لجلب الخشب والأعشاب، وأي شيء يبعدك عن المخيم. تعرّف إلى أسماء الحراس، واجعلهم يعتادون على خروجك بحثاً عن المواد. تستطيع إيجاد مكان لتخزين ما نحتاج إليه، وعندما يحين الوقت، سأقوم بإخراج الفرسين".

أجاب جيلم: "سيرسل الحراس معنا".

ضحك أرسلان بصوت خافت وقال: "ليفعل ذلك. لم ألتقِ برجل لا أستطيع قتله. سنغادر هذا المكان في نهاية الصيف، ولن يكون الكير الذي سأتركه لهم مفيداً لصنع أي شيء عدا الخردة".

تنهد جيلم للحظة. وكان قد مرّ وقت طويل منذ أن شاهد خيمة من الداخل، ولم يكن جزء منه يستسيغ فكرة العودة إلى الليالي القاسية ومرارة فصول الشتاء.

قال: "هناك بعض النساء الجميلات هنا".

جلس والده عندما سمع تلك النبرة في صوت ولده. ولم يجب لبعض الوقت.

"لم أفكر بذلك يا بني. ربما أنا أحمق. لن أتزوج مجدداً، لكن إذا أردت البقاء وصنع مكانة لك بين هؤلاء القوم، سأبقى معك. لا أستطيع سحبك خلفي بقية حياتي".

مدّ جيلم يده في الظلام ليلمس ذراع والده.

"سأذهب إلى حيث تذهب، وأنت تعرف ذلك. وعهودك ملزمة لي بقدر ما هي ملزمة لك".

تأفف أرسلان، وقال: "عهد لميت لا يلزم أحداً. لو أن ياسوجي على قيد الحياة، أو أولاده، كنت سأذهب إليهم بقلبٍ صافٍ. لكن والحال على ما هي عليه الآن، ليس هناك معيشة لنا إلاّ هنا أو في السهول مع الذئاب الحقيقية. لا تجبني الليلة. نم وسنتكلم مجدداً في الصباح".

نهض إيلوك عند الفجر، وكان رأسه يضج ألماً، والعرق اللزج يسيل على جلده. وكان قد طلب المزيد من الشراب بعد أن ذهب أرسلان وجيلم إلى الخيمة، وعلى الأغلب أنه نام عندما كانت النجوم تتحرك في السماء. وشعر بأنه في حال يرثى لها، لكن عندما خرج من خيمته ونظر إلى المخيم، اندهش لرؤية أرسلان وابنه مستيقظين آنذاك. وشاهد إيلوك بعينيه الناعستين الوافدين الجديدين يتدربان معاً، وقد شهرا سيفيهما ويتحركان كما لو أنهما يرقصان.

كان عدد قليل من أتباعه قد تجمعوا حولهما آنذاك، وبعضهم يضحك ويطلق تعليقات قاسية. تجاهل الرجلان الآخرين كما لو أنهم غير موجودين، وبالنسبة لأولئك الذين يمتلكون خبرة في هذا المجال، كشف التوازن والرشاقة اللذان يتمتعان بهما مستوى عالياً من المهارة. كان أرسلان عاري الصدر وبدا جلده مليئاً بآثار الجروح. وحتى إيلوك كان متأثراً لمشاهدة العلامات، من الآثار البيضاء للجروح القديمة على ذراعيه إلى عقد الحروق ونصال السهام على كتفيه وصدره. لقد كان الرجل مقاتلاً، وعندما

استدار في الهواء، لم يشاهد إيلوك سوى بعض آثار الجروح على جلد ظهره الشاحب اللون. أقر إيلوك بتردد أن الاثنين مثيران للإعجاب، كان جسد أرسلان يلمع من العرق، رغم أنه لم يكن يتنفس بصعوبة. وحدّق إيلوك بدهشة محاولاً تذكّر المحادثة التي جرت في الليلة السابقة. ولاحظ أن الصمت أطبق على الأتباع عندما انتهى الوالد وابنه من تدريبهما. لم يكن يثق بهما. وفيما كان يقف ويحك جلده، شاهد اثنين من أتباعه يشتركان في محادثة مع أرسلان، وكان واضحاً أنهما يطرحان أسئلة حول التدريبات التي رأياها. تساءل إيلوك ما إذا كان الوافدان الجديدان جاسوسين، أو حتى قاتلين. فقد كان للرجل العجوز، على وجه الخصوص، هيئة قاتل. وكان إيلوك يعرف أن عليه إرغامهما على تقديم فروض الطاعة وإلاّ ستكون سلطته موضع تساؤل في مخيمه.

رغم هواجسه، إلاّ أن مجيئهما كان نعمة من أب السماء، في الوقت الذي كان يخطط فيه لحملة ضد أولخونوت. كان الذئاب يزدادون عدداً، وشعر بنسائم الربيع تعتمل في أحشائه ودمه، وتدعوه للحرب. سيحتاج إلى أسلحة جيدة لكل محارب شاب من العائلات، وربما كان أرسلان الرجل الذي سيقوم بتصنيعها. كان صانع الأسلحة لديهم سكيراً عجوزاً، ووحدها مهنته القيّمة هي التي منعتهم من تركه وحيداً في الثلج كل شتاء. ابتسم إيلوك في قرارة نفسه عندما خطر بباله أن أرسلان سيصنع دروعاً من السلاسل وسيوفاً ليزداد الذئاب قوة.

عندما كان إيلوك يحلم، كان حلمه يتعلق بالموت دائماً. كانت أكبر النساء سناً قد ألقت العظام في خيمته، وتوقعت بإراقة الكثير من الدماء في عهده. ربما كان أرسلان مرسالاً من الأرواح، كما تقول الأساطير. تمطّى إيلوك، وشعر بقوّته عندما طقطقت مفاصله واشتدت عضلاته بشكل أبهجه. كان قد أيقظ طموحه بعد موت ياسوجي، ولم يكن أحد يعرف إلى أين سيقوده.

بعد أربعة أيام من وصول أرسلان وابنه عاد تولي وباسان إلى خيام الذئاب، وهما يسحبان شخصاً منهك القوى خلفهما. انطلق إيلوك على صهوة جواده مع الآخرين وصرخ بصوت أجش عندما شاهد رجليه يعودان مع أسير حي. كان يرغب بأن يكون بكتر، لكن بطريقة ما كانت رؤية تيموجن يحدق به بعينين متورمتين أكثر عذوبة.

كانت الرحلة قاسية على تيموجن، لكنه وقف منتصباً ومستقيماً قدر ما استطاع فيما كان إيلوك يترجل عن فرسه. كان تيموجن يحلم بتلك اللحظة منذ أمسكا به، وبعد أن تحقق حلمه، جعله الإرهاق والألم خدراً فاقداً للحس.

قال: "هل سأحظى بحقوق الضيف، إذاً؟"

تأفف إيلوك، ولطمه بظاهر يده على وجهه وأوقعه أرضاً.

قال إيلوك وهو يكشف عن أسنان بيضاء قوية: "أهلاً بك في الديار يا تيموجن. لقد انتظرت وقتاً طويلاً لأراك ذليلاً". فيما كان يتكلم، رفع قدمه وضغط بها على وجه تيموجن ليندس في التراب. وزاد الضغط شيئاً فشيئاً، ولمع ضوء في عينه جعل المحاربين الآخرين يصمتون.

كان باسان من كسر حاجز الصمت: "مولاي، لقد مات يونجن. وهرب الآخرون".

بدا أن إيلوك يسحب نفسه من مكان بعيد جداً ليجيب، وابتعدت قدمه عن الشكل الصامت تحتها.

قال مندهشاً: "هل نجوا جميعاً؟"

هزّ باسان رأسه، وقال: "لقد مات بكتر. وفهمت أن الآخرين ما زالوا على قيد الحياة. لقد وجدنا مخيمهم وأحرقناه".

لم يأبه إيلوك لموت يونجن، فقد كان الرجل أحد الأتباع القدامى. وكان يعرف أن أياً منهم لا يستطيع حقاً رؤية إيلوك كخان. ومع مرور السنين،

كان يخفف ببطء من أعدادهم، ويستبدلهم بشباب آخرين، متعطشين للدماء والفتوحات.

قال موجهاً كلامه لتولي، وشاهد كيف أثار ذلك غروره: "أبليتما حسناً. تستطيعان انتقاء أحد جيادي وتناول عشرة أكواب من الشراب. يمكن أن تثملا، فقد فزتما بثناء الخان".

كان تولي سعيداً، وانحنى قدر ما يستطيع إلى الأسفل.

قال: "لقد شرّفتني يا مولاي". وألقى نظرة جانبية على تيموجن. "سأستمتع برؤيته ذليلاً".

"حسناً يا تولي. ستكون موجوداً. تحتاج الأرواح إلى دماء لتروي عطشها. سيكون تيموجن البقعة المضرجة بالدماء على الأرض التي تجلب لنا النصر والعظمة. لقد جاءنا صانع سيوف. وسيكون ابن الخان قرباناً لنا. وسيجلب لنا أب السماء نساء جميلات وألف قبيلة لتكون تحت أقدامنا. أشعر بذلك في دمائي".

كافح تيموجن ليقف على قدميه، وكان جسده منهكاً ويضج ألماً من رحلته، ويشعر بمعصميه كما لو أنهما في النار. بصق على الأرض، وفكّر بوالده فيما كان ينظر حوله.

قال لإيلوك ببطء: "لقد عرفت روث أغنام لها شرف أكبر منك". حاول ألاّ يفزع عندما اقترب منه أحد الأتباع، واستعمل مقبض سيفه ليضربه بشدة حتى يفقد وعيه. تطلب الأمر ثلاث ضربات قبل أن يسقط على الأرض الترابية وعيناه ما تزالان مفتوحتين.

استيقظ تيموجن مجدداً على مياه دافئة تغطي ملابسه ووجهه. لهث وكافح ليقف على قدميه، وصرخ ألماً عندما اكتشف أن أحد أصابعه مكسور وأن الدم قد تخثر على عينه اليمنى بحيث لم يعد يستطيع فتحها. كان يأمل بأن لا يكون قد فقد بصره، لكنّ جزءاً منه لم يكن يأبه بذلك. كان الظلام

دامساً، ولم يستطع أن يفهم في أي مكان يتواجد. وفوق رأسه، كان يستطيع رؤية أغصان تعترض ضوء النجوم البعيد؛ عندها ارتعش. لقد كان في حفرة، وكانت الأغصان المتشابكة بعيدة عنه في الأعلى بحيث لا يستطيع الوصول إليها إذا قفز. ووضع يده المعافاة على الجدار، واكتشف أنه رطب وزلق. وكانت قدماه مغمورتين بالماء وسمع فوقه ضحكات منخفضة.

تبع سماعه لتلك الأصوات الخافتة نزول سائل نتن عليه مما أثار هلعه. وكان الأتباع يتبولون في الحفرة ويضحكون فيما يقومون بذلك.

غطى تيموجن رأسه بيديه وقاوم حتى لا يقع في يأس مطلق. كان يعرف أن حياته يمكن أن تنتهي في هذه الحفرة القذرة بسبب الحجارة التي يتم رميها عليه لكسر ساقيه وذراعيه. لم تكن هناك عدالة في العالم، لكنه كان يعرف ذلك منذ موت والده. ولم تكن الأرواح تتدخل في حياة الإنسان بعد أن يولد، وإما أن يتحمل الإنسان ما يضعه العالم في طريقه، أو يتم سحقه.

ضحك الرجال عندما تركوا حجراً ثقيلاً على الأغصان المتشابكة. وعندما ذهبوا، حاول تيموجن أن يتضرع لبعض الوقت. ولدهشته، منحه ذلك قوة، وأسند نفسه إلى الجدران الطينية الرطبة حتى الفجر، لم يكن يستطيع فعل شيء سوى أن يغفو ويصحو من النوم. شعر كما لو أنه كان جائعاً ومتألماً بشكل دائم. وكان قد عاش مرة حياة سعيدة ذهب خلالها إلى التل الأحمر مع أشقائه. وتمسك بتلك الفكرة كما لو أنها ضوء في الظلام، لكنها لن تبقى معه.

قبل الفجر، سمع وقع خطوات تقترب، وانحنى شكل داكن اللون فوق الأغصان المتشابكة، وحجب معظم النجوم. فزع تيموجن متوقعاً جولة أخرى من إفراغ المثانة، لكن بدلاً من ذلك تكلم إليه الشكل الداكن.

جاءه صوت منخفض: "من أنت؟"

لم ينظر تيموجن إلى الأعلى، لكنه شعر بكبريائه يضطرم في صدره من

جديد، وقال: "أنا أكبر أبناء ياسوجي، خان الذئاب، الذين ما يزالون على قيد الحياة".

للحظة، شاهد أضواء لامعة في طرف عينيه، واعتقد أنه ربما يكون قد مات. وتذكر الكلمات القديمة التي كان والده يستعملها ورددها بتهور.

قال بقوة: "أنا الأرض، وهيكل التلال. أنا الشتاء. وعندما أموت، سآتي إليكم جميعاً في أبرد الليالي".

حدّق إلى الأعلى بتحدٍّ، مصمماً على عدم إظهار بؤسه. ولم يتحرك الظل، لكن بعد مضي بعض الوقت، تمتم بضع كلمات ثم اختفى، وسمح لضوء النجوم بالمرور إلى أسفل الحفرة.

أمسك تيموجن بركبتيه، وانتظر بزوغ الفجر.

تمتم: "من أنت لتقول لي ألاّ أيأس".

شاهد تيموجن الشمس تمرّ فوق رأسه، وكانت غيمة داكنة تخفي وهجها حتى أنه استطاع أن ينظر إلى القرص البرتقالي دون انزعاج كبير. كان القليل من الدفء الذي تسلل إليه مصدر راحة في ذلك الصباح بعد ليلة متجمدة. وعندما استعاد وعيه، كان أول شيء يفعله هو تحرير قدميه من خليط الجليد والطين، ثم حرّك أطرافه وفركها حتى بدأ دمه يسري فيها مجدداً. كان قد استعمل إحدى زوايا الحفرة لفضلاته، لكن الوضع بقي مزرياً، وبحلول اليوم الثالث، أضحى الهواء ثقيلاً ويسبب الغثيان. وطار الذباب عبر الأغصان المتشابكة فوق رأسه، وقضى تيموجن وقتاً في ملاحقتها بلطف وأبقى على حياتها أطول فترة ممكنة للتسلية.

كانوا يلقون إليه بالخبز ولحم الضأن، ويضحكون من محاولاته التقاط الأكياس قبل أن تقع في الوحل. وأرهقته معدته ألماً بعد أول مرة أكل فيها شيئاً وقع على الأرض، ولكن لم يكن أمامه سوى ذلك أو التضور جوعاً، وقبل ذلك على مضض بعد أن هزّ كتفيه لا مبالياً. كل يوم، كان يعدّ الظلال المتحركة التي تحجب الشمس وتلقي حجارة صغيرة في الطين؛ وأي شيء آخر ليحس بمرور الوقت وحالته البائسة.

لم يكن يفهم لماذا تركه إيلوك في الحفرة بدلاً من قتله بسرعة. وفي الساعات التي قضاها وحيداً، استغرق تيموجن في أحلام اليقظة حول إحساس إيلوك بالعار، أو أنه لم يجد في نفسه القدرة على إلحاق الأذى بابن ياسوجي. وربما تكون لعنة قد حلت به أو أصابه وباء لا براء منه. كان تخيل تلك الأشياء مسلياً لتيموجن، لكن في الحقيقة، ربما كان إيلوك في رحلة صيد، أو يخطط لشيء شرير، وكان قد اكتشف قبل وقت طويل أن العالم ليس كما يتخيله أبداً.

عندما تم رفع الحجر الكبير وتحريك الأغصان المتشابكة جانباً، شعر

بالراحة تقريباً لأنه أدرك بأن الموت سيدركه أخيراً. رفع تيموجن ذراعيه، وسمح لهم بأن يسحبوه إلى الخارج. كان قد سمع أصوات العائلات عندما تجمعت وتوقع حدوث شيء من هذا القبيل. ولم يتمالك نفسه عندما أمسك به أحد الرجال الذين سحبوه للخارج من إصبعه المكسور، وتركه يلهث متألماً.

سقط تيموجن على ركبتيه عندما تركوه. واستطاع أن يرى أكثر من مئة وجه حوله، وفيما كانت رؤيته تتضح شيئاً فشيئاً، بدأ يتعرف إلى الناس الذين كان يعرفهم من قبل. سخر بعضهم منه، وألقى الأطفال الصغار حجارة حادة عليه. وبدا عدم الارتياح على آخرين، وأرغمهم التوتر على التزام الصمت المطبق.

جهّز نفسه للموت، والنهاية. لقد كانت السنوات التي عاشها منذ هجرته القبيلة منحة، رغم قساوتها، وكان قد عرف الفرح والترح، وأقسم على التخلي عن روحه دون أن يمس أحد كرامته. كان والده ونسبه يستحقان ذلك، بغض النظر عن الثمن الذي سيدفعه.

جلس إيلوك على عرشه، الذي تمّ وضعه تحت أشعة الشمس لتلك المناسبة. وألقى تيموجن نظرة خاطفة عليه قبل أن يشيح ببصره بعيداً، مفضلاً أن ينظر إلى وجوه العائلات. ورغم كل ما عاناه، إلاّ أنه شعر براحة غريبة عندما شاهدهم جميعاً مجدداً. تجاهل تيموجن إيلوك، وأومأ برأسه، وابتسم لبعض الأشخاص الذين كان يعرفهم جيداً. ولم يجرؤ هؤلاء على رد تحيته، لكنه شاهد عيونهم تتعاطف معه.

صرخ إيلوك فجأة قائلاً للحشد: "كنت سأجلبه إلى هنا بشرف". وأحنى رأسه الضخم ودفع به بقوة إلى الأمام والخلف. "لكني وجدته يعيش مثل حيوان خارج نطاق نعمة بني البشر. لكن حتى الجرذ يستطيع أن يعض، وعندما قتل تابعي، طلبت جلب هذا المتجول الذي لا قبيلة له إلى هنا

لتطبيق العدالة. هل نمنحها له؟ هل ينبغي أن نثبت له أن الذئاب لم يصبحوا ضعفاء؟"

شاهد تيموجن العائلات فيما كان أتباع إيلوك يهتفون. وصرخ بعضهم موافقاً، لكنّ كثيرين آخرين وقفوا بصمت، وراقبوا الشاب الأشعث الذي كان يحدق بهم بعينيه الصفراوين. نهض تيموجن على قدميه ببطء. كانت رائحته كريهة من فضلاته وقد غطت لسعات الذباب والتقرحات جسده، لكنه وقف، وشد قامته، وانتظر ضربة السيف.

سحب إيلوك السيف المنقوش على قبضته المصنوعة من العظام رأس ذئب.

"لقد هجرت الأرواح عائلته يا ذئابي. انظروا إلى حالته الآن وصدّقوا ذلك. أين هو حظ ياسوجي؟"

كان ذكر اسم الخان القديم غلطة. وانحنت رؤوس كثيرة تلقائياً لدى سماعها الاسم، وتورّد وجه إيلوك غضباً. وأصبحت اللحظة فجأة غير مناسبة لقطع رأس تيموجن، وأعاد إيلوك السيف إلى غمده.

قال: "اربطوه إلى فرس، واسحبوه حتى تخرج الدماء منه، ثم ألقوه في الحفرة. ربما سأقتله غداً".

فيما كان إيلوك يراقب، امتطى تولي فرساً بنية اللون وربط حبلاً طويلاً إلى السرج. واندفع الحشد متحمساً، ولوى الجميع أعناقهم ليروا هذه الرياضة الغريبة، وحالما تمّ تقييد معصميه بالحبل، أدار تيموجن عينيه الشاحبتين نحو إيلوك لبضع لحظات، ثم بصق على الأرض، فكشّر إيلوك غضباً.

استدار تولي على السرج، وكانت تعابير وجهه مزيجاً من الاعتداد بالنفس والحقد.

قال: "ما السرعة التي تستطيع أن تجري بها؟"

قال تيموجن وهو يلعق شفتيه المشققتين: "لنكتشف ذلك". كان يشعر بالعرق يسيل تحت إبطيه. وكان قد استجمع شجاعته للوقوف أمام نصل السيف. وكانت فكرة التمزق إرباً خلف فرس تهرول أكثر مما يستطيع احتماله.

حاول أن يتمالك نفسه، لكنّ تولي دفع بعقبيه على جانبي فرسه وصرخ عالياً. واشتد الحبل على نحو مفاجئ، واهتز تيموجن عندما بدأ يجري، وكانت ساقاه الضعيفتان تترنحان آنذاك. قاد تولي فرسه بتهور، مستمتعاً بما يجري. ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى سقط تيموجن.

عندما عاد تولي أخيراً إلى المخيم، كان تيموجن كتلة ساكنة بلا حراك مقيدة بالحبل. وكان صعباً رؤية رقعة من الجلد لم تنكشط وتسيل منها الدماء. لم يبقَ من ملابسه سوى أسمال يعلوها الغبار الذي تطاير مع النسمات عندما قطع تولي الحبل أخيراً. ولم يكن تيموجن يشعر بشيء عندما سقط على الأرض. وكان أسود اليدين، فاغر الفم، واللعاب الأحمر يسيل من حيث عضّ لسانه. شاهد باسان واقفاً عند باب خيمة عائلته، وأضحى وجهه شاحباً وبدا مرهقاً عندما حدق تيموجن به.

خرج إيلوك ليلقي التحية على تولي، وألقى نظرة تشفّي على الجسد الممزق الذي كان يعتبره مهماً فيما مضى. كان سعيداً لأن الأمر لم ينتهِ بسرعة كبيرة. وشعر بفرح لتأخره في اتخاذ القرار، كما لو أن ثقلاً قد انزاح عن صدره. في الحقيقة، كان في أفضل حالاته، ودخل في نزال مصطنع مع تولي للحظة قبل أن يعيد التابع تيموجن إلى الحفرة في الأرض ويضع الأغصان في مكانها مجدداً.

جلس تيموجن على قذارة متجمدة، وهو بالكاد مدرك لما هو فيه. كان قد اكتشف سناً في الفضلات أسفل الحفرة، وكان كبيراً بما فيه الكفاية ليعرف أنه جاء من فك رجل. ولم يعرف المدة التي قضاها جالساً هناك

يحدق به. ولم يكن واثقاً ما إذا كان قد نام. وكان الألم واليأس قد أرهقا أحاسيسه لدرجة أنه لم يعد واثقاً ما إذا كان يحلم أم أنه مستيقظ. كانت كل عظمة في جسده تؤلمه، ووجهه متورماً جداً من الكدمات بحيث لم يكن يستطيع الرؤية إلاّ من خلال فتحة صغيرة في إحدى عينيه. كانت الأخرى ما تزال مغلقة بقشرة سميكة من الدماء المتجمدة التي لم يجرؤ على نزعها. في الواقع، لم يكن يريد أن يتحرك على الإطلاق مع خطر الشعور بالألم من عدد لا يحصى من السحجات والجروح. لم يكن قد شعر بمثل تلك الحالة المزرية في حياته أبداً، وكل ما يستطيع فعله أن لا يبكي أو ينتحب. حافظ على صمته، وتشبث بقوة إرادة لم يكن يعرف أنه يمتلكها حتى تلك اللحظة، وكانت تزداد في أتون الكراهية، وحثّ أعماقه على عدم الاستسلام، واكتشف أنه يستطيع التحمل والبقاء على قيد الحياة.

تمتم: "أين والدي؟ أين قبيلتي؟" وتبرّم وجهه من الأسى. كان قد عانى ليعود إلى الذئاب، لكنهم لم يهتموا به. لم يكن بالشيء القليل أن يتبرأ من آخر علاقاته أثناء الطفولة، والتاريخ المشترك الذي يجمعه بهم. تذكر حنان ولطف هورغز العجوز وعائلته، عندما كان وأشقاؤه وحيدين. ولوقت لم يستطع تحديده، وقف متداعياً يستند على جدار الحفرة، والأفكار تتحرك في ذهنه ببطء مثل جليد في نهر.

برز شيء فوق رأسه وارتعش خوفاً، وأفاق كما لو أنه كان يحلم. وكان جزء منه يدرك وجود ظل يتحرك على أرض الحفرة. ونظر بعينين مشوشتين إلى الأعلى وشاهد لدهشته الشديدة بأن الأغصان قد اختفت. وكانت النجوم ترسل ضياءها إلى الأسفل دون عقبات، ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى التحديق دون أن يكون قادراً على استيعاب ما يجري. لو لم يكن جريحاً، لربما حاول التسلق إلى الأعلى، لكنه بالكاد كان يتحرك. كان مؤلماً رؤية فرصة للهروب دون أن يكون قادراً على استغلالها. حاول جهده

التغاضي عن ألمه قدر المستطاع، لكنه كان يشعر بأن ساقه اليمنى ممزقة. وكانت الدماء ما تزال تسيل منه ببطء إلى الطين حوله، ولم يكن يستطيع القفز ولهذا لم يكن أمامه سوى التحليق إلى خارج الحفرة مثل طائر.

وجد نفسه يكاد يضحك بشكل هستيري عندما خطر بباله أن مخلّصه المجهول قد غادر، متوقعاً منه أن يجد طريق الخروج بنفسه. في الصباح، سيجد ذلك الأحمق أنه ما يزال في الحفرة، ولن يتركه إيلوك دون حراسة مجدداً.

نزل شيء ينزلق على الجدار، وابتعد تيموجن مرتعشاً، معتقداً أنها أفعى. كانت الأفكار السوداء تراوده عندما شعر بالنسيج الخشن لحبل مجدول وبداية الأمل. وفوقه، شاهد الظل يحجب النجوم وبذل جهده لإبقاء صوته منخفضاً.

قال: "لا أستطيع التسلق إلى الأعلى".

جاءه الصوت نفسه الذي سمعه في الليلة السابقة: "اربط نفسك بالحبل، لكن ساعدني عندما أسحبك".

بأصابع ثقيلة، ربط تيموجن الحبل حول خصره، متسائلاً مجدداً عن الشخص الذي سيخاطر بإثارة غضب إيلوك. ولم يكن يشك بأنه إذا اكتشفهما أحد فإن منقذه سينضم إليه في الحفرة وسيواجهان المصير نفسه.

فيما كان الحبل يحتك بظهره، تخبطت قدما تيموجن بغير هدى على جدار الحفرة. واكتشف أنه يستطيع أن ينشب بيديه على الجدار فيما كان يتسلق، رغم أن المحاولة كانت مثل تعريض الجلد للنار. شعر بصرخة تعتمل داخله حتى سالت دموع بشكل لاإرادي من طرفي عينيه. ورغم ذلك لم ينبس ببنت شفة. أخيراً، استلقى على الأرض المتجمدة في المخيم الصامت.

قال منقذه: "ابتعد قدر ما تستطيع. استعمل طين ضفتي النهر لإخفاء رائحتك. إذا نجوت، سآتي إليك وأحملك بعيداً". في ضوء النجوم، رأى

تيموجن منقذه أشيب الشعر ويتمتع بكتفين قويتين، لكن لدهشته، لم يعرف الرجل. وقبل أن يستطيع الرد، وضع الغريب حقيبة في يده، وسال لعاب تيموجن من رائحة البصل ولحم الضأن. وكانت الحقيبة دافئة وقبض عليها كما لو أنها أمله الأخير.

همس: "من أنت لتنقذني؟" كان جزء منه يصرخ أن ذلك ليس مهماً، وأن عليه أن يجري، لكنه لم يكن يتحمل أن لا يعرف.

أجاب أرسلان: "لقد قطعت عهداً لوالدك ياسوجي. اذهب الآن، وسألحق بك في فوضى البحث عنك".

تردد تيموجن. هل دبر إيلوك هذا ليجد موقع أشقائه؟ ولم يكن ليخاطر بإخبار غريب عن الصدع الصخري في التلال.

قال تيموجن: "عندما تغادر، سر خمسة أيام شمالاً، من المغيب إلى الشروق. ابحث عن تل مرتفع لتجدني. سآتي إذا استطعت وأصطحبك إلى عائلتي. سأبقى شاكراً لك إلى الأبد، أيها الرجل المجهول".

ابتسم أرسلان من شجاعة الشاب. وبطرق عديدة، ذكّر تيموجن صانع السيوف بابنه جيلم، إلاّ أن هذا الفتى كان يتقد غضباً يصعب إطفاؤه. ولم يكن ينوي الكشف عن اسمه، تحسباً من وقوع المحارب الشاب في الأسر وإرغامه على الكشف عنه. وتحت ناظري تيموجن، أومأ برأسه بعد أن اتخذ قراراً.

قال: "اسمي أرسلان. أسافر مع ابني جيلم. إذا نجوت، سنلتقي مجدداً". وأمسك بذراع تيموجن بشكل كاد معه أن يبكي من الألم المفاجئ الذي انتابه. وأعاد أرسلان الأغصان والحجر إلى مكانهما، ثم مشى مبتعداً، يتحرك مثل قط تحت ضوء النجوم في الجو المتجمد. لم يكن تيموجن يستطيع فعل شيء سوى أن يجر قدميه عندما سلك اتجاهاً مختلفاً، وركز على البقاء حياً والابتعاد قدر ما يستطيع قبل أن يبدأ البحث عنه.

في ضوء الفجر الرمادي الضارب إلى الزرقة، تحدى فتيان بعضهما البعض للذهاب إلى حافة الحفرة والنظر إلى الأسفل على الأسير. وعندما استجمعا الشجاعة أخيراً للنظر من فوق الحافة، لم يكن هناك أحد ينظر إليهما، فركضا إلى أبويهما ليطلقا إنذاراً.

عندما خرج إيلوك من خيمته، كان وجهه صارماً ويشعر بالإثارة. كانت أنثى النسر الأحمر تقبض على قطعة جلد حول ساعده الأيمن، وكان منقارها الداكن مفتوحاً بما يكفي لمشاهدة قطعة من لسانها الداكن اللون. وكان هناك كلبا صيد يقفزان حوله، وهما يشعران بمزاجه وينبحان بجنون.

صرخ إيلوك لمحاربيه عندما تجمعوا: "اخرجوا في فرق من ثلاثة رجال. سأسلك الطريق الغربية، وسيحصل من يعيده على رداء جديد وسكينين بقبضتين قرنيتين من يدي. تولي، ستأتي معي. امتطوا جيادكم يا إخواني، سنصيد اليوم".

راقب فيما كان الأتباع والمحاربون الأقل شأناً يشكلون مجموعاتهم، ويتفقدون معداتهم وتجهيزاتهم قبل أن يثبوا على جيادهم. كان إيلوك سعيداً عندما شاهد أن مزاجهم طيب، وهنّأ نفسه على قرار إعادة تيموجن إلى المخيم. وربما كانت رؤيته يتعرض للضرب والسحل حتى سالت الدماء منه إثباتاً أخيراً على أن أب السماء قد أحب خان الذئاب الجديد، ولم تكن هناك ضربة برق لمعاقبة إيلوك. وحتى أكبر عجوز سناً ينبغي أن تكون راضية عمّا حققه.

خطر بباله أن يتساءل كيف هرب تيموجن من الحفرة، لكن تلك كانت مشكلة سيتكفل بها عند عودته. ولم يكن الشاب يستطيع الابتعاد كثيراً مع الإصابات التي يعاني منها. وعندما يعيدونه، سيسأله إيلوك كيف تسلق الجدار الزلق، أو من ساعده. وتقطب جبينه من الفكرة لأن ذلك يعني أنه ربما يوجد خونة بين العائلات. وإذا كان ذلك صحيحاً، سيقتلعهم من

جذورهم.

لفّ اللجام حول قبضته وامتطى فرسه، مستمتعاً بشعور القوة في ساقيه. ونشرت أنثى النسر الأحمر جناحيها لتتوازن فيما كانت تستقر مكانها. كشّر إيلوك غضباً، وشعر بأن قلبه بدأ يخفق بسرعة. كان يستغرق بعض الوقت عادة ليصحو تماماً، لكن فكرة مطاردة رجل جريح جعلت دماءه تشتعل حماسة وكان مستعداً لجعل فرسه تهرول بسرعة. شعرت أنثى النسر الأحمر بذلك وطأطأت رأسها، وشدّت غطاء رأسها بمخلب طويل. سحب إيلوك القطعة الجلدية، فطارت أنثى النسر من على ساعده، واندفعت في الهواء تصرخ. راقبها تضرب الهواء بجناحيها لترتفع إلى الأعلى، وارتفعت يده دون ثقلها حتى بدت لمن يراها أنها تلقي تحية ترحيب أو وداع. في مثل ذلك الصباح، كان يشعر بالأرض. ونظر إيلوك حول المخيم وأومأ إلى تولي.

"تعال. لنرَ المسافة التي استطاع أن يقطعها".

ابتسم تولي لمولاه وسيده، ودفع بعقبيه على جانبي فرسه، وجعلها تندفع إلى الأمام. توقفت كلاب الصيد عن النباح لتجري إلى جانبهم، تواقة للحصول على طريدة. كان الهواء بارداً، وكانت الشمس تشرق، لكن المحاربين ارتدوا ملابس ثقيلة.

استلقى تيموجن بهدوء تام، وراقب ذبابة تسير على الطين أمام وجهه. وكان قد دهن جسده بطبقة من طين النهر لإخفاء رائحته، لكنه لم يكن يعرف ما إذا كان ذلك سينجح أم لا. قطع أطول مسافة يستطيعها في الظلام، رغم أنه كان في نهايتها يترنح وينشج مع كل خطوة. كان مستغرباً لحالة الضعف الشديد التي قد يصل لها عندما يكون وحده. لم يكن يمانع لسعات دموعه على جلده العاري عندما لا يكون أحد موجوداً ليراها. كانت كل خطوة تسبب له ألماً مبرحاً ورغم ذلك دفع نفسه للأمام، وتذكر كلمات هولن في الأيام الأولى التي قضوها في الصدع الصخري بين التلال. لن يكون

هناك منقذ، ولا نهاية لمعاناتهم إلاّ إذا وضعوها بأنفسهم. وتابع السير، معتمداً على الظلام لإخفاء حركته عن المراقبين على التلال.

في الوقت الذي بزغ فيه الفجر، كان يعرج مثل حيوان جريح، ويتحامل على نفسه ليتجاهل الألم والضعف. أخيراً، انهار على ضفة جدول، واستلقى يلهث هناك وقد وجّه رأسه نحو السماء الشاحبة التي تستقبل الشروق. أدرك أنهم سيكتشفون هروبه مع تباشير الفجر الأولى. ما هي يا ترى المسافة التي قطعها؟ شاهد شرارة الضوء الذهبية الأولى تلمس الأفق الداكن، وكانت قاسية على عينيه. وبدأ يدفع يديه المتورمتين في الطين، وصرخ عندما اهتز إصبعه المكسور مجدداً.

بقي مشوش الذهن لفترة، وكان ذلك مصدر راحة له. وانسال الطين بين أصابعه عندما كان يحاول أن يعصره ليغطي به جلده وملابسه. وكان بارداً، لكنه سبب له حكة قوية عندما جفّ.

وجد نفسه يحدق بإصبعه المكسور، ويشاهد المفصل المتورم والجلد الداكن اللون تحت الطين. وارتعش من دوار أصابه حينها، خاف فجأة من مرور الوقت بسرعة وهو على تلك الحالة من الإرهاق. وكان جسده في نهاية قدرته على التحمل، وكل ما أراد فعله هو أن يستسلم ويفقد الوعي. وفي أعماقه، وفي الصميم، كانت ما تزال هناك جذوة تريد أن تحيا، لكنها كانت قد خفتت في ذلك الشكل الطيني الصامت الذي تمرّغ على الضفة، ولم يعد يستطيع أن يدير رأسه ليشاهد الشمس تتحرك في السماء.

سمع أصوات كلاب تعوي من بعيد، وصحا من البرد والإرهاق. كان قد تناول حصة الطعام التي منحه إياها أرسلان قبل وقت طويل، وكان يتضور جوعاً من جديد. كانت الكلاب تبدو قريبة وخاف فجأة ألاّ يوفر طين النهر الكريه الرائحة الحماية له. ودفع نفسه على طول منحدر الضفة، واختبأ بين الأعشاب على الحافة فيما كان يعاني من التشنجات ويتحرك متخبطاً

وضعيفاً. اقتربت الكلاب التي تعوي منه، وبدأ قلبه يخفق بقوة مذعوراً من فكرة انقضاضها عليه، وتمزيق لحمه عن عظامه. لم يكن يستطيع رغم ذلك سماع أصوات حوافر الجياد، لكنه كان يعرف أنه لم يدفع بنفسه بعيداً كما ينبغي.

سحب نفسه إلى المياه، وأطلق أنيناً من اللسعة الجليدية، واتجه إلى أعمق نقطة كان القصب ينمو فيها بكثافة. وأرغمه الجزء الذي كان لا يزال يفكر فيه على تجاهل البقعة الأولى من الأرض. إذا شاهدوا أين كان يستلقي، سيفتشون المنطقة كلها بحثاً عنه.

خدّر النهر أسوأ آلامه، بالرغم من أن المياه كانت ما تزال ضحلة، واستفاد من التيار ليدفع بنفسه في اتجاه مجرى النهر على يديه وركبتيه، وأخذ يزحف على الطين الناعم. وشعر بكائنات حية تتحرك بين أصابعه، لكن البرد كان قد خدر كل أحاسيسه وقطع كل صلاته بالعالم. وكانوا سيرون الآثار التي تركها خلفه، وخطر له أن الأمر ميؤوس منه بالتأكيد، لكنه لم يتوقف، وأخذ يبحث عن مياه أكثر عمقاً.

غيّر النهر مساره عند زاوية تحت أشجار معمّرة تتدلى فوقه. وكان يوجد على الجانب الآخر ضفة من الجليد الأزرق التي تشكلت في الشتاء وبقيت في الظلال الدائمة دون أن تذوب. كانت المياه الجارفة قد عملت على تعرية الضفة تحتها، وبالرغم من أنه خاف من البرد اللاسع، إلاّ أنه اتجه نحوها دون تردد.

تساءل بالتباس عن المدة التي يستطيع البقاء فيها في ماء متجمد. وشقّ طريقه تحت حافة الجليد، وجثم في الطين دون أن يظهر شيء منه فوق السطح سوى عينيه وأنفه. وكان عليهم الخوض في الماء ليروه، لكنه لم يكن يشك بأن الباحثين عنه سيرسلون الكلاب على طول مجرى النهر.

كان البرد قد خدّر كل عضو فيه، وفكّر بأنه ربما يحتضر، وأطبق على فمه

بإحكام حتى لا تصطك أسنانه، ولبرهة من الزمن، نسي ما كان يحدث وانتظر ببساطة مثل سمكة، متجمداً دون أن تراوده أي أفكار. كان يستطيع رؤية أنفاسه مثل ضباب رقيق على سطح الماء الصافي فيما كان طين النهر يستقر حوله.

سمع نباح الكلاب المسعورة في مكان قريب، لكن تفكيره لم يكن نشيطاً بما فيه الكفاية ليشعر بالخوف. هل كانت تلك صرخة؟ فكّر أنها كذلك. ربما يكونون قد وجدوا الأثر الذي أحدثه على الطين. وربما عرفوا بأنه أثر رجل يسحب نفسه على بطنه مثل بهيمة. لم يكن يهتم آنذاك. وبدا أن البرد قد وصل إلى داخله، وأمسك بقلبه، وأبطأ حركته بقوة رهيبة. وكان يشعر بكل خفقة كأنها دفقة من الدفء في صدره، لكنها كانت تصبح أضعف مع كل لحظة تمر عليه.

سكن نباح الكلاب بعد فترة من الزمن، إلاّ أنه بقي حيث كان. في النهاية، لم يكن قراراً واعياً ذلك الذي دفعه للحركة، وإنما دفعة من الجسد الذي لم يكن يرغب بأن يموت. كاد يغرق عندما غشته موجة من الضعف وكافح لإبقاء رأسه فوق الماء. دفع نفسه ببطء إلى المياه الأكثر عمقاً ومكث فيها، وكانت أطرافه ثقيلة جداً ولم يستطع تحريكها إلاّ بصعوبة بالغة.

دفع نفسه إلى الضفة البعيدة، واستلقى على الطين الداكن مجدداً، وعندما وقف أفسد تشكيلة الأعشاب الناعمة وخرج من هناك أخيراً.

عندما أفاق، كان الوقت لا يزال نهاراً، لكن لم يكن هناك صوت بالقرب منه سوى صوت النهر نفسه، يندفع بجانبه مع الثلج القادم من الجبال. كان الألم قد أيقظه عندما تحركت الدماء في أطرافه، والتي نزّت إلى الماء من جلده المليء بالجروح. رمى بذراعه بعيداً عنه، وسحب نفسه إلى أبعد نقطة استطاع الوصول إليها بعيداً عن الماء، وكاد ينشج تقريباً من الألم الذي انتاب جسده الضعيف. وتدبّر رفع نفسه بما يكفي لينظر بين الأشجار

وشاهد أن لا أحد في الجوار.

كان تيموجن واثقاً أن إيلوك لن يستسلم. وإذا فشلت رحلة المطاردة الأولى، سيرسل القبيلة بأكملها للبحث عنه، وسيفتشون الأرض على بعد مسيرة يوم عن المخيم. وكانوا يعرفون أنه لن يستطيع المضي بعيداً، وأنهم سيجدونه أخيراً بكل تأكيد. استلقى وهو يحدق بالسماء، وأدرك أنه لا يوجد سوى مكان واحد يذهب إليه.

عند مغيب الشمس، كان تيموجن يمشي مترنحاً على قدميه، يرتعش بقوة كبيرة شعر بأنها ستمزقه إرباً. وعندما خذلته قدماه، زحف لبعض الوقت على الأعشاب. كان يمكنه رؤية مشاعل المخيم من مسافة بعيدة، وأدرك أنه لم يقطع مسافة كبيرة بسبب ضعفه. وربما كان معظم المطاردين قد سلكوا طرقاً أبعد للبحث عنه.

انتظر حتى غابت آخر أشعة الشمس وأصبحت الأرض مظلمة مجدداً وباردة. وبدا أن جسده يستطيع الاستمرار إلى الأمام لبعض الوقت، توقف برهة من الزمن ليتساءل عن المسافة التي يستطيع دفع أطرافه المكسورة المتضررة إليها. كان النهر قد خفف من تورم عينه واكتشف بكل راحة أنه يستطيع الرؤية بها قليلاً، بالرغم من أن كل شيء كان مشوشاً وكانت الدموع تسيل منها باستمرار، مثل المياه.

كان يخاف من كلاب المخيم، بالرغم من أنه كان يأمل بأن يخفف طين النهر من انبعاث رائحته. كانت فكرة قيام إحدى تلك الحيوانات الشرسة بالهجوم عليه تشكل مصدر رعب مستمر له، لكن لم يكن لديه خيار آخر. وإذا أوقف زحفه المتعثر أصلاً، سيتم العثور عليه فور انطلاق المطاردين في الصباح. وتابع الزحف، وعندما نظر إلى الخلف، كان متفاجئاً لرؤية المسافة الكبيرة التي قطعها.

كان يعرف الخيمة التي يريدها، وشكر أب السماء لأنها كانت قريبة من

طرف المخيم الهادئ. واستلقى على بطنه لفترة طويلة من الوقت، عند الحافة، يراقب أقل حركة. كان إيلوك قد وضع الحراس لمراقبة الحدود الخارجية، لكن كان ينبغي أن يتمتعوا بحدة بصر بومة لرؤية شكل مغطى بالطين يزحف مقترباً على الأرض المظلمة.

بعد وقت طويل، وصل تيموجن إلى حيث استطاع لمس جدار خيمة من اللباد، وشعر بخشونتها الجافة بشيء يشبه النشوة. وتحفزت كل أحاسيسه، وبالرغم من أن الألم عاد، إلاّ أنه شعر بالنشاط والانتعاش. وفكر بأن يحاول الدخول من تحت الجدار، لكنه سيكون مثبتاً بأوتاد، ولم يكن يريد أن يصرخ أحد خوفاً أو يعتقد أنه ذئب. ابتسم لنفسه من تلك الفكرة. لقد كان ذئباً أشعث، وقد تسلل من التلال بحثاً عن الدفء والحليب. كانت الغيوم تحجب النجوم، وفي الظلام، وصل إلى باب الخيمة الصغير وفتحه ثم دخل، وأغلقه خلفه ووقف يلهث في الظلام الداخلي الدامس.

سمع امرأة تسأل: "من هذا؟" وإلى يساره، سمع شنشنة أغطية وصوتاً آخر أعمق.

قال باسان: "من هناك؟"

كان تيموجن يعرف أنه سيمد يده ليمسك سكيناً.

همس: "تيموجن".

أطبق الصمت عندما قال اسمه وانتظر، وكان يعرف أن حياته على المحك. سمع ضرب الصوان على الفولاذ، وأضاءت الشعلة وجوههم للحظة. وكانت زوجة باسان وكل أبنائه مستيقظين، ولم يكن تيموجن يستطيع فعل شيء سوى التحديق بهم ببلاهة فيما كان باسان يشعل سراج زيت ويخفف الشعلة لتصبح بالكاد مثل جمر متوهج.

قالت زوجة باسان: "لا يمكنك البقاء هنا".

رأى تيموجن الخوف في وجهها، لكنه استدار باستغاثة صامتة إلى تابع

والده وانتظر.

هزّ باسان رأسه، خائفاً من الشكل المتثاقل الذي يقف منحنياً في منزله.

قال باسان: "إنهم يبحثون عنك".

أجاب تيموجن: "خبئني إذاً، ليوم، حتى ينتهي البحث. أطالب بحقوق الضيف". ولم يسمع جواباً، وفجأة انهار بعد أن تلاشت آخر قواه. وتهاوى على ركبتيه ورأسه يتدلى إلى الأمام.

سمع باسان يقول لزوجته: "لا نستطيع طرده. ليس ليلقى حتفه".

قالت بصوت ارتفعت نبرته: "سيقتلنا جميعاً".

رأى تيموجن ببصره المشوش باسان يعبر الخيمة إليها، ويمسك بوجهها بين يديه.

قال لها: "جهّزي له الشاي، وابحثي عن شيء يأكله. سأفعل هذا من أجل والده".

لم تجب، وتحركت إلى حيث يوجد القدر، وبدأت بإذكاء النار تحت الموقد الحديدي الصغير، لكن تعابير وجهها كانت قاسية. وشعر تيموجن بنفسه يرتفع بين ذراعي باسان القويتين ثم غلبه النوم.

لم يفكر إيلوك بتفتيش خيام العائلات، وتلاشى مزاجه الطيب الذي ظهر عليه في البداية بشكل ملحوظ عندما انقضى اليوم الثاني ثم الثالث دون دليل على مكان تيموجن. وفي نهاية اليوم الرابع، عاد باسان إلى تيموجن ليخبره بأن أرسلان وابنه قد اختفيا أيضاً. كانا قد شقا طريقهما شمالاً في ذلك الصباح مع أحد الأتباع، لكن لم يعد أحد منهم مع غياب الشمس، وثار إيلوك غضباً. وأرسل رجالاً إلى الخيمة التي منحها لصانع السيوف واكتشفوا أن معداته الثمينة قد اختفت معه. لم يكن أحد يتوقع عودة التابع، وكان يمكن سماع عويل عائلته طوال الليل. تغيّر مزاج الذئاب، وضرب إيلوك رجلاً حتى فقد الوعي عندما تساءل عن صحة قراره بإرسالهم للبحث

مجدداً.

بالكاد استطاع تيموجن تذكر أول يومين. وكان قد أصيب بالحمّى، والتي ربما التقطها من هواء الحفرة النتن. كان النهر المتجمد قد نظّف جلده، وربما ساعد ذلك في إنقاذه. واعتنت زوجة باسان بجراحه بمهارة فائقة، وغسلت القذارة الملتصقة به، ومسحت الدماء والقيح بقطعة ملابس بعد أن غمستها في شراب مغلي. وكان يتألم عندما تلمسه، وتذكّر أنها وضعت يدها على فمه لتكتم الصوت.

كان باسان يغادرهم لينضم إلى الرجال الآخرين كل صباح، بعد تحذيرات صارمة لولديه بعدم التفوه بكلمة لأي شخص. كانا يراقبان تيموجن بفضول البومة، وهما خائفان من الغريب الذي لم يقل شيئاً وجسده مثقل بمثل تلك الجراح الشنيعة. كانا كبيرين بما فيه الكفاية ليفهما أن حياة والدهما تعتمد على صمتهما.

أخذ إيلوك يسرف في الشراب أكثر وأكثر كلما عادت فرق البحث خالية الوفاض يوماً بعد آخر. في نهاية الأسبوع، أصدر أمراً وهو ثمل للعائلات بأن تتابع سيرها شمالاً، مخلّفين الحفرة وحظهم السيىء وراءهم. في تلك الليلة، أوى إلى خيمته مع أصغر شابتين في القبيلة، ولم تجرؤ عائلتاهما على التذمر. تولى باسان نوبة حراسة متأخرة من منتصف الليل وحتى الفجر، وكان يرى فرصة لإخراج تيموجن من المخيم أخيراً. وكانت العائلات منزعجة وقلقة، وكان يعرف أن هناك عيوناً ستراقب وتصغي السمع حيثما تحرك. وبالرغم من أن الموقف كان خطيراً، إلاّ أنهم سيكتشفون تيموجن عندما يتم تفكيك الخيام، لهذا كان ينبغي القيام بذلك تلك الليلة أو لا شيء على الإطلاق.

كان صعباً القيام بأي شيء في مجتمع القبيلة المتماسك بشدة دون أن يلاحظه أحد. انتظر باسان حتى اقترب منتصف الليل، ورفع اللباد عن قمة

الخيمة، وحدّق بالنجوم فيما كانت تتحرك في السماء فوقه. ولم يكن أولئك الذين بقوا مستيقظين ليشتبهوا بتابع موثوق يخرج ليبدأ جولته في الحراسة، بالرغم من أن باسان كان يتعذّب نفسياً لأنه سيمنح تيموجن أحد جياده. وكان لديه أحد عشر منها، ويحبها كلها مثل أولاده. في النهاية، اختار فرساً سوداء صغيرة وأحضرها إلى باب خيمته، ووضع في خرج السرج ما يكفي من الطعام لإبقاء تيموجن على قيد الحياة خلال الرحلة.

وقف تيموجن في الظلام الدامس وبذل جهده ليجد كلمات تعبر عن امتنانه. ولم يكن لديه شيء يمنحه حتى للولدين، وشعر بالخجل من العبء والخوف الذي جلبه إلى خيمة باسان. لم تعامله زوجة باسان بحرارة، وبدا أن ابن باسان البكر قد فقد أعصابه وتملكه الرعب عندما سمع من كان في خيمتهم. واستجمع الفتى الصغير شجاعته بشكل ظاهر للعيان عندما أخبره باسان بأن الأمر سيتم تلك الليلة، واقترب من تيموجن بكل ثقة بالنفس يستطيع إظهارها فتى في الثانية عشرة من عمره. ولدهشة تيموجن، جثا الفتى على ركبة واحدة، وأمسك بيد تيموجن ووضعها فوق رأسه، واستطاع الأخير أن يتحسس خصلة شعر فروة رأسه بيده الخشنة.

وجد تيموجن نفسه غير قادر على الكلام من المشاعر التي اجتاحته نتيجة إيماءة الفتى البسيطة، وتمتم: "والدك رجل شجاع. احرص على أن تتبع خطاه".

أجاب الفتى: "سأفعل يا خاني".

حدّق تيموجن به، وتمتمت والدة الفتى بهمس. وعند الباب، سمع باسان الكلام المتبادل وهزّ رأسه، منزعجاً. وقبل أن يستطيع تيموجن الرد، عبر التابع الخيمة إلى حيث يوجد ابنه ورفعه على قدميه.

"لا تستطيع أن تقطع عهداً لهذا الرجل، أيها الصغير. وعندما يحين الوقت، سترهن سيفك وحياتك لإيلوك، كما فعلت". ولم يستطع النظر في

عيني تيموجن عندما كان يتكلم، لكن الفتى الصغير قاوم قبضة والده القوية وأفلت منها. وابتعد عنه، وانطلق إلى حضن والدته، وهو يراقب كليهما من تحت ذراعها.

تنحنح تيموجن.

تمتم وهو يراقب أنفاسه المتجمدة مثل سحابة دخان: "إن روح والدي تراقبنا. لقد أكرمته بإنقاذي".

قال باسان مرتبكاً: "امشِ معي الآن. لا تتكلم إلى أحد وسيعتقدون أنك أحد الحراس على التلال". فتح الباب قليلاً، وخرج تيموجن منه، وفزع من الألم الذي شعر به بسبب جروحه. وكان يرتدي سترة نظيفة وغطاء سميكاً للساقين تحت رداء شتوي مبطّن يخصّ باسان. وتحت الطبقات السميكة، كانت أسوأ جراحه مضمّدة بشكل جيد. كان بعيداً عن الشفاء، لكنه تاق لأن يجلس على السرج. وكان سيجد قبيلته بين المتجولين في السهول، ولن يمسك به الذئاب مجدداً.

مشى باسان ببطء عمداً عبر المخيم، ووثق بالظلام لإخفاء هوية رفيقه إذا تجرأ أحد على الخروج في البرد. كان هناك احتمال بأن يلاحظ أحد عودته دون فرسه، لكن لم يكن لديه خيار آخر. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى تركا الخيام خلفهما دون أن يعترضهما أحد. مشى الرجلان معاً بصمت، يقودان الفرس من لجامها حتى أصبح مخيم الذئاب بعيداً خلفهما. كان الوقت متأخراً وعلى باسان أن يكدح للوصول إلى موقعه دون أن يلفت الأنظار. وعندما اختفيا في ظلال إحدى التلال، دفع باللجام في يدي تيموجن.

قال وهو يشير إلى حزمة مربوطة على السرج: "قمت بإخفاء قوسي الثاني بقطعة من القماش ووضعته هنا. يوجد القليل من الطعام، لكنني تركت لك سهمين معه، عندما تحتاج للصيد. قدها سيراً على الأقدام حتى تبتعد

كثيراً، وإلاّ سيسمع المراقبون وقع الحوافر. ابقَ في ظلال التلال أطول فترة ممكنة".

أومأ تيموجن برأسه، ومدّ يده ليمسك بذراع التابع. لقد كان الرجل الذي أسره مع تولي، ثم أنقذ حياته وخاطر بعائلته للقيام بذلك. ولم يكن يفهمه، لكنه كان ممتناً.

قال: "ترقّبني في الأفق يا باسان. لديَّ حساب أصفّيه مع الذئاب".

نظر باسان إليه، ورأى مجدداً العزيمة التي ذكّرته بياسوجي عندما كان شاباً.

قال وهو يرتعش فجأة: "هذا كلام والدك".

نظر إليه تيموجن للحظة بدت طويلة، ثم أمسك به من كتفه.

قال: "عندما تراني مجدداً، أعدك بأن عائلتك ستكون بأمان". ثم أصدر صوت طقطقة من حنجرته لحثّ الفرس على المشي مرة أخرى. وراقبه باسان يذهب قبل أن يدرك أن الوقت قد تأخر، وبدأ يجري. في الوقت الذي عبر فيه تيموجن ظل التل، لم يكن هناك سوى باسان وحده ليراه، وكان بوقه سيظل صامتاً.

جلس كشيون وحيداً على حافة منحدر صخري يتناول طعام الإفطار المكون من كسرات من الخبز الجاف وآخر قطعة من اللحم المقدد. وكان قد استطاع بالتعاون مع خاسار استعادة معظم القطيع الذي بعثره تولي، وذبحت هولن وقدّدت ما يكفي لقوته أياماً عديدة أثناء ترقبه وحيداً عودة شقيقه. وتضاءل مخزونه من الطعام رغم محاولاته الاقتصاد في الأكل، وكان يعرف أن عليه اصطياد حيوانات الغرير والطيور في اليوم التالي إذا لم يكن يريد أن يتضور جوعاً.

فيما كان يلوك اللحم المقدد، وجد نفسه يشتاق لعائلته، وتساءل إذا كانوا ما يزالون على قيد الحياة. وكان يعرف مثل أي شخص آخر أن عائلة متجولين لن تكون منيعة في السهول، حتى وإن تحركت ليلاً. وكما هاجم أشقاؤه راعيين مرة، قد تتعرض عائلته لهجوم يهدف للحصول على القطيع الصغير أو الجياد التي يمتلكونها. ولم يكن يشك بأن خاسار سيدافع بشكل جيد عن نفسه، لكن ضد محاربين أو ثلاثة، قد لا يكون هناك سوى نتيجة واحدة.

تنهد كشيون لنفسه، متضايقاً من الطريقة التي أدار بها العالم وجهه لهم جميعاً. عندما كان تيموجن موجوداً، كان ينتابهم أمل بشيء أكثر من مجرد حياة يقضونها بالخوف من كل غريب. إلاّ أن غياب شقيقه جعله أكثر تحملاً للمسؤولية نوعاً ما، وأخذ يتذكر كيف كان الحال يوماً عندما كان ياسوجي على قيد الحياة. خاف كشيون عليهم جميعاً وتواردت إلى ذهنه صور دموية مخيفة مع مرور الأيام.

كان صعباً البقاء وحيداً. وكان كشيون قد شعر بغرابة موقفه عندما قادت هولن الأولاد الثلاثة الآخرين بعيداً نحو الغرب. وكان قد وقف يحرس ليالٍ عديدة عندما كان طفلاً صغيراً، لكن ذلك كان دائماً برفقة

محارب أكبر سناً حتى يتأكد أنه لن يغط في نوم عميق. حتى تلك الساعات الطويلة لم تجعله مستعداً للوحدة المخيفة في السهول الخالية. كان يعرف أن هناك احتمالاً بأن لا يرى عائلته ووالدته وتيموجن مجدداً أبداً. كان بحر الأعشاب شاسعاً بشكل يفوق التصور، وإذا كانوا أمواتاً، ربما لن يجد حتى عظامهم.

بعد انقضاء الأيام القليلة الأولى، وجد أنه يرتاح عندما يتكلم إلى نفسه بصوت عالٍ فيما يجوب التلال البعيدة بعينيه، فقط ليستمع إلى صوت ما. وكان المكان الذي اختاره مرتفعاً في الصدع الصخري بالقرب من المكان الذي قتل فيه بكتر مع تيموجن، قبل وقت طويل. كان ما يزال يرتعش عندما يعبر تلك البقعة فجر كل يوم في طريقه صعوداً إلى مكان المراقبة. وقال لنفسه إن روح بكتر لن تبقى هناك، لكن معرفته بالشعائر كانت ضبابية. وتذكر كشيون تشاغاتي العجوز الذي كان يتحدث عن أكثر من روح واحدة. كانت إحداها ستطير مع الرياح في الأعلى، لكن ألم يكن جزء منها مرتبطاً بالأرض؟ لم يكن يمانع أن يسلك الطريق في ضوء شمس الصباح، لكن عندما كان يغادر موقعه في وقت متأخر جداً ويخيم الظلام في طريق عودته، كان من السهل تخيل بكتر يقف هناك في ظلال الأشجار، شاحباً وتبدو عليه علامات الموت. وارتعش كشيون خوفاً من الفكرة. كان يبدو أن ذكرياته عن بكتر قد تجمدت في تلك اللحظة عندما أطلق سهماً اخترق ظهره. لم يكن يتذكر ما حدث قبل ذلك سوى بشكل ضبابي، كما لو أنها حياة مختلفة، وتذكر خوفه من أن يسحب بكتر بطريقة ما السهم ويستدير نحوه غاضباً. كان العالم قد تغير عندما وقع بكتر على الأوراق الرطبة، وكان كشيون يتساءل أحياناً ما إذا كان ما يزال يدفع ثمن ما حدث في ذلك اليوم. وكان تيموجن قد قال إن الأرواح تمنح المرء ما يكفي من الفطنة والقوة ليحيا ثم لا تهتم به، لكن جزءاً من كشيون كان يخاف من وجود ثمن لا بد

من دفعه مقابل كل عمل وحشي. وبالرغم من أنه كان طفلاً حينها، لكن كان بمقدوره أن يرفض اتباع خطى تيموجن.

ضحك بصوت خافت عندما راودته تلك الفكرة. لم يكن أحد من الأشقاء يستطيع الوقوف بوجه تيموجن. وكان فيه من والدهم أكثر مما أدركه كشيون في الأيام الأولى. أصبح ذلك أكثر وضوحاً عندما شاهد كشيون تيموجن يساوم ويقايض عائلات المتجولين مثل هورغز العجوز وزوجته. ورغم سنه، لم يكن أحد يستطيع أن يستخف به، وإذا كان قد لقي حتفه فإن كشيون سيكرم ذكراه بأن يحاول السير على الدرب نفسه. كان سيجد والدته ويبني ملاذاً آمناً في مكان ما يستطيع فيه الحصول على ماء نظيف ومرعى جيد. وربما سيجدون قبيلة صغيرة يمكنها استقبال عائلة بين صفوفها. وتستطيع هولن أن تتزوج مجدداً، وسيتمتعون بالدفء والأمان من جديد.

كان ذلك حلماً، وبالرغم من أنه عرف ذلك، إلاّ أنه قضى عدّة ساعات يفكر بأحلام اليقظة تلك، ويتخيل شيئاً يشبه طفولته حول خيام الذئاب مع جياد يتسابق عليها تحت الشمس. ولم يكن يقضي كل يوم يفكر في المستقبل عندها، وحنّ إلى حقائق حياته القديمة، والدرب الواضح أمام قدميه. على التل العالي والرياح تعصف بشعره، اشتاق إلى ذلك كله، وانتابه الحزن مجدداً على تيموجن. كان الجرح في ساق كشيون ما يزال يؤلمه، لكن هولن كانت قد عالجت الثقب الأحمر، وأخذ يحكه عندما جلس، وأصغى إلى صوت النسمات.

كان كشيون واثقاً أن تيموجن لم يهرب من مطارديه. وتذكر تولي عندما كان فتى شقياً كثير البصاق، والذي يلاحقه الفتية الآخرون ويضايقونه عندما لا يكون أحد ينظر إليهم. أخذ كشيون يفرك يديه بردني ردائه عندما تذكر بأن تيموجن في قبضته. كانت عائلة ياسوجي قد قاست ظروفاً صعبة،

ولا يستطيع أحد القول إنهم لم يكافحوا. مرّت عليهم أوقات مثل صبيحة وصول تولي بدأوا يأملون فيها فعلاً بحياة طبيعية. لكن آنذاك، كان كل ذلك قد اختفى، وبالرغم من أنه بقي ينتظر، إلاّ أنه لم يكن يعتقد أنه سيرى تيموجن يعود إلى الصدع الصخري بين التلال. إذا كان أب السماء عادلاً، سيجعل إيلوك وأتباعه يعانون، لكن ذلك لم يكن سوى حلم أيضاً. لم تكن هناك عدالة في العالم، فيما ينجح الأشرار في نيل مرادهم. كافح كشيون حتى لا يقع في اليأس فيما كان يلف رداءه حوله، لكن كانت هناك أوقات تغمره فيها مشاعر كراهية قاسية مثل تيموجن تماماً. ينبغي أن تكون هناك عدالة، وينبغي أن يكون هناك انتقام.

انتهى من تناول آخر قطعة من اللحم، ودسّ أصابعه في الحقيبة القماشية بحثاً عن بعض القطع المفتتة الباقية. كان متعباً ومتيبساً من الجلوس لفترة طويلة. وفي مكان ما إلى الغرب، ربما كانت هولن تتعرض للمخاطر دون أن يكون موجوداً ليقاتل دفاعاً عنها ويموت معها. ووحده العناد أبقاه في موقعه فيما كان ضوء النهار يتلاشى.

شاهد تيموجن رجلين على مسافة بعيدة، في مكان مرتفع على تل. وكان قلبه يأمل بأن يكونا أرسلان وابنه، بالرغم من أنه تأكد أن قوسه مشدود وجاهز. وإذا كانا عدوين، أقسم أنه سيطهو قلبيهما على نار هادئة. ولن تمنعه جراحه عن إطلاق السهام من قوس باسان، ولم يكن في مزاج يسمح له بالتساهل بعد كل الذي عاناه.

بالرغم من أن خثرات جروحه كانت قد اختفت، إلاّ أنه كان يقود الفرس منذ خمسة أيام، من مغيب الشمس إلى مشرقها، كما طلب منه أرسلان أن يفعل. وكان الصدع الصخري في التلال على بعد أميال عن ذلك المكان المهجور، لكنه كان يعرف آنذاك أنه يستطيع الوثوق برجلين هجرا إيلوك. لم يكن خان الذئاب الجديد ماكراً بما يكفي ليضع خطة بعيدة المدى إلى هذا

الحدّ، بالرغم من أن ياسوجي كان يستطيع ذلك. حجب تيموجن عينيه عن الشمس الغاربة ليراقب الرجلين يقودان فرسيهما نزولاً عن سفح تل شديد الانحدار، ويميلان إلى الخلف على السرجين ليحافظا على توازنهما. وهمهم لنفسه عندما شاهد أحدهما يترجل عن فرسه ويمشي وحيداً نحوه، ويرفع يديه. كان المعنى واضحاً ورفع تيموجن قوسه رداً على ذلك. لا يمكن أن يكون سوى أرسلان.

دفع تيموجن فرسه لتهرول إلى الأمام، وحافظ في الوقت نفسه على قوسه جاهزاً. ربما يكون الرجل الذي أنقذه من الحفرة، لكن سينقضي وقت طويل قبل أن يثق تيموجن بأي شخص مجدداً. توقف وترك أرسلان يعبر الخطوات الأخيرة بينهما، وشاهد خطوات الرجل الواثقة على أعشاب الربيع. ومشى مثلما كان ياسوجي يمشي، وجلبت الذكرى معها ألماً مفاجئاً لم يصل إلى وجه تيموجن أبداً.

قال أرسلان وهو يبتسم بلطف عندما اقترب: "كنت أعرف أنك ستهرب منهم. لم أتوقع مجيئك قبل عدة أيام أخرى، بالرغم من أنني أشاهد أنك وجدت لنفسك فرساً جميلة".

قال تيموجن بتحفظ: "كانت هدية من رجل يتذكر والدي. لكن أخبرني، ما الذي تعتقد أنه سيحدث هنا؟"

طرفت عينا أرسلان، وضحك بصوت خافت.

"أعتقد أنك ستلوح لابني لينضم إلينا، وسنجلس ونأكل سوية. وبما أن هذا مخيمنا، أمنحك حقوق الضيف".

تنحنح تيموجن، وكان مديناً للرجل بالكثير، لكنه لم يكن مرتاحاً للعبء الذي يحمله نتيجة ذلك.

سأل: "لماذا ساعدتني؟"

نظر أرسلان إليه، وشاهد الكدمات التي لم تختفِ آثارها بعد والطريقة

التي يجلس فيها الشاب مائلاً إلى الأمام على السرج. وفكّر بأن ياسوجي كان ليفخر بمثل هكذا ابن.

"قطعت عهداً لوالدك يا تيموجن. أنت أكبر أبنائه الذين ما زالوا على قيد الحياة".

لمعت عينا تيموجن عندما فكّر في بكتر. هل جاء هذا الرجل ليساعد شقيقه الأكبر؟ ولم يستطع تيموجن سوى أن يتعجب من تحولات القدر.

قال: "أنت لا تعرفني".

سكنت حركات أرسلان تماماً.

"لا أعرف. فكّرت في التغاضي عما يحدث فيما تتعفن أنت في الحفرة، لكنني لست الرجل الذي يغض الطرف عما يحدث. حتى لو أنني لم أكن قد التقيت والدك، لكنت أخرجتك من هناك".

تورد تيموجن خجلاً، وقال وهو يشيح ببصره إلى التلال: "أنا... ممتن لما قمت به".

قال أرسلان: "لن نتحدث بالأمر فقد أصبح من الماضي، أما الآن فسأقول إنك لا تعرفني، لكنك ستعلم أن كلمتي حديد".

ألقى تيموجن نظرة خاطفة على الرجل بحثاً عما يوحي بالسخرية. وبدلاً من ذلك، وجد ثقة مطلقة بالنفس.

تابع أرسلان قائلاً: "كان والدك معتاداً على قول ذلك، نعم. هذا ما شدّني إليه، وقد صدقته. وإذا كنت نصف الرجل الذي كان عليه، سأقطع وولدي عهداً لك وننذر نفسينا لاتباع خطاك".

حدّق تيموجن بالرجل، وشعر بالقوة الكامنة به. لم يكن يحمل أسلحة، لكن الفرس كانت قد ابتعدت ثلاث خطوات عن أرسلان فيما كانا يتكلمان، ويبدو أنها كانت قلقة مثل فارسها من ضارٍ يجيد السيطرة على نفسه. تساءل إذا كان أرسلان قد فكّر بوجود حشد من المحاربين ينتظرون عودة

تيموجن. وخطر له أن رجلاً يربط نفسه بكلمته ربما يبقى وفياً لها حتى بعد أن يكتشف أنه لا يوجد شيء سوى بعض الأشقاء النحيلين الذين يختبئون في التلال. كان الإغراء موجوداً، لكن تيموجن تجاهله، ولم يكن يستطيع أن يكذب على الرجل الذي أنقذ حياته.

قال تيموجن: "ليس لديَّ قبيلة، أو ثروة أو أي شيء آخر سوى عائلتي التي تختبئ في مكان ما. ليس لديَّ ما أقدمه لك، أو لولدك. وإذا اخترت متابعة الطريق، سأعود إليهم بمفردي وأبقى شاكراً لك لمساعدتك".

قال أرسلان بلطف: "قلت بأنك الأرض وعظام التلال. أعتقد أنك كنت تتفوه بكلمات والدك. سأتبعك".

قال تيموجن وقد غضب فجأة: "استدعِ ابنك لي إذاً". لم يكن يريد أن يأمل، لكنه كان قد تغير في الأسر. لم يعد مجرد البقاء على قيد الحياة كافياً بالنسبة له. نظر إلى الأسفل على أرسلان وتخيل انتشار النيران والدماء عبر القبائل والتي ستنتهي في خيام الذئاب. كان قد رأى ذلك في أحلك أيامه في الحفرة. وفيما كان الذباب يطنّ حوله، كان خياله يشتعل بألسنة اللهب.

عندما اقترب جيلم، ترجل تيموجن، واقترب يعرج من الرجلين.

قال، متذكراً والده يتفوه بالكلمات نفسها: "إذا اعتبرتماني خاناً لكما، لن تكون إرادتكما ملكاً لكما بعد الآن. اركعا لي".

جثا كل من جيلم ووالده على ركبة واحدة، ووضع تيموجن يديه المصابتين على رأسيهما.

"أطلب منكما الملح، والحليب، والجياد، والخيام، والدم".

قال كلا الرجلين معاً: "إنها لك يا خاني".

قال تيموجن بشكل أدهشهما: "إذاً أنتما قريبان لي، ونحن من قبيلة واحدة. أنتما أخوان لي، ونحن شعب واحد".

رفع كل من أرسلان وجيلم رأسيهما، مندهشين من كلامه وكل ما يعنيه.

واشتدت سرعة الرياح واندفعت قادمة من الجبال. وأدار تيموجن رأسه إلى حيث تختبئ عائلته. وكان يعرف أنه يستطيع إيجاد قبيلته بين الرجال الذين هجرهم الجميع، وبين المتجولين والرعاة. رجال مثل هورغز العجوز وعائلته، الذين قتلهم تولي. لم يكن عدد هؤلاء كبيراً، لكنهم كانوا يشتعلون غضباً، وكان الكثيرون مطرودين من قبائل أخرى، وسيتوق العديد منهم لما يفكر به: قبيلة، وفرصة للانتقام من عالم هجرهم.

همس تيموجن: "بدأ الأمر هنا. لقد اكتفيت من الاختباء. لندعهم يختبئون مني".

عندما شاهد كشيون الرجال الثلاثة يقتربون من جهة الجنوب، لم يكن يعرف من هم. وتوجَّس خيفة من الطريقة التي يقتربون بها منه، وانزلق عائداً إلى الصدع الصخري في التلال مع قوسه وجعبته على أهبة الاستعداد. كان يعرف تلك القطعة من الأرض أفضل من أي شخص آخر، وتحرك على الصخور الشديدة الانحدار وقفز فوق الأشجار المتساقطة والأغصان المتهالكة حتى أخذ يلهث.

اتخذ موقعاً قريباً من المكان الذي سيمرون فيه، وأخفى نفسه جيداً تحت الغطاء النباتي لسطح الأرض. كانت هناك رغبة بالقتل في قلبه فيما كان يجهّز نفسه استعداداً للقائهم. وإذا كان تولي وباسان قد عادا مع أسيرهما، سيخاطر كشيون بإطلاق سهمين من مسافة بعيدة ويثق بمهارته ليرديهما. كان قد تدرب على ذلك، ولم يكن سواء خاسار أو تيموجن بمثل مهارته باستعمال القوس. وانتظر بصمت أن يسمع وقع الحوافر، وهو مستعد للقتل.

عندما أصبحوا في مدى نظره، قفز قلب كشيون من مكانه فرحاً عندما تعرف إلى شقيقه. كانت مجرد رؤية تيموجن حياً ترفع من معنوياته التي تراجعت كثيراً في الأيام التي قضاها وحيداً. ضغط على شفتيه بقوة، وأدرك

حينها فقط أنه يتمتم باسم شقيقه بصوت عالٍ. وكان يستطيع الاعتماد على نفسه، وهذا ما اعترف به لنفسه فيما كان يوجّه السهم على الرجل الأكبر سناً في الثنائي الذي يسير مع تيموجن.

تردد كشيون، وكانت عيناه الثاقبتان تدققان في كل تفاصيل الرجال الثلاثة. كان تيموجن يجلس ساكناً على السرج، ولم يكن هناك دليل على حبل أو لجام يقيده بالرجلين الآخرين. هل كانا يثقان بأن الأسير لن يهرب مبتعداً عنهما في أول فرصة تسنح له لنيل الحرية؟ كان هناك خطب ما، وعدّل من قبضته على القوس المشدود، وبدأت عضلات كتفيه القوية تهتز. لم يكن ليدعهم يمرون - لم يكن يستطيع ذلك - لكن إذا أطلق سهماً تحذيرياً، سيفقد فرصته لقتلهما بسرعة. كان كلا الرجلين مسلحين بقوس، بالرغم من أنه لاحظ أنهما ليسا مهيأين للإطلاق. ولم يكونا يقودان فرسيهما مثل رجلين في أرض معادية. شاهد كشيون أنهما يحملان سيفين طويلين مثل الذي كان يضعه ياسوجي على وركه. وكان يبدو أن هناك شيئاً غير منطقي فيما يخصهما، وفيما كان يتردد حول ما ينبغي فعله، اقترب الرجال الثلاثة من موقعه بين الأشجار.

خاطر بذلك كله.

صرخ كشيون: "تيموجن!" ونهض من المكان الذي يجثم فيه، وسحب قوسه حتى أذنه.

شاهد تيموجن الشكل من طرف عينه.

صرخ: "توقف! توقف يا كشيون!" ورفع ذراعيه ولوّح بيديه.

شاهد كشيون كلا الغريبين يختفيان عن الأنظار لحظة إطلاقه لنداء التحذير، بسرعة مثل القطط. ونزل كلاهما على الجانب الآخر من فرسيهما، واستعملا الحيوانين كدرعين لهما من الهجوم. تنفس كشيون الصعداء عندما أومأ تيموجن له، وانحنى ليترجل عن فرسه بحال يرثى لها.

قفز قلب كشيون من صدره عندما شاهده على تلك الحال. كان الذئاب قد ألحقوا الأذى بشقيقه، لكنه وصل إلى ذلك المكان وأصبح بأمان. كان تيموجن يعرج بشكل ظاهر للعيان عندما ركضا سوية واحتضنه كشيون وقد غلبت عليه مشاعره. سيكون كل شيء على ما يرام.

قال كشيون بأنفاس مجهدة: "لم أكن أعرف ما إذا كانا صديقين أو عدوين".

أومأ تيموجن برأسه، ووضع قبضته حول عنق شقيقه.

قال تيموجن: "تابعان يا شقيقي. أرسلان وجيلم، اللذان حرراني من الأسر. لقد جاءا إلينا من روح والدنا".

استدار كشيون نحو الرجلين فيما كان يقتربان منهما.

قال: "إذاً أنتما موضع ترحيب دائم في مخيمي. لديَّ بطتان لإطعامكم إذا كنتم جائعين. أريد سماع الحكاية".

أومأ تيموجن برأسه، وأدرك كشيون أنه لم يبتسم منذ أن رآه أول مرة. وكان شقيقه قد تغير في الوقت الذي قضاه بعيداً، وأصبح أقسى نوعاً ما نتيجة التجارب التي مرّ بها.

أكّد تيموجن: "سنقضي الليلة هنا. لكن أين والدتي والآخرون؟"

"لقد ارتحلوا غرباً. بقيت وحيداً بانتظارك في حال استطعت العودة. كنت... على وشك المغادرة. لقد فقدت الأمل برؤيتك مجدداً".

تأفف تيموجن، وقال: "لا تفقد الإيمان بي مطلقاً يا شقيقي الصغير. كلمتي حديد، وسأعود إلى الديار دائماً".

لدهشته، اكتشف كشيون أن هناك دموعاً في عينيه، ومسحها برموشه، محرجاً أمام الغريبين. كان قد قضى وقتاً طويلاً وحده، وفقد قسوة وجهه تماماً. وكافح ليضبط مشاعره الجياشة.

قال: "تعال. سأشعل النار وأطهو اللحم".

أومأ تيموجن برأسه، وقال: "كما تشاء. ينبغي أن نتحرك مع تباشير الفجر الأولى. أريد اللحاق بوالدتي".

تبع الرجال الثلاثة كشيون إلى مخيمه، والذي كان مكاناً بائساً لا يستحق تلك التسمية، ولم يكن يوجد فيه سوى بعض العظام القديمة المتناثرة حول حفرة نيران صغيرة. وجلس كشيون ليشعل النار، وكانت يداه ثقيلتين عندما انحنى فوق الرماد القديم.

قال فيما كان يضرب الصوان لإشعال النار: "توجد عائلة من المتجولين على بعد مسيرة نصف يوم إلى الغرب من هنا. ثلاثة رجال وامرأتان. لقد عبروا من هنا مساء أمس". ولاحظ أن تيموجن ينظر إليه باهتمام، وأساء فهم الضوء الذي لمع في عينيه.

قال وهو يهمهم برضا بعد أن اشتعلت النيران: "نستطيع تفاديهم إذا اتخذنا مساراً مباشراً إلى الجنوب قبل أن نقطع التلال السوداء".

حدّق تيموجن بالنار الصغيرة.

"لا أريد أن أتفاداهم يا شقيقي. وربما لا يعرفون ذلك، لكنهم من دمي مثلك تماماً".

توقف كشيون عن الكلام، وتراجع إلى الخلف ليجلس على وركيه.

قال وهو يشاهد أرسلان وجيلم يتبادلان النظرات: "لا أفهم. ما الذي تريده من متجولين؟"

أجاب تيموجن، كمن يحدث نفسه تقريباً: "إنهم القبيلة الكبيرة". كان صوته خافتاً جداً حتى أن كشيون استطاع بالكاد أن يسمعه. "سأمنحهم عائلة مجدداً. سأضمهم إلينا، وسأجعلهم قساة، وأرسلهم ضد أولئك الذين قتلوا والدنا. سأكتب اسم ياسوجي بدماء التتار، وعندما نصبح أقوياء، سأعود من الشمال وأبعثر الذئاب في الثلج".

ارتعش كشيون فجأة. ربما كان ذلك خيالاً، لكنه فكر بأنه سمع طقطقة

عظام قديمة في الرياح.

انتظر خاسار تحت طبقة سميكة من الثلج، ووجهه خدر رغم تغطيته بدهن الضأن. ولم يستطع سوى أن يشعر بالقليل من الشفقة على نفسه. كان يبدو أن أشقاءه قد نسوا، لكن ذلك اليوم كان يصادف ذكرى مولده السادسة عشرة. ودون سابق إنذار، مدّ لسانه وحاول التقاط بعض ندف الثلج الباردة. كان قد مضى عليه هناك وقت طويل، وأصابه الإرهاق والملل. وتساءل عبثاً ما إذا كان سيجد لنفسه امرأة في مخيم التتار فيما كان يحدق به من مسافة مئة خطوة من الأرض البيضاء. كانت الرياح قاسية، والغيوم تندفع بسرعة كبيرة فوق رأسه وتنطلق مثل ماعز شاحبة أمام عاصفة. وأحب خاسار خيال الكلمات وكررها لنفسه. كان عليه أن يتذكرها جيداً ليخبر هولن عندما يعودون من الغارة. فكر خاسار في ارتشاف شرابه ليبقى دافئاً، لكنه تذكر كلمات أرسلان وتردد. وكان صانع السيوف قد زوّده بملء كوب فقط من السائل الثمين في قربة جلدية.

كان أرسلان قد قال بشكل صارم: "لا أريدك ثملاً. إذا وصل إليك التتار، ينبغي أن تكون يدك ثابتة وعينك ثاقبة".

أحب خاسار الوالد والابن اللذين أحضرهما تيموجن معه، وخصوصاً الرجل العجوز. وكان أرسلان يذكره بوالده أحياناً.

ألهت حركة بعيدة خاسار عن أفكاره الهائمة. كان من الصعب عليه التركيز على المهمة المكلف بها عندما أخذ يعتقد أنه بدأ يتجمد ببطء. وقرر أن يرتشف الشراب بدلاً من ترك البرد ينال منه. وتحرك ببطء حتى لا يحرك طبقة الثلج فوق ردائه وغطائه.

لسع الشراب لثته، لكنه تجرّعه بسرعة، وشعر بالدفء ينتشر في أسفل صدره، ويصعد إلى رئتيه. ساعده ذلك في طرد البرد، وكان يوجد بالتأكيد آنذاك نشاط في مخيم التتار. وكان خاسار يستلقي إلى الغرب منهم، مختفياً

تحت غطائه من الثلج. واستطاع رؤية أشكال تجري، وعندما عصفت الرياح، استطاع سماع صراخ. وأومأ لنفسه، فقد هاجم تيموجن. وسيعرفون الآن إذا كانت تلك مجرد مجموعة صغيرة من التتار، أم الكمين الذي حذّر منه أرسلان. كان التتار قد عرضوا مكافأة قيّمة مقابل النيل من تلك المجموعة الصغيرة من الغزاة الذين جاءوا شمالاً إلى أراضيهم. وإذا كان هناك من سبب آخر، فقد ساعد ذلك تيموجن على تجنيد المحاربين من عائلات المتجولين، ووضع زوجاتهم وأولادهم تحت حمايته وعاملهم باحترام. وكان التتار يساعدون تيموجن على أن يبني لنفسه قبيلة في البراري الجليدية.

سمع خاسار صوت إطلاق السهام. ومن مثل تلك المسافة، لم يكن يستطيع تحديد ما إذا كانت تلك أقواس التتار، لكن ذلك لم يكن مهماً. فقد كان تيموجن قد طلب منه البقاء في تلك البقعة مع غطاء أبيض فوقه، وهذا ما سيفعله. كان يسمع نباح الكلاب، وتمنى أن يقتلها أحد ما قبل أن تستطيع تهديد تيموجن. كان شقيقه ما زال يخاف من الحيوانات، ولن يكون مناسباً أن تظهر عليه أي علامات ضعف أمام الرجال الجدد، والذين كان ما يزال بعضهم غير أهل للثقة.

ابتسم خاسار لنفسه. لقد كان تيموجن يفضل استقبال المحاربين مع زوجات وأولاد. فهؤلاء لا يستطيعون الغدر به فيما أحباؤهم في المخيم برعاية هولن. ولم يكن أحد يتحدث عن مثل ذلك الخطر، وربما لم يكن أحد يفكر بها سوى خاسار. وكان شقيقه ذكياً بما يكفي، ويعرف أنه أذكى منهم جميعاً.

ركّز خاسار بصره، وتزايد خفقان قلبه بشكل جعله يرتعش عندما شاهد شكلين يخرجان مسرعين من المخيم. وتعرف إلى تيموجن وجيلم، وشاهد أنهما يعدوان بسرعة وهما يحملان أقواساً وسهاماً جاهزة للإطلاق. وجاء

خلفهما ستة من التتار بملابسهم من الفرو والقماش المزركش، يصرخون ويكشفون عن أسنان صفراء أثناء المطاردة.

لم يتردد خاسار. فيما تجاوزه كل من شقيقه وجيلم دون أن ينظرا إلى حيث كان يختبئ. وانتظر برهة من الزمن حتى يقترب المحاربون التتار تماماً، ثم نهض من الثلج مثل عفريت يتوق للانتقام، وسحب قوسه عندما كان يتحرك حتى وصلت يده إلى أذنه اليمنى. وأطلق سهمين قتلا رجلين، وسقطا على وجهيهما في الثلج. وتباطأ الآخرون حتى توقفوا مذعورين ومرتبكين. وكانوا يستطيعون مهاجمة خاسار عندها، وتمزيقه إرباً، لكن تيموجن وجيلم ما كانا ليتخليا عنه. وحالما سمعا صوت قوسه، استدار كلا الرجلين إلى الخلف وجثيا على ركبة واحدة، ورفعا السهام تحت الثلج استعداداً لإطلاقها من أيديهما القوية. وأمطرا التتار الباقين بتلك السهام، وهكذا كان أمام خاسار وقت لإطلاق رمية أخيرة، وأرسلها بدقة لتصيب حنجرة الرجل الشاحبة الأقرب إليه. سحب محارب التتار السهم، وكاد يخرجه من حنجرته قبل أن يخر صريعاً. ارتعش خاسار عندما مات الرجل. كان التتار يرتدون ملابس مثل قومه، لكن رجال الشمال كانوا بيض البشرة وغرباء، وبدا أنهم لا يشعرون بأي ألم. ورغم ذلك، كانوا يموتون بسهولة مثل الماعز والأغنام.

استعاد تيموجن وجيلم السهام من الجثث، وأخرجوها بضربات سريعة من السكاكين التي يحملانها. كان ذلك عملاً دموياً، كان وجه تيموجن ملطخاً بالدماء عندما أعطى خاسار ستة سهام رطبة وحمراء حتى آخرها. ودون أن ينبس ببنت شفة، ربت على كتف خاسار وهرول مع جيلم نحو مخيم التتار، كانا يجريان وقد أحنيا جسديهما وأقواسهما قريبة من الأرض. وبدأ قلب خاسار الذي كان يخفق بقوة يهدأ، وقام بتنظيف السهام من الدماء في حال احتاج لاستعمالها مجدداً. وبعناية كبيرة، لف قطعة من

القماش المدهون بالزيت فوق وتر قوسه للمحافظة عليه قوياً وجافاً، ثم عاد إلى موقعه. وتمنى لو أنه أحضر معه المزيد من الشراب عندما بدأ البرد يتسلل إلى عظامه والثلج المتساقط يغطيه مرة أخرى.

نادى تيموجن عبر مخيم التتار: "ليس هناك كمين يا أرسلان!"

هزّ صانع السيوف كتفيه غير مبالٍ وأومأ برأسه. لم يكن ذلك يعني أنه لن يحصل، وإنما أنه لم يحصل هذه المرة. كان قد عارض قيامهم بغارات كثيرة في أراضي التتار. وكان ذلك يعني أن نصب فخ سيكون سهلاً للغاية إذا استمر تيموجن في استغلال كل فرصة يمنحونها له.

شاهد أرسلان الخان الشاب يمشي بين خيام القتلى. وكان عويل النساء قد بدأ، فيما بدا تيموجن سعيداً بسماع ذلك الصوت. عنى ذلك تحقيق نصر لهم جميعاً، ولم يكن أرسلان قد عرف من قبل رجلاً بمثل قسوة ابن ياسوجي.

نظر أرسلان إلى الأعلى على الثلج المتساقط، وشعر به يستقر خفيفاً على شعره ورموشه. كان قد عاش أربعين شتاءً وأنجب ولدين ماتا وآخر ما زال على قيد الحياة. في حال كان وحيداً، كان يعرف أنه سيقضي السنوات الأخيرة من عمره بعيداً عن القبائل، وربما يعيش عالياً في الجبال حيث لا يمكن سوى للأقوى البقاء على قيد الحياة. ومع جيلم، لم يكن يستطيع التفكير سوى كأب. وكان يعرف أن الشاب يحتاج إلى آخرين في مثل عمره وفرصة ليجد لنفسه زوجة وينجب أطفالاً.

شعر أرسلان بالبرد يلسعه عبر الرداء المبطن الذي كان قد استولى عليه من جثة تتاري ميت. لم يكن يتوقع أن يجد نفسه كمن يمسك نمراً من ذيله. كان يقلقه أن يرى الطريقة التي يعتبر بها جيلم تيموجن بطلاً ينبغي الإقتداء به، بالرغم من أنه لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره بعد. فكر أرسلان بمرارة أن الخان في شبابه كان رجلاً عركته السنون والمعارك.

رغم ذلك لم يكن يستطيع أن يعيب على أبناء ياسوجي شجاعتهم، كما أن تيموجن لم يفقد رجلاً واحداً خلال غاراته. وتنهد أرسلان لنفسه، متسائلاً ما إذا كان الحظ سيبقى إلى جانبهم.

جاءه صوت من خلفه: "ستتجمد حتى الموت وأنت واقف بلا حراك يا صانع السيوف".

استدار أرسلان ليشاهد كشيون يقف ساكناً. كان شقيق تيموجن يتمتع بجذوة هادئة لا تفوِّت شيئاً. واعترف أرسلان لنفسه أن الفتى يستطيع بكل تأكيد التحرك بسكون تام. كان قد شاهده يطلق السهام، ولم يعد أرسلان يشك بأنه كان يستطيع القضاء عليهم في طريق عودتهم إلى الصدع الصخري بين التلال. كانت العائلة بأكملها تتمتع بشيء ما، وفكّر أرسلان أنهم يتجهون إما إلى تحقيق شهرة واسعة أو الموت باكراً. وبأي حال، أدرك أن جيلم سيكون معهم.

كذب أرسلان بعد أن رسم ابتسامة مصطنعة على وجهه: "لا أشعر بالبرد".

لم يكن كشيون يرتاح إليه مثل خاسار، لكن التحفظ الطبيعي كان يتلاشى تدريجياً. كان أرسلان قد شاهد البرود نفسه في العدد من الوافدين الجدد إلى مخيم تيموجن. وجاء هؤلاء لأن تيموجن قبل بهم، لكن كان من الصعب على رجال عاشوا لوقت طويل بعيداً عن أي قبيلة التخلي عن العادات القديمة. وكانت فصول الشتاء قاسية للغاية، ولا يمكن الثقة بأحد بسهولة والبقاء على قيد الحياة في الوقت نفسه.

كان أرسلان يعرف بما فيه الكفاية ليلاحظ أن تيموجن ينتقي رفاقه في الغارات بحرص شديد فعلاً. كان تيموجن يترك لخاسار أمر التعامل مع أولئك الذين يحتاجون إلى تأكيدات مستمرة، بأساليبه القاسية ومزاجه الخاص. ولم يكن آخرون يتخلون عن شكوكهم العميقة حتى يشاهدوا

تيموجن يخاطر بحياته إلى جانبهم. ومن غارة إلى أخرى، شاهدوا أنه لا يعرف الخوف أبداً وأنه يسير مباشرة نحو السيوف المشرّعة ويعرف أنه لن يكون وحيداً. حتى ذلك الوقت، ساروا على الدرب معه. وكان أرسلان يأمل بأن يستمر ذلك، لمصلحتهم جميعاً.

سأل أرسلان فجأة: "هل سيُغير مجدداً؟ لن يتحمل التتار هذا فترة أطول".

هزّ كشيون كتفيه غير مبالٍ، وقال: "سنستطلع المخيمات أولاً، لكنهم كسالى وبطيئون في الشتاء. يقول تيموجن إننا نستطيع الاستمرار هكذا لبضعة شهور أخرى".

قال أرسلان: "لكنك تعرف ما هو أفضل من ذلك بالتأكيد؟ سيستدرجوننا بهدف كبير ويكون الرجال مختبئين في كل خيمة. هل تعرف ذلك؟ عاجلاً أم آجلاً، سنقع في كمين".

ابتسم له كشيون مندهشاً.

"إنهم مجرد تتار. ونستطيع القضاء على كل من يرسلونه ضدنا، على ما أعتقد".

قال أرسلان: "قد يكون العدد بالآلاف إذا استفززناهم كل الشتاء. وحالما يذوب الثلج، يستطيعون إرسال جيش".

قال كشيون: "آمل ذلك. يعتقد تيموجن أنها الطريقة الوحيدة لجعل القبائل تتحد معاً. يقول إننا بحاجة لعدو وتهديد للأرض، وأنا أصدقه".

ربت كشيون على كتف أرسلان كما لو أنه يواسيه قبل أن يمضي بعيداً في الثلج. وسمح صانع السيوف بتلك اللمسة لشعوره الغامر بالدهشة. ولم يكن لديه أدنى شك آنذاك فقد سمع ما أراد، وكان متأكداً منه.

جاء شخص يسرع الخطى نحوه وسمع الصوت الوحيد الذي كان يحب.

قال جيلم، بعد أن توقف: "يا أبتي! سوف تتجمد هنا".

تنهد أرسلان، وقال: "سمعت ذلك الرأي، نعم. لست عجوزاً كما يبدو أنكم تعتقدون جميعاً".

كان يراقب ابنه فيما يتكلم إليه، ورأى الحيوية في حركته. وكان جيلم منتشياً بالنصر، وعيناه تلمعان. بالرغم من أن أرسلان كان معجباً بابنه، إلاّ أنه لاحظ أن الشاب يكاد لا يستطيع الوقوف بثبات. وفي مكان ما قريب، كان تيموجن سيجمع مجلسه الحربي مرة أخرى، ويخطط للهجوم التالي على القبيلة التي قتلت والده. وكان كل واحد منهم أكثر جرأة وقسوة من الآخر، ولطالما كانت الليالي صاخبة مع الشراب والسبايا بعيداً عن المخيم الأساسي. وفي الصباح، سيكون الأمر مختلفاً، ولم يكن أرسلان يحسد ولده على صحبة أصدقائه الجدد. على الأقل، كان تيموجن يحترم مهارته باستعمال القوس والسيف. وكان أرسلان قد منح ولده تلك الخصال.

سأل: "هل جُرحت؟"

ابتسم جيلم، وكشف عن أسنان بيضاء صغيرة. وقال بشكل تلقائي: "ولا حتى خدش. قتلت ثلاثة من التتار بالقوس وواحداً بالسيف، باستعمال الضربة العالية التي علمتني إياها". فأومأ أرسلان موافقاً.

أجاب متمنياً أن يستطيع ولده رؤية الفخر الذي يشعر به: "إنها حركة جيدة إذا كان الخصم غير متوازن". وعجز عن التعبير عما يجيش بنفسه، لكنه تابع الكلام بهدوء: "أتذكر أنني علمتك إياها". وكان يأمل بأن يكون لديه المزيد من الكلمات، لكن مسافة ما كانت قد نشأت بينهما بطريقة ما، ولم يكن يعرف كيف يجسرها.

خطا جيلم إلى الأمام، ومدّ يده ليمسك ذراع والده. وتساءل أرسلان إذا كان قد تعلم عادة التواصل الجسدي من تيموجن. بالنسبة لرجل في مثل عمر صانع السيوف، كان ذلك تطفلاً، وكان عليه أن يتقن كيف يتخلص من تلك المواقف. وليس من ولده بالطبع، فقد كان يحبه كثيراً لدرجة أنه لم

يكن يهتم بذلك.

سأل جيلم: "هل تريد مني البقاء معك؟"

كان على أرسلان أن يتأفف، وأطلق ضحكة كاد ينجح في كبتها، مع لمسة حزن. لقد كان هؤلاء الشباب متغطرسين كثيراً، وكان ذلك يؤلمه، ولكن مع عائلات المتجولين، أصبحوا عصبة من الفرسان الذين لا يناقشون سلطة قائدهم. شاهد أرسلان عرى الثقة تنمو بينهم، وعندما كانت معنوياته تنخفض، كان يتساءل ما إذا كان عليه رؤية ولده يلقى حتفه أمامه.

قال أرسلان: "سأمشي على الحدود الخارجية للمخيم، وأتأكد من عدم وجود المزيد من المفاجآت التي قد تفسد نومي هذه الليلة. اذهب". أرغم نفسه على الابتسام في النهاية، وضحك جيلم بصوت خافت بعد أن ظهر إحساسه بالإثارة مجدداً. جرى بين الخيام البيضاء إلى حيث كان أرسلان يستطيع سماع الأصوات الصاخبة. وفكّر في قرارة نفسه أن التتار كانوا بعيدين كثيراً عن قبيلتهم. وكان يعرف أنهم يبحثون عن القوة نفسها التي سحقت أفراداً منهم دون رحمة. كانت الأنباء ستصل إلى كل خان محلي، وسيرد هؤلاء سواء كان تيموجن يفهم ذلك أم لا. ولم يكونوا يستطيعون تجاهل الغارات. في الشرق، كان لمدن تشن العظيمة جواسيسها الذين يبحثون دائماً عن أي علامة ضعف في أعدائهم.

فيما كان يشق طريقه عبر الثلج العميق، سمع أرسلان نشيجاً خافتاً يأتي من أيكة أشجار قرب الحدود الخارجية لخيام التتار. سحب سيفه بهدوء تام لدى سماعه الصوت، ووقف مثل تمثال حتى أصبح النصل خارج غمده تماماً. قد يكون ذلك كميناً، بالرغم من أنه لم يكن يعتقد ذلك. وكانت نساء المخيم إما سيبقين في الخيام أو يختبئن عند أطرافه الخارجية. في ليلة صيف، يمكنهن الانتظار حتى تغادر فرقة الغزو قبل أن يعدن إلى قومهن، لكن ليس في ثلج الشتاء.

لم يكن قد وصل إلى الأربعين من العمر دون تمتعه بمقدار معقول من الحذر، ولهذا أبقى أرسلان سيفه بيده فيما كان ينظر إلى وجه امرأة شابة، بمثل نصف عمره. ومع تكشيرة سعيدة، أعاد السيف إلى غمده، وأمسك بها ليساعدها على الوقوف على قدميها. وعندما لم تفعل شيئاً سوى التحديق به فقط، ضحك بصوت خافت عميق.

"ستحتاجين إلى شخص يدفئك في أغطيتك الليلة، أيتها الفتاة. من الأفضل أن تكوني معي على أن تكوني بصحبة الشباب الأصغر سناً، على ما أعتقد. رجال في مثل عمري لديهم طاقة أقل، في البداية".

لسعادته البالغة، قهقهت الشابة. وخمّن أرسلان أنها ليست قريبة أحد القتلى، رغم أنه ذكّر نفسه بإخفاء سكاكينه جيداً إذا أراد أن ينام. وكان قد سمع أن أكثر من رجل لقي حتفه على يد أسيرة عذبة الابتسامة.

أمسكت بيده وساعدها على النهوض لتصل إلى مستوى كتفه، وربت على مؤخرتها فيما كانا يمشيان عبر المخيم. كان يدندن لنفسه في الوقت الذي وجد فيه خيمة مع موقد وسرير دافئ يمنع عنه الثلج الذي كان يتساقط بنعومة.

شدّ تيموجن قبضته بسعادة عندما سمع إحصاءات القتلى. لم تكن جثث القتلى لتنطق، لكن كان هناك أكثر من مجرد حصيلة رحلة صيد، خصوصاً في قلب الشتاء. واعتقد كشيون أنهم ربما يكونون فرقة غزو مثلهم تماماً.

قال تيموجن لمرافقيه: "سنحتفظ بالجياد ونعيدها معنا". كان يتم تمرير الشراب بينهم وكان الجو العام بهيجاً. كانوا سيثملون ويغنون بعد وقت قصير، وربما يشتهون النساء رغم أنه لا يوجد أمل بأن يجدوا إحداهن في المخيم الخالي. كان تيموجن محبطاً عندما وجد أن معظم النساء كن من العجائز اللواتي يصطحبهن الرجال إلى البراري ليطبخن ويحكن الملابس وليس لإشباع رغباتهم. كان عليه إيجاد زوجتين لخاسار وكشيون، كونه خاناً

لهما، وكان يحتاج لأكبر عدد ممكن من العائلات الوفية حوله.

تم استجواب النساء الطاعنات في السن حول رجالهن، لكنهن ادّعين بالطبع أنهن لا يعرفن شيئاً. وراقب تيموجن مثالاً ذابلاً منهن فيما كانت تحرك قدراً من اللحم الذي تطهوه في الخيمة التي اختار البقاء فيها. وفكر بأن عليه أن يدع شخصاً آخر يتذوق الطعام، ودفعته تلك الفكرة للابتسام.

قال: "هل لديكِ كل ما تحتاجين إليه أيتها الأم العجوز؟" نظرت المرأة إليه، وبصقت بحذر على الأرض. ضحك تيموجن عالياً. وكانت تلك واحدة من أعظم حقائق الحياة، وبغض النظر عن الغضب الذي يتملك الإنسان، فقد يخاف من عرض للقوة. ولا أحد، بأي حال، يستطيع إخافة امرأة غاضبة. وربما ينبغي أن يدع شخصاً آخر يتذوق الطعام أولاً بعد ذلك التصرف. ونظر حوله إلى الآخرين، سعيداً بهم جميعاً.

قال: "إذا لم يغطِ الثلج بعضهم، تكون الحصيلة سبعاً وعشرين قتيلاً، بمن فيهم العجوز التي أرداها كشيون".

أجاب كشيون مغتاظاً: "كانت قادمة نحوي تحمل سكيناً. لو كنت رأيتها، لكنت أطلقت السهم أيضاً".

أجاب تيموجن بوجه خالٍ من أي تعبير: "اشكر الأرواح لأنك لم تصب بأذى، إذاً".

ظهرت علامات الغضب على كشيون عندما ضحك بعض الرجال بصوت خافت. وكان جيلم موجوداً هناك مع طبقة جديدة من الثلج على كتفيه، إضافة إلى ثلاثة أشقاء انضموا إليهم قبل شهر فقط. وكانت الأعشاب تكسوهم، ويمكن شم رائحة الطحالب عليهم، لكن تيموجن اختارهم للوقوف إلى جانبه في لحظات الفوضى الأولى للقتال في الثلج. وتبادل كشيون النظرات مع تيموجن بعد أن نظر نحوهم. كانت إيماءة صغيرة من رأس شقيقه الأكبر كافية له ليقبلهم جميعاً على أنهم من دمائه. لم يكن

القبول ظاهرياً، خصوصاً بعد أن أثبتوا أنفسهم آنذاك، وابتسم الثلاثة للآخرين مستمتعين بنصرهم الأول مع هذه المجموعة. كان شراب الأعشاب ساخناً على الموقد، وتجرع كل منهم قدر ما يستطيع لإبعاد البرد قبل أن يعيد الطعام القوة للأطراف المتعبة. وكانوا جميعاً قد استحقوا تلك الوجبة، وكان مزاجهم طيباً.

تكلم تيموجن إلى أكبرهم سناً، وهو رجل سريع وصغير الحجم، بشرته داكنة جداً وشعره أشعث. وكان فيما مضى مع كويري، لكن نزاعاً مع ابن الخان جعله يرحل بعيداً مع أشقائه قبل أن تتم إراقة الدماء. وكان تيموجن قد رحب بهم جميعاً.

"باتو؟ حان الوقت لجلب شقيقي خاسار من البرد، على ما أعتقد. لن يكون هناك المزيد من المفاجآت هذه الليلة".

فيما كان باتو ينهض، استدار تيموجن إلى جيلم وقال: "أتخيل أن والدك في الخارج يتفقد المخيم؟"

أومأ جيلم برأسه موافقاً، ومطمئناً من ابتسامة تيموجن.

قال تيموجن: "لا أتوقع أقل من ذلك. إنه رجل بكل معنى الكلمة. وربما يكون أفضل واحد فينا". وأومأ جيلم برأسه ببطء، سعيداً. وأشار تيموجن إلى المرأة التتارية العجوز لتقدم له الطعام. كان واضحاً أنها تفكر في رفض طلبه، لكنها عادت إلى رشدها، وقدّمت له قطعة كبيرة من المزيج الذي يخرج منه البخار.

قال تيموجن وهو يضع الطعام في فمه: "شكراً لك أيتها الأم العجوز. هذا جيد. لا أعتقد أنني سبق وتذوقت شيئاً أفضل من طعام رجل آخر يؤكل في خيمته. ولو أنني حظيت بزوجته الجميلة وأطفاله لتسليتي، لكنت ملكت كل شيء".

ضحك رفاقه بصوت خافت فيما كانوا يحصلون على طعامهم الساخن

ويدفعون به في أفواههم ويأكلون مثل حيوانات برية. كان البعض منهم قد فقد تقريباً كل آثار الحضارة في السنوات التي قضوها بعيداً عن أي قبيلة، لكن تيموجن كان يثمّن عالياً تلك القسوة. لم يكن هؤلاء من صنف الرجال الذين يفكرون في الاعتراض على أوامره. وإذا طلب منهم أن يقتلوا، سيقتلون حتى تصل الدماء إلى مرافقهم، بغض النظر عمن يقف في طريقهم. عندما كان ينقل عائلته إلى الشمال، وجدهم مبعثرين في الأرض. وكان أكثرهم وحشية يعيش وحده، وكان واحد أو اثنان من أولئك مثل كلاب مجنونة لا يمكن الوثوق بها، أخذهما بعيداً عن الخيام، وقتلهما بسرعة بأول سيف صنعه أرسلان له.

فيما كان يأكل، فكّر تيموجن في الشهور التي تلت عودته إلى عائلته. ولم يكن يحلم عندها بالتعطش الذي شاهده في الرجال حوله، والحاجة لأن يكونوا مقبولين مرة أخرى. ورغم ذلك، لم تجرِ الرياح بما تشتهي السفن دائماً. كانت هناك عائلة انضمت إليه فقط لتهرب في منتصف الليل بكل ما استطاعت أن تحمله. وتعقب تيموجن وكشيون آثار تلك العائلة، وأعادا المسروقات إلى المخيم حتى يراها الآخرون قبل أن يتركا العائلة للحيوانات البرية. لم يكن أمام العائلات مجال للعودة إلى حياتها السابقة؛ ليس بعد الانضمام إليه. ونظراً لطبيعة الأشخاص الذين كان يقرر قبولهم، كان تيموجن يعرف أنه لا يستطيع إظهار أي ضعف وإلاّ سيمزقونه إرباً.

دخل خاسار مع باتو، وهو ينفخ ويفرك يديه ببعضهما البعض. ووضع نفسه عمداً بالقرب من تيموجن وكشيون، ونفض الثلج فوقهما. فأطلقا اللعنات، وحاولا الابتعاد عن الثلج الذي انتشر في كل الاتجاهات.

سأل خاسار: "نسيتني مجدداً، أليس كذلك؟"

هزّ تيموجن رأسه، وقال: "لم أنسَك! كنت العين الحارسة في حال كان هناك هجوم أخير بعد أن جلسنا جميعاً".

حدق خاسار بشقيقيه، ثم استدار مبتعداً ليحصل على حصته من الطعام.

فيما كان يفعل ذلك، انحنى تيموجن مقترباً من كشيون وهمس بصوت عالٍ بما فيه الكفاية ليسمعه الآخرون: "نسيت أنه كان في الخارج".

صرخ خاسار: "عرفت ذلك! كدت أتجمد حتى الموت، لكنني بقيت أقول لنفسي طوال الوقت: تيموجن لن يتخلى عنك يا خاسار. سيعود في أي لحظة ليستدعيك إلى الدفء".

راقب الآخرون بارتباك فيما كان خاسار يمدّ يده إلى بنطاله ويتفقد ما بداخله على عجل.

قال بحزن: "أعتقد أن ذلك الجزء قد تجمد فعلاً. هل ذلك ممكن؟ ليس هناك شيء سوى قطعة من الجليد هنا في الأسفل".

ضحك تيموجن من النبرة التهكمية حتى كاد يريق ما تبقى من طعامه.

"أبليت حسناً يا شقيقي. لم أكن لأرسل رجلاً لا أثق به إلى تلك البقعة. ألم يكن أمراً جيداً تواجدك هناك؟"

أخبر الآخرين عن هجوم المحاربين التتار الذي تصدى له خاسار وجيلم. وفيما كان الشراب يدفئ دماءهم، قاموا بسرد القصص الخاصة بهم، بالرغم من أن بعضهم قالها على سبيل الدعابة فيما قالها البعض الآخر بلغة حزينة وكئيبة جعلتهم يحسون ببرد الشتاء في الخيمة الدافئة. وشيئاً فشيئاً، تشاطروا تجارب بعضهم بعضاً. ولم يكن باتو الصغير قد تدرب على الرمي بالقوس مثلما فعل أبناء ياسوجي أثناء طفولتهم، لكنه كان سريعاً جداً باستعمال السكين، وادّعى أن لا سهم يستطيع إصابته إذا شاهده ينطلق. كان جيلم نداً لوالده باستعمال السيف أو القوس، وقوياً للغاية حتى أن تيموجن كان يفكر بجعله نائباً له. كان يمكن الاعتماد على جيلم، وشكر تيموجن الأرواح على الوالد والابن وكل من جاء بعدهما.

كانت هناك أوقات حلم فيها بأنه يعود إلى تلك الحفرة النتنة، ينتظر أن يلقى حتفه. وأحياناً، كان يحلم بأنه سليم وجسده بحالة ممتازة. وأحياناً أخرى، كان مربوطاً بحبال وآثار الندوب بادية عليه أو ما يزال ينزف وبحال يرثى لها. كان قد اكتشف تلك الفكرة الغريبة التي ما تزال تشتعل داخله في ذلك المكان. كان هناك قبيلة واحدة فقط في تلك السهول. وسواء كانوا يدعون أنفسهم الذئاب، أو أولخونوت، أو حتى المتجولين الذين لا ينتمون إلى أي قبيلة، إلاّ أنهم يتكلمون اللغة نفسها وتربطهم علاقات قرابة. ورغم ذلك، كان يعرف أن شد حبل حول ضباب الشتاء سيكون أسهل من توحيد القبائل بعد ألف سنة من الحروب. وكان كل ما فعله مجرد بداية، لكنها لم تكن أكثر من ذلك.

سأل كشيون شقيقه مقاطعاً أفكاره: "إذاً، ما هي الخطوة التالية بعد أن ننتهي من عدّ جيادنا وخيامنا الجديدة هنا؟" وتوقف بقيتهم عن تناول الطعام لسماع الجواب.

قال تيموجن: "أعتقد أن جيلم يستطيع قيادة الغزوة القادمة". رفع ابن أرسلان بصره عن وجبته إلى الأعلى وفمه مفتوح. وقال له تيموجن: "أريدك أن تكون مطرقة. لا تخاطر بقومي، لكن إذا وجدت مجموعة صغيرة، أريدك أن تسحقها إكراماً لذكرى والدي. إنهم ليسوا من قومنا، وهم ليسوا مغولاً، مثلنا. وينبغي أن يخاف التتار منا بينما نزداد قوة وعدداً".

سأل كشيون مع ابتسامة: "لديك شيء آخر في ذهنك". وكان يعرف شقيقه.

أومأ تيموجن برأسه، وقال: "حان الوقت للعودة إلى أولخونوت واستعادة زوجتي. وتحتاج أنت إلى امرأة جيدة. ويقول خاسار إنه يريدها سيئة. ونحتاج جميعاً إلى أطفال يسيرون على الدرب نفسه. لن ينظروا إلينا بازدراء عندما نمشي بينهم الآن".

قال تيموجن وهو يحدق بابن أرسلان: "سيستغرق الأمر عدة شهور". كانت عيناه الصفراوان ثابتتين، ولم يستطع جيلم النظر إليهما فترة طويلة. "سأجلب معي المزيد من الرجال لمساعدتنا هنا، بعد أن أصبحت أعرف الآن أين أجدهم. أثناء غيابي، ستكون مهمتك جعل التتار ينزفون ويخافون قدوم الربيع".

مدّ جيلم يده، وأمسكا بساعدي بعضهما البعض لتثبيت الاتفاقية.

قال جيلم: "سأكون رعباً لهم".

في الظلام، وقف تيموجن يترنح خارج الخيمة التي اختارها أرسلان، وأصغى السمع إلى الأصوات داخلها، سعيداً لأن صانع السيوف قد وجد أخيراً أحداً يخفف من توتره. لم يكن تيموجن قد عرف من قبل رجلاً بمثل صلابة صانع السيوف، ولا رجلاً يقف ثابتاً مثله في المعركة، إلاّ والده بالطبع. ربما لأن أرسلان كان من ذلك الجيل، وجد تيموجن نفسه يحترمه دون أن يثبت نفسه مع كل كلمة يقولها أو إيماءة يوحي بها. تردد قبل أن يقاطع الرجل في خلوته، لكن القرار كان قد اتخذ آنذاك، وكان ينوي السفر جنوباً في الصباح، وأراد أن يعرف أن أرسلان سيكون معه.

لم يكن ما سيطلبه شيئاً صغيراً. كان أي شخص يستطيع أن يلاحظ كيف يراقب أرسلان ابنه كلما تطايرت السهام. كان إرغامه على ترك جيلم وحيداً في الشمال البارد بمثابة اختبار لولائه، لكن تيموجن لم يكن يعتقد أن أرسلان سيفشل في ذلك الامتحان. كانت كلمته حديداً. رفع يداً ليطرق على الباب الصغير، لكنه عدل عن ذلك، إذ كان سيدع صانع السيوف يستمتع بتلك اللحظة من السكينة والسعادة. وفي الصباح، سيعودان إلى الجنوب، وكان تيموجن يشعر بإثارة مريرة داخله من التفكير بالسهول التي قضى فيها طفولته.

دفع تيموجن وأرسلان فرسيهما للهرولة عبر بحر الأعشاب. ولدهشة أرسلان، اكتشف أنه مرتاح للصمت الذي أطبق عليهما. كانا يتحدثان ليلاً حول النار، ويتدربان بالسيوف حتى يتصببا عرقاً. كان السيف الذي يحمله تيموجن جميل الصنعة وفيه قناة للدماء تسمح بتحريره من جرح الضحية دون جهد. كان أرسلان قد صنعه له وعلّمه كيف يحافظ على حدّة نصله وأن يمسح الفولاذ بالزيت حتى لا يصدأ. برزت عضلات ذراع تيموجن اليمنى بعد أن اعتاد على وزنه تماماً، ومع وجود أرسلان لتدريبه، كانت مهاراته تتحسن يوماً بعد يوم.

انقضت أيام السفر إما بالاستغراق بالأفكار أو بالتغاضي عنها كلياً. بالنسبة لأرسلان، كان الأمر كما لو أنه يسافر مع ابنه جيلم، واكتشف أن ذلك مريح. كان يراقب عندما يتقدم تيموجن عليه قليلاً أو يصعد إلى تل ليكتشف أفضل مسلك إلى الجنوب. كان الفارس الشاب واثقاً تماماً من نفسه، وكان يمكن رؤية ذلك في كل لحظة. فكّر أرسلان في تحولات القدر التي قادته إلى إنقاذ تيموجن من الذئاب. كانوا يدعونه خاناً في مخيمهم الصغير، بالرغم من أنه كان يوجد بالكاد عشرون رجلاً يتبعونه وحفنة صغيرة فقط من النساء والأطفال. ورغم ذلك، كان تيموجن يمشي بفخر بينهم، وكانوا يخوضون غارة تلو الأخرى ويفوزون بها. وكانت هناك أوقات تساءل فيها أرسلان عمّا أطلقه من عقاله.

كانت أولخونوت قد نقلت مخيمها عدة مرات منذ غادرهم تيموجن مع باسان، ووصول أنباء إصابة والده. استغرق الأمر دورتين للقمر حتى وصلوا إلى الأراضي حول التل الأحمر، ورغم ذلك كان تيموجن لا يزال يجهل أين يجدهم. بدا من الممكن أنهم تحركوا نحو الجنوب مرة أخرى كما فعلوا منذ سنوات عديدة، ولهذا أصبح من المستحيل الوصول إليهم. شاهد

أرسلان توتر رفيقه الشاب يتصاعد عندما كان يسأل كل متجول وراعي يلتقيانه، ويلتمس أي كلمة منهم.

لم تكن مهمة الاقتراب من الغرباء سهلة على تيموجن وأرسلان إلى جانبه. وحتى بعد أن ربط قوسه إلى سرجه وقاد فرسه ويداه مرفوعتان في الهواء، كانت تقابلهما السهام المشدودة وعيون الأطفال الخائفة. كان تيموجن يترجل عن فرسه ويتحدث إلى أولئك الذين لا ينتمون إلى أي قبيلة حيثما وجدهم، بالرغم من أن الكثيرين منهم فرّوا مسرعين حالما رأوه مع أرسلان. أشار إلى البعض منهم بالتوجه شمالاً، ووعدهم بأنهم سيلقون الترحيب لدى ذكر اسمه. ولم يكن يعرف إذا كانوا يصدقونه. كان ذلك عملاً مثيراً للإحباط، لكنّ امرأة عجوز لا تعرف الخوف أومأت أخيراً لدى سماعها الاسم، وأرسلتهما شرقاً.

لم يجد تيموجن الراحة في نفسه عندما قاد فرسه عبر الأراضي التي عرفها طفلاً. وسأل أيضاً عن أنباء الذئاب، ليتفاداهم. كان إيلوك ما يزال في مكان ما في المنطقة، ولم يكن مناسباً أن يلتقي تيموجن فرقة مطاردة دون أن يكون مستعداً لها. ستتم تصفية الحساب بينهم، لكن ليس قبل أن يجمع ما يكفي من المحاربين ليشق طريقه بين خيام الذئاب مثل عاصفة صيفية.

عندما شاهدا مخيم أولخونوت الكبير بعد شهر من الترحال، حاول تيموجن أن يكبح نفسه، بعد أن تغلبت عليه ذكرياته. كان يستطيع رؤية الغبار المتصاعد خلف الفرسان عندما خرجوا إليه، يطنون مثل الدبابير حول أطراف المخيم.

تمتم إلى أرسلان: "ابقِ يدك بعيدة عن سيفك عندما يصلون".

أخفى صانع السيوف تكشيرة لدى سماعه النصيحة غير الضرورية، وجلس مثل صخرة. وحاولت فرس تيموجن أن تأكل بعض الأعشاب اليابسة فلطمها على عنقها، وأبقى اللجام مشدوداً بإحكام. تذكر والده بوضوح كما

لو أنه موجود معه، وأبقى مشاعره تحت السيطرة المطلقة، وأظهر وجهاً قاسياً كان ياسوجي سيوافق عليه بالتأكيد.

شعر أرسلان بالتغيير الذي طرأ على الشاب، ولاحظ توتر كتفيه والطريقة التي شدّ بها لجام فرسه. فكّر بأن ماضي الرجل كان مليئاً دائماً بالألم، وأنه يسترخي تدريجياً فيما ينتظر أن ينهي المحاربون الصاخبون عرض الشجاعة الذي يقومون به.

سأل أرسلان: "ماذا إن رفضوا تسليمها لنا؟"

أدار تيموجن عينيه الصفراوين نحو صانع السيوف، وشعر أرسلان بشيء غريب يرافق النظرة الباردة. ومن يكون الفتى حتى يزعجه بتلك الطريقة؟

قال تيموجن: "لن أغادر دونها. لن أعود أدراجي دون أن أموت".

أومأ أرسلان برأسه قلقاً. وتذكر عندما كان في الثامنة عشرة من العمر، لكن تهور تلك السنين كان خلفه. لقد ازداد مهارة عما كان عليه أثناء شبابه، ولم يكن قد التقى بعد رجلاً يستطيع التغلب عليه بالقوس أو السيف، بالرغم من أنه كان يعتقد أن مثل ذلك الرجل موجود. الشيء الذي لم يكن يستطيع فعله هو مجاراة تيموجن في برودة أعصابه، وفي عدم اكتراثه الكبير بالموت الذي كان حكراً على الشباب فقط. ولقد كان لديه ابن أيضاً.

لم يظهر على أرسلان شيء من صراعه الداخلي، لكن في الوقت الذي وصل إليهما محاربو أولخونوت، كان ذهنه صافياً ويقف ساكناً تماماً.

صرخ الخيالة وهتفوا عندما اقتربوا منهما رافعين أقواسهم، وسهامهم مشدودة على الأوتار. كان الهدف من ذلك العرض التأثير عليهما، لكن لم يبالِ به سواء تيموجن أو أرسلان. شاهد أرسلان أحد الخيالة يدقق فيهما ويشد لجام فرسه عندما شاهد وجه تيموجن. وكادت تلك الحركة الحادة أن تجعل فرسه تجثو على قائمتيها وامتلأ وجه المحارب دهشة.

قال الفارس: "إنه أنت".

أومأ تيموجن، وقال: "جئت من أجل زوجتي يا كوكي. قلت لك إنني سأفعل ذلك".

شاهد أرسلان محارب أولخونوت يتنحنح لإخراج البلغم من حنجرته ويبصق على الأرض. دفع الضغط من عقبيه فرسه لتقترب بما يكفي من تيموجن حتى أصبح باستطاعته الوصول إليه بيده. نظر تيموجن دون اهتمام فيما كان كوكي يرفع ذراعه كما لو أنه يريد صفعه، ويمتقع وجهه الشاحب غضباً.

تحرك أرسلان، ودفع فرسه لتصبح قريبة منهما. وارتفع سيفه حتى أصبحت مقدمة نصله تحت حنجرة كوكي، واستقرت هناك. وصرخ المحاربون الآخرون بغضب، وأخذوا يدورون حولهم. وجهّزوا أقواسهم لإطلاق السهام، تجاهلهم أرسلان كما لو أنهم غير موجودين. وانتظر حتى اتجهت عينا كوكي نحوه، وشاهد خوفاً كبيراً فيهما.

قال أرسلان بلطف: "لا تلمس الخان". ونظر من طرف عينيه نحو الآخرين، وشاهد كيف أن قوساً مشدوداً أكثر من الآخر. كان الموت قريباً بما يكفي ليشعر به مع نسمات الهواء، وبدا أن الوقت قد توقف.

قال تيموجن مبتسماً: "تكلم بحرص يا كوكي. إذا أطلق رجالك السهام، ستموت قبلنا".

لاحظ أرسلان أن تيموجن قد شاهد القوس المشدود، وتساءل مجدداً عن هدوئه.

كان كوكي مثل تمثال، بالرغم من أن فرسه كانت تتحرك بعصبية. وشد قبضته على اللجام حتى لا تُقطع عنقه نتيجة اهتزاز مفاجئ من فرسه.

قال همساً: "إذا قتلتني، سيقطعونك إرباً".

ابتسم له تيموجن، وأجاب: "ذلك صحيح". دون أن يضيف شيئاً. ورغم

أنه ابتسم، إلاّ أنه كان يشعر بكتلة باردة من الغضب تطفو عميقاً في داخله. لم يكن لديه صبر على طقوس إذلال الغرباء، وليس من هؤلاء القوم بالتأكيد.

قال كوكي: "أبعد السيف".

لحسن حظه، كان صوته هادئاً، لكن تيموجن كان يستطيع رؤية العرق يسيل على جبينه، رغم الرياح. فكر بأن الاقتراب من الموت يستطيع فعل ذلك برجل. وتساءل لماذا لا يشعر بالخوف بنفسه، لكن لم يكن هناك أثر له. راودته ذكرى مبهمة عن أجنحة تضرب وجهه، وكان لديه شعور بأنه معزول عن تلك اللحظة، وأن الخطر لا يستطيع النيل منه. وفكر بأن روح والده ربما كانت ما تزال تراقبه.

قال تيموجن: "رحِّب بي في مخيمك".

نقل كوكي عينيه من أرسلان إلى الشاب الذي كان يعرفه منذ زمن طويل. وكان تيموجن يعرف أنه في موقف لا يحسد عليه. إما أن يتراجع ويتعرض للإذلال، وإما أن يموت.

انتظر تيموجن، وهو غير مكترث لما يجري. ونظر حوله إلى الرجال الآخرين، وقضى لحظة طويلة في النظر إلى المحارب الذي شدّ القوس حتى وصلت يده إلى أذنه. وكان الرجل مستعداً لإطلاق السهم، ورفع تيموجن ذقنه بحركة صغيرة، دلالة على أنه يعرف.

همس كوكي: "أهلاً بك إلى المخيم".

قال تيموجن: "بصوت أعلى".

قال كوكي مجدداً عبر أسنان تصطك غضباً: "أهلاً بك".

أجاب تيموجن: "ممتاز". واستدار في السرج إلى الرجل الذي كان ما يزال ينتظر مع القوس المشدود.

قال له: "إذا أطلقت ذلك السهم، سأسحبه وأدفع به في حنجرتك". طرفت

عينا الرجل وحدّق به تيموجن حتى أخفض رأس النصل الحاد مرتبكاً. وسمع لهاث كوكي خلفه بعد أن أبعد أرسلان السيف وسحب نفساً عميقاً، ووجد لدهشته أنه يستمتع بذلك.

قال وهو يربت على ظهر قريبه: "قد فرسك برفقتنا يا كوكي. لقد جئت من أجل زوجتي".

لم يكن ممكناً دخول المخيم دون زيارة خان أولخونوت. غصّ تيموجن، وتذكر لعبة المراكز التي مارسها ياسوجي مع سانسار، وكانت بين خان وآخر. رفع رأسه شامخاً، ولم يكن يشعر بالخجل فيما كان كوكي يقوده إلى خيمة سانسار في وسط المخيم. رغم نجاحاته ضد التتار، إلاّ أنه لم يكن نداً لسانسار، كما كان والده. وفي أفضل الحالات، كان قائداً حربياً، وفارساً يكاد يقترب من مستوى الشخص الذي سيستقبله. وإذا كانت تنقصه حتى تلك المكانة، كان تيموجن يعرف أن ذكرى والده وحدها ستجعل الآخرين يستمعون إليه، وربما لن تنفع ذكرى والده بشيء.

ترجل وأرسلان وسمحا بأن يتمّ اقتياد فرسيهما بعيداً، وأقواسهما عليهما. وكان كوكي قد أصبح رجلاً في السنوات التي تلت آخر مرة التقاه فيها، ونظر تيموجن باهتمام عندما شاهد أتباع الخان يسمحون لقريبه بدخول الخيمة بعد أن تمتم بضع كلمات فقط. وأدرك تيموجن أن كوكي أصبح ذا شأن رفيع. وتساءل عن الخدمة التي أسداها لخان أولخونوت.

عندما لم يعد كوكي، تذكر تيموجن شيئاً ما وضحك بصوت خافت فجأة، وأخرج أرسلان من توتره الصامت.

قال تيموجن: "إنهم يجعلونني أنتظر دائماً، هؤلاء القوم. لكنني صبور، أليس كذلك يا أرسلان؟ لقد تحملت إهاناتهم بتواضع جم". لمعت عيناه بشيء لم يكن مسلياً، ووحده أرسلان أحنى رأسه. وكانت السيطرة المطلقة على النفس التي شاهدها في تيموجن موضع اختبار في ذلك المخيم. كان

أرسلان يعتقد بوجود فرصة يلقيا فيها حتفهما من كلمة متهورة، رغم عدم وجود دليل على ذلك.

قال بلطف: "تشرّف والدك بأن تضبط نفسك. وينبغي أن تعرف أن ذلك ليس نابعاً من ضعف، وإنما من قوة".

حدق به تيموجن بحدّة، لكن بدا أن الكلمات قد هدّأت من روعه. وأبقى أرسلان وجهه خالياً من أي تعبير ارتياح بكل ما استطاع من مهارة فقد كان تيموجن في الثامنة عشرة من العمر فقط. ولوى أرسلان عنقه، وأقرّ بأن تيموجن قد اختار رفيقه بعناية لتلك الرحلة إلى الجنوب. كانا قد عرّضا نفسيهما لخطر رهيب، وكان تيموجن ثابتاً مثل أي شاب آخر في موقعه الجديد وكبريائه. جهّز أرسلان نفسه ليكون قوة التهدئة التي كان يعرف أن تيموجن يحتاج إليها عندما يكون قراره واضحاً.

عاد كوكي بعد فترة طويلة، وكان يبدو مترفعاً وصلباً مع كل حركة يخطوها.

قال: "سيراكما مولاي سانسار، لكن ستتركان أسلحتكما خارجاً".

فتح تيموجن فمه ليعترض، لكن أرسلان فك القراب بنقرة من أصابعه، ووضع مقبض سيفه في يد كوكي المفتوحة.

قال له أرسلان: "احرس السيف جيداً أيها الفتى. لن ترى سيفاً آخر بمثل جودته طوال عمرك".

لم يكن بوسع كوكي أن يقاوم إغراء حمل السيف بيده، لكن تيموجن أفسد محاولته بدفع ثاني سيوف أرسلان بين ذراعيه، وهكذا كان عليه إما أخذه أو إلقاء كليهما. شعر تيموجن بيده خالية عندما أعطاه السيف، وبقيت نظرته ثابتة على السلاحين فيما كان كوكي يتراجع للخلف.

كان أرسلان من واجه أحد أتباع الخان عند الباب، وفتح ذراعيه واسعاً وسمح له بتفتيشه. لم يكن هناك أي انفعال بالطريقة التي وقف بها هناك،

لكن تيموجن تذكر السكون القاتل لأفعى على وشك أن تهاجم. وشعر الحارس بذلك أيضاً، وفتّش كل بوصة من صانع السيوف، بما في ذلك ثنيات ردائه وكاحليه.

لم يستطع تيموجن أن يفعل أقل من ذلك، وتحمّل التفتيش دون إظهار أي تعبير، بالرغم من أنه كان قد بدأ يغلي من الداخل. ولم يكن يستطيع أن يحب هؤلاء القوم، بالرغم من أنه كان يحلم بتشكيل قبيلة عظيمة من كل قبائل تلك الأرض. وعندما يفعل ذلك، لن تكون أولخونوت جزءاً منها حتى يثخن فيهم الجراح.

عندما اقتنع التابع أنه لن يجد شيئاً، أدخل تيموجن وأرسلان إلى الخيمة، وخلال لحظة، عاد تيموجن إلى الليلة التي عرف بها بجراح والده. وكانت الأرضية الخشبية اللامعة نفسها، فيما لم يبدُ أن مرور السنين قد ترك علاماته على سانسار نفسه.

بقي خان أولخونوت جالساً عندما اقتربا منه، وكانت عيناه الداكنتان تراقبانهما والإرهاق بادٍ عليهما.

قال تيموجن بوضوح: "لي الشرف بأن أكون في حضرتكم يا مولاي".

ابتسم سانسار، وكان جلده أجعد مثل رقعة الكتابة.

"لم أكن أعتقد أنني سأراك هنا مجدداً يا تيموجن. لقد كان موت والدك خسارة لكل الأقوام، وكل القبائل".

أجاب تيموجن: "ما زال ينبغي على أولئك الذين خانوه أن يدفعوا ثمناً غالياً". وشعر بالتوتر يتصاعد في الجو عندما انحنى سانسار إلى الأمام في مقعده الكبير، كما لو أنه يتوقع المزيد. وعندما أصبح الصمت مؤلماً، ابتسم سانسار.

قال الخان بصوت يصفر في الظلمة: "سمعت عن هجماتك في الشمال. إنك تصنع لنفسك اسماً. أعتقد، نعم، أعتقد أن والدك سيكون فخوراً بك".

خفض تيموجن بصره غير واثق من كيفية الردّ.
تابع سانسار قائلاً: "لكنك لم تأتِ إليَّ لتتباهى بعدد قليل من الهجمات ضد بعض الخيالة، أنا واثق من ذلك".
كان صوته يحمل حقداً جعل تيموجن يتوتر، لكنه أجاب بهدوء.
قال وهو ينظر إلى عيني سانسار تماماً: "جئت من أجل ما وعدتموني به".
تظاهر سانسار بأنه في حيرة من أمره للحظة.
"الفتاة؟ لكنك جئت إلينا عندها كابن لخان، ووريث محتمل للذئاب. لقد كانت حادثة ومضى عليها الزمن".
أجاب تيموجن: "ليس كلها". وراقب فيما كانت عينا سانسار تطرفان، ومتعته الداخلية تتقد في نظرته. كان الرجل يسلي نفسه، وتساءل تيموجن ما إذا كان سيسمح له بالمغادرة على قيد الحياة. كان هناك تابعان في الخيمة مع خانهما، وكلاهما مسلح بسيف. كان كوكي يقف إلى أحد الجانبين ورأسه منحنٍ. في لمحة، لاحظ تيموجن أنه يستطيع انتزاع السيفين اللذين يحملهما من قبضته، فقد كان قريبه ما يزال أحمق.
أرغم تيموجن نفسه على الاسترخاء، لأنه لم يكن قد جاء ليموت في تلك الخيمة. كان قد شاهد أرسلان يقتل خصومه بضربات من يديه العاريتين، وفكر بأنهما ربما ينجوان من ضربات التابعين الأولى. إلاّ أنه عندما يتجمع المحاربون لمهاجمتهما، ستكون النهاية. أبعد تيموجن الفكرة عن ذهنه. ولم يكن سانسار يستحق أن يخسر حياته لأجله، ليس في ذلك الوقت، وليس في أي وقت.
قال بلطف: "هل تتنصل أولخونوت من كلمتها، إذاً؟"
سحب سانسار نفساً طويلاً، وتركه يخرج من بين أسنانه. وتحرك أتباعه، وأمسكت أيديهم قبضات سيوفهم.
قال سانسار: "وحدهم الشباب الذين لا يكترثون بحياتهم، ولهذا قد

يخاطرون بإهانتي في منزلي". ووقع بصره على كوكي واحتدّ عندما شاهد السيفين التوأمين.

قال: "ما الذي يستطيع مجرد فارس أن يعرضه عليَّ مقابل امرأة من أولخونوت؟"

لم يشاهد أرسلان يغلق عينيه للحظة، محاولاً عدم إظهار سخطه. كان السيف الذي يحمله قد بقي معه أكثر من عقد، وهو أفضل ما يستطيع صنعه على الإطلاق. ولم يكن لديهما شيء آخر يقدمانه. وللحظة، تساءل ما إذا كان تيموجن قد خمّن بوجود ثمن لذلك واختار أن لا يحذّره.

لم يجب تيموجن في البداية. وراقبه التابع إلى جانب سانسار مثل رجل يشاهد كلباً خطيراً، وينتظر أن يكشّر عن أنيابه ليقتله.

أخذ تيموجن نفساً عميقاً. ولم يكن هناك خيار، ولم ينظر إلى أرسلان من أجل موافقته.

قال: "أعرض عليك سيفاً ممتازاً صنعه رجل لا مثيل له بين كل القبائل. ليس ثمناً لها، لكن هدية شرف إلى قوم والدتي".

أحنى سانسار رأسه بتهذيب، وأشار إلى كوكي ليقترب منه. وأخفى ابن خال تيموجن ابتسامته وسلّمه السيفين.

قال سانسار مبتسماً: "يبدو أن لديَّ خياراً بين سيفين يا تيموجن".

راقب تيموجن الموقف محبطاً فيما كان سانسار يمرر أصابعه على المقبضين المنقوشين، ويحك طرف إبهامه بالعظم والنحاس. وقد كانا جميلين حتى في ظلمة الخيمة، ولم يستطع تيموجن سوى أن يتذكر سيف والده، ذاك السيف الأول الذي تمّ انتزاعه منه. وفي الصمت، تذكر الوعد لأشقائه وتكلم مجدداً قبل أن يجيب سانسار.

"إضافة إلى المرأة التي وُعدت بها، أحتاج إلى اثنتين أخريين لتكونا زوجتين لقريبين لي".

هزّ سانسار كتفيه لامبالياً، وسحب سيف أرسلان ورفعه أمام عينه لينظر إليه.

"إذا منحتني كلا السيفين، سأجد عرضك مقبولاً يا تيموجن. لدينا الكثير من الفتيات في الخيام. وتستطيع أخذ ابنة شولوي إذا كانت تريد ذلك. لقد كانت شوكة في خاصرتنا لفترة طويلة جداً، ولا أحد يستطيع القول إن أولخونوت لا يفون بوعودهم".

قال تيموجن مؤكداً: "سآخذها مع اثنتين أخريين شابتين وقويتين؟"

نظر إليه سانسار لفترة طويلة، ووضع السيفين في حضنه. وأخيراً، أومأ برأسه بتحفظ.

"إكراماً لذكرى والدك يا تيموجن، سأمنحك ابنتين من أولخونوت. ستجعلان ذريتك أقوى".

كان تيموجن يرغب بأن يمد يده ويمسك بالخان من حنجرته الضعيفة، لكنه أحنى رأسه فيما علت الابتسامة وجه سانسار.

كانت يدا الخان النحيلتان ما تزالان تربتان على السلاحين وأصبحت نظرته بعيدة، وبدا أنه قد نسي تقريباً الرجال الذين يقفون أمامه. وبإيماءة ذات مغزى، أشار إلى الثنائي لينصرفا من أمامه. وقادهما التابعان إلى الهواء البارد وسحب تيموجن نفساً عميقاً منه، وكان قلبه يخفق بقوة في صدره.

كان وجه أرسلان يشتعل غضباً، ومدّ تيموجن يده ليلمسه بلطف من معصمه. وبدا أن صانع السيوف سيقفز من تلك الحركة لكن تيموجن بقي ساكناً، وشعر بأن القوة داخل الرجل تضطرم وتهدأ فيه.

قال أرسلان: "كانت هدية أعظم مما تعتقد".

هزّ تيموجن رأسه، وشاهد كوكي يخرج خلفه، وذراعاه خاليتان. وأجابه قائلاً: "السيف مجرد سيف". واستدار أرسلان بوجه قاسٍ نحوه، لكن تيموجن لم يفزع منه.

"ستصنع أفضل منهما، لكلينا".

عندها استدار إلى كوكي الذي كان يسمع الحديث بمتعة.

"خذني إليها يا ابن خالي".

رغم أن أولخونوت ارتحلت بعيداً في السنوات التي تلت وقوفه في مخيمهم آخر مرة، إلاّ أنه كان واضحاً أن مركز شولوي وعائلته بقي على حاله. قاد كوكي تيموجن وأرسلان نحو حافة الخيام البعيدة إلى الخيمة المرقعة التي يتذكرها. كان قد قضى بضعة أيام قصيرة فقط هناك، لكنها كانت ما تزال حية في ذاكرته، لم يكن سهلاً أن ينسى تيموجن ماضيه. كان آنذاك أكبر من طفل بقليل. وكرجل، تساءل ما إذا كانت بورت سترحب بعودته. وكان سانسار سيخبره بالتأكيد إن كانت قد تزوجت في غيابه! فكّر تيموجن متجهماً أن خان أولخونوت ربما يكون قد استمتع بالحصول على السيفين الرائعين مقابل لا شيء.

فيما كان كوكي يقترب، شاهدا شولوي يخرج من الباب الصغير، يتمطّى ويشد حزاماً من الخيوط. شاهدهم الرجل العجوز قادمين، وحجب عينيه عن شمس الصباح ليراهم جيداً. كانت السنون قد تركت علامات على شولوي أكثر من الخان. وكان أكثر نحولاً مما يتذكر تيموجن، وكانت كتفاه متراخيتين تحت رداء قديم متسخ. وعندما أصبحوا على مقربة من بعضهم، استطاع تيموجن أن يرى شبكة من العروق الزرقاء على يديه المليئتين بالعقد، وبدا أن الرجل العجوز على وشك أن يتكلم كما لو أنه قد تعرف عليهم في تلك اللحظة. لم يكن هناك شك بأن عينيه أصبحتا ضعيفتين، رغم وجود علامة على قوة باقية في تلك الساقين، مثل جذر قديم سيبقى منتصباً إلى اللحظة التي يتحطم بها كلياً.

قال شولوي وهو يمسح أنفه بظاهر يده: "اعتقدت أنك مت". وهزّ تيموجن رأسه.

"ليس بعد. قلت إنني سأعود".

بدأ شولوي يصفر، واستغرق الأمر لحظة أو اثنتين قبل أن يدرك تيموجن أنه كان يضحك. وانتهى الصوت بغصة، ولا حظ أن شولوي يتنحنح ويبصق كتلة من البلغم البني البشع المنظر على الأرض.

تنحنح كوكي بنزق.

قال كوكي: "منح الخان إذنه يا شولوي. أحضر ابنتك".

سخر شولوي منه وقال: "لم أرَه هنا عندما تداعت خيمتي في الشتاء الماضي. لم أرَ سانسار العجوز في الرياح معي عندها، مع رقعة وبعض الخيوط. وأفكر بذلك الآن، ولا أراه هنا الآن؛ لهذا احفظ لسانك عندما تتكلم".

تورّد كوكي غضباً، وأدار عينيه إلى تيموجن وأرسلان.

قال تيموجن: "أحضر الفتاتين الأخريين يا كوكي من أجل شقيقيّ. لقد دفعت ثمناً باهظاً؛ لهذا تأكد أنهما قويتان وجميلتان".

كافح كوكي ليضبط أعصابه، وكان غاضباً لأنهما طلبا منه الانصراف. ولم ينظر إليه تيموجن أو أرسلان فيما كان يمشي مبتعداً عنهما.

سأل تيموجن عندما ابتعد ابن خاله: "كيف حال زوجتك؟"

هزّ شولوي كتفيه استخفافاً وقال: "ميتة منذ فصلي شتاء. لقد استلقت على الثلج ورحلت. بورت هي كل ما أملك الآن، لتعتني بي".

شعر تيموجن بقلبه يقفز لدى سماعه اسمها. وحتى تلك اللحظة، لم يكن يعرف حق المعرفة أنها ما تزال على قيد الحياة. ومضت عيناه تفهماً لوحدة الرجل العجوز، لكن لم يكن يستطيع فعل شيء حيال ذلك، كما لم يستطع فعل شيء مع كل الضربات والكلمات القاسية التي كان يوجهها لابنته. كان الوقت قد فات على إظهار الندم، بالرغم من أن تلك بدت طريقة الطاعنين في السن.

بدأ تيموجن يقول: "أين...؟" وقبل أن يستطيع متابعة كلامه، انفتح باب الخيمة وخرجت منه امرأة إلى الأرض الباردة. وفيما كانت تعدل وقفتها، لاحظ تيموجن أن بورت قد ازدادت طولاً، وأنها أصبحت بمثل طوله تقريباً. ووقفت إلى جانب والدها، وقابلت نظرته بفضول واضح، وأحنت رأسها أخيراً ترحيباً بهما. كسرت إيماءتها الجمود، وشاهد أنها ترتدي ملابسها استعداداً للسفر، مع رداء مخطط بالفرو وشعرها الأسود مربوط خلف رأسها.

قالت لتيموجن: "تأخرت بالعودة".

تذكر صوتها، وشعر بضيق في صدره من الذكريات. ولم تعد آنذاك تلك الطفلة النحيلة التي كان يعرفها. كان وجهها قوياً، وكانت عيناها داكنتين وتبدوان كأنما تنظران إليه مباشرة. لم يكن يستطيع تمييز شيء آخر فيها تحت الرداء السميك، لكنها كانت تقف منتصبة وجلدها خالٍ من علامات الأمراض. ولمع شعرها عندما انحنت، وقبّلت والدها من وجنته.

قالت: "ينبغي معالجة حافر الفرس السوداء، وكنت سأقوم بذلك اليوم".

أومأ شولوي بتعاسة، لكنهما لم يتعانقا. التقطت بورت حقيبة قماشية من داخل الخيمة، ورفعتها على كتفها.

كان تيموجن مشدوهاً بها، واستطاع بالكاد أن يسمع كوكي يعود مع الفتاتين. وكانتا فتاتين يافعتين تمشيان إلى جانبه، وتتوردان خجلاً وتبكيان. وألقى تيموجن نظرة خاطفة على كلتيهما عندما سعلت إحداهما ووضعت قطعة قماش متسخة على فمها.

قال لكوكي: "هذه الفتاة مريضة".

هزّ ابن خاله كتفيه بوقاحة، وامتدت يد تيموجن إلى حيث كان ينبغي أن يجد السيف. وشاهد كوكي الأصابع تنقبض في الهواء وابتسم.

أجاب: "إنها الفتاة التي طلب مني سانسار إحضارها لك، مع شقيقتها".

أغلق تيموجن فمه بصمت مطبق، ومدّ يده، وأمسك الفتاة من ذقنها، ورفع وجهها إليه. وأدرك أن جلدها كان شاحباً جداً، وشعر بغصة في قلبه. كان من عادة سانسار أن يسعى إلى تعديل أي صفقة حتى بعد الاتفاق على الشروط.

سألها تيموجن: "منذ متى أنتِ مريضة أيتها الصغيرة؟"

أجابته وكان واضحاً أنها خائفة منه: "منذ الربيع يا مولاي. والمرض يأتي ويذهب، لكنني قوية".

وقع بصر تيموجن على كوكي وأبقاه هناك حتى اختفت ابتسامة ابن خاله. ربما كان يتذكر الضرب الذي تلقاه على يدي تيموجن في تلك الليلة البعيدة. تنهد تيموجن لأن الفتاة ستكون محظوظة إذا نجت في رحلة العودة إلى مخيمه في الشمال. وإذا ماتت، كان على أحد أشقائه أن يجد زوجة بين نساء التتار اللواتي سباهن.

أمسك أرسلان باللجام، وامتطى تيموجن الفرس، ونظر إلى الأسفل نحو بورت. لم يكن السرج الخشبي يتسع لاثنين، لهذا مدّ ذراعه، وأمسكت بها بورت لتصعد وتجلس في حضنه وهي تشد حقيبتها إليها. وفعل أرسلان الشيء نفسه مع الفتاة التي كانت تسعل. وكان على شقيقتها أن تسير خلفهم. أدرك تيموجن أنه كان ينبغي عليه إحضار المزيد من الجياد، لكن الوقت كان قد فات على الندم.

أومأ إلى شولوي وهو يعرف أنهما لن يلتقيا مجدداً.

قال: "لقد وفيت بوعدك أيها الرجل العجوز".

أجاب شولوي، بالرغم من أن نظرته لم تفارق ابنته: "اعتنِ بها".

دون أن يجيب، استدار تيموجن مع أرسلان وشق الجميع طريقهم عائدين عبر المخيم، وفتاة أولخونوت تهرول خلفهم.

كان لدى أرسلان حدس جيد ليتركهما وحدهما تلك الليلة. وكان صانع السيوف ما يزال مكتئباً من خسارة سيفيه وفضّل أخذ قوس والذهاب للصيد فيما كان تيموجن يتعرف إلى امرأة أولخونوت. كانت الشقيقة التي قطعت تلك المسافة مشياً متقرحة القدمين ومرهقة عندما توقفوا ذلك المساء. وعرف تيموجن أن اسمها إلوين وأنها كانت تعتني بشقيقتها ماخدا بعد أن أنهكها المرض. وترك تيموجن الشقيقتين مع الفرسين بعد أن تناولوا الطعام، لكنه كان ما يزال يسمع سعال ماخدا القوي في فترات متباعدة. كانتا قد أخذتا أغطية الفرسين لتحميهما من البرد، بالرغم من أن قدرة أي من الشقيقتين على الاحتمال لم تبدُ كبيرة. فكّر تيموجن أنه إذا عاشت ماخدا حتى تصل إلى الشمال، فإن والدته ربما تستطيع إيجاد أعشاب تفيدها، لكن الأمل في ذلك كان ضعيفاً.

لم تتكلم بورت فيما كان تيموجن يفرد غطاء على الأرض إلى جانب النار اللاهبة. وكان معتاداً على النوم دون شيء يحميه من الصقيع سوى ردائه، ولم يكن صائباً الطلب منها القيام بالشيء نفسه. لم يكن تيموجن يعرف الحياة التي اعتادتها، ولا كيف عاملها شولوي بعد ذهابه. ولم يكن قد نشأ بين شقيقات، كما أنه لم يكن مرتاحاً معها بطريقة لم يفهمها تماماً.

كان يريد أن يتكلم معها ويصغي إليها أثناء سفرهما، لكنها جلست منتصبة مشدودة الظهر، تتأرجح مع حركة الفرس، وتحدق بالأفق. كان قد فوّت فرصة فتح حديث بشكل طبيعي، وبدا أن هناك توتراً بينهما لم يستطع تهدئته آنذاك.

عندما عاد أرسلان من صيده، لعب دور التابع بفعاليته المعتادة. وذبح غريراً كان قد اصطاده، وشوى شرائح اللحم حتى أصبحت بنية وشهية. وبعد ذلك، نأى بنفسه إلى مكان قريب، واختفى في الظلام الدامس. وانتظر

تيموجن إشارة ما عن قبول أرسلان للصفقة التي حصل بموجبها على زوجته، لكن لم يكن هناك شيء سوى صمت متجهم من الرجل العجوز.

فيما كانت النجوم تتحرك شمالاً، بدأ تيموجن يتململ بعد أن فقد القدرة على الاسترخاء. كان قد رأى نعومة جلد بورت الذي لفحته الشمس عندما كانت تغسل وجهها وذراعيها في جدول بارد بما يكفي ليجعل أسنانها تصطك. ولاحظ أنها كانت أسناناً جيدة، قوية وبيضاء. ولفترة من الوقت، فكّر أن يتغزل بأسنانها، لكن ذلك بدا مثل الإعجاب بفرس جديدة، ولهذا لم تخرج الكلمات من فمه. لم يكن يستطيع أن يتظاهر بأنه لا يريدها تحت غطاء معه، لكن سنين الفراق وقفت بينهما مثل جدار. وإذا سألته، سيقول لها كل شيء فعله منذ آخر مرة التقيا فيها، لكنها لم تفعل، ولم يكن يعرف كيف يبدأ.

عندما كان يستلقي هناك تحت النجوم، كان يأمل بأن تسمع الطريقة التي ينفخ بها الهواء من فمه بتنهيدات كبيرة، لكن إذا كانت قد سمعت، لم تكن هناك أية إشارة على أنها مستيقظة. وربما كان وحيداً في العالم، وكان ذلك ما يشعر به تحديداً. تخيل البقاء مستيقظاً حتى الفجر لتلاحظ تعبه وتشعر بالأسى لتجاهله. كانت تلك فكرة مثيرة للاهتمام، لكنه لم يكن يستطيع تجاهل الشعور بالشهامة الجريحة لفترة طويلة.

قال فجأة دون تفكير: "هل أنتِ مستيقظة؟" وشاهدها تجلس تحت النجوم.

أجابت: "كيف أستطيع النوم وأنت تنفخ وتزفر الهواء بتلك الطريقة؟"

تذكر آخر مرة سمع فيها ذلك الصوت في الظلام، والقبلة التي تبعت ذلك. كانت الفكرة مثيرة وشعر بحرارة تسري في جسده تحت ردائه، رغم الهواء الشديد البرودة.

قال: "كنت أعتقد أننا سنقضي الليلة الأولى تحت غطاء معاً". ورغم

أفضل نواياه، خرج الكلام مثل شكوى نزقة وسمعها تتأفف قبل أن تجيب.

قالت: "من يستطيع مقاومة مثل هذه الكلمات العذبة؟"

انتظر على أمل أن تضيف شيئاً، لكنّ صمتها المتواصل كان كافياً كجواب. وكان واضحاً أنها تستطيع القيام بذلك. وتنهد عندما سمعها تقهقه ليشغل نفسه بالصوت الذي سرعان ما اختفى تحت الغطاء. وفي الظلام، ابتسم منتشياً فجأة.

قال: "لقد فكرت فيك عدة مرات في السنوات التي انقضت". وشاهد شكلها يتحرك عندها، وخمّن أنها قد استدارت نحوه. واستلقى على جانبه في مواجهتها وحك أنفه حيث دغدغت أعشاب رطبة جلده.

تمتمت: "كم مرة؟"

فكر للحظة وقال: "إحدى عشرة مرة. اثنتا عشرة، بما فيها الليلة".

قالت له: "لم تفكر بي. ما الذي تتذكره عما كنت عليه؟"

قال: "أتذكر أنه كان لك صوت عذب، وبعض المخاط تحت أنفك". وكان في صوته رنة صدق دفعتها لتلتزم الصمت مذهولة.

أخيراً قالت: "انتظرت مجيئك فترة طويلة لتأخذني بعيداً عن والدي. كانت هناك أمسيات حلمت بها بعلو شأنك وأنك أصبحت خاناً للذئاب".

توتر تيموجن في الظلام. هل كان ذلك يعني ما سمعه حقاً؟ هل جعله وضعه الحالي أدنى مرتبة في عينيها؟ ورفع نفسه على مرفقه ليجيبها، لكنها تابعت الكلام غير مكترثة بتغير مزاجه السريع.

قالت: "رفضت ثلاثة شباب من أولخونوت، وكان آخرهم عندما كانت والدتي مريضة ومن غير المحتمل نجاتها في ذلك الشتاء. وضحكت النسوة على الفتاة التي تتوق إلى ذئب، ورغم ذلك كنت أمشي بفخر بينهن".

قال تيموجن باعتداد بالنفس: "كنت تعرفين أنني سأعود".

تأففت، وقالت: "اعتقدت أنك مت، لكنني لم أرد الزواج بفحل من

الخيام، لأحمل أطفاله. لقد ضحكوا من كبريائي، لكن ذلك كان كل ما أملكه".

حدّق في الظلام، محاولاً أن يفهم الصراع الذي واجهته، والذي ربما كان عظيماً بطريقة ما مثل صراعه. وإذا كان قد تعلم أي شيء في حياته، فهو أن هناك ناساً ينجحون في الوحدة ويستمدون القوة منها. كان هؤلاء أشخاصاً خطرين ومفعمين بالحيوية والنشاط والذين يحافظون على كل ما يميزهم. بدا أن بورت واحدة من هؤلاء. وهو نفسه كان واحداً منهم. وفكّر بوالدته للحظة، وكانت قد طلبت منه أن يكون لطيفاً.

قال بلطف: "في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى أولخونوت، منحوك لي، وقبلك والدي. وفي المرة الثانية، ذهبت بملء إرادتي للبحث عنك".

قالت بحرج: "أردت أن تضع بذورك داخلي".

كان يتمنى أن يرى وجهها في الظلام.

قال: "هذا صحيح. أريد حيويتك في أبنائي وبناتي: أفضل ما في أولخونوت، وأفضل ما في الذئاب".

سمع خشخشة، وشعر بدفئها عندما اقتربت زحفاً منه، وسحبت غطاءها فوقهما.

همست في أذنه بشكل أثاره: "قل لي إنني جميلة".

أجاب بصوت أصبح أجشاً: "أنتِ كذلك". ومرر يديه عليها في الظلام، وفتح رداءها وشعر بنعومة بطنها. "أسنانك ناصعة البياض". سمعها تضحك بصوت خافت في أذنه على تلك الملاحظة، لكنّ يديه تحركتا عليها ولم يكن لديه المزيد من الكلمات ليقولها، ولم يكن يحتاج إليها.

كان صباح اليوم التالي زاهياً بشكل غريب عندما قاد تيموجن فرسه مع بورت. وبدا أن مشاعره تجيش بشكل يكاد يؤلمه. في كل مرة كان يتلامس فيها الجسدان، كان يفكر بالليلة السابقة والليالي التي ستأتي، منتشياً من

التجارب والقرب.

لم يقطعوا مسافة كبيرة بالرغم من أن أرسلان أمسك باللجام وسمح للشقيقتين بركوب الفرس معاً معظم فترة بعد الظهر. توقفوا للصيد، واستعمل الرجلان القوسين حتى أصبح لديهم ما يكفي من اللحم لشيه تلك الليلة. بدا أن سعال ماخدا يصبح أسوأ بعيداً عن ملاذ خيام أولخونوت، وكان يمكن سماع شقيقتها تنشج كلما اعتنت بها. تكلم أرسلان بلطف مع كل منهما، ولكن عندما انقضى الشهر الأول، كان ينبغي تقييد ماخدا إلى السرج حتى لا تقع من ضعفها. ورغم أنهم لم يتكلموا بالأمر، إلاّ أن أحداً منهم لم يكن يتوقع أن تعيش طويلاً.

كان اخضرار الأرض يضمحل كلما تقدموا شمالاً، وفي صبيحة أحد الأيام، استيقظ تيموجن على منظر تساقط الثلج. كان ملتحفاً بالأغطية مع بورت، وقد ناما بعمق بعد أن أرهقهما البرد والسهول الشاسعة التي لا نهاية لها. دفعت رؤية الثلج معنويات تيموجن إلى الانخفاض، ووضعت حداً للوقت السعيد، والذي ربما كان فيه أكثر سعادة من أي وقت مضى. كان يعرف أنه يعود إلى المشقة والقتال، وقيادة إخوانه إلى حرب مع التتار. شعرت بورت ببرودة مشاعره، وتراجعت أمامها، وهكذا كانا يقضيان ساعات اليوم في صمت غريب، فيما كانا يتحادثان من قبل مثل الطيور.

كان أرسلان من شاهد المتجولين أولاً على مسافة بعيدة، فتكلم مخرجاً تيموجن من أحلام يقظته. وكان ثلاثة رجال قد جمعوا قطيعاً صغيراً في ملاذ على التل، ونصبوا خيمة متسخة هناك لتقيهم برد الشتاء. منذ أن أخذ سانسار سيفيهما، كان تيموجن يخشى مثل ذلك اللقاء. ومع بورت بين ذراعيه، شتم نفسه بصوت خافت. من بعيد، امتطى الغرباء جيادهم بسرعة، ودفعوا بها للهرولة. وربما كانت نواياهم سلمية، لكن رؤية ثلاث شابات كانت ستدفعهم إلى العنف. شدّ تيموجن اللجام، وأنزل بورت إلى

الأرض. سحب قوسه من قطعة القماش التي تغطيه، ووضع أفضل سهامه الباقية عليه، وفتح غطاء كنانته. وشاهد أن أرسلان كان جاهزاً. وكان صانع السيوف قد قطع الحبل الذي يربط ماخدا إلى السرج، وتركها لتجلس على الأرض المتجمدة مع شقيقتها. وعندما كان يحل مكانها، تبادل وتيموجن النظرات.

صرخ أرسلان: "هل ننتظر؟"

شاهد تيموجن المحاربين على جيادهم التي تقترب عدواً، وتمنى لو أن لديه سيفاً. ولم يكن ممكناً لثلاثة متجولين مساكين أن يمتلكوا سيفاً طويلاً، والذي سيكون كفيلاً بجعل المحصلة مؤكدة.

صرخ عبر الرياح: "لا. سنقتلهم".

سمع الشقيقتان تنوحان خوفاً وراءهما فيما كان يدفع بعقبيه على جانبي فرسه ويجهّز قوسه. وإلى جانب ما كان يعتمل في نفسه، كانت هناك إثارة في قيادته الفرس وحده، كان يستطيع تثبيت نفسه بشكل ممتاز ليرسل الموت من قوسه.

بدت المسافة بينهم طويلة عندما ساروا على طول السهل، ثم أصبحوا فجأة قريبين من بعضهم البعض وكانت الرياح تعصف في آذانهم. أصغى تيموجن إلى وقع حوافر فرسه تضرب الأرض، وشعر بالتناغم. وكان هناك هدف من جعل الفرسين تهرولان بخطوات واسعة حتى ترتفع القوائم الأربع كلها عن الأرض لبرهة من الزمن فقط. وكان ياسوجي قد علمه أن يطلق سهمه في تلك اللحظة، حتى تكون تسديدته متقنة دائماً.

لم يكن الرجال الذين واجهوهما قد تدربوا على ذلك سنين طويلة. وأساؤوا تقدير المسافة نتيجة الإثارة التي كانوا يشعرون بها. وطنّت السهام الأولى فوق الرؤوس قبل أن يصل تيموجن وأرسلان إليهم. وارتفع وقع الحوافر، ومرة تلو الأخرى كان هناك لحظة الحرية تلك عندما ترتفع

الفرسان عن الأرض. وأطلق تيموجن وأرسلان سهميهما معاً، واختفى السهمان بعيداً.

تهاوى المحارب الذي استهدفه أرسلان عن السرج، وسقط عنه مع سهم في صدره. وفزعت فرسه بقوة، وركلت بقوائمها في الهواء وقفزت بهياج. وكانت ضربة تيموجن محكمة، واستدار الرجل الثاني ليسقط على الأرض المتجمدة محدثاً صوتاً مكتوماً. شاهد تيموجن الثالث يطلق سهمه عندما مرّ بينهم مستهدفاً صدره تماماً.

رمى بنفسه إلى الجانب. ومرّ السهم فوقه، لكنه كان قد نزل إلى الأسفل كثيراً، ولم يستطع دفع نفسه إلى الأعلى. صرخ غضباً عندما انزلقت قدمه من الركاب، ووجد نفسه يتشبث بعنق فرسه المندفعة بسرعة كبيرة. كانت الأرض تمرّ بسرعة تحته فيما كان يشد اللجام بقسوة، وتسبب وزنه بشد اللجام من فم الفرس وانزلق على إثر ذلك قدماً أخرى إلى الأسفل. ولبضع لحظات، كان ينجرف على طول الأرض الجليدية، ثم فتح بإرادة كبيرة يده القابضة على اللجام وسقط، وحاول يائساً أن يتدحرج بعيداً عن الحوافر التي كادت تسحقه.

تابعت الفرس الهرولة بدونه، وكان صهيلها يتضاءل في صمت الثلج. استلقى تيموجن على ظهره، يصغي إلى أنفاسه المجهدة ويستجمع قواه. وكان كل جسده يؤلمه ويداه ترتعشان. وطرفت عيناه وترنح عندما جلس، ونظر إلى الخلف ليرى ما حل بأرسلان.

كان صانع السيوف قد وضع سهمه الثاني في صدر فرس المحارب، مما تسبب بوقوعه على الأرض. وفيما كان تيموجن يراقب ما يجري، وقف الغريب يترنح على قدميه، وكان واضحاً أنه مصاب بالدوار.

سحب أرسلان سكيناً من ردائه، ومشى بهدوء ليجهز على الرجل. وحاول تيموجن أن يصرخ، لكن فيما كان يسحب نفساً، شعر بألم مفاجئ في صدره

وأدرك أن أحد أضلاعه كُسر عندما وقع. وبجهد كبير، وقف وملأ رئتيه بالهواء.

نادى، فزعاً من اللسعة الحادة التي شعر بها: "توقف يا أرسلان!"

سمعه صانع السيوف، وتوقف ساكناً يراقب الرجل الذي كان قد أوقعه أرضاً. ضغط تيموجن يده على أضلاعه، وتحامل على الألم فيما كان يعود سيراً على الأقدام.

راقبه المتجول المستسلم لقدره يقترب منه. كان رفيقاه كومتين بلا حراك. وكانت فرساهما جاثمتين على الأرض ولجام كل منهما متشابك ومتداخل ببعضه. كانت فرسه مستلقية تحتضر على الأرض الجليدية. وعندما اقترب تيموجن، شاهد المتجول يمشي إلى الفرس المصابة ويدفع سكيناً في رقبتها. اضطربت قوائمها وسال الدم الأحمر غزيراً يتصاعد منه البخار. مكتبة الرمحي أحمد

لاحظ تيموجن أن الغريب كان قصيراً ومفتول العضلات، وأن جلده داكن الحمرة وعينيه غائرتان تحت حاجبين كثيفين. كان قد لفّ نفسه بعدة طبقات من القماس اتقاء للبرد ويعتمر قبعة مربعة الشكل تتناسب وشكله. ومع تنهيدة، ابتعد عن فرسه الميتة وأشار إلى أرسلان بسكينه الملوثة بالدماء.

قال: "تعال واقتلني، إذاً. وشاهد ما لديَّ لك".

لم يتحرك أرسلان، بالرغم من أنه استدار إلى تيموجن.

صرخ تيموجن على الرجل وهو يقطع المسافة بينهما: "ما الذي تراه يحدث هنا؟" وأبعد يده عن جانبه فيما كان يتكلم وحاول أن يستقيم في مشيته، بالرغم من أن كل نَفس كان يرسل موجة ألم عبره. ونظر إليه الرجل كما لو أنه مجنون.

قال: "أتوقع أن تقتلوني كما قتلتم صديقيّ، إلاّ إذا كنتما ستمنحانني فرساً

وإحدى نسائكم؟"

ضحك تيموجن بصوت خافت، ونظر إلى حيث كانت بورت تجلس مع إلوين وماخدا. واعتقد أنه يستطيع سماع السعال حتى من تلك المسافة البعيدة.

قال: "يمكن تأجيل ذلك إلى ما بعد تناول الطعام. أمنحك حقوق الضيف".

تغضن وجه الرجل ذهولاً.

"حقوق الضيف؟"

"لِمَ لا؟ إنها فرسك التي سنأكلها".

عندما قادوا جيادهم في صبيحة اليوم التالي، كانت الشقيقتان تمتطيان فرسين وكان لديهم محارب آخر للغارات ضد التتار. لم يكن الوافد الجديد يثق بتيموجن على الإطلاق، لكن مع الحظ، كان ارتيابه وارتباكه سيدومان حتى وصولهم إلى المخيم في الثلوج. وإذا لم يكن قد تخلص منهما في ذلك الوقت، كان سيلقى حتفه سريعاً.

هبت الرياح قاسية عليهم، كان الثلج يلسع عيونهم عندما يدخل إليها وأي قطعة مكشوفة من جلودهم. جلست إلوين على ركبتيها في الثلج، تنتحب إلى جانب جثة شقيقتها. ولم تكن ماخدا قد ماتت بسهولة. وكان البرد المتواصل قد جعل الداء في رئتيها أسوأ. خلال دورة القمر الماضية، كان كل صباح يبدأ وإلوين تربت على ظهرها وصدرها حتى تخرج خثرات حمراء كبيرة من الدم والبلغم من فمها وتستطيع أن تبصق. عندما أصبحت ضعيفة للغاية، كانت إلوين تستعمل أصابعها لتنظيف فم وحنجرة شقيقتها، فيما كانت ماخدا تنظر برعب وتختنق، وتحاول يائسة استنشاق نفحة من الهواء المتجمد. كان جلدها قد أصبح مثل الشمع، وفي اليوم الأخير، كانوا يستطيعون سماع أنفاسها المجهدة كما لو أنها تتنفس عبر

مزمار. وكان تيموجن قد استغرب من قدرتها على التحمل، وفكّر أكثر من مرة في منحها نهاية سريعة بسكين تحزّ عنقها. وكان أرسلان قد ضغط عليه للقيام بذلك، لكن ماخدا كانت تهزّ رأسها بإرهاق في كل مرة يعرض ذلك عليها، حتى النهاية.

كان قد مضى على ترحالهم قرابة الثلاثة شهور بعد أن غادروا أولخونوت عندما تهاوت عن السرج، ومالت إلى جانبها على الحبال التي تربطها بحيث لم تستطع إلوين أن تشدها إلى الأعلى. وأنزلها أرسلان أرضاً حينها وبدأت إلوين تنشج، لكنّ الصوت كان يضيع في وجه الريح العاتية.

قالت بورت لإلوين وهي تضع يداً على كتفها: "ينبغي أن نتابع الطريق. لقد رحلت شقيقتك من هنا الآن".

أومأت إلوين برأسها، صامتة وعيناها حمراوان. وجهّزت جثة شقيقتها بأن وضعت يديها متشابكتين على صدرها. كان الثلج سيغطيها، وربما قبل أن تجدها الحيوانات، في كفاحها من أجل البقاء.

كانت إلوين ما تزال تنتحب عندما سمحت لأرسلان بأن يرفعها إلى السرج. ونظرت إلى الخلف على الجسد الضئيل لوقت طويل قبل أن تحجبه المسافة البعيدة عن البصر. ولاحظ تيموجن أن أرسلان أعطاها قميصاً إضافياً ارتدته تحت ردائها. كانوا جميعاً يشعرون بالبرد رغم طبقات القماش والفرو. وكان الإرهاق قد استنزفهم، لكن تيموجن عرف بأن مخيمه لا يمكن أن يكون بعيداً. وكان نجم القطب قد ارتفع عالياً أثناء سفرهم شمالاً، وخمّن أنهم قد أصبحوا في أراضي التتار. وعلى الأقل كان الثلج يخفيهم عن أعدائهم، إضافة إلى إخفائهم عن أشقائه وجيلم.

عندما كانوا يريحون الجياد ويمشون مجهدين عبر الثلج على أقدامهم المتجمدة، كانت بورت تمشي مع تيموجن، وذراع كل منهما مشبوكة بردن الآخر العريض، وهكذا كان جزء واحد منهما على الأقل يشعر بالدفء.

قالت بورت دون أن تنظر إليه: "ينبغي أن تجد كاهناً لتزويجنا".
مشوا ورؤوسهم محنية من شدة الرياح، والثلوج عالقة على رموشهم مثل عفاريت الشتاء. وزفر موافقاً، وشعرت بقبضته تشتد على ذراعها.
قالت: "لم أحض هذا الشهر".
أومأ بشكل مبهم، وهو يضع قدماً أمام الأخرى. وكانت الجياد نحيلة جداً دون أعشاب جيدة، وستتداعى أيضاً في وقت قريب. بالتأكيد كان الوقت قد حان لامتطائها مجدداً لبضع ساعات؟ كانت ساقاه تؤلمانه، وبقي ضلعه المكسور يؤلمه كلما اهتز اللجام.
توقف في الثلج واستدار نحوها.
قال متشككاً: "هل أنتِ حامل؟"
انحنت بورت إلى الأمام، وحكّت أنفها بأنفه.
"ربما. أعتقد أنني حامل". وشاهدته يصحو من ذهوله وابتسامة تعلو وجهه.
قال: "سيكون ابناً قوياً نظراً لهذه البداية في مثل هذه الرحلة". وعصفت الرياح بقوة فيما كان يتكلم بحيث كان عليهما أن يستديرا إلى الجانب الآخر. ولم يكونوا يستطيعون رؤية الشمس، لكن ضوء النهار كان يتلاشى وصرخ على أرسلان ليبحث عن مأوى.
عندما بدأ أرسلان يستطلع المكان حولهم بحثاً عن مكان يقيهم الرياح، التقط بصر تيموجن حركة خاطفة عبر طبقات الثلج. شعر بالخطر، وأطلق صفيراً ضعيفاً نحو أرسلان ليعود. نظر المتجول باستهزاء إليه، وسحب سكينه بصمت، وهو يحدق في الثلج.
انتظر ثلاثتهم بصمت يشوبه التوتر عودة أرسلان فيما كان الثلج يلتف بسرعة حولهم. وكانوا عمياناً تقريباً في وسطه، لكنّ تيموجن اعتقد مجدداً أنه شاهد شكل رجل يمتطي فرساً، كأنه خيال. وطرحت عليه بورت سؤالاً،

لكنه لم يسمعها فيما كان يهزّ الثلج عن غطاء قوسه ويربط الوتر المصنوع من الجلد المدبوغ إلى أحد طرفيه. ومع زفير ناجم عن الإجهاد، أدرك أن الوتر قد أصبح رطباً رغم لفه بالقماش. واستطاع شد العقدة على الطرف الآخر، لكنه أصدر صوت صرير ينذر بالشؤم وفكر أنه قد ينكسر بسهولة عند أول استعمال له. أين كان أرسلان؟ واستطاع سماع صهيل الجياد وهي تعدو في مكان قريب، وتردد صدى الصوت في البراري البيضاء حتى لم يعد واثقاً من الاتجاه الذي يأتي منه. ومع سهم على الوتر، استدار حول نفسه، يصغي السمع. كانوا قريبين منه. وسمع المتجول يطلق صوتاً خافتاً من بين أسنانه، ويجهّز نفسه لصد الهجوم. ولاحظ تيموجن كيف أن الرجل احتفظ برباطة جأشه، وكان شاكراً لوجود رجل آخر شجاع يقف إلى جانبه. رفع تيموجن القوس المهترئ، وشاهد أشكالاً داكنة وسمع أصواتاً تصرخ، ولبرهة من الزمن، تخيل أن التتار قادمون من أجل رأسه.

سمع صوتاً يقول: "هنا! إنهم هنا!"

أسقط تيموجن القوس من يده ارتياحاً عندما تعرف على كشيون، وأدرك أنه عاد إلى قومه. ووقف خدراً عندما قفز كشيون عن سرجه، وشقّ طريقه عبر الثلج ليحتضن شقيقه.

قطع تيموجن والآخرون الميل الأخير وهم يمتطون الجياد بالرغم من أنها كانت منهارة من شدّة التعب. كان المخيم الذي وصلوا إليه مقاماً على حافة صدع قديم في الأرض، ومحمياً من الرياح العاصفة بالصخور التي تطل عليه والجبل من خلفهم، وتزاحمت دزينتان من الخيام مثل نبات الأشنّة هناك فيما انتشرت الكلاب البرية والجياد المقيدة في كل بقعة محمية من الرياح. ورغم حاجته الماسة للراحة والطعام الساخن، إلاّ أن تيموجن لم يستطع منع نفسه من إمعان النظر على المكان الصاخب المخفي في الثلج. واستطاع أن يرى أن جيلم أبقى المخيم على أهبة الاستعداد للحرب. مرّ بجانبهم محاربون في طريقهم إلى نوبات مراقبة طويلة وهم يخفضون رؤوسهم من الرياح. ولاحظ تيموجن وجود رجال أكثر من النساء والأطفال بكثير، وشاهد المخيم بعيون غريب يراه لأول مرة. كانت تلك نعمة لأنهم يستطيعون امتطاء الجياد والقتال خلال وقت قصير، لكن ذلك لم يكن سيستمر إلى الأبد. وكان الرجال يتبعون قادتهم إلى الحرب، لكنهم يريدون دياراً يعودون إليها، مع لمسة امرأة في الظلام وأطفال يتجمعون حول أقدامهم مثل الجراء.

ربما يكون أولئك المتجولون الذين عرفوا الجوع والخوف راضين عن القبيلة الصغيرة في الثلج، رغم أنهم قد يكونون حذرين من بعضهم بعضاً مثل كلاب برية. كبت تيموجن نفاد صبره. سيتعلم المتجولون أن ينظروا إلى ما كانوا يعتبرونه عدواً على أنه أخ لهم. وسيتعلمون أن أب السماء لا يعرف سوى شعب واحد فقط وأنه لا يرى قبائل متفرقة. ووعد نفسه بأن ذلك سيحين في الوقت المناسب.

عندما كان يمشي عبر المخيم، أصبح أكثر يقظة، ونفض عن كاهليه التعب عندما أثارت التفاصيل اهتمامه. شاهد حراساً في مكان عالٍ على الصخور

فوق رأسه، يحاولون اتقاء الريح. لم يكن يحسدهم وفكّر بأنهم لن يشاهدوا الكثير نتيجة تواصل تساقط الثلج. كان ذلك يظهر دراية جيلم مما أسعد تيموجن. كان المخيم يبدو نشيطاً مع كل حركة بعيداً عن خمول الشتاء المعتاد الذي يؤثر على القبائل. وشعر بإثارة أبقاها مكبوتة حالما أصبح بينهم.

كانت هناك وجوه جديدة، بينها رجال ونساء نظروا إليه كما لو أنه غريب. تخيل أنهم اعتبروا مجموعته المرهقة عائلة متجولين أخرى تنضم إلى القبيلة. نظر تيموجن إلى بورت ليرى انطباعها الأولي عن قبيلته الصغيرة في الشمال. كانت شاحبة للغاية من التعب، ولكنها قادت فرسها بالقرب منه وعيناها الحادتان تلتقطان المشهد كله. لم يكن يعرف إذا كان يعجبها ما تشاهده. وعبروا خيمة كان أرسلان قد صنع داخلها كيراً من الآجر قبل عدة شهور، وشاهد تيموجن وهج النار داخلها، كان مثل لسان من الضوء على الثلج. وكان فيها رجال ونساء يتدفأون وسمع ضحكة عندما دفع فرسه للمضي قدماً. واستدار إلى صانع السيوف ليشاهد إن كان قد لاحظ ذلك، لكن أرسلان كان غافلاً عن ذلك. وكانت نظرته تدور دونما انقطاع في المخيم بحثاً عن ابنه.

خرج جيلم للقائهم حالما سمع صرخة كشيون. وخرج خاسار أيضاً مسرعاً من خيمة أخرى، وابتسم ابتهاجاً لرؤية المجموعة الصغيرة التي غابت عنهم نصف سنة. وحالما ترجلوا، جرى فتية يبتسمون لأخذ الجياد دون أن يستدعيهم أحد. ولطم تيموجن أحدهم وجعله يطأطئ رأسه، وكان سعيداً بالطريقة التي يدير بها جيلم القبيلة. ولم يكن أفرادها قد أصبحوا بدينين وبطيئين في غيابه.

كان افتخار أرسلان بابنه واضحاً، وشاهد تيموجن جيلم يحني رأسه لوالده. ولدهشة تيموجن، جثا جيلم على إحدى ركبتيه ومدّ يده ليلمس

ذراع تيموجن.

قال تيموجن بنزق: "لا يا جيلم، قف. أريد الابتعاد عن الرياح".

بقي جيلم حيث كان رغم أنه رفع رأسه.

"دع الرجال الجدد يرون ذلك يا مولاي الخان. إنهم لا يعرفونك".

فهم تيموجن المراد، وازداد تقديره لجيلم. كانت بعض عائلات المتجولين تعرف بأن جيلم أقرب ما يكون إلى خان في الشهور التي كان فيها تيموجن غائباً. وكان مهماً أن يعرفوا أن القائد الحقيقي قد عاد. ولم يجادل مرة أخرى، وسمح لجيلم بأن يضع يده على رأسه قبل أن يجعله يقف ويحتضنه.

سأل تيموجن: "هل يوجد كاهن بين الوافدين الجدد؟"

فزع جيلم من السؤال عندما كان ينهض، وقال: "يوجد كاهن، رغم أنه يسرق الشراب ويقايض حصته من الطعام بالمزيد منه كلما استطاع ذلك".

قال تيموجن: "أبقِه صاحياً لبضعة أيام إذاً. أريده أن يبارك زواجي، وسأجعله يثمل شهراً بعد ذلك".

نظر حوله مرة أخرى، ورأى أن العديد من الوجوه الجديدة قد توقفت في الثلج والريح لتشاهد المنظر. وحالما نظر في عيون أولئك الذين يعرفهم، أحنوا رؤوسهم احتراماً. ووقع بصر جيلم على بورت وإلوين، وانحنى حتى خصره.

قال: "تشرفنا بوجودكما معنا يا ابنتي أولخونوت".

لم تكن بورت تعرف ما ينبغي أن ترد به على الغريب الواثق من نفسه. وخفضت رأسها بسرعة بالمقابل، وتوردت خجلاً فيما كانت تشيح ببصرها بعيداً. ولم يكن هناك شيء في حياتها يجعلها مستعدة لتلقى الاحترام من الآخرين، وللحظة واحدة، كان عليها أن تحبس دموعها في عينيها.

بعد انتهائه من مراسم الترحيب، تحرر جيلم أخيراً، وأمسك بذراع والده

واحتضنه.

قال لأرسلان، محاولاً أن لا يبدو شديد الفخر بنفسه: "لقد جعلت التتار ينزفون". ضحك والده بصوت خافت، وربت على ظهر ابنه، وفكّر بأنه ربما يرتاح مع مرور الوقت للطريقة البسيطة التي يشجع تيموجن رجاله على التعاطي بها.

قال تيموجن بصوت خافت لم يسمعه الآخرون: "عدت إلى الديار". ولم يكن المكان أكثر من مجرد مخيم غزو صغير على أرض متجمدة، مع ما يكفي بالكاد من الطعام والمأوى لجميع من فيه، لكن لم يكن هناك شك في ذلك، فقد أعاد بورت معه.

قال وهو يرتعش في الريح: "خذني إلى والدتي يا جيلم. ستكون متعطشة لأنباء أولخونوت". ولاحظ عصبية بورت من كلماته وسعى إلى طمأنتها.

"سترحب بك يا بورت، كما لو أنكِ ابنتها".

عندما بدأ جيلم التقدم أمامهم، لاحظ تيموجن أن المحارب الذي احتضنه تحت جناحه كان يقف غير مرتاح خارج مجموعتهم الصغيرة. وكان ذهنه مشغولاً بمئات الأشياء التي ينبغي أن يتذكرها، لكنه لم يستطع ترك الرجل واقفاً بين غرباء.

"كشيون؟ هذا باراخ، وهو محارب جيد. يحتاج إلى تدريب على استعمال القوس، ولم يسبق له أن استعمل السيف. إنه شجاع وقوي، بأي حال. انظر ماذا يمكنك أن تصنع منه". وتقطب جبينه عبوساً فيما كان يتكلم فقد تذكر شيئاً آخر.

"تأكد أن يحصل أرسلان على كل ما يحتاجه لتصنيع سيوف جديدة. وأرسل رجالاً للتنقيب عن الخام".

أومأ كشيون برأسه، وقال: "يوجد عرق في هذا التل. لقد جمعنا الحجارة الرمادية في كومة له. ولم يكن جيلم يدع أحداً يمسّها حتى يعود والده".

لاحظ تيموجن أن كلاً من أرسلان وابنه كانا يصغيان السمع.

قال مباشرة: "ذلك صحيح. سيصنع أرسلان سيفين ليس لهما مثيل من قبل، أليس كذلك؟"

كان أرسلان ما يزال منتشياً من رؤية ابنه حياً وقوياً، وقائداً للرجال؛ وأحنى رأسه.

قال: "سأصنعهما".

قال تيموجن: "الآن، من أجل أب السماء، دعونا نختبئ من هذه الريح. اعتقدت أن الوقت سيكون ربيعاً الآن".

هزّ خاسار كتفيه لامبالياً، وقال: "نعتقد أن هذا هو الربيع، نظراً لموقعنا في الشمال. إنني أستمتع بالطقس المعتدل حقاً".

نظر تيموجن حوله إلى خاسار، وكشيون، وجيلم وأرسلان. وكانوا محاربين رائعين، وخفق قلبه بقوة عندما فكّر في ما يمكن أن يحققوه معاً. لقد كان في الديار.

كانت لهولن خيمة خاصة بها، مع فتاة يافعة من عائلة المتجولين لمساعدتها. وكانت على وشك وضع دهن الضأن النظيف على جلدها عندما سمعت الجلبة. وخرجت خادمتها إلى الثلج لتأتيها بالأنباء، وعادت تلهث حمراء الوجه من البرد.

قالت: "ابنك في المخيم يا سيدتي".

أفلتت هولن قدر الدهن من يديها، ومسحت ما تناثر منه بقطعة قماش قديمة. وأصدرت صوت طقطقة من فمها لتحثّ الفتاة على الإسراع فيما كانت تمدّ ذراعيها وترتدي ملابسها. فاجأتها قوة مشاعرها، لكن قلبها قفز لدى سماعها الأنباء. لقد نجا تيموجن مجدداً. ورغم أنها لم تستطع نسيان ما كان قد فعله في أحلك الأوقات، إلاّ أنه كان ما يزال ابنها. وكان الحب شيئاً غريباً وغير عقلاني لأي أم، ولا صلة له بأي سبب.

في الوقت الذي سمعت فيه صوته في الخارج، هدّأت هولن من روعها، ووضعت تيمولن الصغيرة في حضنها، ومشّطت شعرها بيدين مرتعشتين. وبدا أن الفتاة تشعر بمزاج والدتها الغريب، ونظرت حولها بعينين متسعتين عندما انفتح الباب. أدخل تيموجن الشتاء معه على شكل ثلج وريح عاصفة جعلت هولن ترتجف وتيمولن تبكي سعادة لمشاهدة شقيقها الأكبر الذي لم ترَه منذ مدة طويلة.

راقبت هولن المشهد فيما كان تيموجن يحتضن شقيقته، ويلمس شعرها الجميل، كما يفعل دائماً. وثرثرت الفتاة فيما كانت هولن تغرق في كل تفاصيل الشاب الذي أثار مثل تلك المشاعر المتناقضة فيها. وسواء كان يعرف ذلك أم لا، فقد كان الابن الذي أراده ياسوجي. في أحلك لحظاتها، كانت تعرف أن ياسوجي كان سيوافق على قتل بكتر عندما كانوا على وشك الموت جوعاً. وكان أبناؤها قد ورثوا قسوة والدهم، أو ربما اكتسبوها من الحياة التي عاشوها.

قالت هولن بتكلّف: "سررت لرؤيتك يا بني". وابتسم تيموجن فقط، وتنحى جانباً ليسمح لشابة طويلة بالدخول وأخرى خلفها. اتسعت عينا هولن عندما تعرفت على الخصائص المميزة لقومها. وشعرت بحرقة حنين إلى الديار، والتي كانت مفاجئة لها بعد كل تلك السنين. نهضت وأمسكت الفتاتين من يديهما، وقرّبتهما من الدفء. وجاءت تيمولن للانضمام إليهن، واندست بينهن تريد أن تتعرف إليهما.

قالت هولن لخادمتها: "المزيد من الحطب في النار. لا بد أنكما تتجمدان من البرد. من منكما بورت؟"

أجابت بورت باستحياء: "أنا يا أمي، من أولخونوت".

قالت هولن: "عرفت ذلك من وجهك والعلامات على ردائك". واستدارت إلى الأخرى: "وأنتِ يا ابنتي، ما اسمكِ؟"

كانت إلوين ما تزال في حالة صدمة من الحزن، لكنها بذلت أفضل ما بوسعها لتجيب. وشعرت هولن ببؤسها واحتضنتها دون سابق إنذار. وقادتهما إلى حيث يمكنهما الجلوس، وطلبت أوعية الشاي الساخن لتدفئتهما. ومنحت تيمولن حقيبة من اللبن الخاثر الحلو المذاق لإبقائها هادئة، فجلست في الزاوية ترتشف منها. راقب تيموجن فيما كانت نساء أولخونوت يتحدثن معاً، وكان سعيداً لرؤية بورت تبتسم لذكريات والدته. فهمت هولن مخاوفهما من التواجد بين غرباء، وكانت قد اختبرت الشيء ذاته بنفسها مرة. وفيما كانتا تتدفّأان، أمطرتهما هولن بأسئلة لا نهاية لها، وكانت تتكلم بلهجة قديمة عرف تيموجن أنها من أولخونوت. وكان غريباً سماعها من والدته، وتذكر مجدداً الحياة التي عاشتها قبل ياسوجي أو أبنائها.

"هل ما زال سانسار خاناً؟ ماذا عن ابن أخي كوكي ووالده إنك؟"

ردّت بورت على هولن بسهولة، واستجابت لأساليبها الحنونة دون إحراج. نظر تيموجن إليهن بفخر، كما لو أنه مسؤول عنهن. وبدا أن والدته قد نسته، لهذا جلس وأومأ إلى الخادمة لتقدم له كأساً من الشاي تناوله منها بامتنان وأغلق عينيه بسعادة عندما سرى الدفء في داخله. بدأت إلوين أيضاً بالانضمام إلى المحادثة، وسمح لنفسه بالاسترخاء أخيراً وأغلق عينيه.

سمع والدته تقول: "... لا يمكن لهذه العاصفة أن تستمر أطول من ذلك. لقد بدأ ذوبان الثلج، وبدأت الممرات الجبلية تنفتح".

أجابت بورت وهي تفرك يديها معاً: "لا أعتقد أنني شعرت بمثل هذا البرد من قبل". وبدا أن النسوة أحببن بعضهن بعضاً، وتراجع تيموجن للخلف مرتاحاً.

قال وهو يفتح عينيه قليلاً: "أحضرت إلوين لتكون زوجة لخاسار أو كشيون. لقد ماتت شقيقتها أثناء الرحلة". نظرت هولن إلى إلوين، ثم

تابعت المحادثة مجدداً كما لو أنه لم يتكلم. تأفف بلطف لنفسه لأنه لا يوجد رجل يستطيع أن يكون خاناً لوالدته. وجعله الدفء نعساً، ومع أصواتهن الناعمة في أذنيه، غلبه النوم.

جلس كشيون وخاسار في خيمة مجاورة، يمضغان اللحم الساخن الذي كان يغلي في المرق معظم النهار. ومع البرد، كان ضرورياً إبقاء الطعام على النار طوال الوقت حتى يكون هناك دائماً قدر يبعث فيهم الدفء قبل أن يخرجوا مجدداً. لم تكن هناك فرصة كبيرة للاسترخاء عندما كان تيموجن بعيداً. تحمّل الشقيقان أوامر جيلم دون إبداء أي انزعاج، وكانا يعرفان أن ذلك ما يريده تيموجن. وفي خلوتهما، كانا يسقطان كل الأقنعة والمزاعم ويتحدثان مطولاً أثناء الليل.

قال خاسار: "أحببت نظرة إلوين تلك".

وقع كشيون في الفخ مباشرة، كما لو أن شقيقه كان يعرف ذلك. "فتاتك ماتت يا خاسار. إلوين لي وتعرف ذلك".

"لا أعرف شيئاً من هذا القبيل يا شقيقي الصغير. الأكبر يحصل على الشاي والطعام أولاً، ألم تلاحظ ذلك؟ والأمر نفسه مع الزوجات".

تأفف كشيون، غير مرتاح لما يجري. وكان قد شاهد إلوين أولاً، عندما خرج ليجيب نداء الحارس. وكان قد لاحظها بالكاد حينها، ملتفة بملابس سميكة اتقاء البرد، لكنه شعر أن ذلك يمنحه نوعاً من حقوق المكتشف. وكان ذلك الادعاء بالتأكيد أقوى مما قد يقدمه خاسار، الذي خرج متعثراً من خيمة والتقاها.

قال: "تيموجن سيقرر".

أومأ خاسار مبتسماً: "أنا سعيد أننا لن نتجادل. فأنا أكبر سناً".

أجاب كشيون بفظاظة: "قلت إنه سيقرر، ولم أقل إنه سيختارك".

"إنها جميلة على ما أعتقد. وساقاها طويلتان".

"كيف استطعت رؤية ساقيها؟ إنها تبدو مثل ثور مع كل طبقات الملابس تلك".

نظر خاسار إلى البعيد، وقال: "إنها طويلة يا خاسار، ألم تلاحظ ذلك؟ وما لم تعتقد أن قدميها لا تصلان إلى الأرض، ينبغي أن تكون ساقاها طويلتين، وقدماها قويتين لتلتفا حول رجل، إذا كنت تعرف ما أعنيه".

أجاب كشيون ليزعج شقيقه وليس لأنه يعتقد ذلك فعلاً: "قد يزوّجها تيموجن إلى جيلم".

هزّ خاسار رأسه، وقال: "الدم يأتي أولاً. وتيموجن يعرف ذلك أفضل من أي شخص آخر".

قال كشيون: "لو كنت قد توقفت لحظة للإصغاء إليه، لكنت قد سمعته يدّعي القرابة بالدم لكل رجل وامرأة في المخيم، بغض النظر عن القبيلة أو العائلة. بحق الأرواح يا خاسار، أنت تفكر بمعدتك وفحوليتك أكثر مما نحاول القيام به هنا".

حدق الشقيقان بخبث ببعضهما البعض.

قال خاسار: "إذا كنت تعني أنني لا أتبعه مثل كلب ضال، تكون على حق عندها. وإلى جانبك وجيلم، لديه تلك المجموعة الصغيرة الهائمة به هذه الأيام".

قال له كشيون ببطء وحرص: "أنت مغفل".

تورد خاسار غضباً. وكان يعرف أنه يفتقر إلى ذكاء تيموجن الحاد وربما كان كيشون يعرف، لكن العالم سيتجمد قبل أن يعترف بذلك.

قال: "ربما ينبغي أن تذهب وتستلقي على باب خيمة والدتنا في الثلج. وتستطيع دس أنفك في الخيمة، أو شيئاً من هذا القبيل".

كان كلاهما قد قتل رجالاً، مع تيموجن ومع جيلم، لكن عندما كانا يجتمعان معاً، كانا يصبحان مثل طفلين يمتلئان طاقة وحيوية. تدافعا

بالمرافق حتى أصبح وجهاهما أحمرين. ولم يمد أحدهما يده إلى سكينه، وسرعان ما أحكم خاسار ذراعه حول رأس كشيون وأخذ يهزّه.

قال خاسار وهو يتنفس بصعوبة مجهداً: "قل إنك كلبه. بسرعة لأني سأتولى نوبة الحراسة القادمة".

قال كشيون وهو يختنق: "رأيت إلوين أولاً وهي لي".

ضغط خاسار على شقيقه أكثر.

قال: "قل إنك تفضل أن تشارك شقيقك الوسيم والأكبر منك الفراش".

كافح كشيون بعنف وسقطا معاً على سرير، وأفلت من قبضة خاسار. واستلقى كلاهما يلهث، وهما ينظران إلى بعضهما بعضاً بحذر.

قال كشيون: "لا أكترث إذا كنت كلبه. وكذلك جيلم". وسحب نفساً عميقاً تحسباً من قيام شقيقه بمهاجمته مجدداً. "ولا أنت أيضاً".

هزّ خاسار كتفيه لامبالياً.

"أحب قتل التتار، لكن إذا تابعوا إرسال النساء العجائز مع خيّالتهم، لا أعرف ما سأفعله. وحتى أرسلان استطاع إيجاد شابة جميلة له قبل أن يغادر".

سأل كشيون: "هل ما تزال ترفضك؟"

تقطب جبين خاسار: "قالت بأن أرسلان سيقتلني إذا لمستها، وأعتقد أنها قد تكون محقة. هناك شيء ينبغي ألاّ أتجاوزه".

وقف أرسلان في الخيمة التي بناها حول الكير، وترك الدفء يتسلل إلى عظامه. وكانت أدواته الثمينة مدهونة بالزيت وملفوفة بقماش منعاً للصدأ، ولم يجد شيئاً يشتكي منه عندما واجه جيلم.

"لقد أبليت حسناً هنا يا بني. لقد رأيت كيف ينظر الرجال إليك. وربما كان أب السماء قد قادنا إلى الذئاب".

هزّ جيلم كتفيه غير مبالٍ.

"كان ذلك في الماضي. لقد وجدت هدفاً لي هنا يا أبي، ومكاناً. أنا مهتم بالمستقبل الآن، إذا مرّ علينا هذا الشتاء بسلام فسيكون شتاءً لم أرَ مثله من قبل".

أجاب أرسلان مبتسماً: "ليرافقك الأمل والهدف في كل سنوات عمرك المديد!" وبدا أن ثقة جيلم بنفسه قد ازدادت بعيداً عنه، ولم يكن يعرف كيف يتعامل مع المحارب الشاب القوي الذي يواجهه بهدوء كبير. ربما كان جيلم يحتاج للابتعاد عن والده ليصبح رجلاً. وكانت تلك فكرة رصينة، ولم يكن أرسلان يريد أن يكون رصيناً.

قال: "هل تستطيع إيجاد قربة أو اثنتين من الشراب فيما نتحدث؟ أريد سماع أنباء الغارات".

مدّ جيلم يده إلى مكان داخل خيمته، وجلب قربة كبيرة من الشراب القوي.

قال: "تدبرت أمر إحضار طعام ساخن لنا. إنها وجبة صغيرة، لكن ما زال لدينا القليل من اللحم المقدد والمملح".

وقف كلا الرجلين أمام الكير، يستمتعان بالحرارة. وحلّ أرسلان رداءه ليسمح بدخول الدفء من خلاله.

قال جيلم: "لاحظت أن سيفيك قد اختفيا".

همهم أرسلان بنزق: "كانا ثمناً للنساء اللواتي أحضرهن تيموجن معه".

قال جيلم: "أنا آسف. ستصنع سيوفاً أخرى بمثل جودتهما وربما أفضل".

تقطب حاجبا أرسلان، وقال: "يستغرق صنع كل منها شهراً من العمل الشاق، ولا يتضمن ذلك وقت استخراج الخام أو تصنيع قوالب الحديد. كم سيفاً آخر أستطيع صنعه برأيك؟ لن أعيش إلى الأبد. كم مرة أستطيع الحصول على الفولاذ المناسب وأعمل عليه دون أخطاء؟" بصق على الكير، وشاهد الفقاقيع تخرج منه بهدوء، ولم يكن ساخناً بما يكفي للعمل عليه.

"كنت أعتقد أنك سترث السيف الذي أحمله".

أجاب جيلم: "ربما سأرثه إذا أصبحنا أقوياء بما يكفي لنأخذه من أولخونوت".

استدار والده مبتعداً عن الكير وحدق به.

"هل هذا ما تفكر به؟ هل هذه المجموعة الصغيرة من الخيّالة ستكتسح الأرض في الربيع؟"

قابل جيلم نظرته بعناد لكنه لم يجب، وتأفف أرسلان.

"ربيتك لتكون أكثر وعياً من ذلك. فكّر تكتيكياً يا جيلم كما علمتك. لدينا، ماذا، ثلاثون محارباً كحدٍّ أقصى؟ ما عدد الذين تلقوا تدريباً منذ سنواتهم الأولى مثلك، ومثل تيموجن وأشقائه؟"

بدأ جيلم يقول: "لا أحد منهم، لكن...".

أسكته والده بإشارة حاسمة من يده، وكان غضبه يتصاعد.

"تحتوي أصغر قبيلة على ستين إلى ثمانين رجلاً مدربين جيداً يا جيلم، رجال يستطيعون إصابة جناح طائر بسهامهم، رجال مع سيوف جيدة ومعرفة كافية لتشكيل قوة أثناء الهجوم، أو الانسحاب بتنظيم جيد. لا أثق بأن هذا المخيم يستطيع صدّ هجوم بخُمس محاربي أولخونوت. لا تنخدع! سيحتاج هذا المكان الصغير المتجمد إلى بركة أب السماء للنجاة من فصل واحد بعد ذوبان الثلوج. وسيأتي التتار يصرخون، ويتطلعون للانتقام من كل ما عانوا منه في الشتاء".

شدّ جيلم فكه لدى سماعه ذلك، وحملق في والده.

"لقد استولينا على جياد، وأسلحة، وطعام وحتى سيوف...".

أسكته والده مرة أخرى.

"سيوف أستطيع ثنيها بيديّ! أعرف نوعية أسلحة التتار أيها الفتى".

صرخ جيلم بوالده فجأة: "توقف! لا تعرف شيئاً عما فعلناه. ولم تمنحني

حتى الفرصة لأخبرك قبل أن تطلق تحذيراتك وأحكامك المتشائمة. نعم، قد يتمّ تدميرنا في الربيع. لقد فعلت ما بوسعي لتجهيزهم وتدريبهم عندما كنت بعيداً. كم عدد الرجال الذين درّبتهم للعمل على الكير وعلمتهم مهاراتك؟ لم أسمع بواحد قطّ".

فتح أرسلان فمه، لكن الغضب كان قد تملك جيلم ولم تكن هناك طريقة لإيقافه.

"هل تريد مني الاستسلام والاستلقاء في الثلج؟ هذا هو الطريق الذي اخترته. لقد وجدت رجلاً أتبعه، وقطعت له عهدي. إن كلمتي حديد يا أبي، كما علمتني أن تكون. هل تعني أنها كانت قوية فقط عندما كانت الأمور تسير لصالحك؟ لا. ستكون قد أسأت تربيتي إذا توقعت مني التخلي عن هؤلاء القوم. لديَّ مكان بغض النظر عما ستؤول إليه الأمور". توقف عن الكلام، وسحب أنفاساً عميقة من قوة انفعاله. "لقد جعلت التتار يخافوننا، كما قلت إنني سأفعل بالضبط. كنت آمل أن تكون فخوراً بي، وبدلاً من ذلك تثور مثل رجل عجوز مهذار مليء بالمخاوف".

لم يكن أرسلان يقصد أن يضربه. وكان ابنه واقفاً قريباً جداً منه، وعندما حرك يديه، كان ردّ أرسلان غريزياً، ووجه قبضة من حديد إلى فك ابنه. وسقط جيلم، واصطدم كتفه بحافة الكير.

راقب أرسلان ما يجري خائفاً. واستغرق الأمر من جيلم لحظة ليقف بهدوء جليدي، وفرك فكه بيده، وكان وجهه شاحباً جداً.

قال جيلم بلطف، وعيناه قاسيتان: "لا تفعل ذلك مجدداً".

أجاب أرسلان: "كانت غلطة يا بني بسبب القلق والإرهاق، ولا شيء أكثر". وبدا كما لو أنه يشعر بالألم بنفسه.

أومأ جيلم برأسه. وكان قد عانى أسوأ من ذلك في أشواط تدريباتهما معاً، لكن كان ما يزال هناك غضب يشتعل داخله وكان من الصعب التخلص

منه.

قال جيلم، بصيغة أقرب إلى الأمر: "درِّب الرجال على صنع السيوف. سنحتاج إلى الكثير منها، وكما تقول، لن تعيش إلى الأبد. ولن يعيش أحد إلى الأبد". وفرك فكه بيده مجدداً، وفزع عندما طقطق.

قال وهو يحاول جاهداً جعل والده يفهمه: "لقد اكتشفت شيئاً قيّماً هنا. القبائل تتقاتل بين بعضها البعض وتضيع قواها. وهنا، أظهرنا أن الإنسان يستطيع البدء من جديد، ولا يهم سواء كان من النيمنز أو الذئاب".

رأى أرسلان ضوءاً غريباً في عيني ابنه، وشعر بالقلق من ذلك. قال لابنه بكلمات لاذعة: "إنه يمنحهم الطعام في بطونهم، وبعد فترة من الوقت، ينسون العداوات والضغائن القديمة. هذا ما أراه هنا! لقد تقاتلت القبائل ألف سنة. هل تعتقد أن رجلاً واحداً يستطيع إلغاء كل ذلك التاريخ، وتلك الكراهية؟"

قال تيموجن من الباب: "ما هو البديل؟"

استدار كلا الرجلين ليواجهاه. نظر تيموجن إلى الكدمة الداكنة على فك جيلم، وفهم ما جرى خلال لحظة.

بدا مجهداً عندما وصل ليقف بجانب الكير.

"لم أستطع النوم بوجود ثلاث نساء وشقيقتي يثرثرن مثل الطيور، لهذا جئت إلى هنا".

لم يجب سواء الوالد أو الابن، وتابع تيموجن كلامه بعد أن أغلق عينيه ما إن وصل إليهما الدفء.

قال: "لا أريد من يتبعني على نحو أعمى يا أرسلان. أنت محق في سؤالك عن هدفنا هنا. أنت ترى مجموعة منهكة مع ما يكفي بالكاد من الطعام حتى تذوب الثلوج. وربما نستطيع إيجاد وادٍ في مكان ما لنقيم فيه، ونرعى القطعان والأولاد فيما تستمر القبائل بالترحال وقتل بعضها بعضاً".

قال أرسلان بكل ثقة: "لن تقول لي إنك تهتم لعدد الغرباء الذين يموتون في تلك المعارك".

ثبت تيموجن عينيه الصفراوين على صانع السيوف، وبدا أنه يملأ فراغ الخيمة الصغير.

قال بعد برهة من الزمن: "إن عداواتنا التي لا تنتهي تروي الأرض بدمائنا. ولطالما كنا كذلك، لكن هذا لا يعني أننا سنبقى هكذا دائماً. أظهرت أنه يمكن تشكيل قبيلة من الكويري، والذئاب، والويلا والنيمنز. نحن شعب واحد يا أرسلان. وعندما نصبح أقوياء بما فيه الكفاية، سأجعلهم يأتون إليَّ، أو سأوحّدهم معاً. أقول لك إننا شعب واحد. نحن مغول يا أرسلان. نحن الشعب الفضي، ويستطيع خان واحد قيادتنا".

أجاب أرسلان متجاهلاً انزعاج ابنه: "أنت ثمل أو تحلم. ما الذي يجعلك تعتقد أنهم سيقبلون بك؟"

أجاب تيموجن: "أنا الأرض، والأرض لا ترى فرقاً بين عائلات شعبنا". نقّل بصره بينهما. "لا أطلب ولاءك فقد منحتني ذلك عندما قطعت عهدك لي والذي سيلزمك حتى تموت. ربما نلقى حتفنا أثناء المحاولة، لكن لن تكونا الرجلين اللذين أعرفهما إذا كان ذلك سيوقفكما". ضحك في قرارة نفسه للحظة، وثقلت عيناه من التعب الذي شعر بازدياد وطأته في الدفء.

"تسلقت للحصول على فرخ نسر مرة. وكنت أستطيع البقاء على الأرض، لكن الجائزة كانت تستحق المخاطرة. تبيّن أن هناك فرخين، وهكذا حالفني الحظ أكثر مما كنت آمل". بدا أن ضحكته الخافتة مريرة، رغم أنه لم يشرح سبب ذلك. وربت على كتفي الوالد والابن.

قال: "أوقِفا الآن هذا الشجار وتسلقا معي". وتوقف للحظة ليرى رد فعلهما على كلماته، ثم خرج مجدداً إلى الثلج البارد ليجد مكانا ينام فيه.

راقب وين تشاو خدمه بعناية عبر ستائر المحمل فيما كانوا ينوؤون تحت ثقله. ومع وجود ثلاثة رجال عند كل قبضة خشبية، كان الجهد كافياً لإبقائهم دافئين، لكن عندما نظر خارج الظلّة الحريرية، لاحظ أن أكثر من تابع قد استحال لون جلده حول الشفتين إلى الأزرق. ولم يكن قد تحرك قبل أن يبدأ ثلج الشتاء بالذوبان، لكن كان ما يزال هناك ثلج ينهرس تحت الأقدام فيما كانت الرياح قاسية. وشكّ بأنه سيفقد عبداً آخر قبل أن يصلوا إلى مخيم المغول، إن لم يكن اثنين. وشدّ فراءه حوله، وتساءل بتذمر ما إذا كانوا سيجدون المخيم أصلاً.

سلّى نفسه لبعض الوقت بلعن توغرول، خان كيريت، الذي كان قد ادّعى أن فرقة الغزو تنتظر انقضاء الشتاء. ومع قليل من الحرارة والخيال، أطلق لعنات أكثر قسوة على أعضاء بلاط تشن في كيفنغ.

كان قد عرف أنه تعرض لعملية خداع منذ اللحظة التي وقعت عيناه فيها على تعابير وجوه المخصيين. كانوا سيئين مثل العجائز اللواتي ينهمكن في القيل والقال، ولم يكن يفوتهم سماع شيء مما يجري في البلاط. وتذكر وين بهجة زانغ الصغير اللاذعة كبيرهم – عندما قاده لمقابلة الوزير الأول.

زمّ وين شفتيه غضباً عندما تذكر ذلك. وكان فخوراً بنفسه لخبرته في ألعاب الحكم، لكن ما حدث قد حدث. وكانت امرأة في أفضل منازل الصفصاف في كيفنغ قد جعلته يتغيب عن اجتماع واحد مهم. وتنهد عندما فكّر في مهارتها، وتذكر كل لمسة عابثة، والشيء المتميز الذي حاولت فعله باستعمال ريشة. كان يأمل بأن تكون خدماتها قد كلّفت أعداءه الكثير، على الأقل. وعندما تمّ استدعاؤه من سريرها في منتصف الليل، عرف مباشرة أنه سيدفع ثمن ملذاته. وكانت عشر سنوات من البراعة قد ضاعت في ليلة ثمالة واحدة من الشعر والحب. وأدرك أن الشعر لم يكن جيداً، أيضاً. وكان

الوزير قد أعلن عن بعثة دبلوماسية إلى القبائل الهمجية كما لو أنها شرف عظيم، وبالطبع، كان وين مرغماً على الابتسام وأن يضرب رأسه بالأرض كما لو أن الوزير منحه ما يتوق إليه قلبه.

كان ما يزال ينتظر استدعاءه بعد سنتين من ذلك. وبعيداً عن مكائد ومؤامرات بلاط تشن، لم يكن هناك شك بأن الجميع نسيه. كان يوجِّه نسخاً من تقاريره إلى أصدقاء مخلصين مع تعليمات بنشرها، لكن على الأرجح أنه لم تتمّ قراءة أي منها. ولم يكن شيئاً عظيماً أن يتم فقدانها من بين آلاف الكتب التي تصل إلى بلاط المملكة الوسطى، ولم يكن ذلك غريباً على شخص مراوغ مثل زانغ، على الأقل.

لم يستسلم وين لليأس، وكان هناك احتمال بأن يفقد حياته بين قبائل المغول البشعة، ويتجمد حتى الموت أو يتسمّم بتناوله اللحم المقدد الكريه المذاق والحليب الحامض. كان ذلك متعباً بالنسبة لرجل في مكانته وعمره المتقدم. وكان قد اصطحب معه بالكاد اثني عشر خادماً، إضافة إلى حراسه وحاملي المحمل، لكن الشتاء أثبت أنه قاسٍ جداً على الضعفاء منهم، وأعادهم إلى عجلة الحياة في انتظار تقمصهم التالي بشخصيات جديدة. وكان يغضب كلما تذكر الطريقة التي أصيب بها كاتبه الشخصي بحمّى ومات. وكان الرجل قد جلس على الثلج ورفض متابعة الطريق. وضربه أحد الحراس، بناءً على تعليمات وين، لكنه أسلم الروح مع كل علامات البهجة الحاقدة فيما كان يحتضر.

تمنّى وين بشدة بأن يعود كاتبه على هيئة امرأة فاجرة إلى الأرض، أو فرس تتعرض للضرب بشكل منتظم وبحماسة كبيرة. بعد أن توفي الرجل، لم يندم وين سوى على الضربات التي لم يوجهها له بنفسه. ولم يكن هناك وقت كافٍ لذلك أبداً، حتى للسادة ذوي الضمائر الحية.

سمع وقع حوافر منتظمة، وفكّر بإزاحة الستارة التي تحمي محمله من

الرياح، قبل أن يعدل عن ذلك. لم يكن هناك شك بأن الحراس لم يجدوا أي علامة يبحثون عنها، كما فعلوا طوال الاثني عشر يوماً الماضية. وعندما سمعهم يصرخون، خفق قلبه العجوز ارتياحاً بالرغم من أن مكانته لم تكن تسمح له بإظهار ذلك. أليس هو ابن العم الخامس لزوجة الإمبراطور الثانية؟ لقد كان كذلك. وبدلاً من ذلك، مدّ يده إلى واحدة من أوراقه المليئة بالتعليقات الجانبية وقرأ كلمات الفلسفة، ووجد الراحة في أفكارها البسيطة. ولم يكن يرتاح أبداً من قبل للمعاني الأخلاقية السامية لكونفوشيوس نفسه، لكنه كان يحب اصطحاب تابعه كزن زي لتناول الشراب. وغالباً ما كان يعود إلى كلماته عندما يكون مزاجه سيئاً.

تجاهل وين حديث حراسه المثير فيما كانوا يتداولون حول من ينبغي عليه منهم إزعاجه في فخامة عزلته. كان كزن زي يؤمن بأن الطريق إلى السمو هي طريق التنوير، وكان وين يفكر بشيء بهيج يوازي ذلك في حياته الخاصة. كان يمدّ يده إلى أدوات كتابته عندما تمّ وضع المحمل على الأرض وسمع أحد الرجال يتنحنح بعصبية إلى جانبه. وتنهد. لقد كانت الرحلة مملة، لكن فكرة الاختلاط مرة أخرى برجال قبائل لا يغتسلون كانت ستدفع بصبره إلى أقصى الحدود. وفكّر بأن ذلك كله كان مقابل ليلة واحدة من الغواية فيما كان يزيح الستارة جانباً ويحدق بوجه كبير حراسه الموثوق.

قال: "حسناً يا يوان، يبدو أننا قد توقفنا". وترك أظفاره الطويلة تنقر على الرق ليظهر انزعاجه. وكان يوان يربض إلى جانب المحمل، وخرّ على وجهه حالما تكلم وين معه، ومرّغ جبينه بالأرض الجليدية. وتنهد وين بصوت مسموع.

"يمكنك أن تتكلم يا يوان. وإذا لم تفعل، سنبقى هنا طوال اليوم". ومن بعيد، سمع الصوت الحزين لأبواق التحذير وسط الرياح. ونظر يوان

للخلف إلى الاتجاه الذي جاء منه الصوت.

"وجدناهم يا سيدي. إنهم قادمون".

أومأ وين برأسه، وقال: "أنت كبير حراسي يا يوان. وعندما ينتهون من عويلهم وصراخهم، أخبرني بذلك".

ترك الستارة الحريرية تعود إلى مكانها، وبدأ يربط أوراقه بشرائط قرمزية اللون. وسمع وقع حوافر الجياد التي تدنو منهم، وشعر بأن الفضول يغلبه. ومع تنهيدة على ضعفه، أغلق وين فتحة الرؤية في جانب المحمل الخشبي، والتي كان ينظر من خلالها. وكان يوان فقط يعرف أنها موجودة، ولكنه لن ينبس ببنت شفة. وبالنسبة للعبيد، كان الأمر سيبدو كما لو أن سيدهم يهزأ بالخطر. كان يعتقد أن إظهار الصورة الصحيحة للعبيد مهم، وتساءل ما إذا كان هناك وقت لإضافة ملاحظة على أفكاره الصغيرة حول الفلسفة، ووعد نفسه بالانتهاء من مؤلفه وإرساله للنشر. كان ينتقد بشكل خاص دور المخصيين في بلاط كيفنغ. وفيما كان يسترق النظر عبر الفتحة الصغيرة، فكر بأنه سيكون من الأفضل نشره مع إغفال الاسم.

قاد تيموجن فرسه مع أرسلان وجيلم إلى جانبيه. وجاء معهم عشرة من أفضل رجاله، فيما قاد خاسار وكشيون قوتين أصغر حول المخيم تحسباً من هجوم ثانٍ.

منذ النظرة الأولى، عرف تيموجن أن هناك خطباً ما في ذلك الحشد الصغير. وتساءل لماذا يقوم الكثير من الرجال المسلحين بحراسة صندوق. كان الرجال أنفسهم غرباء، رغم أنه كان يعرف المحاربين المتمرسين عندما يراهم. وبدلاً من شنّ هجوم، كانوا قد نظّموا تشكيلاً دفاعياً حول الصندوق بانتظار وصوله. نظر تيموجن إلى أرسلان، وقد رفع حاجبيه مستغرباً. كان أرسلان مرغماً على الصراخ بصوت أعلى من وقع حوافر الجياد التي تهرول.

"كن حريصاً يا مولاي. ربما يكون مجرد ممثل عن تشن، وشخصاً ذا منزلة رفيعة".

نظر تيموجن إلى الحشد الغريب باهتمام متجدد. وكان قد سمع عن مدن الشرق العظيمة، لكنه لم يكن قد شاهد أحداً من شعبها من قبل. يقال إنهم ينتشرون مثل الذباب، ويستعملون الذهب كمادة للبناء، وأنه متداول بكثرة. ومهما يكن الرجل، لا بد أنه هام جداً ليسافر مع اثني عشر حارساً وما يكفي من العبيد لحمل صندوقه المصقول والذي كانت رؤيته بحد ذاتها شيئاً غريباً في البراري. وكان يلمع سواداً، وعلى جانبيه ستائر قماشية من لون الشمس.

كان تيموجن قد وضع سهماً على الوتر ويقود فرسه بركبتيه. أخفض القوس، وأطلق صرخة قصيرة لأولئك المحيطين به ليفعلوا الشيء نفسه. وإذا كان ذلك فخاً، سيجد محاربو تشن أنهم ارتكبوا خطأً بالمجيء إلى هذه الأراضي.

كبح جماح فرسه. وبالنسبة لأولئك الذين كانت لهم عيون يرون بها، حافظ رجاله على تشكيلهم بشكل ممتاز فيما كانوا يجارونه. وربط تيموجن قوسه بأناقة إلى سير سرجه، ولمس قبضة سيفه طلباً للحظ، ودفع فرسه إلى الرجل الواقف في وسط تلك المجموعة الغريبة.

لم يتكلم. كانت تلك الأراضي ملكاً لتيموجن، ولم يكن عليه أن يفسر سبب وجوده فيها. كانت نظرة تيموجن الصفراء ثابتة على المحارب. وأثار درعه المتشابك اهتمامه. ومثل الصندوق نفسه، كانت ألواح الدرع مصنوعة من مادة مصقولة تلمع مثل الماء الأسود، وكانت طريقة تثبيتها مخفية في التصميم. وكان يبدو أنه يستطيع إيقاف سهم، وتساءل تيموجن كيف يستطيع الحصول على درع مثله ليختبره.

راقب المحارب تيموجن من تحت إطار الخوذة المبطّنة، ونصف وجهه

مغطى بقطع من الحديد. كان يبدو مريضاً بالنسبة لتيموجن، ولونه أصفر شاحب يدل على قضائه أمسيات كثيرة في تناول الشراب. إلاّ أن بياض عينيه كان صافياً ولم يفزع من رؤية ذلك العدد الكبير من الرجال المسلحين فيما كانوا بانتظار الأوامر.

طال الصمت وانتظر تيموجن. وأخيراً، تقطب حاجبا كبير الحرس وتكلم.

قال يوان بحزم، وكانت لهجته غريبة على مسامع تيموجن: "يريد سيدي من البلاط الإمبراطوري التكلم معكم". ومثل سيده، لم يكن يوان يحب محاربي القبائل لأنه ليس لديهم انضباط من النوع الذي يفهمه، رغم كل ضراوتهم. كان يراهم كلاباً سيئة المزاج لا ضرورة للتكلم معهم مثل البشر.

سأل تيموجن: "هل يختبئ في ذلك الصندوق؟"

توتر كبير الحرس، ومدّ تيموجن يده بالقرب من مقبض سيفه. كان قد أمضى مئات الأمسيات يتدرب مع أرسلان، ولم يكن يخاف من مبارزة مفاجئة بالسيوف. وربما كان ذلك واضحاً في عينيه لأن يوان كبح جماح نفسه وجلس مثل حجر.

تابع يوان الكلام: "لديَّ رسالة أنقلها من توغرول، خان كيريت".

أثار الاسم فضول تيموجن الشديد. وكان قد سمع به من قبل، ويحتضن مخيمه ثلاثة متجولين منفيين من تلك القبيلة.

أجاب تيموجن: "قل رسالتك إذاً".

تكلم يوان كما لو أنه يسرد شيئاً مكتوباً وهو ينظر إلى البعيد: "ثق بهؤلاء الرجال وامنحهم حقوق الضيف باسمي".

كشّر تيموجن فجأة بشكل أدهش كبير حرس تشن. "ربما سيكون ذلك حكيماً. هل فكرت في البديل؟"

نظر يوان إلى تيموجن، حانقاً: "ليس هناك بديل. لقد استلمت أوامرك".

ضحك تيموجن بصوتٍ عالٍ من ذلك، رغم أنه لم يغفل عن الجندي الذي

يحمل سيفاً.

قال: "توغرول من كيريت ليس خاني، وهو لا يصدر الأوامر هنا". ورغم ذلك، تزايد اهتمامه بالفرقة التي جاءت إلى الأراضي حول مخيمه. ولم يقل كبير الحرس شيئاً آخر رغم أن التوتر كان بادياً عليه.

قال تيموجن ليزعج الرجل أكثر من أي شيء آخر: "ربما أقتلكم جميعاً وآخذ كل ما يوجد في ذلك الصندوق الجميل الذي تقومون بحمايته". ولدهشته، لم يشتد غضب كبير الحرس كما حدث من قبل. وبدلاً من ذلك، ظهرت ابتسامة متجهمة على وجهه.

أجاب يوان بكل ثقة: "ليس لديك ما يكفي من الرجال".

فيما كان تيموجن على وشك أن يرد، خرج صوت من الصندوق يحمل أمراً بلغة لم يستطع أن يفهمها. وبدا أنه مثل صياح إوزة، لكن الضابط أحنى رأسه مباشرة.

لم يستطع تيموجن أن يقاوم فضوله مدة أطول من ذلك.

قال: "حسناً. أمنحكم حقوق الضيف في دياري. تعالوا معي حتى لا يصيب حراسي حناجركم بالسهام عندما يشاهدونكم". ولاحظ أن يوان كان متجهماً، وتكلم مجدداً: "سيروا ببطء ولا تقوموا بأي إيماءات مفاجئة. هناك رجال في مخيمي لا يحبون الغرباء".

رفع يوان قبضته، وأمسك اثنا عشر حمالاً بالمقابض الطويلة ووقفوا معاً، ينظرون دونما أي انفعال إلى الأمام. ولم يكن تيموجن يعرف ما ينبغي فعله مع أي من ذلك. وأصدر أوامره إلى رجاله، وتولّى القيادة مع أرسلان، فيما حثّ جيلم والآخرون الجياد للهرولة حول المجموعة الصغيرة ليسيروا خلفها.

عندما قاد فرسه جنباً إلى جنب مع أرسلان، انحنى تيموجن في السرج، وكان صوته خافتاً.

"هل تعرف هؤلاء القوم؟"
أومأ أرسلان برأسه: "لقد التقيت بهم من قبل".
"هل يشكلون تهديداً لنا؟" وانتظر تيموجن فيما كان أرسلان يفكر.
"ربما يكونون كذلك. لديهم ثروة عظيمة، ويقال إن مدنهم ضخمة. لا أعرف ماذا يريدون منا في هذا المكان".
أضاف تيموجن: "أو ما هي اللعبة التي يلعبها توغرول". وأومأ أرسلان برأسه، ولم يتكلما مجدداً أثناء سيرهما.
انتظر وين تشاو حتى تمّ وضع محمله على الأرض وجاء يوان إلى الجانب. وكان قد شاهد وصولهم إلى المخيم باهتمام، وكتم الآهات عندما شاهد الخيام المألوفة والأغنام الهزيلة. كان الشتاء قاسياً، ووجوه الناس الذين شاهدهم تشي بالحرمان الذي يعانون منه. واستطاع شم دهن لحم الضأن عبر نسائم الهواء قبل وقت طويل من وصوله إلى المخيم، وعرف أن الرائحة ستبقى عالقة على ملابسه حتى يتمّ غسلها مراراً وتكراراً. بعد أن شدّ يوان الستائر الحريرية إلى الخلف، خرج وين ليقف بينهم، وهو يتنفس بأقل ما يستطيع. ومن خبرته، كان يعرف أنه سيعتاد على الرائحة، ولكن كان عليه رغم ذلك الالتقاء برجال قبائل قلما يغتسلون أكثر من مرة أو مرتين بالسنة، ويكون ذلك فقط عندما يسقطون في نهر. بالرغم من كل شيء، كانت لديه مهمة ينبغي إنجازها، ولعن زانغ الصغير في قرارة نفسه، وخرج إلى الريح الباردة بكل الوقار الذي يستطيعه.
حتى إذا لم يكن قد شاهد كيف ينظر الرجال الآخرون إلى ذلك الشخص الأصفر العينين، كان وين سيعرف أنه القائد. وفي بلاط كيفنغ، كانوا يعرفون تلك "النمور المتوثبة" التي تجري فيها دماء المحاربين. كان تيموجن هذا واحداً من تلك النمور، وهذا ما أقرّ به وين حالما واجه تلك العينين. يا لهما من عينين! ولم يكن وين قد رأى مثيلاً لهما من قبل.

كانت الريح لاذعة بالنسبة لرجل يرتدي مثل تلك الملابس، لكن لم يظهر أي انزعاج على وين عندما واجه تيموجن وأحنى رأسه. كان يوان وحده يعرف أن الإيماءة أقصر مما تمليه آداب المجاملة، لكنّ إهانة الهمجيين كانت تسلي وين. ولدهشته، لم يعر المحارب الحركة كبير اهتمام، ووجد وين نفسه يشعر بقشعريرة تسري في جسده.

قال: "اسمي وين تشاو، سفير بلاط تشن من سنغ الشمالية. لي الشرف بالتواجد في مخيمكم. لقد انتشرت أنباء معارككم مع التتار إلى أصقاع بعيدة عن هذه الأرض".

أجاب تيموجن: "وهذا ما قادك إلى هنا في صندوقك الصغير، أليس كذلك؟" وكان مفتوناً بكل معالم الرجل الغريب الذي يرعاه عدد كبير من العبيد. وكان لون جلده أصفر أيضاً، والذي بدا علامة على المرض في عيني تيموجن، لكنه كان يقف بثبات وسط الريح التي تعصف بملابسه. وقدّر تيموجن عمره بأكثر من أربعين بقليل، بالرغم من أن الجلد لم يكن متغضناً. كان لدى دبلوماسي تشن رؤية غريبة عن أولئك الذين نشأوا في القبائل. وكان يرتدي ثوباً أخضر يبدو متلألئاً. وكان شعره أسود مثل شعرهم، لكنه ممشط إلى الخلف على رأسه ومجدول بضفيرة يثبتها مشبك من الفضة. ولدهشة تيموجن، شاهد أن يدي الرجل تنتهيان بأظفار مثل المخالب التي تعكس الضوء. وتساءل تيموجن إلى متى يستطيع الرجل أن يتحمل البرد الذي بدا أنه لا يشعر به، لكنّ لون شفتيه كان يتحول إلى الأزرق لدرجة أن تيموجن لاحظ ذلك.

أحنى وين رأسه ثانية قبل أن يتكلم.

"أحمل تحياتٍ من البلاط الإمبراطوري. لقد سمعنا الكثير عن نجاحاتكم، وهناك الكثير من الأشياء التي ينبغي أن نناقشها. وأخوك في كيريت يبعث إليك بتحياته".

أجاب تيموجن: "ما الذي يريده توغرول مني؟"
نفخ وين الهواء من فمه بعد أن شعر بالبرد يلسعه. ألن تتمّ دعوته إلى الخيام الدافئة؟ وقرّر أن يضغط أكثر قليلاً.
"ألم يتمّ منحي حقوق الضيف يا مولاي؟ ليس مناسباً التكلم عن قضايا عظيمة مع كل هذه الآذان حولنا".
هزّ تيموجن كتفيه غير مبالٍ. وكان واضحاً أن الرجل يتجمد من البرد وأراد سماع ما جعله يقطع كل تلك المسافة عبر سهل معادٍ قبل أن يفقد وعيه.
"نرحب بك هنا". وتذوق الاسم بلسانه قبل أن ينطقه مشوهاً: "يا ونشو؟"
تحكم الرجل العجوز بنفسه حتى لا يفزع، وابتسم تيموجن من كبريائه.
أجاب الدبلوماسي: "وين تشاو يا مولاي. ينبغي أن يلمس اللسان سقف الفم".
أومأ تيموجن برأسه، وقال: "ادخل إلى الدفء إذاً يا وين. سأجعلهم يجلبون لك الشاي الساخن اللاذع الطعم".
تمتم وين تشاو فيما كان يتبع تيموجن إلى خيمة رثّة: "آه، الشاي. كم اشتقت إليه!"
في عتمة الخيمة، جلس وين وانتظر بصبر حتى وضع تيموجن بنفسه وعاءً من الشاي الساخن بين يديه. وامتلأت الخيمة برجال يحدقون به متجهمين، وأرغم وين نفسه على التنفس بهدوء حتى اعتاد على رائحة عرقهم واقترابهم منه. وتاق إلى الاستحمام لكنه كان قد ترك مثل تلك المباهج خلفه منذ وقت طويل.
شاهد تيموجن وين يتذوق الشاي بشفتين مزمومتين، وكان واضحاً أنه يتظاهر بالاستمتاع به.

قال تيموجن: "أخبرني عن قومك. لقد سمعت أن أعدادهم كبيرة جداً".

أومأ وين برأسه، ممتناً لحصوله على فرصة للكلام بدلاً من ارتشاف الشاي.

قال: "نحن مملكة مقسّمة. وتحتوي الحدود الجنوبية على أكثر من ستين ألف شخص بقيادة إمبراطور سنغ. وربما تحتوي تشن الشمالية على العدد نفسه".

طرفت عينا تيموجن، وكان الرقم أكبر مما يستطيع تخيله.

أجاب: "أعتقد أنك تبالغ يا وين تشاو". ولفظ اسمه بشكل صحيح مما أثار دهشته.

هزّ وين كتفيه غير مبالٍ، وقال: "من يستطيع أن يكون واثقاً؟ القرويون يتناسلون بشكل أسوأ من الفئران. ويوجد أكثر من ألف موظف في بلاط كيفنغ وحده، ويستغرق التعداد الرسمي شهوراً عديدة. وليس لديَّ الرقم الدقيق". وكان وين يستمتع برؤية الذهول الذي انتقل بين المحاربين.

أصرّ تيموجن: "وأنت؟ هل أنت خان بينهم؟"

هزّ وين رأسه، وقال: "أقوم بتسوية...". وبحث في قاموسه، لكنه لم يجد الكلمة المناسبة. "النزاعات؟ لا". وكانت تلك كلمة غريبة. "إنها تعني الجلوس وراء مكتب والإجابة عن أسئلة مع مئات الآخرين، في المقاطعة أولاً، ثم في كيفنغ نفسها أمام موظفي الإمبراطور. كنت الأول على كل من جرى اختباره تلك السنة". وبحث في أعماق ذاكرته ورفع وعاءه إلى فمه. "كان ذلك منذ وقت طويل".

قال تيموجن محاولاً أن يفهم: "رجل من أنت إذاً؟"

ابتسم وين، وقال: "ربما الوزير الأول في الخدمة المدنية، لكنني أعتقد أنك تعني أباطرة سنغ. إنهم يحكمون الشمال والجنوب. وربما سأعيش حتى أرى كلا شطري المملكة الوسطى يتحدان".

كافح تيموجن ليفهم ما يقوله. وفيما كانوا يحدقون به، وضع وين وعاءه على الأرض ومدّ يده داخل ثوبه ليخرج شيئاً. وأوقفه التوتر الذي بدا عليهم جميعاً.

"أمدّ يدي لإخراج صورة يا مولاي، وهذا كل ما في الأمر".

أشار إليه تيموجن أن يتابع، مفتوناً بالفكرة. وراقب فيما كان وين يخرج رزمة من الأوراق الملونة البرّاقة ويدفع بواحدة منها إليه. كان هناك رموز غريبة عليها، لكن في الوسط كان هناك وجه شاب، يحملق. أمسك تيموجن بالورقة من زوايا مختلفة، مذهولاً لأن الوجه الصغير بدا وكأنه يراقبه.

أقر بتحفظ: "لديك رسامون ماهرون".

"هذا صحيح يا مولاي، لكن الورقة التي تمسك بها مطبوعة على آلة عظيمة. إن قيمتها عالية، وتمّ الحصول عليها مقابل بضائع أخرى. ولقاء بضع آلات أخرى مثلها، يمكنني شراء حصان جيد في العاصمة، أو شابة لتمضية الليل".

رأى تيموجن يمررها إلى الآخرين وراقب الاهتمام البادي على تعابيرهم. فكّر بأنهم كانوا مثل الأطفال. وربما ينبغي أن يمنح كلاًّ منهم صورة كهدية قبل أن يغادر.

قال تيموجن: "تستعمل كلمات لا أعرفها. ما هي الطباعة التي ذكرتها؟ آلة عظيمة؟ ربما تسخر منا في خيامنا".

لم يكن يتكلم برفق، وذكّر وين نفسه بأن رجال القبائل قد يصبحون قساة حتى مع أصدقائهم. وإذا اعتقدوا للحظة أنه يسخر منهم، لن ينجو. وإذا كانوا أطفالاً، من الأفضل أن يتذكر أنهم مميتون أيضاً.

قال وين بلطف: "إنها مجرد طريقة بالرسم أسرع من رجل لوحده. وربما تزور أراضي تشن يوماً ما وترى ذلك بنفسك. أعرف أن خان كيريت قد أُعجب كثيراً بثقافتي. وكان قد تكلم مرات عديدة عن رغبته بالحصول على

أرض في المملكة الوسطى".

سأل تيموجن: "توغرول قال ذلك؟"

أومأ وين برأسه، واستعاد الصورة من آخر رجل أمسك بها. وطواها بعناية وأعاد الرزمة إلى حيث كانت فيما كانت عيونهم كلها تراقب ما يجري.

"إنها الأمنية الأغلى. التربة هناك خصبة جداً وسوداء ويمكن أن ينمو فيها أي شيء. وقطعان الجياد البرية أكبر من أن تُحصى، والصيد أفضل من أي مكان آخر في العالم. ويعيش قادتنا في بيوت عظيمة من الحجارة ولديهم ألف خادم لتلبية كل رغباتهم. وسيتمنى توغرول كيريت مثل تلك الحياة لنفسه وورثته".

سأل أحد الرجال الآخرين فجأة: "كيف يمكنك نقل بيت من الحجارة؟"

أشار إليه وين بتحية: "لا يمكن نقله، كما تنقلون خيامكم. إن بعضها بحجم الجبال".

ضحك تيموجن من ذلك، وعرف أخيراً أن الرجل الصغير الغريب يمارس الألاعيب معهم.

قال: "إذاً لن تناسبني يا وين. ينبغي أن تنتقل القبائل عندما يصبح الصيد ضعيفاً. وسأتضور جوعاً في ذلك الجبل الحجري، على ما أعتقد".

"لن تتضور جوعاً يا مولاي، لأن خدمك سيشترون الطعام من الأسواق. وسيقومون بتربية الحيوانات لتناول لحومها وزراعة المحاصيل لصنع الخبز وتقديم الأرز لك. ويمكن أن يكون لديك ألف زوجة دون أن تعرف الجوع أبداً".

قال تيموجن بلطف: "أعجب توغرول بذلك. أعرف السبب وراء ذلك". وكان ذهنه يزدحم بالكثير من الأفكار الجديدة الغريبة، لكنه رغم ذلك لم يكن قد سمع السبب الذي دفع وين للمجيء إليه في السهول، بعيداً جداً

عن دياره. وقدّم لوين كوباً وملأه بالشراب. وعندما شاهد أن الرجل يمسك بفكه ليمنع اصطكاك أسنانه، أطلق تيموجن زفيراً من فمه.

قال: "افركه بيديك ووجهك، وسأملأ الكوب مجدداً".

أحنى وين رأسه شاكراً قبل أن يفعل ما اقترحه تيموجن. لقد جعل الشراب الصافي جلده الأصفر يتورد، ويشع بحرارة مفاجئة. وشرب ما تبقى في فمه وأفرغ الثاني حالما سكبه تيموجن، وأمسك بالكوب طالباً ملأه مرة ثالثة.

قال تيموجن: "ربما أسافر شرقاً يوماً ما وأرى تلك الأشياء الغريبة بأمّ عيني، إلاّ أنني أتساءل لماذا تركت كل ذلك وراءك، وسافرت إلى الأرض التي يحكمها قومي بالسيف والقوس. نحن لا نفكر بإمبراطورك هنا".

قال وين تلقائياً: "رغم أنه والدنا جميعاً". وحدق به تيموجن، وندم وين على تناول الشراب بسرعة كبيرة على معدة خاوية.

"أسافر بين القبائل منذ سنتين يا مولاي. هناك أوقات أفتقد بها قومي كثيراً. لقد تمّ إرسالي إلى هنا لحشد حلفاء ضد التتار في الشمال. ويعتقد توغرول كيريت أنك أحد الذين تشاركنا الكراهية لأولئك الكلاب ذوي الجلد الشاحب".

أجاب تيموجن: "يبدو أن توغرول مطّلع تماماً. كيف يعرف الكثير عما أفعله؟" وملأ كوب وين للمرة الرابعة، وشاهد الشراب يختفي أيضاً بالطريقة السابقة نفسها. وأسعدته رؤية الرجل ثملاً، وملأ كوبه وارتشف منه بحرص لإبقاء ذهنه متقداً.

أجاب وين تشاو: "خان كيريت رجل حكيم. لقد قاتل التتار لسنوات طويلة في الشمال وحصل على الكثير من الذهب تقديراً من سادتي. إنه توازن، هل تفهم ذلك؟ وإذا بعثت بأمر إلى كيفنغ لإرسال مئة فرس غرباً، ستأتي في الوقت المحدد؛ وبالمقابل، سيريق كيريت دماء التتار ويبقيهم

بعيداً عن حدودنا. ولا نريدهم أن يتجولوا في أرضنا".

بدّل أحد رجال القبيلة الذين كانوا يصغون السمع وضعية وقوفه بانزعاج، وألقى عليه تيموجن نظرة خاطفة.

قال تيموجن: "سأحتاج إلى نصيحتك في هذا يا أرسلان، عندما نتحدث وحدنا".

عدّل الرجل جلسته راضياً، وجال وين بنظره حوله عليهم جميعاً.

"أنا هنا لأعرض عليك الاتفاقية نفسها. أستطيع منحكم الذهب أو الجياد...".

قال تيموجن: "السيوف والأقواس. إذا وافقت، سأحتاج إلى عشرات الدروع مثل التي يرتديها رجالك في الخارج، إضافة إلى مئة من الجياد. ولا حاجة بي للذهب مثلما لست بحاجة لبيت من الحجارة لا أستطيع نقله".

احتج وين: "لم أرَ مئة رجل في مخيمك". لكنه كان مستمتعاً من الداخل. وكانت المساومة قد بدأت بسهولة أكبر مما كان يتخيلها.

قال تيموجن متأففاً: "لم ترَهم جميعاً. ولم أقل إنني موافق. ما هو الدور الذي يلعبه توغرول في هذا؟ لم ألتقِ الرجل أبداً من قبل، رغم أنني أعرف كيريت. هل سيأتي بعدك ليلتمس مني المساعدة؟"

تلوَّن وجه وين، ووضع كوب الشراب الذي كان يمسك به أرضاً.

"كيريت قبيلة قوية، وفيها أكثر من ثلاثمئة رجل مسلح يا مولاي. وقد سمعوا من أسرى التتار أنك تغزوهم إلى مسافات أبعد شمالاً". وتوقف قليلاً، ليختار كلماته. "توغرول رجل ذو بصيرة ثاقبة وأرسلني، ليس لأتوسل، لكن لأجعلك تضمّ قوتك إلى قوته. ومعاً، ستدحران التتار بعيداً لعشرات الأجيال، ربما".

بدا أن الرجل الذي دعاه تيموجن أرسلان قد اتخذ موقفاً عدائياً مجدداً، وشاهد وين تيموجن يضع يده على ذراعه.

قال: "أنا خان هنا، ومسؤول عن قومي. هل تريد مني الخضوع لتوغرول مقابل بضعة جياد؟" وتوتر الجو داخل الخيمة المكتظة، ووجد وين نفسه يتمنى لو أنهم سمحوا ليوان بمرافقته.

قال: "لك الحق بأن ترفض، وسأغادر. لا يحتاج توغرول إلى تابع. إنه بحاجة إلى قائد حربي قاسٍ وشجاع. ويحتاج إلى كل رجل يمكنك إحضاره معك".

نظر تيموجن إلى جيلم. وكان يعرف، مثل أي شخص آخر، أن التتار سيكونون متعطشين للانتقام مع نهاية الشتاء. وكانت فكرة توحيد القوى مع قبيلة أكبر مغرية، لكنه كان بحاجة للتفكير.

قال تيموجن بعد فترة من الوقت: "لقد قلت أموراً مثيرة للاهتمام يا وين تشاو. اتركني الآن لأتخذ قراري. كشيون؟ ابحث عن أسرّة دافئة لرجاله واجعلهم يجلبون بعض الطعام لتهدئة جوعهم". وشاهد نظرة وين تقع على قربة الشراب نصف الفارغة عند قدميه. وأضاف منساقاً بكرمه: "وبعض الشراب ليدفئه الليلة، أيضاً".

وقفوا جميعاً عندما نهض وين على قدميه دون أن يكون متزناً كما كان عندما دخل. وانحنى الرجل مرة أخرى، ولاحظ تيموجن كيف أن الحركة كانت أكبر قليلاً من المحاولة الأولى. ربما كان متيبساً من السفر.

عندما أصبحا وحيدين، أدار تيموجن عينيه اللامعتين على أكثر رجاله ثقة.

قال: "أريد ذلك. أريد أن أعرف أكثر ما هو ممكن حول هؤلاء القوم. بيوت من حجارة! عبيد بالآلاف! هل أثارك ذلك؟"

قال أرسلان: "أنت لا تعرف توغرول هذا. هل الشعب الفضي للبيع، إذاً؟" وتأفف قائلاً: "يعتقد تشن هؤلاء أنهم يستطيعون شراءنا بالوعود، وأننا سنمتلئ دهشة بالكلام عن الملايين المتوالدة في مدنهم. ما الذي يمثلونه

لنا؟"

قال تيموجن: "دعنا نكتشف ذلك. ومع رجال كيريت، أستطيع الاندفاع بعيداً بين التتار. لنجعل الأنهار تسيل حمراء من أفعالنا".

قال أرسلان: "عهدي لك، وليس لتوغرول".

واجهه تيموجن: "أعرف ذلك. لن أكون تابعاً لأي شخص آخر. لكن إذا كان سيوحد قواه معنا، سأكون قد حصلت على الجزء الأكبر من الصفقة. فكّر بجيلم يا أرسلان. فكّر بمستقبله. نحن أيضاً مفعمون بالحياة لنبني قبيلتنا شيئاً فشيئاً. دعنا نثب إلى الأعلى بقفزات عظيمة ونخاطر بذلك كله في كل مرة. هل ستجلس وتنتظر التتار؟"

قال أرسلان: "تعرف أنني لن أفعل".

قال تيموجن مفعماً بالإثارة: "إذاً، لقد اتخذت قراري".

بقي وين ثلاثة أيام في المخيم، يناقش بنود الاتفاقية. وسمح لهم بأن يعطوه قِرباً من الشراب قبل أن يسدل ستائر محمله الذهبية، ويعطي يوان الإشارة ليتمّ حمله.

خلف الستائر الحريرية، حكّ وين جلده، مقتنعاً أنه أُصيب بالقمل في الخيام. كان ذلك اختباراً، كما توقع، لكنهم بدوا متلهفين للحرب مع التتار كما كان توغرول يأمل. فكّر وين في قرارة نفسه بأن ذلك لم يكن مفاجئاً فيما كان محمولاً عبر السهول. فقد كانت القبائل تغير على بعضها بعضاً حتى في الشتاء. وبعد أن أنبت الربيع آنذاك أولى الأعشاب عبر الأرض المتجمدة، سيعودون إلى ما كانوا يفعلونه بكل جدّية، ولطالما كانت تلك طريقتهم. ابتسم وين لنفسه فيما كان يقرأ أعمال كزن زي وشعر بالنعاس، كان يكتب بين الفينة والأخرى ملاحظات على الهوامش. وفكّر بأن الوزير كان محقاً في إرسال شخص يتمتع بمثل مهاراته الدبلوماسية. لم يكن زانغ الصغير يستطيع إبرام مثل هذا الاتفاق، حتى مع الوعود بالجياد والدروع. وكان المخصي الألثغ سيعبر بالتأكيد عن اشمئزازه في حفل الزفاف الذي شهده وين تشاو قبل يوم. اضطرب من فكرة شراب الحليب والدماء الساخن الذي قدموه له. كان كزن زي سيصفق استحساناً لانضباطه عندها. فكّر وين ملياً بأن المرأة بورت كانت نحيلة وقاسية مثل زوجها. ولم تكن من النوع الذي يفضله على الإطلاق، بالرغم من أن المحارب الشاب كان يجدها جميلة. ماذا كان وين سيدفع مقابل ليلة مع إحدى نساء الصفصاف؟! لم يكن هناك مكان للسيقان الملساء المغطاة بالمساحيق في ذلك المكان القاسي، ولعن وين عمله مجدداً، وشعر بالبؤس.

بعد أربعة أيام على مغادرته المخيم، كان يستعد لإصدار الأمر بالتوقف لتناول الطعام عندما عاد يوان مسرعاً من مهمته الاستطلاعية. أصغى وين

السمع متبرماً من داخل المحمل فيما كان يوان يصدر الأوامر. وكان صعباً القيام بدور النبيل فيما تجري أمور مثيرة للاهتمام من حوله. تنهد لنفسه. وكان فضوله قد أوقعه في مشاكل أكثر من مرة سابقاً.

أخيراً، عندما اقترب يوان من المحمل، كان وين قد رتّب أوراقه المطوية وعمل على تدفئة نفسه بتناول جرعة من الشراب الصافي الذي تعدّه القبائل. كان ذلك، على الأقل، مفيداً رغم أنه لا يمكن مقارنته بنبيذ الأرز الذي عرفه في دياره.

سأل: "لماذا تزعجني هذه المرة يا يوان؟ كنت سأغفو قليلاً قبل تناول الطعام". في الحقيقة، نظرة واحدة إلى وجه كبير حراسه جعلت نبضه يتسارع. كان واثقاً أنه بحاجة لاستعادة توازنه، وكان قد قضى وقتاً طويلاً بين القبائل، وسيفكر في حمل سيف بنفسه مثل جندي عادي. كان لهم ذلك التأثير حتى على أكثر الرجال ثقافة.

قال يوان، وهو يضع جبينه على الأعشاب المتجمدة: "خيّالة يا مولاي. التتار".

"حسناً؟ نحن في أراضي التتار، أليس كذلك؟ ليس مفاجئاً الالتقاء ببعضهم أثناء سفرنا جنوباً إلى كيريت. دعهم يمرّون يا يوان. وإذا وقفوا في طريقنا، اقتلهم. لقد أزعجتني لأمر تافه".

أحنى يوان رأسه، وتكلم وين بسرعة حتى لا يشعر كبير حراسه بالخجل. وكان الرجل حساساً في ما يتعلق بمسائل الشرف.

"تكلمت بتهور يا يوان. كنت محقاً في لفت انتباهي إلى ذلك".

"يا مولاي، إنهم ثلاثون محارباً، وجميعهم مسلحون جيداً ويمتطون جياداً مفعمة بالنشاط. إنهم ينتمون حتماً إلى قبيلة كبيرة".

تكلم وين ببطء، محاولاً التحلي بالصبر.

"لا أعرف كيف يؤثر ذلك علينا يا يوان. إنهم يعرفون أنه من الأفضل

عدم اعتراض ممثل تشن. قل لهم أن يدوروا حولنا".

قال يوان: "كنت أعتقد... أتساءل إن كنت سترسل محارباً إلى المخيم الذي تركناه يا مولاي. لتحذيرهم. قد يكون التتار يبحثون عنهم".

ومضت عينا وين دهشة من كبير حراسه.

"أرى أنك قد أصبحت حنوناً تجاه مضيفينا، وهذه نقطة ضعفك يا يوان. لماذا أهتم إذا قتل التتار والمغول بعضهم بعضاً؟ أليس ذلك عملي الذي كلّفني به الوزير الأول بنفسه؟ بصراحة، أعتقد أنك قد نسيت نفسك".

جاءت صرخة تحذير من أحد الحراس الآخرين، وسمع كلٌّ من وين ويوان صوت اقتراب الخيّالة. وبقي يوان في مكانه.

أغلق وين عينيه للحظة. ولم تكن هناك سكينة يمكن الاستمتاع بها على هذه الأرض، ولا سكون. وكلما اعتقد أنه قد وجدها، كان أحدهم يتجاوزه بحثاً عن أعداء يقتلهم. وشعر بموجة من الحنين إلى الديار تضربه مثل قوة طبيعية، لكنه قمعها. وكان ذلك قدره إلى أن يتمّ استدعاؤه.

"إذا كان ذلك يرضيك يا يوان، قل لهم إننا لم نرَ المحاربين. أخبرهم أنني أدرب رجالي استعداداً للربيع".

"كما تشاء يا مولاي".

راقب وين المحاربين التتار يقتربون منهم. وأقرّ بأنهم يبدون مسلحين استعداداً للحرب، رغم أنه لم يكن يبالي بتيموجن أو خيامه الرثّة. ولم يكن ليذرف دمعة واحدة إذا تمّ تدمير أمة التتار عن بكرة أبيهم، وقبائل المغول معهم. وربما سيتمّ استدعاؤه حينها إلى دياره أخيراً.

شاهد يوان يتكلم مع القائد، وهو رجل ممتلئ الجسم ويلتف برداء سميك من الفرو. ارتعش وين لرؤية مثل ذلك المحارب القذر، ولم يكن ليحط من قدره بالتأكيد ليتكلم معه شخصياً. بدا التتاري غاضباً، لكن وين لم يعر أدنى اهتمام لذلك. كان رجاله منتقين من الحرس الشخصي للوزير

الأول، وكان أي منهم يعادل ستة من رجال القبائل. كان يوان نفسه قد حصل على سيفه في مسابقة للجيش كله، وجاء الأول في فرقته. وفي ذلك، على الأقل، كان يوان يحظى بخدمة لا مثيل لها.

مع نظرات غاضبة على المحمل، صاح التتار وأشاروا بسيوفهم، فيما كان يوان يسيطر على فرسه دونما انفعال، ويهزّ رأسه. ووحده كبرياؤهم الفتي منعهم من الانطلاق بعيداً، تساءل وين إذا كان سيتمّ استدعاؤه فعلاً لتذكيرهم بمكانته. وحتى التتار الذين لا يغتسلون كانوا يعرفون أنه ينبغي عدم المساس بممثل تشن، وارتاح عندما أنهى المحاربون عرضهم وتابعوا سيرهم دون أن ينظروا إلى الخلف. وكان جزء صغير منه خائباً لأنهم لم يقرروا سحب سيوفهم. لأن يوان كان سيذبحهم حينها. بعد أن استرخى، تساءل وين ما إذا كان تيموجن مستعداً لملاقاة مثل تلك القوة. وقرر أنه غير مهتم بذلك. إذا وجدوا مخيم المغول، سينتصر أحد الطرفين. وبكل الأحوال، لن يكون هناك الكثير من رجال القبائل ليزعجوه أثناء النوم.

اكتشف وين أن قدرته على استيعاب الأمور قد اضطربت بعد ذهابهم. ونفخ الهواء من فمه انزعاجاً، واستدعى يوان لنصب السرادق الصغير الذي يستعمله لإفراغ أمعائه بعيداً عن العيون المتطفلة. فعل كل ما باستطاعته ليجعل نفسه مرتاحاً، لكن مباهج البلاط كانت تقض مضجعه، ولم يكن قد حظي بامرأة منذ زمن طويل جداً. وربما إذا كتب بتواضع إلى زانغ الصغير، قد يستطيع ترتيب أمر إعادته. لا. لم يستطع احتمال الفكرة.

اندفع محاربو التتار بقوة وسرعة حالما سمعوا أصوات أبواق التحذير. ودفعوا جيادهم للهرولة، وكان كل رجل منهم يحمل قوساً جاهزاً لإرسال الموت إلى حنجرة كل من يقف في الطريق.

خرج تيموجن وشقيقاه بسرعة من خيامهم فيما كانت أصداء البوق الأول ما تزال تتردد في الأنحاء، وتحرك المحاربون إلى مواقعهم دون وجل،

ونصب أولئك الموجودون على الطريق الرئيسية حواجز خشبية أقاموها على الأرض، وركَّزوا عصياً تحتها لتثبيتها. بهذه الطريقة لن يستطيع الخيالة الاندفاع بسرعة بين الخيام، وسيكون عليهم الدوران حول الحواجز التي سترغمهم على إبطاء سرعتهم.

شاهد تيموجن رجاله جاهزين مع السهام التي وضعوها على الأرض المتجمدة. وكانوا جاهزين قبل لحظات من رؤيتهم لأول عدو في ردائه النتن من الفرو.

اندفع التتار في مجموعات من ثلاثة أشخاص، وارتفعوا فوق سروجهم أثناء بحثهم عن أهداف. لاحظ تيموجن أنهم يعتمدون على الخوف والارتباك، وأظهر أسنانه عندما رآهم يقتربون، وشعر بالأرض تهتز تحت قدميه، وتمنّى لو أن معه السيف الذي صنعه أرسلان له. لكن لم يكن معه سوى سيف تتاري من نوعية سيئة، لكن ينبغي أن يفي بالغرض.

شاهدت فرقة الخيالة الأولى الحاجز في طريقها، وقاد اثنان منهم فرسيهما حوله، وأعاقا تقدم الثالث. وشاهدوا الرجال في ظله وأطلقوا سهامهم غريزياً على غير هدى نحو الأخشاب. وحالما وجهوا ضرباتهم، نهض كشيون وخاسار فوق الحافة وأطلقا سهميهما مما جعل وتري قوسيهما يطنان. واندفع السهمان عبر الخيالة، وأصابا اثنين من التتار وأوقعاهما على الأرض القاسية فيما كانت فرساهما تسيران بأقصى سرعتهما. ولم ينهضا مجدداً.

في البداية، كان ما حصل بمثابة مجزرة. ووجد التتار الذين جاءوا بعد زملائهم الطريق مسدودة بالفرسين اللتين فقدتا محاربيْهما والقتيلين. ووثب اثنان منهم عن الحاجز قبل أن يستطيع كشيون وخاسار وضع سهم آخر في قوسيهما. وجد المحاربان نفسيهما في ساحة مكشوفة، مع أقواس جاهزة للانطلاق من كل الجهات. ولم يكن لديهما وقت سوى لإطلاق صرخة

قبل أن تنهمر عليهما سهام من كل حدب وصوب، والتي قطعت صرخاتهما الحربية وجعلتهما يسقطان عن سرجيهما.

حاول أحد التتار الوثب فوق الحاجز الأول، لكن فرسه أخطأت القفز وحطمت الحاجز، وكسرت العصا التي ينتصب عليها. وتدحرج خاسار بعيداً، لكن ساق كشيون علقت، وأطلق الشتائم ألماً. استلقى لا حول له على ظهره فيما كان المزيد من التتار يندفعون نحوه، وعرف أن حياته مرتبطة ببضع لحظات.

شاهد أحد الخيّالة كشيون يكافح في مكانه على الأرض وشدّ قوسه حتى آخره ليصيبه. وقبل أن يستطيع إطلاق سهمه، خرج أرسلان من الجانب ودفع السيف في حنجرته. انهار التتاري، وانحرفت فرسه عن مسارها بعنف. وطنّت السهام حولهما فيما كان أرسلان يحرر كشيون. كان خاسار جاثياً على ركبة واحدة، يرسل سهماً إثر آخر على التتار، لكنه كان قد فقد هدوءه، واندفع ستة رجال إليه دون أن يستطيع إصابة أي منهم.

شاهدهم تيموجن قادمين. ودون الحاجز الأول، كان الرجال يستطيعون الوصول مباشرة إلى يسار الطريق الرئيسية، وشاهد اثنين من رجاله يواجهونهم ويسقطان بعد أن نفذت رؤوس السهام من ظهريهما. استدارت مجموعة الحاجز الثاني لتطلق السهام في إثرهم، واندفعت خلفهم مجموعة أخرى من ستة رجال بعد أن استطاعت تخطي شقيقيه. وبدا أن الغارة لم تحسم آنذاك، رغم كل استعداداته.

انتظر حتى أطلق التتاري سهمه قبل أن يخطو إلى الأمام ويدفع بسيفه في ساق الرجل. وانتثرت الدماء عليه عندما صرخ الرجل، وشدّ اللجام بعنف. وفقد التتاري السيطرة، وأدار فرسه نحو إحدى الخيام التي انهارت مع طقطقة الخشب المكسور مما جعله يندفع فوق رأس الفرس.

أدارت أول مجموعة من الرجال الستة أقواسها نحو تيموجن، مما أرغمه

على الوثب ليحتمي منهم. واندفع محارب على فرسه يزمجر نحوه وقد شدّ قوسه ليطلق سهماً مدبب النصل في صدره. تدحرج تيموجن، ووقف شاهراً سيفه. وصرخ الرجل عندما اندفع نصل السيف في أحشائه، وطنّ السهم فوق رأس تيموجن، وضربت كتف الفرس تيموجن عندما مرت به، وألقته أرضاً، فنهض مترنحاً ونظر حوله.

كانت الفوضى تعمّ المخيم. وكان التتار قد فقدوا الكثير من الرجال، لكن أولئك الذين عاشوا كانوا يجولون في أنحائه مبتهجين بالنصر، ويبحثون عن أهداف. وكان العديد منهم قد نحّوا أقواسهم جانباً وشهروا سيوفهم للقتال القريب. شاهد تيموجن اثنين يدفعان فرسيهما نحو أرسلان، فتناول قوسه بسرعة ليطلق سهماً عليهما. وكان السهم الأول الذي لمسه مكسوراً، والبقية مبعثرة. ووجد واحداً يفي بالغرض في غمرة بحث محموم استغرق لحظة واحدة. استطاع سماع والدته تصرخ، وعندما استدار ليرى ما يحدث، كانت بورت تندفع من إحدى الخيام مسرعة خلف تيمولن الصغيرة. وكانت شقيقته الصغرى تجري بفزع، لم يرَ أي منهما التتاري يندفع نحوهما. وحبس تيموجن أنفاسه، لكن أرسلان كان مسلحاً ومستعداً لملاقاة مهاجميه. لقد حسم أمره.

سحب تيموجن الوتر للخلف مستهدفاً محارباً وحيداً يتّجه نحو بورت. وسمع صرخة مفاجئة وكان تتاري آخر يندفع نحوه، ويلوح بسيفه ليقطع له رأسه. ولم يكن هناك وقت للمراوغة، لكن تيموجن جثا على ركبتيه فيما كان المحارب يمرّ بجانبه، وكافح حتى لا يفقد هدفه. وانطلق السهم يثب فوق الأرض، لكنه ضاع. ثم أصابه شيء بقوة كانت كافية لهزّه وجعله يسقط أرضاً.

تقدم جيلم إلى جانب والده، واندفع تتاريان نحوهما.

صرخ أرسلان بولده فيما كان يخطو نحو اليمين: "تولَّ أمر اليسار".

رآهما التتاريان يتحركان، لكن الوالد والابن تركا الأمر حتى اللحظة الأخيرة ولم يكونا يستطيعان تعديل موقفيهما. وضرب رأس سيف أرسلان عنق أحد الرجلين فيما كان جيلم يقطع رأس الآخر حتى كاد يبتره. ولقي التتاريان مصرعهما بلمح البصر، وتجاوزتهما الفرسان مسرعتين على غير هدى.

لم ينجُ قائد التتار من الهجوم الأول على الحواجز، ولم يكن قد تبقى من القوة الأصلية سوى اثني عشر محارباً. مع وجود التل في ظهر المخيم، لم تكن هناك فرصة للاندفاع عبره والهروب بعيداً، لهذا أخذ أولئك الذين بقوا على قيد الحياة يصرخون ويتحركون على جيادهم، ويهاجمون كل من يعترضهم. شاهد أرسلان اثنين يترجلان عن سرجيهما ويمسكان بسكينين وهما يتلويان حرقة ويصرخان. كان ذلك عملاً دموياً، لكن كان قد تمّ القضاء على قوة التتار الرئيسية. واستلقى الناجون القلة على سروجهم فيما كانوا يدفعون جيادهم للهرولة عائدين إلى الطريق التي جاءوا منها، وكانت السهام تطنّ خلفهم.

شاهد أرسلان أحدهم يعود من الجهة الأخرى للمخيم، وجهّز نفسه للقتل مجدداً، ووقف ثابتاً تماماً في طريق الفرس. وفي اللحظة الأخيرة، شاهد ساقي الخيال تركلان فوق السرج مما أفسد ضربته. وامتدت يده اليسرى لتحرير بورت، لكن أصابعه لم تمسك سوى بطرف الملابس، واستطاع الرجل الإفلات بعدها. وشاهد أرسلان أن خاسار يصوب سهماً من قوسه على الخيّال، وصرخ.

"توقف يا خاسار. توقف!"

دوّى صراخ أرسلان عبر مخيم أصبح ساكناً فجأة بعد رحيل التتار الذين كانوا يزأرون. ولم ينجُ منهم سوى ستة رجال، وكان أرسلان يجري آنذاك نحو الجياد.

زأر قائلاً: "امتطِ فرسك. لقد أخذوا إحدى النساء. امتطِ فرسك!"

بحث عن تيموجن فيما كان يجري، ثم شاهد شكلاً نحيلاً وتباطأ حتى توقف مرعوباً. وكان تيموجن مستلقياً على الأرض ومحاطاً بالقتلى. وكانت هناك فرس مكسورة القائمة تقف وهي ترتجف إلى جانبه، وكان العرق الضارب إلى البياض يسيل على جانبيها. تجاهل أرسلان الفرس، ودفعها بعيداً فيما كان يجثو بجانب الشاب الذي أنقذه من الذئاب.

كان هناك الكثير من الدماء، وشعر أرسلان بأن قلبه ينكمش ألماً. ومدّ يده ولمس قطعة اللحم التي تمزقت من فروة رأس تيموجن. وبصرخة فرح، شاهد أنها ما تزال تنزف دماً إلى البركة التي تشكلت حول رأسه. ورفع أرسلان تيموجن عن الدماء التي غطت نصف وجهه.

همس أرسلان: "إنه حي".

بقي تيموجن غائباً عن الوعي عندما حمله أرسلان إلى إحدى الخيام. ودفع شقيقاه فرسيهما للهرولة بسرعة خلف الخيّالة، وألقيا نظرة خاطفة على الشكل بين ذراعي أرسلان. وكانا متجهمين وغاضبين عندما مرّا به، لم يرحم أرسلان أي تتاري أمسكوا به في ذلك اليوم.

وضع أرسلان تيموجن أرضاً في خيمة والدته، وسلّمه لها. وكانت تيمولن تبكي بمرارة في إحدى الزوايا، بصوت يكاد يكون مؤلماً. ورفعت هولن بصرها عن ابنها فيما كانت تبحث عن إبرتها وخيطها.

قالت وهي تركز على عملها: "هدّئ من روع ابنتي يا أرسلان".

أحنى أرسلان رأسه موافقاً، وذهب نحو الفتاة الصغيرة.

سألها: "هل تحبين أن يتمّ حملك".

أومأت تيمولن عبر دموعها، فقذفها في الهواء. ورفعت هولن بصرها إليه، وأرغم نفسه على الابتسام. وكان رد فعل القتل ما يزال يعتمل داخله، وشعر بأنه مصاب بالدوار فيما كانت نبضات قلبه تخفق بسرعة طلباً

للهدوء والسكينة. ودفعت هولن إبرة العظام عبر القطعة الأولى من فروة رأس تيموجن، وشاهد أرسلان الفتاة الصغيرة تفزع وتفتح فمها لتستأنف البكاء.

قال: "كل شيء على ما يرام أيتها الصغيرة. سآخذك إلى إلوين، فقد كانت تبحث عنكِ". ولم يكن يريد للفتاة أن تشاهد الجثث في الخارج، لكن بالقدر نفسه، لم يستطع البقاء في الخيمة دون فعل شيء. وكان يأمل بأن تكون إلوين ما تزال على قيد الحياة.

عندما استدار ليغادر، سمع تيموجن يلهث مرتعشاً. وعندما نظر أرسلان، شاهد أن عيني تيموجن مفتوحتان وصافيتان، وتراقبان هولن وهي تخيط جرحه بسرعة وإتقان.

قالت هولن عندما حاول ابنها أن ينهض: "لا تتحرك. دعني أقوم بهذا كما ينبغي".

هدأ تيموجن، والتقط بصره أرسلان عند الباب، وقال: "قل لي".

أجاب أرسلان: "قمنا بصد الهجوم، لكنهم أخذوا بورت".

فيما كان يتكلم، شدّت هولن الخيط بقوة وتغضن قسم كامل من فروة رأس تيموجن. وهزّ أرسلان تيمولن بين ذراعيه، لكنها كانت قد هدأت مجدداً، وبدت راضية باللعب بزر فضي على ردائه.

استعملت هولن قطعة قماشية لتمسح برفق الدم عن عيني ابنها. وكان جرح فروة الرأس ما يزال ينزف بشدة، لكن الغرز كان مفيداً. ودفعت الإبرة عبر قطعة أخرى من اللحم، وشعرت بتيموجن يتوتر.

تمتم: "ينبغي أن أنهض يا أمي. هل أنتِ على وشك الانتهاء؟"

قال أرسلان بسرعة: "ذهب شقيقاك خلف آخرهم. ومع مثل هذا الجرح، ليست هناك فائدة في اللحاق بهم، ليس بعد. لقد فقدت الكثير من الدماء، وليست هناك فائدة في التعرض لخطر السقوط".

أجاب تيموجن، وعيناه تفقدان بريقهما: "إنها زوجتي". انحنت والدته إلى الأمام كما لو أنها على وشك تقبيله، لكن بدلاً من ذلك قطعت نهاية الخيط في جلده بأسنانها. ونهض حالما ابتعدت عنه، ووضع أصابعه على خط الغرز.

قال: "شكراً لكِ". وكانت عيناه قد فقدتا تركيزهما الحاد، وأومأت هولن فيما كانت تفرك الدماء الجافة على عنقه.

سمع أرسلان صوت إلوين خارج الخيمة، وخرج من الباب ليضع تيمولن في عنايتها. وعاد متجهماً، فيما كان تيموجن يحاول الوقوف. وترنح الخان الشاب، وأمسك بالعمود في وسط الخيمة ليسند نفسه.

قال أرسلان له: "لا تستطيع امتطاء الفرس اليوم. وكل ما تستطيع فعله هو تقفّي آثار شقيقيك. دعهما يجدانها".

سأل تيموجن: "هل كنت لتفعل ذلك أنت؟" وكان قد أغلق عينيه من الدوار، وزاد فخر أرسلان به عندما شاهد تصميمه. وتنهد.

"لا، سأذهب خلفهم. سأحضر فرسك وأجلب فرسي".

خرج من الخيمة، ووقفت هولن، وأمسكت بيد تيموجن في يدها.

تمتمت: "لن تحب سماع ما سأقوله".

فتح تيموجن عينيه، وطرفتا من أثر الدماء.

أجاب: "قولي ما تشائين".

"إذا لم يستطع شقيقاك إيجادهم قبل حلول الظلام، سيؤذونها".

"سيغتصبونها يا والدتي. أعرف. إنها قوية".

هزّت هولن رأسها.

"لا تعرف. ستشعر بالخزي". وتوقفت للحظة، تريده أن يفهم. "إذا آذوها، ينبغي أن تكون قوياً جداً. ولا تتوقع أن تكون الشخص ذاته، معك أو مع أي رجل".

توعَّد تيموجن والغضب يضطرم داخله: "سأقتلهم. سأحرقهم وأتناول لحمهم إذا فعلوا ذلك".

قالت هولن: "سيجلب لك ذلك السكينة، لكنه لن يغير من الأمر شيئاً بالنسبة لبورت".

"ما الذي عساي أفعله؟ لا تستطيع قتلهم مثلي، أو حتى إرغامهم على قتلها. لا ذنب لها في ما يحدث". ووجد نفسه يبكي ومسح بغضب الدموع الدموية عن وجنتيه. "لقد وثقت بي".

"لا تستطيع تصحيح الأمر يا بني. ليس إذا هربوا من شقيقيك. وإذا وجدتها على قيد الحياة، سيكون عليك أن تكون صبوراً ولطيفاً".

"أعرف ذلك! أحبها، وهذا كافٍ".

أصرّت هولن: "كان ذلك فيما مضى، وقد لا يكون كافياً بعد الآن".

وقف تيموجن في الرياح الباردة، ورأسه يضج ألماً. وعندما أحضر أرسلان الفرسين، نظر حوله، وشمّ رائحة الدماء في الهواء. كانت أشلاء الأجساد الممزقة متناثرة في المخيم. وكان بعضهم ما يزال يتحرك. واستلقى تتاري على ظهره كما لو أنه ميت، لكن أصابعه كانت تمسك بسهمين في صدره وتنتفض مثل عناكب شاحبة. وسحب تيموجن سكيناً من حزامه وترنح في طريقه إليه. وكان الرجل بعيداً للحظات فقط عن الموت، لكن رغم ذلك جثا تيموجن إلى جانبه ووضع رأس نصله على عنقه الذي كان ما يزال ينبض. وهدأت الأصابع المرتعشة من تلك اللمسة، وأدار التتاري عينيه بصمت نحو تيموجن. وعندما تلاقت النظرات، دفع تيموجن سكينه ببطء إلى الأسفل وقطع الرغامى وخرج الهواء في فقاعة من الدماء.

كان تيموجن ما يزال يشعر بالدوار عندما نهض. وبدت الشمس قوية جداً، ودون سابق إنذار، استدار وتقيأ. وسمع هولن تتكلم إليه، لكن صوتها كان زئيراً لم يستطع أن يفهمه. كانت تتناقش مع أرسلان حول

خروجه، واستطاع تيموجن رؤية وجه أرسلان يتقطب ريبةً.

قال تيموجن لكليهما وهو يتكئ على قربوس سرجه: "لن أسقط. ساعداني بالصعود إلى السرج. ينبغي أن ألحق بهم".

تطلب الأمر أن يقوم كلاهما بدفعه على السرج، لكن حالما أصبح هناك، شعر تيموجن بأنه أكثر أماناً. وهزّ رأسه، وفزع من الألم الذي شعر به خلف عينيه.

نادى: "جيلم! أين أنت؟"

كان ابن أرسلان مكسواً ببقع الدم الجاف، وما يزال سيفه مشهوراً فيما كان يمشي حول الجثث ليصل إليه. شاهده تيموجن قادماً، وأدرك أنه لم يشاهد جيلم غاضباً من قبل.

قال تيموجن وهو يدغم الكلمات ببعضها: "أثناء غيابنا، ينبغي أن تنقل المخيم". وشعر بأن رأسه ضخم جداً، ويتدلى فوق كتفيه. ولم يسمع ما أجابه به جيلم.

"سافر ليلاً. خذهم إلى التلال، لكن تحرك جنوباً نحو كيريت. وإذا كان لدى توغرول رجال مثلنا، سأحرق التتار من على وجه الأرض. سأبحث عنك بعد أن أجد زوجتي".

قال جيلم: "كما تشاء يا مولاي. لكن إذا لم تعد؟" وكان ينبغي قول ذلك، لكن تيموجن فزع مجدداً عندما اشتد عليه الألم.

قال أخيراً: "عندها جد الوادي الذي تكلمنا عنه وقم بتربية أبناء وأغنام".

كان قد أدّى واجبه كخان. وكان جيلم قائداً رائعاً، وسيكون أولئك الذين يعتبرون تيموجن زعيماً لهم بأمان. وأحكم قبضته على اللجام بقوة. ولا يمكن أن يكون بعيداً كثيراً عن شقيقيه. وكان كل ما تبقى هو الثأر.

عندما كانت الشمس تغرب وأشعتها تغمر السهول بلون ذهبي، عثر خاسار وكشيون على جثة أحد الرجال الذين لحقا بهم. وخوفاً من الوقوع في مصيدة، بقي كشيون على السرج وقوسه مشدود للخلف فيما اقترب منه خاسار، وقلب الجثة بمقدمة حذائه.

كان هناك سهم مكسور يبرز من معدة التتاري حيث حاول انتزاعه. وكان أسفل جسده كله أسود من الدماء، أما وجهه فكان أبيض وشاحباً ومتيبساً. كان رفاقه قد أخذوا فرسه معهم، وكانت علامات حوافرها الخفيفة ما تزال مرئية على التربة. وفتش خاسار الجثة بسرعة، لكن إذا كان يحمل شيئاً مفيداً، سيكون التتار قد استولوا عليه.

قاد الشقيقان فرسيهما طالما استطاعا تقفّي الآثار على الأرض، لكن في النهاية، أرغمتهما العتمة المتزايدة على التوقف أو المخاطرة بإضاعة أثر الرجال الذين يسعون خلفهم. ولم يتكلم أي منهما عندما مزجا القليل من الحليب مع الدماء التي حصلا عليها من وريد فرس كشيون. وكان كلاهما قد شاهدا تيموجن غائباً عن الوعي بين ذراعي أرسلان، وكانا مصممين على عدم السماح للخيالة بالإفلات منهما.

ناما قلقين واستيقظا قبل الفجر، وتحركا حالما كشفت تباشير الضوء الأولى آثار الخيّالة مرة أخرى. وألقى كل منهما نظرة على الآخر، ودفع بعقبيه على جانبي فرسه ليجعلها تهرول. وكان كلاهما مستعداً وقاسياً. ولم يكونا ليدعاهم يهربون نتيجة لضعفهما.

خلال اليوم الثاني، أصبحت آثار الحوافر أوضح ورؤيتها أسهل. وكان كشيون يتقفى الآثار بشكل أفضل من شقيقه، الذي لم يتمتع بالصبر أبداً ليتعلم دقة الملاحظة. وكان كشيون من وثب عن السرج ليدس يده في روث الحيوانات، باحثاً عن أثر للحرارة. وفي أمسية اليوم الثاني، كشّر عندما دس

أصابعه في كتلة داكنة اللون.

قال لخاسار: "إنها أحدث من الأخيرة. إننا نقترب منهم يا شقيقي".

لم يحاول التتار تمويه آثارهم كثيراً. وكانوا قد حاولوا تضليل مطارديهما أولاً، لكن الآثار في صبيحة اليوم الثاني كانت مباشرة إلى الأمام تقريباً، وتتحرك بسرعة إلى جهة ما. وحتى إذا كان التتار يعرفون أنهم متبوعون، إلاّ أنهم لم يعودوا يحاولون التخلص منهما آنذاك.

قال خاسار بتجهم: "آمل أن نلحق بهم قبل أن يصلوا إلى حيث يتجهون. وإذا كانوا يقصدون مخيماً كبيراً، سنفقدهم وبورت".

امتطى كشيون فرسه مجدداً، ووجهه كئيب مع تكشيرة بدت عندما تحركت عضلاته المتعبة احتجاجاً.

قال: "ينبغي أن يكونوا قد جاءوا من مكان ما. وإذا وصلوا إلى بر الأمان، سيعود أحدنا أدراجه ويجمع الآخرين. وربما يذهب مع تيموجن إلى كيريت ويوحدان القوى. لن يهربوا منا يا خاسار. بطريقة أو بأخرى، سنقضي عليهم".

تمتم خاسار: "إذا كان تيموجن حياً".

هزّ كشيون رأسه، وقال: "إنه حي. لم يستطع الذئاب أنفسهم إيقافه. هل تعتقد أن جرحاً من التتار سيفعل ذلك؟"

قال خاسار: "لقد أوقف والدنا".

أجاب كشيون بفظاظة: "ما زال ذلك ديناً ينبغي تسديده".

عندما نام الشقيقان في الليلة الثالثة، كان كلاهما متيبساً ومتعباً من الترحال القاسي. كان مزيج الدماء والحليب يغذيهما بشكل ما، لكن لم يكن لديهما فرسان بديلتان، كانت فرس كشيون تعاني من التقرحات، مثلهما. وكان كلا الرجلين قد أُصيبا بكدمات خلال الغارة، وكان كاحل كشيون متورماً ويؤلمه عندما يمسّه. ولم يخبر شقيقه بذلك، لكنه لم يكن يستطيع

إخفاء مشيته العرجاء كلما ترجلا عن سرجي فرسيهما. ناما يشخران، ونهض كشيون وجلاً عندما لمس نصل بارد حنجرته.

لم يكن الظلام دامساً تحت النجوم، وفتح عينيه مرتعشاً. وحاول التدحرج بعيداً، لكن الارتياح غمره عندما سمع صوتاً يعرفه.

قال تيموجن في أذنه: "يستطيع أرسلان تعليمك الكثير حول تقفي الآثار يا كشيون. كاد الفجر يبزغ؛ هل أنت مستعد ليوم آخر؟"

قفز كشيون على قدميه، واحتضن تيموجن ثم أرسلان، مما فاجأ الرجل العجوز، وقال: "لا يمكن أن نكون بعيدين عنهم".

على بعد عدّة خطوات، كان خاسار قد توقف عن الشخير واستدار على جانبه. وسار كشيون إليه ودفع بقدمه في أضلاعه.

"انهض يا خاسار، لدينا زوار".

سمعوا خاسار ينهض على قدميه بسرعة وصرير قوس يتمّ سحبه. ورغم أنه كان ينام مثل الموتى، إلاّ أن ردود أفعاله كانت ممتازة.

قال تيموجن بلطف في الظلام: "أنا معك يا شقيقي". وصرّ القوس مجدداً، وخفف خاسار من شد الوتر.

سأل خاسار: "كيف رأسك؟"

أجاب تيموجن: "إنه يؤلمني، لكن الغرز متماسكة". ونظر نحو الشرق، وشاهد أولى تباشير الفجر، والضوء الرمادي الذي يسبق بزوغ الشمس. وقدم لهما قربة من شراب الأعشاب الأسود.

قال: "اشربا بسرعة واستعدا للرحيل. لقد قضينا وقتاً طويلاً في المطاردة حتى الآن".

كان صوته يحمل ألماً ساكناً فهموه جميعاً. كانت بورت قد أمضت ثلاث ليالٍ مع فرقة الغزو. ولم يتكلموا في الأمر. وعمل الشراب على تدفئة بطونهم الخاوية، ومنحهم دفعة من الطاقة كانوا بأمس الحاجة إليها. وكان

الحليب والدم سيأتيان لاحقاً في ذلك اليوم. وسيكون ذلك كافياً.

كان الأشقاء الثلاثة وأرسلان مكسوين بالغبار ومتعبين في الوقت الذي لمحت أبصارهم فيه فريستهم. كانت القافلة قد مرت عبر سلسلة من التلال، وأبطأت الأرض الوعرة خطواتهم السريعة. لم ينبس تيموجن ببنت شفة إلى أي منهم، وكان بصره مركزاً دائماً على الأفق في بحثه عن آخر التتار.

كانت الشمس منخفضة بالقرب من الأفق عندما وصلوا إلى ذروة إحدى التلال وشاهدوا المجموعة المرهقة في الطرف الآخر من الوادي. وترجل الأربعة عن سروجهم، وسحبوا جيادهم خلفهم حتى لا يستطيع أحد رؤيتهم بسهولة. ووضع تيموجن ذراعه على عنق فرسه ودفع بها نحو الأعشاب.

قال: "سيكون ذلك الليلة، إذاً. سننقضّ عليهم عندما يقيمون مخيماً".

قال كشيون: "لديَّ ثلاثة سهام، وهذا كل ما تبقى في الكنانة عندما خرجت من المخيم".

استدار تيموجن إلى شقيقه الأصغر، ووجهه جامد مثل الحجر.

"إذا استطعت، أريدك أن تصيبهم لكن دون أن تقتلهم. لا أريد أن يكون ذلك سريعاً، بالنسبة لهؤلاء".

قال أرسلان وهو يحدق بالمجموعة الصغيرة البعيدة: "تجعل الأمر أصعب يا تيموجن. من الأفضل شنّ هجوم خاطف وقتل أكبر عدد منهم. وتذكر أن لديهم أيضاً أقواساً وسيوفاً".

تجاهل تيموجن الرجل العجوز، وتابع النظر في عيني كشيون.

كرّر: "إذا استطعت. إذا كانت بورت على قيد الحياة، أريدها أن تشاهدهم يموتون، وربما بسكينها".

تمتم كشيون متذكراً عندما قتلا بكتر: "مفهوم". كان وجه تيموجن يحمل التعبير نفسه رغم أنه أصبح أسوأ نتيجة الغرز التي على جبينه. لم يكن

باستطاعة كشيون تحمل تلك النظرة الشرسة، ونظر هو الآخر أيضاً نحو الوادي. كان التتار قد وصلوا إلى نهايته، ودخلوا بين الأشجار الكثيفة.

قال تيموجن وهو ينهض: "حان وقت التحرك. ينبغي أن نقترب منهم قبل أن يقيموا مخيماً الليلة. لا أريد إضاعتهم في الظلام". لم ينظر ليرى إذا كانوا قد لحقوا به عندما أرغم فرسه على الهرولة مرة أخرى. فقد كان يعرف أنهم سيفعلون ذلك.

استلقت بورت على جانبها فوق طبقة رطبة من الأوراق القديمة وإبر الصنوبر. كان رجال قبائل التتار قد قيدوا يديها وقدميها بعناية عندما أقاموا مخيمهم في الغابة. وراقبتهم بخوف عندما كانوا يستعملون فأساً لقطع الأغصان الجافة من شجرة ميتة ويشعلون ناراً صغيرة. كانوا جميعاً يتضورون جوعاً، وكان اليأس والذهول اللذان رافقاها في الليالي الأولى قد بدأا يتلاشيان. وأصغت السمع إلى أصواتهم المتحشرجة وحاولت ألاّ تخاف. كان ذلك صعباً، وكانوا قد ذهبوا إلى مخيم تيموجن يتوقعون القيام بغارة ناجحة. إلاّ أنهم صدّوا وبعثروا وفقدوا إخواناً وأصدقاء وكادوا يفقدون حياتهم. كان اثنان منهم على وجه الخصوص ما يزالان غاضبين من خزي انسحابهم. وكان هذان الاثنان اللذين جاءا إليها في الليلة الأولى، وأفرغا إحباطهما وغضبهما بالطريقة الوحيدة التي تبقت لهما. ارتعشت بورت فيما كانت مستلقية هناك، وشعرت مجدداً بأيديهم الخشنة عليها. كان أصغرهم فتى تقريباً، لكنه كان الأقسى. ولطم بقبضة يده وجهها حتى أصابها الدوار وأخذت تنزف. ثم اغتصبها مع الآخرين.

أطلقت بورت صوتاً خافتاً من حنجرتها، وكان مثل صوت حيوان خائف لم تستطع كبته. قالت لنفسها بأن تكون قوية، لكن حالما نهض أصغرهم من حول النار وسار نحوها، حتى شعرت بأن شيئاً ساخناً يخرج من مثانتها فجأة، ويتبخر في الهواء البارد. ورغم أن الظلام كان دامساً، إلاّ أنه شاهد

ذلك وأظهر أسنانه.

قال لها وهو يربض إلى جانبها: "كنت أفكر بك طوال اليوم عندما كنا نسير".

بدأت ترتجف، وكرهت نفسها لإظهار علامات عن ضعفها. كان تيموجن قد قال لها إنها من الذئاب، مثله تماماً، وأنها تستطيع تحمل أي شيء. لم تبكِ عندما أمسك بها التتاري الشاب من قدمها وسحبها خلفه إلى الرجال حول النار. وبدلاً من ذلك، حاولت التفكير بطفولتها وجريها بين الخيام. حتى عند ذلك، كانت كل ذكرياتها عن قيام والدها بضربها، أو عن عدم اكتراث والدتها لتعاستها. وكانت الذكرى الوحيدة التي بقيت عالقة في الأذهان تدور حول اليوم الذي جاء فيه تيموجن من أجلها أخيراً، كان طويلاً ووسيماً بفرائه حتى أن أولخونوت لم يستطيعوا أن ينظروا إليه.

راقبت التتار حول النار باهتمام عندما كان أصغرهم يحلّ وثاق قدميها. كانت تستطيع رؤية الرغبة في عيونهم، واستجمعت قواها لتقاتلهم مجدداً. لم يكن ذلك ليوقفهم، لكنه كل ما لديها، ولن تمنحهم ذلك الجزء الأخير من كبريائها. حالما تحررت قدماها، ركلت بهما، وضربت قدمها العارية من غير جدوى صدر التتاري الشاب، فأبعد قدمها بضربة قوية وهو يضحك متجهماً.

قالت بحدّة: "جميعكم أموات. سيقتلكم جميعاً".

تورد أصغرهم غضباً وإثارة ولم يجب فيما كان يجذب رداءها ويكشف صدرها في برد المساء. قاومت بعنف، وأومأ برأسه إلى أحد الآخرين ليساعده في تثبيتها. كان الرجل الذي نهض من مكانه قوي البنية وكريه الرائحة. وكانت قد شمت أنفاسه الكريهة بالقرب من وجهها قبل ليلة، ودفعتها الذكرى لسدّ فمها، وكانت معدتها الفارغة تنتفض دون جدوى. وركلت بقدميها بكل ما استطاعت من قوة، وأطلق أصغرهم اللعنات.

قال بلهجة آمرة وهو يسحب فراءه ليكشف نفسه: "أمسك قدميها يا آيلك".

مدّ الرجل الأكبر سناً يده ليفعل ما قيل له، ثم سمعوا جميعاً وقع أقدام على الأوراق.

اندفع أربعة رجال من بين الأشجار. وكان ثلاثة منهم يحملون سيوفاً جاهزة في أيديهم والرابع يحمل قوساً قد شدّ وتره إلى أذنه.

تحرك التتار بسرعة، ووثبوا من أماكن جلوسهم وأمسكوا بأسلحتهم. ألقى الرجلان بورت على الأرض الرطبة، لكنها زحفت على ركبتيها. وقفز قلبها ألماً في صدرها عندما شاهدت تيموجن وشقيقيه، وصانع السيوف أرسلان يقف بينهم. وركضوا إلى الأمام بسرعة، وكان توازنهم مثالياً لتوجيه الضربات الأولى.

زأر التتار إيذاناً ببدء الهجوم، لكنّ الوافدين الجدد كانوا صامتين عندما اندفعوا إليهم. ابتعد تيموجن عن سيف يندفع بقوة نحوه، ثم استعمل مقبض سيفه ليضرب رجلاً على قدميه. وركل بقوة عندما أصبح فوق عدوه، وشعر بعظم الأنف يتحطم تحت عقبه. وكان التالي ينهض عن بورت، ولم يجرؤ تيموجن على النظر إليها عندما اندفع الرجل نحوه، مسلحاً بسكين فقط. تركه تيموجن يأتي إليه، وتحرك قليلاً حتى ضاعت الضربة في ردائه. ولكمه بيده اليسرى بقوة، وجعل التتاري يتراجع إلى الخلف، ثم مزق ساقي الرجل بسيفه، ودفعه للاستلقاء على ظهره يصرخ ألماً. سقطت السكين بين الأوراق، واستدار تيموجن مبتعداً وهو يلهث، يبحث عن هدف آخر. استقرت السكين بالقرب من بورت التي التقطتها بيديها المقيدتين.

وقع التتاري الشاب على الأرض يولول، وارتعشت أوصاله عندما حاول النهوض. وكان تيموجن قد ابتعد لمهاجمة رجل ثالث مع كشيون، ولم يرَ التتاري بورت في البداية عندما زحفت نحوه على ركبتيها. وعندما وقع

بصره عليها، هزّ رأسه بيأس. ورفع قبضتيه، لكن بورت ضغطت بركبتها على ذراعه اليمنى، وكافحت لتغرز النصل فيها. ووجدت يده الحرة حنجرتها وكانت قوته ما تزال مخيفة. شعرت بأن رؤيتها قد أصبحت غير واضحة عندما ضغط عليها يائساً، لكنها لم تكن لتتراجع. ودفع رأسها عالياً بذراعه عندما أصبح عنقه الذي ينبض بقوة تحت أصابعها. وكانت تستطيع غرز السكين هناك، لكنها رفعت يدها إلى الأعلى، وقامت بتثبيت رأسه بأفضل ما تستطيع. وكافح، لكنّ دماءه كانت تسيل من ساقيه، واستطاعت أن تشعر بأنه يصبح أضعف كلما أصبحت أقوى.

وجدت عينيه، ودفعت أظفارها فيهما، وسمعته يصرخ. وانزلق نصل السكين على طول وجهه، وجرح وجنته قبل أن تستطيع ضغط كامل ثقلها إلى الأسفل. وفجأة، لم تعد هناك مقاومة، ووجدت محجر العين ودفعت إصبعها فيه. وخرّت اليد التي كانت تمسك بعنقها رخوة، وسقطت فوقه تلهث. كانت ما تزال تشم رائحة الرجل على جلدها، وأطلقت صرخة غضب غير مصحوبة بكلمات فيما كانت تضع النصل في محجر العين، وتدفع بعيداً.

قال أرسلان إلى جانبها: "إنه ميت". ووضع يده على كتفها، فانتفضت مبتعدة من اللمسة كما لو أنها أحرقتها، وعندما نظرت إلى الأعلى، كانت عينا الرجل العجوز مليئتين بالأسى. "أنت بأمان الآن".

لم تتكلم بورت، رغم أن عينيها امتلأتا بالدموع. بسرعة، تذكرت أصوات المخيم عندما أمسك بها هؤلاء. وكان بقية التتار يبكون ألماً وخوفاً حولهم. وكان ذلك كل ما تتمناه.

جلست بورت وهي تنظر بذهول إلى الدماء التي غطت يديها. وسمحت للسكين بأن تقع مرة أخرى، ونظرت إلى البعيد.

سمعت أرسلان ينادي: "تيموجن، تعال واعتنِ بها". وشاهدت صانع السيوف يلتقط السكين ويقذف بها بين الأشجار. ولم تفهم السبب الذي

دعاه للتخلي عن نصل جيد، ورفعت رأسها لتسأله.

سار تيموجن بخطوات واسعة عبر المخيم، وبعثر النار الصغيرة دون أن يلاحظ أو يهتم. وأمسك بها من كتفيها وضمها بين ذراعيه. عندها قاومت، وانفجرت تنشج فيما كانت تحاول الابتعاد عنه.

قال بلهجة آمرة عندما رفعت قبضتيها لتضرب وجهه: "اهدئي!" وجعلته الضربات الأولى يحني رأسه ويمسك بها بقوة أكبر. "انتهى الأمر يا بورت. اهدئي!"

تلاشت قواها خلال لحظة، وتراخت بين ذراعيه باكيةً.

همس: "أنتِ معي الآن. أنت بأمان، وقد انتهى الأمر". كرّر الكلمات همهمة، وكانت مشاعره تجيش ألماً. وكان مرتاحاً لأنه وجدها على قيد الحياة، لكن كان ما يزال هناك شيء في داخله يريد إيذاء الرجال الذين أخذوها. نظر إلى حيث كان شقيقاه يقيدان التتار. كان اثنان منهما يصرخان مثل الأطفال، وسهام كشيون في ساقيهما وذراعيهما. وربما كان الثالث ميتاً بعد أن شقّ أرسلان أحشاءه، لكنّ الآخرين كانا سيعيشان مدة كافية.

قال تيموجن لشقيقيه: "أشعلا ناراً. أريدهم أن يشعروا بالحرارة ويعرفوا ما هو قادم".

انطلق خاسار وكشيون يجمعان الجمر الذي كان قد بعثره، وسحبا جذع شجرة حتى وضعاه عليها. وسرعان ما تصاعدت ألسنة اللهب من حواف الخشب الجاف وأخذت تلتهمه بسرعة.

شاهد أرسلان الزوج والزوجة يقفان معاً. كان وجه بورت خالياً من أي تعبير، وبدت كما لو أنها مصابة بدوار. وهزّ صانع السيوف رأسه.

قال أرسلان: "دعنا نقتلهم ونعود إلى الآخرين. ليس هناك شرف في ما تخطط له".

استدار إليه تيموجن، وعيناه تقدحان شرراً.

قال بحدّة: "غادر إذا أردت. هذا دين دم".

وقف أرسلان بلا حراك.

قال أخيراً: "لن أشترك في هذا".

أومأ تيموجن برأسه. وكان خاسار وكشيون قد جاءا ليقفا إلى جانبه. ونظر الأشقاء الثلاثة إلى صانع السيوف، وشعر بالانزعاج. لم تكن هناك شفقة في عيني أي منهم. وخلفهم، تأوّه التتار رعباً، وطقطقت النار فيما كان لهيبها يزداد اتقاداً.

وقف تيموجن عاري الصدر، والعرق يتلألأ على جلده. وكان شقيقاه قد وضعا كومة من الحطب على النار حتى أضحت جحيماً ولم يعد بوسعهم الاقتراب من النار الصفراء الملتهبة.

قال تيموجن وهو يرفع رأسه إلى النجوم الباردة: "أمنح هذه الحيوات إلى السماء والأرض، وأبعثر أرواحها في النار". كان فمه وصدره مليئين بخطوط سوداء عريضة من الدماء التي تصل إلى خصره. أمسك بآخر تتاري من حنجرته. وكان الرجل ضعيفاً من جراحه، لكنه كان ما يزال يقاوم بوهن، وقدماه تتركان آثاراً على الأرض. لم يبدُ أن تيموجن يشعر بالثقل. ووقف قريباً جداً من النار حتى تلاشى الشعر الناعم على ذراعيه، لكنه كان مستغرقاً بطقوس الموت ولم يشعر بأي ألم.

راقب كشيون وخاسار ما يجري بصمت وتجهم على بعد عدّة خطوات منه. وكان عليهما أيضاً علامات من دماء التتار بعد أن تذوقا اللحم الذي احترق في ألسنة اللهب. استلقت ثلاث جثث عارية في جانب من النار، وكان هناك ثقوب سوداء في صدور اثنين منها وما يكفي من الدماء لغسل الأسى والغضب. لم يكونوا قد قطّعوا الرجل الذي قتلته بورت. كانت النار للأحياء فقط.

غافلاً عنهم جميعاً، بدأ تيموجن يغني كلمات لم يكن قد سمعها منذ همس بها تشاغاتي العجوز في ليلة شديدة البرودة قبل وقت طويل. كانت أغنية الكاهن تتكلم عن الخسارة والانتقام، وعن الشتاء، والجليد والدماء. ولم يكن عليه أن يعصر ذهنه ليتذكر الكلمات لأنها كانت جاهزة على لسانه كما لو أنه كان يعرفها دائماً.

تأوه آخر تتاري رعباً، وأنشب يديه في ذراع تيموجن وخدش جلده بأظفاره المكسورة. ونظر تيموجن إليه.

قال وهو ينظر إلى الرجل: "اقتربي يا بورت".

اقتربت بورت من ضوء النار، وكانت ظلال ألسنة اللهب تتراقص على جلدها. وانعكس الضوء المضطرب في عينيها، وبدا كما لو أن ألسنة اللهب تستعر داخلها.

نظر تيموجن إلى زوجته، وسحب سكينه مجدداً من حزامه، وكانت مصقولة آنذاك. وبضربة حادة، شق جرحاً بليغاً في صدر التتاري، ومرّر السلاح جيئة وذهاباً ليقتطع شريحة من عضلته. ففتح التتاري فمه، لكن لم يصدر عنه أي صوت. وكانت الأعضاء اللامعة ما تزال تنبض عندما مدّ تيموجن يده إلى الداخل وأمسك بها بإحكام وانتزعها. وبين إصبعين، سحب قطعة من لحم القلب المليء بالدماء. وغرزه في مقدمة سكينه وعرّضه للنار، وانتشرت الدماء على جلده عندما أزّ اللحم وطش. وزفر من الألم، مدركاً له لكن دون أن يكترث به. ترك التتاري يسقط على الأوراق الهشة، وعيناه ما تزالان مفتوحتين. ودون أدنى كلمة، سحب تيموجن قطعة اللحم المسفوعة من نصل سكينه وقدّمها لبورت، وأخذ يراقب فيما كانت ترفعها إلى شفتيها.

كانت ما تزال نيئة تقريباً ومضغت بقوة لتبتلعها، شعرت بالدماء الحارة تسيل فوق شفتيها. ولم تكن تعرف ما سيكون عليه الأمر. كان ذلك أقدم

أنواع الشعوذة: تناول الأرواح. شعرت باللحم ينزلق عبر بلعومها، ورافق ذلك شعور بارتياح كبير، وبالقوة. تراجعت شفتاها لتكشفا عن أسنانها، وبدا تيموجن منهاراً كما لو أن شيئاً قد خرج منه. قبل ذلك، كان يعمل على الشعوذات الظلامية، وينفذ العقاب. وخلال لحظة، أصبح مجرد رجل متعب يمزقه الأسى والألم.

رفعت بورت يدها إلى وجه زوجها، ومست وجنته، وتركت مسحة من الدماء هناك.

قالت بصوت يعلو على طقطقة النار: "هذا كافٍ. تستطيع النوم الآن".

أومأ بإرهاق، وأخيراً ابتعد عن ألسنة اللهب لينضم إلى شقيقيه. ووقف أرسلان بعيداً عنهم، وكان متجهم الوجه. ولم يكن قد شارك في إراقة الدماء، أو تناول قطع اللحم المقتطعة من رجال أحياء. ولم يكن قد شعر بدفق الحياة الذي رافق ذلك، ولا الإرهاق الذي تبع ذلك. ولم ينظر إلى أجساد التتار المبتورة عندما جلس على الأرض ووضع ذراعيه داخل ردائه. وكان يعرف بأن أحلامه ستكون رهيبة.

استيقظ توغرول خان كيريت من نومه على يد زوجته الأولى، تهزّه بعنف.

قالت: "انهض أيها الكسول!" وحطم صوتها الخشن بقوته المعتادة حلماً سعيداً.

تأوّه توغرول فيما كان يفتح عينيه. وكانت قد منحته ست بنات دون أن يُرزق بصبي واحد. نظر إليها بانزعاج فيما كان يفرك وجهه.

"لماذا تزعجينني يا امرأة؟ كنت أحلم بك عندما كنت شابة وفاتنة".

ردّت عليه بأن وخزته بقوة في أضلاعه.

"لقد وصل هذا الرجل الجديد الذي استدعيته مع تابعيه بملابسهم الرثة. ويبدو مما أراه أنهم ليسوا أفضل من متجولين قذرين. هل ستبقى طوال النهار في سباتك فيما يقومون بتفحص خيامك؟"

تقطّب حاجبا توغرول، وكتم تثاؤبه فيما كان يتمطّى. ووضع قدميه على الأرض الباردة، ونظر حوله.

قال عابساً: "لا أرى طعاماً يمنحني القوة. هل ينبغي أن أخرج إليهم بمعدة خاوية".

ردّت بسرعة: "تلك المعدة لا تفرغ أبداً. وليس مناسباً إبقاؤهم ينتظرون فيما تقوم بدفع خروف آخر عبر بلعومك".

قال وهو يقف: "يا امرأة، قولي لي مجدداً لماذا أحتفظ بك، لقد نسيت".

تأففت فيما كان يرتدي ملابسه، ويتحرك بسرعة مفاجئة بالنسبة لرجل في مثل ضخامته. وعندما رشّ الماء على وجهه، دفعت بين يديه بشطيرة من الضأن والخبز مليئة بالدهن. أخيراً، ابتسم عندما شاهد ذلك، وتناول نصفها بقضمة كبيرة، وتجشأ قليلاً فيما كان يمضغ الطعام. وجلس مرة أخرى، وعمل على إنهاء ما يتناوله فيما كانت زوجته تربط شريط حذائه. لقد كان

يحبها كثيراً.

قالت له عندما تحرك نحو الباب: "تبدو مثل راعي أغنام، وإذا سألوا أين يختبئ خان كيريت الحقيقي، قل لهم إنك أكلته".

قال: "يا امرأة، أنتِ ضياء قلبي". وأحنى رأسه ليخرج نحو ضوء الفجر. وضحك بصوت خافت عندما رمت بشيء ارتطم بالباب الذي أغلقه خلفه.

تغيّر مزاجه عندما شاهد المحاربين الذين جاءوا إلى خيام كيريت. كانوا قد ترجلوا عن جيادهم، وكانوا محاطين بالحمقى من عائلاته، ويبدون غاضبين آنذاك من الحشد الذي يضغط عليهم. زفر توغرول الهواء من بين شفتيه، وتمنى لو أنه أحضر شطيرة أخرى من الطعام معه. قرقعت معدته، وفكّر بأن الوافدين الجدد سيرحبون بإقامة وليمة على شرفهم. كان صعباً على زوجته التذمر من ذلك.

تفرق حشد أطفال كيريت، وشاهد أن أتباعه قد وصلوا إلى هناك قبله. نظر حوله بحثاً عن وين تشاو، لكنّ سفير تشن لم يكن قد أفاق من نومه بعد. وعندما اقترب توغرول من المجموعة، انكمش قلبه من عددهم القليل. أين الحشد الذي وعد به وين؟

حدّق العديد من الوافدين الجدد حولهم بذهول وعصبية. في الوسط، شاهد توغرول خمسة رجال يقفون إلى جوار جياد هزيلة، ووجوههم قاسية ومتعبة، وابتسم لهم عندما تقدم منهم، وخدمه يسيرون خلفه.

قال: "أمنحكم حقوق الضيف في دياري. من منكم تيموجن الذئاب؟ لقد سمعت الكثير عنك".

تقدم أطولهم خطوة إلى الأمام، وأحنى رأسه بصلابة كما لو أن الإيماءة لم تكن مألوفة له.

"لم أعد من الذئاب يا مولاي، ولا أدين بالولاء لقبيلة والدي، هؤلاء هم قومي الآن".

لم يسبق لتيموجن أن شاهد رجلاً بمثل بدانة توغرول من قبل، وحاول إبعاد الدهشة عن وجهه عندما حيّا توغرول شقيقيه، إضافة إلى جيلم وأرسلان. ولم يكن الخان قد تجاوز الثلاثين من العمر، وكانت قبضته قوية، لكنّ لحمه كان مترهلاً ولهذا كان رداؤه مشدوداً تحت حزام عريض. كان وجهه دائرياً، مع طبقات سميكة من الدهن حول رقبته. والأكثر غرابة حقيقة أنه كان يرتدي ثوباً شديد الشبه بذلك الذي كان يرتديه وين أثناء زيارته لهم. كان شعر توغرول مربوطاً إلى الخلف بطريقة تشن، ولم يكن تيموجن يعرف ما يفعله مع مثل ذلك الرجل. ولم يكن يبدو مثل أي خان كان قد رآه من قبل، ووحدها الخصائص المألوفة والجلد الضارب إلى الحمرة هي التي جعلته يبدو مثل واحد من قومهم.

تبادل تيموجن نظرة مع كشيون عندما انتهى توغرول من ترحيبه بهم، ووضع يدين ثقيلتين على بطنه.

"لقد استيقظ الوحش يا أصدقائي، لا بد أنكم جائعون بعد رحلتكم، نعم؟"

صفّق بيديه، ونادى ليتمّ إحضار الطعام، وشاهد تيموجن الحشد يتحرك مبتعداً عنهم إلى الخيام، كانوا دون شك يبحثون عما يكفي من الطعام لإشباع شهية الخان. وكان يبدو أنهم يعرفون ما يفعلونه.

قال توغرول وهو يعدّ بصوت خافت: "لا أرى أكثر من ثلاثين محارباً معك. أخبرني وين تشاو بوجود نحو مئة".

قال له تيموجن الذي اتخذ موقفاً دفاعياً مباشرة: "سأجد المزيد".

ورفع توغرول حاجبه دهشة. "الأمر صحيح إذاً، أنك ترحب بالمتجولين في مخيمك؟ ألا يسرقون؟"

أجاب تيموجن: "ليس مني. وهم يقاتلون جيداً. لقد قيل لي إنك بحاجة إلى قائد حربي. وإذا لم تكن كذلك، سأعيدهم إلى الشمال".

طرفت عينا توغرول من رد فعله الحاد. وللحظة، تمنّى لو أن لديه ابناً واحداً بدلاً من البنات اللواتي أنجبتهن زوجته، وربما لم يكن ليحتاج عندها للتودد إلى همجيين جاءوا إليه من التلال.

قال: "تكلم وين تشاو كثيراً عنك، وأثق بتوصيته. على كل حال، سنتكلم عن ذلك أثناء تناول الطعام". وابتسم مجدداً بانتظار الإجابة، فيما كان يشم آنذاك رائحة لحم الضأن الذي يطشّ في الخيام.

قال تيموجن متجاهلاً العرض: "يوجد مخيم للتتار على بعد مسيرة شهر إلى الشمال. وربما يوجد مئة محارب هناك. وإذا ساندت رجالي بثلاثين آخرين، سأجلب لك رؤوس التتار وأثبت لك ما يمكننا فعله".

طرفت عينا توغرول. كان المحارب الشاب محاطاً بمخيم ضخم والعديد من الرجال المسلحين. وكان يتكلم مع رجل ينبغي أن يقنعه بالانضمام إليه، لكنه تكلم كما لو أن توغرول الشخص الذي ينبغي أن يحني رأسه. وتساءل قليلاً ما إذا كان ينبغي تذكير الرجل بمكانته، لكنه لم يفعل ذلك.

قال: "سنتكلم حول ذلك أيضاً. لكن إذا لم تأكلوا معي، ستكون تلك إهانة لي".

شاهد تيموجن يومئ برأسه. واستراح توغرول عندما تمّ إخراج أطباق من اللحم الساخن إلى الهواء البارد. شاهد عيون الوافدين الجدد تستدير نحوها. ولم يكن هناك شك بأن الجوع قرصهم طوال الشتاء. وتمّ إشعال نار في وسط المخيم، أومأ توغرول برأسه نحوها عندما تصاعدت ألسنة اللهب. وتبادل تيموجن نظرات حذرة مع رفاقه، ولاحظ توغرول أن شقيقيه هزّا أكتافهما استخفافا، وأن أحدهما ابتسم في انتظار ما سيحدث.

قال تيموجن متردداً: "حسناً يا مولاي. سنأكل أولاً".

قال توغرول دون أن يستطيع إخفاء النبرة الحادة في صوته: "لي الشرف". وقال لنفسه بأن يتذكر الممتلكات التي وعده بها وين. وربما سيجعلها هذا

القائد أقرب منالاً.

انضم إليهم وين تشاو حول النار عندما ارتفعت الشمس في الأفق. وتأنف أتباعه عن الأغطية الممدودة لإبعاد صقيع الأرض، وأحضروا بدلاً منها مقعداً صغيراً لسيدهم. راقب تيموجن ما يجري باهتمام عندما قام التابع بإضافة توابل أخرجوها من قوارير صغيرة إلى اللحم قبل أن يسلموه له. طقطق توغرول بأصابعه لتحضير اللحم الخاص به، وتحرك الأتباع بسرعة لتنفيذ ما أمر به. كان واضحاً أن ذلك لم يكن طلباً جديداً من خان كيريت.

لم ينضم جنود وين تشاو إلى الوليمة. وشاهد تيموجن كبيرهم، يوان، يوجِّه الآخرين إلى مواقع دفاعية حول المخيم فيما سيده يأكل، غافلاً عما يدور حوله.

لم يسمح توغرول بتبادل أطراف الحديث حتى أشبع شهيته للطعام. بدأ تيموجن الكلام مرتين، لكن في كلتيهما، أشار توغرول فقط إلى الطعام، وهو مشغول جداً بتناول وجبته. كان ذلك محبطاً، وكان تيموجن متأكداً أن عيني وين تشاو اتقدتا متعة لما حدث. ولم يكن هناك شك بأنه يتذكر دهشته من قدرة توغرول الاستثنائية على تناول الطعام والشراب. بدا أن لا حدود لما يستطيع الخان البدين ابتلاعه، وكان تيموجن وأشقاؤه قد انتهوا من طعامهم قبله بوقت طويل وبعد وين بقليل، الذي كان يأكل مثل عصفور.

أخيراً، أعلن توغرول أنه قد شبع، وأخفى تجشؤه بيده.

قال منتشياً، وهو يربت على بطنه: "يمكنكم أن تشاهدوا أننا لا نجوع في الشتاء. لقد كانت الأرواح جيدة مع كيريت".

أضاف وين تشاو وهو ينظر إلى تيموجن: "وستكون كريمة في المستقبل. أنا سعيد لرؤية أنك قد قبلت العرض الذي قدمته لك يا مولاي".

بدت الكلمات الأخيرة زائفة بشكل غريب في حنجرته، لكن تيموجن قبلها كما هي.

سأل تيموجن: "لماذا تحتاجني هنا؟ لديك ما يكفي من الرجال والأسلحة لسحق التتار لوحدك. لماذا استدعيت رجالي؟"

مدّ توغرول يده إلى الأعلى ليمسح شفتيه المليئتين بالدهون بظاهر يده. وبدا أنه يشعر بنظرة وين تشاو تقع عليه، وبدلاً من ذلك أخرج قطعة قماش من ردائه لتأدية المطلوب.

"اسمك معروف يا تيموجن. وصحيح أن كيريت أقوياء، وهم أقوى كثيراً من أن تهاجمهم قبيلة أخرى، لكن وين أقنعني بالحاجة لتوسيع القتال أكثر نحو الشمال، كما فعلت".

لم يقل تيموجن شيئاً. ومنذ أن شاهد الرجل الضخم أول مرة، لم يكن بحاجة للسؤال عن عدم قيام توغرول بقيادتهم بنفسه. تساءل ما إذا كان الرجل يستطيع الجلوس على فرس أكثر من بضعة أميال. ورغم ذلك كان يستطيع رؤية المئات من كيريت حول مكان الوليمة، إضافة إلى خمسين أو نحو ذلك ممن شاركوا فيها حول النار. كانت القبيلة أكبر من الذئاب أو حتى أولخونوت. وبالتأكيد كان يوجد بينهم شخص يستطيع قيادة فرقة غزو؟ ولم ينطق تلك الفكرة بصوت عالٍ، لكن توغرول شاهد تعبير وجهه وضحك بصوت خافت.

"أستطيع تكليف أحد أتباعي بمهاجمة التتار، أليس كذلك؟ كم سيمضي من الوقت قبل أن يعود إليّ مع سكين مخبأة في ردن ثوبه. لست أحمق يا تيموجن، ولا تفكر بذلك. لقد ازداد عدد كيريت لأنني أبقيتهم أقوياء، ولأن وين تشاو أحضر لنا الجياد، وطعاماً وذهباً من الشرق. وربما يوماً ما، سأعتني بأراضٍ تعود ملكيتها لي في ذلك البلد. وستعرف كيريت السلام والرخاء في عهدي إذا استطعت إبعاد التتار".

قال تيموجن متشككاً: "هل ستأخذ كل قبيلة كيريت إلى أراضي تشن؟"

هزّ توغرول كتفيه استخفافاً: "لِمَ لا؟ هل كثير أن نتخيل العيش دون عشر قبائل تعوي من حولنا، وأفرادها يترقبون ضعفنا؟ لقد وعدنا وين بالأرض، وستنعم كيريت بالرخاء هناك".

ألقى تيموجن نظرة حادة على ممثل تشن.

قال: "لقد سمعت الكثير من الوعود. لكنني لم أرَ شيئاً على أرض الواقع بعد، ما عدا بعض الصور على الورق. أين هي الجياد التي وعدتني بها، والدروع والأسلحة؟"

أجاب وين: "إذا اتفقنا على الأمر اليوم، سأرسل مبعوثاً إلى مدينة كيفنغ. وستحصل عليها في أقل من سنة".

هزّ تيموجن رأسه، وقال: "المزيد من الوعود. دعنا نتكلم حول أشياء ملموسة". ونظر إلى توغرول، وبدت عيناه الصفراوان ذهبيتين في ضوء الصباح.

"قلت لك إنه يوجد مخيم للتتار في الشمال. وقمت باستطلاعه مع شقيقيّ، ورأينا كيف يضعون رجالهم. وتبعنا مجموعة أصغر إلى مسيرة يوم بعيداً عنهم دون أن يكتشفونا. وإذا أردت مني قيادة رجالك في الغارات، امنحني أولئك الذين أراقوا الدماء وسأدمر التتار. وليكن ذلك ما نبرم به اتفاقنا، وليس هباتٍ قد لا تصل أبداً".

غضب ين تشاو للتشكيك بكلامه، لكن لم يظهر ذلك على وجهه عندما تكلم.

"كنت محظوظاً لأنك لم تلتقِ بمحاربي ذلك المخيم يا مولاي. لقد مررت بهم في طريق عودتي إلى كيريت".

أدار تيموجن نظرته الباهتة على دبلوماسي تشن.

قال: "لقد ماتوا جميعاً". وجلس وين مثل حجر فيما كان يستوعب ما

جرى. "لقد تعقّبنا آثار آخرهم فيما كانوا يهربون عائدين إلى مخيمهم الرئيسي".

قال وين وهو يومئ برأسه: "ربما لهذا السبب لم تحضر سوى بعض الرجال إلى كيريت. أفهم ذلك".

تقطب حاجبا تيموجن. وكان قد بالغ في أعداده وانكشف أمره، لكنه لن يدع ذلك يمرّ مرور الكرام.

"فقدنا أربعة رجال في الغارة وقتلنا ثلاثين. وحصلنا على جيادهم وأسلحتهم، ولكن ليس الرجال الذين سيستعملونها، ما لم أجدهم هنا".

نظر توغرول إلى وين تشاو، وراقب رد فعله باهتمام.

"لقد أبلوا حسناً يا وين، أليس كذلك؟ إنه يستحق السمعة التي اكتسبها لنفسه. على الأقل، أحضرت الرجل المناسب إلى كيريت". ووقع بصر الخان على بعض قطع اللحم المليئة بالدهن على أحد الأطباق. ومدّ يده نحوها، ورفع أكبرها في يده.

"ستحصل على ثلاثين رجلاً يا تيموجن، وسيكونون أفضل ما لدى كيريت. اجلب لي مئة رأس، وسأجعلهم يكتبون اسمك في أغاني قومي".

ابتسم تيموجن بتكلّف.

"لي الشرف يا مولاي، لكن إذا أحضرت مئة رأس، سأحتاج إلى مئة محارب في الصيف".

راقب فيما كان توغرول يمسح يديه بقطعة ملابس، وهو يفكر. وكان الرجل ضخماً للغاية، لكن تيموجن لم يكن يشك بالذكاء الحاد الذي يتوارى في تلك العينين الداكنتين. كان توغرول قد عبّر آنذاك عن مخاوفه من التعرض للخيانة. وكيف يستطيع الوثوق بغريب أكثر من أحد رجال قبيلته؟ وتساءل تيموجن ما إذا كان توغرول يعتقد بأن محاربي كيريت سيعودون إلى خيامه دون أن يتغيروا بعد معركة مع التتار، وتذكر تيموجن

الكلمات التي قالها والده قبل وقت طويل. لم تكن هناك عروة أوثق من تلك التي تنشأ بين أولئك الذين يخاطرون بحياتهم بصحبة بعضهم بعضاً، وقد تكون أوثق من القبيلة أو العائلة، وكان تيموجن يريد أن يضم محاربي كيريت أولئك تحت جناحه.

كان وين تشاو من كسر الصمت، وربما خمّن هواجس توغرول.

قال لتوغرول: "افسح المجال أمام سنة حرب واحدة فقط يا مولاي، وستنعم بثلاثين سنة من السلام. وستحكم أراضي جميلة".

تكلم همساً تقريباً، وراقبه تيموجن بكراهية متزايدة. ولم يتأثر توغرول عندما وصلت الكلمات إلى مسامعه، لكن بعد فترة من الوقت، أومأ برأسه راضياً.

قال: "سأمنحك أفضل رجالي لتسحق مخيم التتار. وإذا نجحت، ربما سأثق بك لتقود المزيد. ولن أطلق لك وعوداً أخرى، لأنه يبدو أنك تحتقرها. يمكننا مساعدة بعضنا بعضاً، وسيحصل كل رجل على ما يريده. وإذا كانت هناك خيانة، سأتعامل معها في حينها".

حافظ تيموجن على وجهه خالياً من التعابير عندما أجاب، ولم يظهر شيء من التعطش الذي يعتمل داخله.

"إذاً نحن متفقون. وأريد قائد حرسك معي أيضاً يا وين تشاو. الشخص الذي يدعى يوان".

جلس وين بلا حراك، يفكر بالأمر. في الحقيقة، كان سيقترح الشيء نفسه واستغرب من حظه. وجعل نفسه يبدو متردداً.

"يمكنك أخذه من أجل هذا الهجوم الأول. إنه جندي رائع، رغم أنني سأفضل أن لا يعرف أنني قلت ذلك".

مدّ تيموجن يده، وأمسك بها توغرول أولاً بأصابعه البدينة، قبل أن يدسّ وين أصابعه النحيلة في قبضته.

قال تيموجن: "سأجعلهم يترنحون. أرسل بطلب يوان لي يا وين تشاو. أريد اختبار درعه واكتشاف ما إذا كنا نستطيع صنع المزيد".

احتج وين قائلاً: "سأجعلهم يرسلون مئة منها خلال سنة".

هزّ تيموجن كتفيه لامبالياً، وقال: "قد أموت خلال سنة. أرسل في طلب رجلك".

أومأ وين برأسه إلى أحد أتباعه الحاضرين دائماً، وجعله ينطلق مسرعاً ليعود مع يوان خلال بضع لحظات. كان وجه الجندي خالياً تماماً من أي تعبير عندما انحنى لتوغرول ووين تشاو أولاً، ثم لتيموجن نفسه. اقترب منه تيموجن فيما كان وين يطلق أوامر بلغته الخاصة. ومهما كان الذي قاله، وقف يوان مثل تمثال فيما كان تيموجن يتفحص درعه عن قرب، ويشاهد كيفية وصل الصفائح المتداخلة وتثبيتها إلى قماش ثقيل قاسٍ تحتها.

سأل تيموجن: "هل يوقف سهماً؟"

خفض يوان بصره وأومأ برأسه، وأجاب: "واحداً من سهامكم، نعم".

ابتسم تيموجن بتكلف، وقال وهو يخطو مبتعداً: "قف بلا حراك يا يوان".

راقب وين تشاو ما يجري باهتمام فيما كان تيموجن يلتقط قوسه ويشدّ وتره، ويضع سهماً عليه. ولم يظهر أي خوف على يوان، وكان وين فخوراً بهدوئه الظاهر عندما سحب تيموجن السهم حتى أذنه، وأمسك بالقوس بسكون تام للحظة فيما كان ينظر إليه.

قال تيموجن: "لنكتشف ذلك". وأطلق السهم بشكل مفاجئ.

ضرب السهم بقوة كافية لدفع يوان إلى الخلف وجعله يقع أرضاً. واستلقى مذهولاً للحظة، وعندما كان تيموجن يفكر بأنه قد مات، رفع يوان رأسه وكافح للوقوف على قدميه. كان وجهه خالياً من أي انفعال،

لكن تيموجن شاهد وميضاً في عينيه يوحي بوجود حياة عميقاً في مكان ما.

تجاهل تيموجن صرخات الصدمة لأفراد كيريت حوله، ووقف توغرول على قدميه، وقد تحرك أتباعه بسرعة ليضعوا أنفسهم بين خانهم والغريب. وبحرص، وحتى لا يثيرهم، وضع تيموجن قوسه أرضاً، وخفّف من شدّ الوتر قبل أن يقطع المسافة إلى يوان.

كان السهم قد اخترق الصفيحة الأولى من الحديد المصقول، ووصل النصل إلى القماش السميك تحتها وكان عالقاً هناك ويهتز مع أنفاس يوان. حلّ تيموجن العقد عند حنجرة وخصر يوان، وأزاح جانباً الرداء الحريري حتى كشف صدره العاري.

كانت هناك كدمة زهرية اللون على جلد يوان، حول جرح بليغ بيضاوي الشكل. وكان هناك خط رفيع من الدماء يسيل على العضلات حتى معدته.

سأل تيموجن: "هل ما زلت تستطيع القتال؟"

كان صوت يوان مجهداً عندما أجاب بسرعة: "جرِّبني".

ضحك تيموجن بصوت خافت من الغضب الذي رآه. وكان الرجل يتمتع بشجاعة كبيرة، وربت تيموجن على ظهره. ونظر عن قرب إلى الثقب الذي أحدثه السهم.

قال وهو يتلمس بقعة الدم: "لم يتمزق الرداء الحريري".

أجاب يوان: "إنه نسيج قوي جداً. لقد رأيت جروحاً دخل الحرير فيها عميقاً في الجسد دون أن يتمزق".

تمتم تيموجن: "أين أجد قمصاناً مثلها؟"

نظر يوان إليه.

"في مدن تشن فقط".

قال تيموجن: "ربما سأرسل بطلب بعضها. إن جلودنا المدبوغة لا توقف سهاماً كما يفعل هذا. ونستطيع الاستفادة من درعك". استدار إلى توغرول،

الذي كان ما يزال واقفاً مصدوماً مما رآه. "هل يملك كيريت كيراً وحديداً؟"

أومأ توغرول بصمت، ونظر تيموجن إلى أرسلان.

"هل تستطيع صنع مثل هذا الدرع؟"

وقف أرسلان ليتفقد يوان كما فعل تيموجن، وسحب السهم من حيث كان عالقاً وتفحص صفيحة المعدن الرمادي الممزقة. وكان الطلاء اللامع قد تساقط على شكل رقائق، وانثنى المعدن قبل أن يتمّ إخراج السهم. ونتيجة لضغط أصابع أرسلان، تشققت آخر درزات الرداء وخرج بين يديه.

قال أرسلان: "نستطيع حمل صفائح تبديل. لا يمكن استعمال هذه الصفيحة مجدداً". وتبعت عينا يوان صفيحة الحديد المثقوبة عندما حرّكها أرسلان. وكانت أنفاسه قد هدأت، ولم يستطع تيموجن سوى أن يعجب بانضباط الرجل الشخصي.

قال تيموجن ليضغط عليه: "إذا بقينا مع كيريت خمسة أيام، ما عدد الدروع التي أستطيع الحصول عليها؟" وهزّ أرسلان رأسه كما لو أنه يفكر.

"ليس من الصعب تصنيع هذه الصفائح الحديدية الرقيقة، رغم أنه ينبغي إنهاء كل منها يدوياً. وإذا تركتها خشنة وكان هناك من يساعدني في الكير ونساء لخياطتها...". توقف قليلاً ليفكر بالأمر. "ربما ثلاثة، وربما أكثر".

قال تيموجن: "إذاً، هذه مهمتك. وإذا منحنا وين تشاو المزيد من دروع حراسه، سيكون لدينا قوة من الرجال الذين لا يستطيع التتار قتلهم. سنجعلهم يخافون منا".

زمّ وين شفتيه فيما كان يفكر. وكان صحيحاً أن الوزير الأول سيرسل الذهب والجياد إذا طلب ذلك منه. ولم يكن البلاط ليبخل بالموارد لرشوة القبائل، لكنه لم يكن واثقاً أنهم سيكونون كرماء جداً بالأسلحة والدروع. ووحده الأحمق الذي يتخلى عن نقاط قوته في الحرب، مقابل كل الوعود التي قطعها وين للمحارب الشاب. إذا سمح لتيموجن بأخذ دروع الرجال،

لم يكن يشك بأن ذلك سيكون مثار استغراب البلاط إذا سمعوا به أصلاً، لكن ما الخيار الذي كان لديه؟ وأحنى رأسه، وأرغم نفسه على الابتسام.

"إنها لك يا مولاي. سأجعلهم يحضرونها لك الليلة". وسيطر على ارتعاشه عندما فكّر بأن رجال تيموجن سيحصلون على دروع مثل أي جندي في تشن. وربما عندما يحين الوقت، سيكون عليه التودد إلى التتار ليجعلهم يكبحون جماح قبائل المغول. تساءل ما إذا كان ينبغي عليه تمديد إقامته في السهول، وانكمش قلبه من تلك الفكرة.

في الليلة التالية، في خيام كيريت لطم خاسار شقيقه الأصغر تيموج وجعله يدور حول نفسه. ورغم بلوغه الثالثة عشرة من العمر، إلاّ أن الفتى لم يكن لديه تلك الشعلة التي يتمتع بها أشقاؤه، وتلألأت الدموع في عينيه فيما كان يحاول تثبيت نفسه.

سأل تيموج: "ما سبب ذلك؟"

تنهد خاسار.

سأله: "كيف يمكن أن تكون ابن والدنا أيها الصغير؟ كان كشيون ليقتلع رأسي إذا حاولت ضربه هكذا، وهو أكبر منك بسنتين فقط".

مع صرخة، ألقى تيموج بنفسه على خاسار، فقط ليتراجع بعد أن لطمه شقيقه مجدداً.

أقرّ خاسار بتحفظ: "كان ذلك أفضل قليلاً. لقد قتلت رجلاً عندما كنت في مثل عمرك...". وتوقف عن الكلام، مصدوماً لرؤية تيموج يتباكى والدموع تسيل على وجنتيه. "أنت لا تبكي؟ كشيون، هل تصدق هذا الفتى الصغير؟"

كان كشيون مستلقياً على سرير في زاوية الخيمة، متجاهلاً إياهما فيما كان يضع طبقة من الزيت على قوسه. وتوقف عندما سمع السؤال، ونظر إلى حيث كان تيموج يحك أنفه وعينيه.

قال: "إنه ما يزال مجرد طفل". وعاد إلى ما كان يقوم به.

صرخ تيموج وقد أصبح وجهه أحمر: "لست كذلك".

كشّر خاسار بوجهه، وقال ساخراً: "تبكي مثل طفل. إذا رآك تيموجن على هذه الحال، سيتركك للكلاب".

قال تيموج والدموع تظهر في عينيه مجدداً: "لن يفعل ذلك".

تابع خاسار كلامه وهو يتظاهر بالحزن: "سيفعل، وأنت تعرف ذلك. سيعرّيك ويتركك على تل لتعضك الذئاب. إنها تحب الصغار، لأن لحومهم طرية".

تأفف تيموج بازدراء.

أعلن تيموج قائلاً: "صرّح تيموجن أنني أستطيع الخروج معه ضد التتار، إذا أردت". كان خاسار يعرف أن تيموجن قدّم له ذلك العرض، لكنه تظاهر بالذهول.

"ماذا، فتى صغير مثلك؟ ضد تتار ضخام الأجساد وكثيفي الشعر؟ إنهم أسوأ من الذئاب أيها الفتى، أولئك المحاربون. إنهم أطول منا وجلودهم بيضاء، مثل الأشباح. ويقول بعض الناس إنهم أشباح، وإنهم يأتون إليك عندما تكون نائماً".

تمتم كشيون: "دعه وشأنه".

فكّر خاسار بالأمر، وهدأ بعد تردد. واعتبر كشيون صمته موافقة وجلس على السرير.

"إنهم ليسوا أشباحاً يا تيموج، لكنهم رجال قساة وماهرون باستعمال القوس والسيف. ولست قوياً بما يكفي بعد لتقف ضدهم".

قال تيموج: "وقفت ضدهم عندما كنت في مثل عمري".

كان هناك خط من مخاط لامع تحت أنفه، وتساءل خاسار ما إذا كان سيصل إلى فم الفتى. وراقب ذلك باهتمام فيما كان كشيون يضع قدميه على الأرض ليخاطب تيموج.

"كنت أستعمل القوس بشكل أفضل منك عندما كنت في مثل عمرك، نعم. كنت أتدرب كل يوم حتى تتشنج يداي وتنزف أصابعي". ربت على كتفه اليمنى بيده اليسرى، مشيراً إلى العضلة المشدودة هناك. وكانت أكبر من اليسرى وتبرز كلما تحرك.

"زاد ذلك من قوتي يا تيموج. هل فعلت الشيء نفسه؟ كلما رأيتك، تكون إما تلعب مع الأطفال أو تتكلم مع والدتك".

قال تيموج متجهماً: "لقد تدربت". رغم أن كليهما كانا يعرفان أنه يكذب، أو يحرّف الحقيقة على الأقل. وحتى مع خاتم عظمي لحماية أصابعه، كان رامي سهام ميؤوساً منه. كان كشيون قد اصطحبه عدّة مرات وجرى معه، لبناء قدرته على التحمل. ولم يكن يبدو أن ذلك يساهم في جعل الفتى أفضل حالاً. وعند نهاية الميل الأول، كان ينفخ ويلهث.

هزّ خاسار رأسه متظاهراً بالملل.

قال: "إذا لم تستطع إطلاق سهم من قوس، ولم تكن قوياً بما يكفي لاستعمال سيف، هل ستضربهم حتى الموت؟" وفكّر بأن الفتى الصغير ربما يثب عليه مجدداً، لكن تيموج كان قد استسلم.

قال: "أكرهك. آمل أن يقتلكما التتار". وكان سيخرج بسرعة من الخيمة، لكن خاسار تعمّد إيقاعه أثناء مروره به، ولهذا سقط أرضاً عند المدخل. وفرّ تيموج مسرعاً دون أن ينظر خلفه.

قال كشيون وهو يمدّ يده إلى قوسه مجدداً: "إنك تقسو عليه كثيراً".

"لا. إذا سمعت مرة أخرى أنه طفل حساس، أعتقد أنني سأفقد عشاءي. هل تعرف إلى من كان يتكلم اليوم؟ رجل تشن، وين تشاو. سمعتهما يتحادثان حول الطيور أو شيء من هذا القبيل عندما مررت بهما. وقل لي أنت ما الذي يعنيه ذلك".

"لا أستطيع، لكنه شقيقي الصغير، وأريد منك التوقف عن إزعاجه مثل

امرأة عجوز؛ هل أطلب الكثير منك؟"

كان صوت كشيون منفعلاً بعض الشيء، وفكّر خاسار في إجابته. وكان ما يزال يستطيع الفوز بمشاجراتهما، لكن القلة الأخيرة منها تركت العديد من الكدمات المؤلمة ولهذا لم يكن سهلاً البدء بنزاع جديد.

قال خاسار: "نعامله جميعاً بطريقة مختلفة، وأي نوع من المحاربين سيصبح عليه؟"

رفع كشيون بصره: "ربما سيصبح كاهناً، أو راوياً للقصص مثل تشاغاتي العجوز".

تأفف خاسار: "كان تشاغاتي محارباً عندما كان شاباً، أو هذا ما كان يقوله دائماً. وهذا ليس مناسباً لشاب".

قال كشيون: "دعه يكتشف طريقه الخاصة يا خاسار. وربما لا تؤدي إلى حيث نقوده".

استلقى بورت وتيموجن معاً دون تلامس. ومع أثر الدماء على فميهما، مارسا الحب في الليلة الأولى التي تلت غارة العقاب ضد التتار، رغم أنها صرخت أسى وحزناً عندما استلقى بوزنه عليها. وربما كان سيتوقف حينها، لكنها أمسكت بردفيه، وثبتته فوقها فيما كانت دموعها تسيل على وجهها.

كانت تلك المرة الوحيدة. ومنذ ذلك اليوم، لم تستطع إرغام نفسها على جعله يمسها مجدداً. وكلما جاء إلى الفراء، كانت تقبّله وتتكور على ذراعيه، لكن لا شيء أكثر. لم تكن قد حاضت منذ غادروا أولخونوت، لكنها كانت تخاف آنذاك على الطفل. وينبغي أن يكون طفله، وكانت شبه واثقة من ذلك. كانت قد شاهدت الطريقة التي يعتلي بها العديد من الكلاب كلبة في مخيم أولخونوت. وأحياناً كانت الجراء تأتي بألوان متعددة لأكثر من أب. ولم تكن تعرف إذا كان الشيء نفسه ينطبق عليها، ولم تجرؤ على سؤال هولن.

في ظلمة خيمة غريبة، أخذت تبكي مجدداً فيما زوجها نائم، دون أن تعرف السبب.

حكّ تيموجن عينيه بغضب عندما سال عليهما العرق. كان الدرع الذي صنعه أرسلان أثقل مما كان يتوقع. وكان يشعر بأنه ملفوف ببساط، وبدا أن ذراعه التي تحمل السيف قد فقدت نصف سرعتها. وواجه يوان فيما كانت الشمس تشرق، ولاحظ بانزعاج كيف أن الرجل يرتدي الدرع نفسه دون أثر للعرق على جبينه.

قال تيموجن بحدّة: "مجدداً".

لمعت عينا يوان إثارة، وانحنى قبل أن يرفع سيفه. وكان قد طلب منهم ارتداء الدرع في كل الأوقات، حتى يصبح جلداً ثانياً. وحتى بعد أسبوع من المسير إلى مخيم التتار، كانوا ما يزالون بطيئين للغاية. وأرغم تيموجن رجاله على التدرب ساعتين عند الفجر والغسق، سواء كانوا يرتدون الدروع أم لا. وأدّى ذلك إلى إبطاء تقدم الستين رجلاً الذين خرجوا من كيريت، لكن يوان أثنى على جهودهم. ودون شك، كان الرجال المدرعون يبدون مثل سلاحف يتذكر أنها موجودة في دياره. وربما ينجون من سهام التتار الأولى، لكن على الأرض، سيكونون فريسة سهلة.

بمساعدة صانعي سيوف كيريت، كان أرسلان قد صنع خمسة من الدروع المصفحة. وإضافة إلى ذلك، وفى وين بوعده وقدم لهم عشرة أخرى، واحتفظ بواحد فقط لحارسه الشخصي الجديد. كان يوان قد اختار الرجل بنفسه، وتأكد أنه يفهم مسؤولياته قبل أن يغادر.

ارتدى تيموجن واحداً من الدروع الجديدة، مع صفيحة على قطعة الصدر الطويلة إضافة إلى أخرى لتغطية أعلى الفخذ واثنتين أخريين على ساقيه. ووصلت قطع الكتفين من عنقه إلى مرفقه، والتي كانت تسبب له صعوبة كبيرة في الحركة. وغالباً ما كان يوان يخطو مبتعداً ببساطة بعيداً عن الضربات، ويتفادى سرعتها البطيئة بسهولة.

شاهد تيموجن يتحرك نحوه، وعرف نواياه من الطريقة التي يخطو بها. كان ثقل الخان الشاب أكثر قوة على القدم اليسرى، وظنّ يوان أنه سيبدأ الضربة من أسفل الناحية اليسرى، ويرتفع بها إلى الأعلى. كانا يستعملان سيفين فولاذيين حادين، لكن حتى ذلك الوقت لم يكن هناك خطر حقيقي كبير على أي منهما. وكان يوان يتقن ما يفعله، ولم يكن ليطعن الرجل في حصة تدريبية كما أن تيموجن لم يقترب من ذلك أبداً.

في اللحظة الأخيرة، نقل تيموجن مركز ثقله مجدداً، وحوَّل حركته السريعة إلى اندفاعة قوية. ووضع يوان قدمه اليمنى في الخلف ليبتعد عن الطريق، وترك السيف يمرّ على درعه محدثاً صريراً. لم يخف من التعرض لطعنة دون قوة تدفعها، وكان على تيموجن أن يتعلم ذلك أيضاً. ويمكن تجاهل الكثير من الضربات أو تحويلها بعيداً برشاقة وخفة.

بعد أن انزلق السيف بعيداً، تقدم يوان خطوة للأمام، ورفع قبضة سيفه ليمس تيموجن برفق على أنفه. وفي الوقت نفسه، سمح للهواء بالخروج من رئتيه، وصرخ: "مرحى!" قبل أن يتراجع للخلف.

قال تيموجن بنزق: "مجدداً". وتحرك قبل أن يتخذ يوان وضعية القتال. أمسك هذه المرة السيف فوق رأسه، وأخذ يلوّح به بحركة قاطعة. تصدى يوان للنصل بسيفه، واقتربا صدراً لصدر في اشتباك بين الدرعين. كان تيموجن قد وضع قدمه الأمامية خلف قدم يوان، ووجد الجندي نفسه يسقط إلى الخلف.

نظر يوان إلى تيموجن من الأرض، وهو ينتظر الضربة التالية.

"حسناً؟"

قال تيموجن: "حسناً ماذا؟ سأغرز السيف الآن في صدرك".

لم يتحرك يوان. "لن تستطيع ذلك. لقد تدربت على القتال من أي وضعية". وفيما كان يتكلم، ركل تيموجن بإحدى قدميه وجعله يسقط.

وثب تيموجن واقفاً والتوتر بادٍ على وجهه.

قال: "لو لم أكن أرتدي هذا الدرع الثقيل، لم تكن لتجد هذا سهلاً جداً".

أجاب يوان: "سأصيبك من مسافة بعيدة. أو أصيب فرسك، إذا رأيت أنك ترتدي درعاً".

كان تيموجن يرفع سيفه مجدداً. ومعصماه يؤلمانه من الإرهاق، لكنه كان مصمماً على توجيه ضربة واحدة قوية قبل أن يعتلي فرسه لمتابعة السير ذلك اليوم. وبدلاً من ذلك، توقف.

"ينبغي أن نغطي الجياد بالدروع إذاً. الرأس والصدر فقط".

أومأ يوان برأسه: "رأيت ذلك يحدث من قبل. ويمكن تثبيت الصفائح الحديدية على عدّة الفرس الجلدية بسهولة مثل درعك".

قال تيموجن: "إنك معلم ماهر يا يوان، هل قلت لك ذلك؟"

نظر إليه يوان بحرص، وكان يعرف أنه قد يوجّه له ضربة مفاجئة. في الحقيقة، كان ما يزال مذهولاً من استعداد تيموجن لتلقي الضربات مراراً وتكراراً أمام رجاله. لم يستطع يوان أن يتخيل بأن ضباطه القدامى قد يسمحون بمثل ذلك أبداً. سيكون شعورهم بالعار كبيراً، لكن تيموجن بدا غافلاً أو غير مكترث لذلك. كان رجال القبائل سلالة غريبة، لكنهم كانوا يستوعبون كل ما يقوله لهم يوان حول دروعهم الجديدة، وتوصل به الأمر إلى مناقشة التكتيكات مع تيموجن وأشقائه. كانت تلك تجربة جديدة ليوان يصغي فيها إليه شباب بتركيز شديد، وعندما كان يحرس وين تشاو، كان يعرف أنه موجود للتضحية بحياته من أجل السفير، أو على الأقل قتل أكبر عدد من الأعداء قبل أن يخرّ صريعاً، وكان كل الرجال الذين جاءوا معه إلى السهول يعرفون عملهم، ونادراً ما كان يوان يصحح لهم أفعالهم. وكان قد اكتشف أنه يستمتع بالتعليم.

سمع تيموجن يقول: "مرة أخرى. سآتي من يسارك".

ابتسم يوان. وكان تيموجن قد حذّره في آخر مرتين بأن الهجوم سيأتي من جهة اليمين. لم يكن ذلك مهماً على وجه الخصوص، لكنه كان سعيداً من محاولات تشويش حكمه.

جاء تيموجن يجري، وسيفه مندفع بسرعة أكبر مما رآه يوان من قبل. وشاهد الكتف اليمنى تنخفض، ورفع سيفه إلى الأعلى. كان الوقت فات على تصحيح الوضع، وشاهد أن تيموجن يتابع توجيه الضربات له من جهة اليسار، متعمداً. كان يوان ما يزال يستطيع صد الضربات، لكنه اختار عدم القيام بذلك، وسمح لنصل السيف بمس حنجرته فيما وقف تيموجن يلهث منتشياً.

قال يوان: "كان ذلك أفضل. تصبح أسرع وأنت مرتدٍ للدرع".

أومأ تيموجن برأسه: "تركت السيف يصل إليك، أليس كذلك؟"

سمح يوان لابتسامة بالظهور.

قال: "عندما تصبح أفضل، ستعرف ذلك".

كانت الجياد تهرول مسرعة، ونظر يوان يميناً ويساراً، ولاحظ كيف أن شقيقي تيموجن أبقيا الصف منتظماً. كانت التدريبات قد استمرت طوال اليوم ووجد يوان نفسه منشغلاً بحل مشاكل هجوم واسع النطاق. قاد فرسه وقوسه مربوط إلى قربوس سرجه، لكن مهارة الرجال الستين في إطلاق السهام لم تكن موضع تساؤل. كان توغرول قد تخلى عن عشرين من أتباعه الشخصيين لينضموا إلى المجموعة. وكانوا لائقين وماهرين، لكن لم تكن لديهم خبرة في الحرب، وكان تيموجن قاسياً جداً عليهم. وكان فرسانه يطيعون أوامره طاعة عمياء، لكن الرجال الجدد كانوا بطيئين دائماً.

أصيب يوان بالدهشة عندما تمّ تكليفه بقيادة الميسرة. وكان الموقع مخصصاً لضابط بارز، وتوقع أن يذهب إلى خاسار. وكان خاسار قد فكّر بذلك قطعاً. ولم يفت يوان نظرات التحديق التي جاءت من شقيق

تيموجن عندما كان يسير مع العشرة المكلف بقيادتهم وراءه تماماً. بعد حصص التدريب كل مساء، كان تيموجن يجمعهم حول نار صغيرة ويعطي أوامره لليوم التالي. وربما كان ذلك شيئاً صغيراً، لكنه ضمّ يوان إلى مجلسه، في موازاة جيلم وأرسلان، وكان يطرح الكثير من الأسئلة، وعندما كان يوان يستطيع الإجابة من خبرته، كانوا يصغون إليه بتركيز شديد. وأحياناً، كان تيموجن يهزّ رأسه قليلاً، وكان يوان يفهم طريقة تفكيره. لم يكن الرجال الذين يقودهم تيموجن قد قاتلوا معاً منذ سنوات. وكان هناك حدّ لما يمكن تعليمه لهم خلال وقت قصير، حتى مع انضباطهم الشديد.

سمع يوان بوق تيموجن يطلق نفيرين قصيرين. وكان ذلك يعني أن على الميسرة التقدم على البقية، وأن تخرج عن الصف. وعلى وقع الحوافر، تبادل يوان النظرات مع خاسار وأسرعت مجموعتا العشرة إلى موقعيهما الجديدين.

نظر يوان حوله. كانت الحركة دقيقة التنفيذ، وحتى أتباع توغرول سمعوا النداء واستجابوا كما ينبغي هذه المرة. كان أداؤهم يتحسن، وشعر يوان بوميض كبرياء في قلبه. إذا استطاع ضباطه القدامى رؤيته، سيضحكون بأنفسهم حتى يذرفوا الدموع من عيونهم. كان قد حصل على السيف الأول في كيفنغ، وهو الآن يقود فرسه مع همجيين متوحشين. وحاول أن يسخر من نفسه كما يفعل الجنود في دياره، لكن بطريقة ما لم يقوَ قلبه على فعل ذلك.

أطلق تيموجن نفيراً واحداً، وتحركت الميمنة إلى الأمام، مخلّفة القلب خلفها. نظر يوان عبر المجموعة إلى كشيون وجيلم اللذين كانا يقودان فرسيهما هناك، متجهمين في درعيهما. كان الفرسان حول شقيق تيموجن مرهقين أكثر قليلاً، لكنهم شكلوا صفاً فيما كان يوان يراقب ما يجري، واندفعوا إلى الأمام كأنهم شخص واحد. وأومأ إلى نفسه، وبدأ يشعر

بالمعركة القادمة.

من الخلف، أطلق تيموجن نفيراً طويلاً، أخذ يخفت حتى توقف، فخففوا سرعتهم معاً، وكان كل واحد من الضباط يطلق الأوامر للرجال في مجموعة العشرة التي يقودها. وتباطأت سرعة الجياد المرهقة إلى الخبب، ثم الهرولة وتبادل تيموجن مجموعة القلب مع أرسلان.

تقدّم تيموجن إلى الأمام فيما كانت تتمّ إعادة تشكيل الصف، وقاد فرسه إلى الميسرة. وسمح للباقين باللحاق به، وشاهد يوان أنه يتورد إثارة وأن عينيه تلمعان.

نادى تيموجن: "أرسل المستطلعين أمامنا يا يوان. سنجعل الجياد تستريح أثناء قيامهم بالبحث".

أجاب يوان تلقائياً: "كما تشاء يا مولاي". تماسك فيما كان يستدير على سرجه نحو محاربين شابين، ثم هزّ كتفيه غير مبالٍ. لقد كان جندياً منذ وقت طويل، ولم يعد ممكناً أن يغيّر عاداته. في الحقيقة، كان يستمتع بمهمة تشكيل رجال القبائل في مجموعات قتالية.

"تايان ورولاخ؛ امضيا أمامنا حتى تغيب الشمس. إذا رأيتما أي شيء أكثر من بضعة متجولين، عودا فوراً". بحلول ذلك الوقت، كان يعرف أسماء كل الرجال الستين، وكان إرغامها على البقاء في ذاكرته مسألة عادة شخصية. كان كلا الرجلين من خيّالة تيموجن. وأحنيا رأسيهما عندما مرّا به، وحثّا فرسيهما على الانطلاق إلى الأمام. ولم يظهر على يوان شيء من رضاه الداخلي، رغم أن تيموجن شعر بذلك من الابتسامة التي علت وجهه.

نادى تيموجن: "أعتقد أنك افتقدت هذا أيها المعلم. إن الحياة تعود إلى دمائك".

لم يجب يوان فيما كان تيموجن يعود إلى الصف. كان قد أمضى سنتين مع وين تشاو في مهمة حراسة، وكان العهد الذي قطعه للإمبراطور يلزمه

بطاعة أي أمر يصدر عن سلطة شرعية. في أعماق قلبه، كان يعرف حقيقة كلمات تيموجن، وكان قد افتقد رفاق السلاح رغم أن رجال القبائل لم يكونوا مثل أولئك الذين عرفهم. وكان يأمل بأن ينجو الأشقاء من الاشتباك الأول بالأسلحة.

كان القمر بدراً من جديد بعد شهر من خروجهم من كيريت، وحلّ التجهم المقصود مكان صخب الأسابيع الأولى، فلم يعد هناك الكثير من الأحاديث حول النيران كما في السابق، وكان المستطلعون على أهبة الاستعداد، وكانوا قد وجدوا الموقع الذي رأى فيه تيموجن وشقيقاه المجموعة الكبيرة من التتار. وأثارت دوائر الأعشاب التي أضحى لونها أسود ذكريات مريرة للرجال الذين وصلوا إلى هناك. كان كشيون وخاسار خصوصاً هادئين عندما ترجلا عن فرسيهما، وكانت الليلة التي أنقذوا فيها بورت ما تزال تشتعل داخلهم، وكانت أعمق من أن يستطيعا نسيان أنشودة تيموجن، أو الحيوية التي شعرا بها عندما تناولا لحم أعدائهما. لم يتكلما عمّا فعلاه، وكان يبدو أن لا نهاية لتلك الليلة، لكن عندما بزغ الفجر أخيراً، استطلعا المنطقة في محاولة لتحديد المكان الذي كانت المجموعة الصغيرة تأخذ بورت إليه. ولم يكن مخيم التتار الرئيسي بعيداً كثيراً. كان آخرهم يستطيع الوصول إليه خلال صبيحة يوم واحد وكانت بورت ستضيع لشهور، إن لم يكن إلى الأبد.

وضع تيموجن يديه على رماد النيران وكشّر. لقد كان بارداً.

قال لشقيقيه: "أرسلا المستطلعين إلى مسافات أبعد. إذا لحقنا بهم وهم يتحركون، سيكون الأمر سريعاً".

كان مخيم التتار على أهبة الاستعداد خلال فترة قصيرة، وربما بقصد النيل من الفرسان الذين أزعجوهم طوال الشتاء. وكانوا قد تحركوا مع عربات محمّلة بالخيام وقطعان كبيرة تخلّف وراءها روثاً يمكن رؤيته بسهولة.

تساءل تيموجن عن مدى اقترابهم منهم. وتذكر إحباطه عندما استلقى ودماء التتار في فمه وهو يشاهد مخيماً هادئاً أكبر من أن يستطيع مهاجمته. لم يكن يستطيع فعل شيء سوى السماح لهم بالفرار. وذهب إلى توغرول نظراً لعدم وجود خيار آخر لديه.

قال يوان من خلف كتفه: "كان هناك الكثير من الناس في هذا المكان". قام محارب تشن بعدّ الدوائر السوداء ولاحظ الآثار. "أكثر من المئة التي أخبرت توغرول عنها".

نظر إليه تيموجن: "ربما. لم يكن بوسعي التأكد من ذلك".

شاهد يوان الرجل الذي أحضرهم لخوض معركة في السهول. وخطر له بأن وجود خمسين من أفضل رجال توغرول سيكون أفضل من ثلاثين. كان الوافدون الجدد سيفوقون قوم تيموجن عدداً، وربما كان الشاب لا يريد ذلك. كان يوان قد لاحظ كيف مزج تيموجن المجموعتين، وجعلهما تعملان معاً. وكان معروفاً بشراسته ونجاحه. وكانوا ينظرون إليه آنذاك كخان. وتساءل يوان إذا كان توغرول يدرك المجازفة التي أقدم عليها. تنهّد لنفسه عندما ابتعد تيموجن ليتحدث مع أشقائه، وكان الذهب والأرض يستطيعان إبعاد مخاطر عظيمة، إذا تمّ استعمالهما جيداً. وكان وين تشاو قد أظهر حقيقة ذلك.

أومأ تيموجن إلى أشقائه، بما في ذلك تيموج. وكان شقيقه الأصغر قد حصل على أصغر درع. كان رجال وين تشاو قد حصلوا على قطع خفيفة من المعدن، لكنها كانت كبيرة جداً عليه، وكبت تيموجن ابتسامة عندما شاهد تيموج يستدير متثاقلاً إلى فرسه ويتفحص الركاب واللجام.

قال تيموجن عندما مرّ به: "تبلي حسناً يا شقيقي الصغير". وسمع خاسار يتأفف بالقرب منه، لكنه تجاهله. "سنجدهم قريباً يا تيموج. هل ستكون جاهزاً عندما نبدأ الهجوم؟"

نظر تيموج إلى الشقيق الذي يجّله. ولم يتكلم عن الخوف البارد في معدته، ولا عن الإرهاق الذي أصابه من ركوب الفرس حتى أخذ يعتقد بأنه سيسقط عن السرج ويخزيهم جميعاً. في كل مرة كان يترجل فيها، كان يكتشف أن ساقيه متشنجتان إلى حدّ كان عليه التشبث بالفرس بإحكام أو الجثو على ركبتيه.

قال بنبرة يحاول أن تبدو مرحة: "سأكون جاهزاً يا تيموجن". في داخله، كان يشعر باليأس، وكان يعرف أن رمايته تستحق بالكاد ذلك الاسم، وأن سيف التتار الذي منحه إياه تيموجن كان ثقيلاً للغاية في يده. كان لديه سيف أصغر أخفاه داخل ردائه وتمنى أن يستعمله. حتى عندها، كانت فكرة طعن الجلد والعضلات، والشعور بالدم يسيل على يديه، شيئاً يخاف منه. لم يكن يستطيع أن يكون قوياً وقاسياً مثل الآخرين. لم يكن يعرف حتى ما الفائدة التي قد يقدمها لأي منهم، لكنه لم يستطع احتمال الازدراء في عيني خاسار. كان كشيون قد جاء إليه قبل ليلة من مغادرتهم، وقال له إن بورت وهولن ستحتاجان لمن يساندهما في مخيم كيريت، وكانت تلك محاولة مكشوفة لإبعاده عن القتال الذي سيحدث لاحقاً، لكن تيموج رفض ذلك. إذا احتاجتا إلى أي مساعدة، لن يبخل بتقديمها لهما خمسون محارباً في قلب كيريت. كان وجودهما ضمانة بأن تيموجن سيعود بالرؤوس التي وعد بها.

وحده تيموج لم يحظَ برتبة ضابط من بين كل الأشقاء. مع جيلم، أرسلان ويوان إضافة إلى شقيقيه، كان لدى تيموجن الستة الذين يحتاجهم، وعرف تيموج أنه ما يزال يافعاً للغاية، ويفتقر للخبرة في الحرب. ومسَّ نصل سيفه الطويل بعد أن امتطى فرسه، وشعر بحدّته. وحلم بإنقاذ حياتهم، مراراً وتكراراً، حتى ينظروا إليه بذهول ويدركوا أنه ابن ياسوجي حقاً. لم يكن يحب الاستيقاظ من تلك الأحلام، واختلج قلبه عندما تابعوا السير مرة

أخرى، وشعر بالبرد أكثر مما أحسّ به باقي الرجال. وحين شاهد الشجاعة التي أظهروها بحث في داخله عنها ولم يجد سوى الرعب.

وجد المستطلعان قوة التتار الرئيسية بعد يومين فقط من قيام تيموجن بزيارة المخيم القديم. كان الرجلان قادمين على فرسيهما بأقصى سرعة، وقفزا عنهما لتقديم تقرير إلى تيموجن.

تفوّه الأول: "إنهم يتحركون يا مولاي. لديهم حراس في كل الاتجاهات، لكن الجيش يتحرك ببطء عبر الوادي التالي، قادماً بهذا الاتجاه".

أظهر تيموجن أسنانه.

"لقد أرسلوا ثلاثين رجلاً لإيجادنا، ولم يعد منهم أحد حياً. لا بد أنهم يشكون بوجود قبيلة كبيرة في المنطقة. جيد. إذا كانوا حذرين، سيترددون".

رفع ذراعه ليستدعي ضباطه إليه. وكانوا قد شاهدوا جميعاً الحركة الانفعالية للمستطلعين وجاءوا بسرعة، متوقعين الأنباء.

قال تيموجن فيما كان يمتطي فرسه: "قولوا لرجالكم أن يطبّقوا الأوامر. سنسير معاً كشخص واحد، وستأخذون سرعتكم مني. إذا خرق أي رجل التشكيل، سأتركه للصقور".

شاهد خاسار يبتسم، وحدّق فيه.

"حتى وإن كان شقيقي خاسار. أطلقوا سهامكم عندما آمر بذلك، ثم اسحبوا السيوف. سنضربهم صفاً واحداً. وإذا وقعتم عن الجياد، حافظوا على حياتكم وقتاً يكفينا لإنهاء المهمة".

سأل أرسلان: "لن تأخذ أسرى؟"

لم يتردد تيموجن: "إذا نجا أحد من هجومنا، سأستجوب قادتهم لأعرف المزيد. وبعد ذلك لا حاجة لي بهم. لن أرهق صفوفنا بأعداء دمويين".

انتشرت الكلمة بسرعة بين المحاربين عندما عاد ضباطهم إليهم. وقادوا جيادهم إلى الأمام بصف واحد. وحالما تجاوزوا إحدى التلال، استطاع كل

رجل رؤية تشكيل التتار، مع الخيّالة والعربات التي تتحرك ببطء عبر السهل.

كشخص واحد، دفعوا جيادهم لتسير خبباً نحو العدو، وسمع تيموجن أبواق التحذير البعيدة وفك قوسه، وتلمس الوتر واختبره. ومدّ يده إلى الخلف ليفتح الكنانة المربوطة إلى سرجه، ورفع السهم الأول واختبر الريش بإبهامه. وكان سيطير مباشراً ومستقيماً، كما ينبغي له.

لم يكن التتار يفتقرون للشجاعة. وحالما رنّت أصداء أبواق التحذير عبر السهل، جرى كل محارب إلى فرسه، وامتطاها مطلقاً صرخات حادة وصلت إلى مسامع محاربي تيموجن. وسار الستون معاً فيما كانوا يحثّون جيادهم على الهرولة. وأطلق ضباطه الأوامر بغضب على كل رجل بدا متلهفاً كثيراً، وهم يراقبون تيموجن نفسه فيما كان يسحب سهمه الأول بتوازن رائع.

كان يوان قد ناقش مزايا ضرب العدو صفاً واحداً، والتي ظهرت في الاشتباك الأول مع حراس التتار. وعندما وصل إليهم رجال تيموجن، تلقى حراس التتار سهاماً طويلة من مسافة قصيرة، وسقطت أجسامهم مع جيادهم. واستطاع تيموجن أن يرى أن التتار قد قسموا قوتهم ليتركوا بعضاً منهم للدفاع عن عرباتهم، لكن رغم ذلك كان هناك رجال أكثر مما خمّن، والذين خرجوا من السهول مثل الدبابير.

اندفع رجال تيموجن بينهم وتجاوزوا الجياد الميتة والرجال القتلى الذين خرجوا للقائهم في مجموعات من اثنين، وأحيانا خمسة أو عشرة. لقد حملت السهام موتاً سريعاً فيما كانت الجياد تعدو بأقصى سرعتها، وكانت تلك قوة كبيرة لم تستطع تشكيلات التتار المفككة مقاومتها. بالنسبة لتيموجن، بدا أن لحظات فقط انقضت قبل أن يتركوا قافلة من القتلى والجياد التي فقدت فرسانها خلفها، وكانت العربات تقترب منهم بسرعة مذهلة. نظر إلى اليسار واليمين قبل أن ينفخ في البوق ثلاث مرات بسرعة، داعياً لتشكيل قوة حصار. وجاء إطلاق البوق متأخراً، لكنّ رجال يوان تحركوا بسرعة، وجاروا كشيون وجيلم في الميمنة. وأحاطوا بالعربات مشكلين هلالاً حولها، وضيّقوا الخناق على القطعان والتتار وهم يصرخون.

اكتشفت أصابع تيموجن المنقبضة أن كنانته خاوية فرمى قوسه على الأرض، وسحب سيفه. في مركز الهلال، وجد أن الطريق مغلقة بعربة ثقيلة

محملة باللباد والجلد. وشاهد بالكاد أول رجل اعترض طريقه، وأطاح رأسه بضربة واحدة من سيفه قبل أن يضرب بعقبيه على جانبي فرسه، ويندفع نحو حشد من محاربي التتار. اندفع أرسلان وعشرة رجال آخرين معه إلى المركز، يقتلون كما يرغبون. ورمت النساء والأطفال أنفسهم تحت العربات رعباً عندما اندفع الفرسان نحوهم، وكان عويلهم مثل صوت الصقور في الريح.

تغيّر الوضع دون سابق إنذار. وسحب تتاري سيفه، وكان يمكن قتله حتى عندها لو أنه لم يرمِ بنفسه على الأرض عندما مرّ به خاسار. وفعل آخرون الشيء نفسه، وانكبّوا على وجوههم فيما كان تيموجن وضباطه يقودون جيادهم بسرعة حول المخيم، وهم يبحثون عن أي مقاومة. استغرق الأمر وقتاً حتى تهدأ فورة الدم داخلهم، وكان تيموجن نفسه من مدّ يده إلى بوقه، ونفخ فيه نفيراً أخذ يخفت تدريجياً معلناً إبطاء السرعة. كان رجاله ملطخين بدماء نضرة، لكنهم سمعوه ومرّروا أصابعهم على طول سيوفهم، وأزالوا عنها سائل الحياة اللامع.

كان هناك لحظة من الصمت الكامل. وفيما كانت آذانهم قد اعتادت، قبل ذلك، على وقع الحوافر وصرخات الأوامر، أطبق السكون التام من حولهم، وأصغى تيموجن مستغرباً من الصمت الذي امتدّ وقتاً كافياً ليصل أشقاؤه إلى جانبه. وفي مكان ما، بدأت امرأة بالعويل، وانطلق ثغاء الأغنام والماعز مجدداً. ربما كانت تلك الأصوات موجودة هناك دائماً، لكن تيموجن لم يكن يسمعها من نبض الدماء الذي أغلق أذنيه، وجعل قلبه يخفق بقوة في صدره.

شدّ قبضته على اللجام، وأدار فرسه دورة كاملة فيما كان يعاين المكان. كانت الفوضى تعمّ المخيم، وكان أولئك التتار الذين ما يزالون على قيد الحياة منكبين على وجوههم في الأعشاب، صامتين ويائسين. نظر إلى الخلف

نحو الطريق التي سلكوها في هجومهم، وشاهد محارباً كان قد نجا بطريقة ما. كان الرجل فاغراً فمه مما قد رآه، ومذهولاً للغاية حتى أنه لم يفرّ بحياته.

نظر تيموجن شزراً نحو المحارب الوحيد، وأومأ برأسه إلى كشيون.

قال: "أحضره إلى هنا، أو اقتله".

أومأ كشيون برأسه بسرعة، وربّت على كتف خاسار طلباً للمزيد من السهام. ولم يكن لدى خاسار سوى اثنين، لكنه سلّمهما له، وأمسك كشيون بقوسه من حيث كان مربوطاً بأناقة إلى قربوس سرجه. ولاحظ تيموجن بسعادة أنه لم يكن قد رمى بالسلاح النفيس أرضاً.

راقب تيموجن وخاسار فيما كان كشيون يدفع فرسه للهرولة نحو المحارب التتاري. بدا أن رؤيته قادم نحوه قد أخرجت الرجل من ذهوله، وأدار فرسه ليهرب أخيراً. وقلّص كشيون المسافة بينهما قبل أن يدفع التتاري فرسه للعدو بأقصى سرعة، ثم أطلق سهماً أصابه في أعلى ظهره. وسار الرجل لبضع لحظات قبل أن يسقط، فتركه كشيون هناك واستدار عائداً إلى المخيم وهو يرفع قوسه في إشارة إلى قتله للرجل.

فرح تيموجن عندما زأر رجاله. وكانوا جميعاً يراقبون، وأطلقت الإشارة فرحتهم. وأولئك الذين يحملون أقواساً رفعوها عالياً، وهم يهزّون أذرعهم ابتهاجاً بالنصر. كان كل شيء قد حدث بسرعة كبيرة لدرجة أن الذهول أصابهم نوعاً ما في النهاية، وهم غير واثقين مما جرى. كانت فورة السعادة التي جاءت من مواجهة الموت والنجاة تملأهم، وترجلوا جميعاً عن جيادهم. وتحرك بعض أتباع توغرول بإثارة إلى العربات، وأزاحوا الأغطية واللباد جانباً ليروا ما فازوا به لأنفسهم.

أوثق رجال أرسلان الأسرى، وأخذوا أسلحتهم. وكان البعض منهم لا يحمل علامات مميزة وتمّت معاملتهم بقسوة، وازدراء. لم يكن لديهم حق بالحياة

بعد مثل تلك المعركة، ولم يكن تيموجن يهتم بهم إطلاقاً. ووجد أن يديه ترتعشان، وبعد أن ترجل عن فرسه، قادها لإبقاء قبضته مشدودة على اللجام وإخفاء ضعفه.

رفع بصره بعد أن كان مستغرقاً بأفكاره عندما شاهد شقيقه تيموج يقترب منه على فرسه وتتدلّى قدمه نحو الأرض. كان الفتى شاحباً ويرتعش بوضوح، لكن تيموجن شاهد أنه يحمل سيفاً ملطخاً بالدماء كما لو أنه لا يعرف كيف وصل إلى يده. حاول تيموجن النظر في عين شقيقه ليقوم بتهنئته، لكن تيموج استدار وتقيأ على الأعشاب. وسار تيموجن مبتعداً بدلاً من إلحاق العار به بملاحظة ذلك. وعندما يتمالك نفسه، سيجد بضع كلمات يمدح بها الفتى.

وقف تيموجن وسط العربات، وشعر بعيون ضباطه تنظر إليه. كانوا ينتظرون شيئاً ما، ورفع يده إلى عينيه، وضغط عليهما لإبعاد الأفكار السوداء التي تدافعت وتزاحمت في ذهنه. وتنحنح، وقال بصوت جهوري.

"أرسلان! جد كل قرب الشراب التي كانت معهم، وضع حارساً عليها، شخصاً تثق به. خاسار، أرسل ثمانية رجال ليستطلعوا المكان حولنا. قد يكون هناك المزيد منهم". واستدار إلى كشيون فيما كان يصل ويقفز برشاقة من على فرسه. "اجمع الأسرى يا كشيون، واجعل العشرة الذين بإمرتك ينصبون ثلاثاً من خيامهم بأسرع ما تستطيع. سنتوقف هنا الليلة".

أدرك أن ذلك لم يكن كافياً. وكانوا ما يزالون يراقبونه بعيون لامعة، وابتسامات تكاد تظهر.

صاح قائلاً: "أبليتم حسناً. وكل ما حظينا به لكم، وسيتمّ توزيعه بالتساوي بينكم".

هتفوا عندما قال ذلك، واختلسوا نظرات إلى عربات التتار المحملة بالمواد الثمينة. وكانت الجياد وحدها تعني ثروة فورية للبعض منهم، لكن

تيموجن لم يكن يهتم بذلك. في اللحظة التي فازوا بها بالمعركة، كان قد واجه احتمال العودة إلى توغرول. وكان خان كيريت سيطالب بحصته، بالطبع. وكان ذلك حقه، حتى وإن لم يكن موجوداً. لن يبخل عليه تيموجن ببضع عشرات من الجياد والسيوف. ورغم ذلك، كان الأمر يزعجه. ولم يكن يرغب بالعودة. كانت فكرة إعادة الأتباع الذين تبعوه جيداً تجعل فكه يهتز غضباً. كان بحاجة لهم جميعاً، وكان توغرول رجلاً لا يرى مكافأة له سوى في أراضي تشن. وفجأة، مدّ تيموجن يده ولمس الأعشاب عند قدميه. وأدرك أن أحدهم كان قد لقي مصرعه في تلك البقعة. كانت قطيرات صغيرة من الدماء قد سالت من السيوف، ولطخت يده فيما كان يقف منتصباً. وجهر بصوته مجدداً.

"تذكروا هذا، عندما تخبرون أطفالكم أنكم قاتلتم مع أبناء ياسوجي. هناك قبيلة واحدة وأرض واحدة لا تعترف بالحدود. وهذه ليست سوى البداية فقط".

ربما يكونون قد هتفوا لأنهم كانوا ما يزالون يشعرون بنشوة النصر، لكن ذلك لم يكن مهماً.

كان التتار مستعدين لحملة طويلة. احتوت العربات على زيت المشاعل، والحبال المجدولة والملابس المصنوعة من أرق أنواع الحرير إلى الخيش السميك الذي بالكاد ينثني. إضافة إلى ذلك، كان هناك حقيبة جلدية من النقود الفضية وما يكفي من شراب الأعشاب الأسود لتدفئة أكثر الحناجر شعوراً بالبرد في ليالي الشتاء. طلب تيموجن إحضار تلك المواد الأخيرة إليه، وتكديسها على الجدار الداخلي للخيمة التي سيتمّ نصبها أولاً. وكان أكثر من عشرين تتارياً قد نجوا من الهجوم، وقام باستجوابهم لإيجاد قائدهم. وألقى معظمهم نظرة عليه، وبقوا صامتين. كان تيموجن قد سحب سيفه وقتل ثلاثة قبل أن يطلق الرابع الشتائم ويبصق على الأرض.

قال التتاري بغضب: "ليس هناك قائد هنا. لقد مات مع الآخرين".

دون أن ينبس بكلمة، شدّ تيموجن الرجل ليقف على قدميه ودفعه للوقوف بجانب أرسلان. ونظر على صف الرجال الجالسين في الأسفل بوجه قاسٍ.

قال: "لا أحبّ قومكم، ولا حاجة بي للإبقاء على حياتكم. وإن لم تكونوا مفيدين لي، ستلقون حتفكم هنا".

لم يجب أحد ولم ينظر التتار إلى عينيه.

قال تيموجن في ذلك الصمت: "حسناً جداً". واستدار إلى أقرب محاربيه، كان أحد الأشقاء الذين ضمهم إلى مخيمه في الشمال، وقال: "اقتلهم بسرعة يا باتو". وسحب الرجل الصغير الحجم سكينه دون أي انفعال.

قال تتاري آخر فجأة: "انتظر! يمكنني أن أفيدك".

توقف تيموجن، ثم هزّ كتفيه غير مبالٍ، وحرّك رأسه.

قال: "فات الأوان".

في الخيمة، كان أرسلان قد قيد المحارب الوحيد الذي نجا من قوات التتار. وكانت صرخات الآخرين تبعث على الشفقة، ونظر المحارب إليهم بكراهية.

قال فيما كان أرسلان يشدّ الحبال خلف ظهره: "لقد قتلت الآخرين. ستقتلني، بغض النظر عما أقوله".

فكّر تيموجن بالأمر، وكان بحاجة لمعرفة أكثر ما يمكن عن التتار.

قال: "إذا لم تخفِ عني شيئاً، أعدك بأنك ستعيش".

تأفف التتاري، وقال بحدّة: "إلى متى سأعيش هنا لوحدي دون سلاح حتى؟ عدني بقوس وفرس، وسأخبرك بكل ما تريد معرفته".

كشّر تيموجن فجأة.

"هل تساومني؟"

لم يجب التتاري، وضحك تيموجن بصوت خافت.

"أنت أشجع مما توقعت. أعدك بأن تحصل على كل ما تطلبه".

هدأ التتاري، وقد بدت عليه علامات الارتياح، لكن تيموجن تكلم مجدداً قبل أن يستطيع ترتيب أفكاره.

"لماذا جئتم إلى أراضي قومي؟"

سأل الرجل: "أنت تيموجن من الذئاب؟"

لم يزعج تيموجن نفسه بأن يصحح له. كان ذلك الاسم الذي نشر الرعب في الشمال، سواء كان ينتمي إلى تلك القبيلة أو لا.

"أنا هو".

قال التتاري بسرور متجهم: "هناك جائزة لمن يأتي برأسك. خانات الشمال يريدونك ميتاً. سيطاردونك أينما ذهبت".

ذكّره تيموجن برفق: "لا أحد يطارد رجلاً يأتي للبحث عنه".

طرفت عينا التتاري وهو يفكر بأحداث ذلك اليوم. كان قد بدأ ذلك الصباح وسط محاربين أقوياء، وانتهى به الأمر مع أكوام من القتلى. ارتعش قلبه من الفكرة، وأطلق فجأة ضحكة ممزوجة بالعواء.

قال: "إذاً نحن نطارد بعضنا بعضاً، ووحدها الغربان والصقور التي تصبح بدينة". أصبحت الضحكة مريرة، وانتظر تيموجن بصبر حتى يستعيد الرجل رباطة جأشه.

ذكّره تيموجن: "قتل قومكم خان الذئاب". ولم يتكلم عن بورت. وكان الألم ما يزال مشتعلاً ومضطرماً داخله بحيث لم يكن ممكناً أن يخرج من بين شفتيه.

أجاب التتاري: "أعرف ذلك. وأعرف من سلّمه لنا، أيضاً. ولم يكن واحداً من قومي".

انحنى تيموجن إلى الأمام، وعيناه الصفراوان تقدحان شرراً.

تمتم: "لقد أقسمت بأن تخبرني كل ما تعرف. تكلم وستكون بأمان".
أحنى الأسير رأسه فيما كان يفكر، وقال: "حلّوا وثاقي أولاً".
سحب تيموجن سيفه الذي كان ما يزال ملطخاً بدماء أولئك الذين قتلهم. وبدأ التتاري يستدير، ورفع يديه ليتم قطع الحبال. وبدلاً من ذلك، شعر بالمعدن البارد يمسّ حنجرته بعد أن استدار تيموجن حوله.
قال: "أخبرني".
قال التتاري بكلمات متلعثمة: "خان أولخونوت. أخذ فضة ليرسل المعلومة لنا".
تراجع تيموجن إلى الخلف. واستدار التتاري ليواجهه مجدداً، وقد اتسعت عيناه.
"لقد بدأت عداوة الدم هذه هناك. كم قتلت حتى الآن؟"
أجاب تيموجن: "من أجل والدي؟ ليس كافياً. غير كافٍ بعد". وفكر مجدداً بزوجته والبرود بينهما. "لم أبدأ بتحصيل ديوني من قومك بعد".
ثبّت تيموجن عينيه على التتاري فيما كان الباب يُفتح. في البداية، لم ينظر أي منهما إلى من دخل الخيمة، ثم ومضت عينا التتاري بعد أن رفع بصره للأعلى. وسحب نفساً عميقاً عندما شاهد يوان واقفاً هناك، ووجهه متجهم.
قال التتاري محاولاً التخلص من وثاق معصميه بيأس: "أعرفك!" وأدار وجهه إلى تيموجن برعب واضح. "ربما، أستطيع...".
تحرك يوان بسرعة، وسحب سيفه ووجه له طعنة واحدة. وضرب نصله عنق التتاري الذي خرج منه رذاذ من الدماء.
تصرف تيموجن بسرعة كبيرة، وأمسك بمعصم يوان، ودفعه للخلف حتى وصل إلى الجدار المكون من أغصان الصفصاف المتشابكة وحشره هناك. وأمسك بيوان من حنجرته ويده، ووجهه يشتعل غضباً.

قال تيموجن: "قلت له إنه سيعيش. من أنت حتى تخزي كلمتي؟"
لم يستطع يوان أن يجيب. كانت الأصابع على حنجرته مثل الحديد وبدأ لون وجهه يصبح أرجوانياً. شدّ تيموجن على العظام في معصمه حتى وقع السيف من أصابعه، ثم هزّه غضباً وهو يطلق اللعنات.
دون سابق إنذار، تركه تيموجن وسقط يوان على ركبتيه. وركل تيموجن سيفه بعيداً قبل أن يتمالك نفسه.
"ما هي الأسرار التي يعرفها يا يوان؟ كيف تعرف إليك؟"
عندما تكلم، كان صوت يوان أجشاً، وقد بدأت كدمة تظهر على حنجرته.
"إنه لا يعرف شيئاً. ربما شاهدته من قبل عندما كان سيدي يسافر إلى الشمال. كنت أعتقد أنه يهاجمك".
امتعض تيموجن، وقال: "وهو راكع على ركبتيه؟ ويداه مقيدتان؟ أنت كاذب".
نظر يوان إلى الأعلى، وعيناه تتوهجان: "سأقبل تحديك، إذا أردت. هذا لن يغيّر من الأمر شيئاً".
لطمه تيموجن بقوة كانت كافية لتدير رأسه إلى الجانب الآخر.
سأله: "ما الذي تخفيه عني؟"
فُتح الباب خلفهما مجدداً واندفع أرسلان وكشيون إلى الداخل بسرعة، وقد شهرا سلاحيهما. لم تكن الخيام لتحجب أصوات من فيها عن أولئك الذين يقفون بالقرب منها، كانا قد سمعا النزاع. وتجاهل يوان سيوفهم، رغم أن نظرته المتجهمة رفّت نحو أرسلان للحظة. وفيما كانوا يراقبون ما يجري، سحب نفساً عميقاً وأغلق عينيه.
قال بهدوء: "أنا مستعد للموت، إذا اخترت القضاء على حياتي. لقد جلبت لك الخزي، كما قلت".
نقر تيموجن بأصابع إحدى يديه على الأخرى فيما كان يراقب يوان جاثياً

على الأرض.

سأل تيموجن: "منذ متى ووين تشاو بين قومي يا يوان؟"

بدا أن الأمر يتطلب جهداً وإرادة من يوان حتى يجيب، كما لو أنه ذهب بعيداً.

قال: "سنتان".

"وقبله، من أرسل وزيرك الأول؟"

أجاب يوان: "لا أعرف. كنت ما أزال مع الجيش وقتها".

تابع تيموجن: "لقد تفاوض سيدك مع التتار".

لم يجب يوان، وثبّت ناظريه عليه.

قال تيموجن برفق: "لقد سمعت أن خان أولخونوت غدر بوالدي. كيف استطاع التتار الاقتراب من قبيلة كبيرة لإبرام مثل هذا الاتفاق؟ يتطلب الأمر وسيطاً محايداً يثق به الطرفان، أليس كذلك؟"

سمع كشيون يشهق خلفه بعد أن قال ذلك.

تابع تيموجن الضغط: "هل سافرت إلى أولخونوت أيضاً؟ قبل كيريت؟"

بقي يوان ساكناً بلا حراك، كما لو أنه مصنوع من حجر.

قال يوان: "تتكلم عن وقت قبل مجيء سيدي إلى هذه الأرض. إنك تبحث عن أسرار غير موجودة".

قال تيموجن، متمتماً: "قبل وين تشاو، أتساءل من جاء بيننا أيضاً. أتساءل كم مرة أرسل تشن رجالهم إلى أرضي، وخانوا قومي. وأتساءل عن الوعود التي قطعوها".

كان العالم الذي بدا متماسكاً جداً ذلك الصباح يتداعى من حوله. كان ذلك أكثر مما يستطيع احتماله، ووجد تيموجن نفسه يتنفس بصعوبة، ويكاد يصاب بالدوار مما تكشّف له.

"لا يريدوننا أن نصبح أقوياء، أليس كذلك يا يوان؟ يريدون أن يمزّق

التتار والمغول بعضهم بعضاً إرباً. أليس ذلك ما قاله وين تشاو لي؟ إن التتار قد أصبحوا أقوياء جداً، وأنهم اقتربوا كثيراً من حدودهم الغالية؟"

أغلق تيموجن عينيه، وتخيّل نظرات تشن الباردة أثناء تفكيرهم في القبائل. وكل ما كان يعرفه أن تأثيرهم كان سيئاً على القبائل طوال قرون، وأنهم دفعوها للاقتتال فيما بينها.

قال: "كم عدد الذين ماتوا من قومي بسببكم يا يوان؟"

قال يوان وهو يرفع رأسه: "أخبرتك كل ما أعرفه. وإذا لم تصدقني، عندها اقتلني، أو أعدني إلى وين تشاو". وتجهم وجهه عندما تابع الكلام: "أو ضع سيفاً في يدي ودعني أدافع عن نفسي ضد هذه الاتهامات".

كان أرسلان من تكلم، ووجهه شاحب مما سمعه.

قال لتيموجن دون أن يرفع عينيه عن يوان أبداً: "اسمح لي يا مولاي. امنحه سيفاً، وسأواجهه".

استدار يوان لينظر إلى صانع السيوف، وقد زمّ شفتيه إلى الأعلى. ودون أن يتكلم، أحنى رأسه قليلاً علامة على قبول العرض.

قال تيموجن: "لقد سمعت الكثير. قيّدوه حتى الفجر، وسأقرر عندها". راقب تيموجن فيما كان كشيون يقيّد يدي يوان بمهارة. لم يبدِ أي مقاومة، أو يكافح معترضاً، حتى عندما ركله كشيون ليستقر على جانبه. استلقى إلى جانب جثة التتاري الذي كان قد قتله، ووجهه هادئ.

أمر تيموجن وهو يهزّ رأسه: "عيِّنوا حارساً عليه فيما نأكل. ينبغي أن أفكّر".

عند تباشير الفجر الأولى، مشى تيموجن جيئة وذهاباً خارج ثلة من الخيام الصغيرة، والانزعاج بادٍ على وجهه. لم يكن قد نام. ولم يكن المستطلعون الذين أرسلهم بعيداً مع خاسار قد عادوا بعد، وبقيت أفكاره تدور في ذهنه دون إجابات. كان قد أمضى سنوات من حياته يعاقب التتار

لما فعلوه، من أجل حياة والده والحياة التي كان ينبغي على أبنائه أن يعيشوها. لو أن ياسوجي قد نجا، كان بكتر أو تيموجن سيصبح خاناً للذئاب وسيبقى إيلوك تابعاً مخلصاً. كان هناك قافلة من الموت والألم بين اليوم الذي عرف فيه بذلك واليوم الحالي الذي يجد فيه نفسه منزعجاً ومكتئباً، وأن حياته قد تمزقت إلى أشلاء. ما الذي حققه في تلك السنين؟ وفكّر في بكتر، وللحظة، تمنّى لو أنه حي. كان يمكن لحياتهم أن تكون مختلفة جداً لو أن ياسوجي لم يمت مقتولاً.

فيما كان تيموجن يقف وحيداً، شعر بغضب متجدد يضطرم في صدره. كان خان أولخونوت يستحق بعض الشقاء الذي تسبب به. وتذكر تيموجن الأمر الذي اكتشفه عندما كان أسيراً لدى الذئاب. لم تكن هناك عدالة في العالم ما لم يحققها لنفسه، وما لم يرد الصاع صاعين والضربة بضربة. لقد كان الحق معه.

على مسافة بعيدة في العتمة، شاهد اثنين من مستطلعيه يعودان مسرعين نحو الخيام. وتقطب حاجبا تيموجن من اندفاعهما المتهور، وشعر بقلبه يخفق بسرعة. أثار وصولهما انتباه الجميع، وشعر بأن المخيم ينبض بالحياة من حوله عندما أخذ الرجال يخرجون بكامل دروعهم ويمتطون سروج جيادهم بفعالية وسرعة. كان فخوراً بهم جميعاً، وتساءل مجدداً عما ينبغي فعله مع يوان. لم يكن يستطيع أن يثق به بعد ذلك، لكن تيموجن كان قد أحب الرجل منذ أطلق سهماً على صدره في مخيم كيريت. ولم يكن يريد أن يقتله.

عندما اقترب المستطلعان، شاهد أن خاسار كان أحدهما، وأنه يسير مثل معتوه. كانت فرسه مرهقة وكان هو مكللاً بالعرق، شعر تيموجن بالإثارة تنتشر بين رجاله الذين كانوا بانتظار الأخبار. لم يكن خاسار ليفزع بسهولة، لكنه كان يقود فرسه دون تفكير بسلامته أو بسلامتها.

أرغم تيموجن نفسه على البقاء ساكناً فيما كان خاسار يقترب منه ويقفز إلى الأرض. وكان ينبغي أن يراه الرجال مختلفاً، ولا يتأثر بمخاوفهم.

سأل تيموجن، محافظاً على هدوء صوته: "ما الأمر الذي جعلك تعود بهذه السرعة يا شقيقي؟"

أجاب خاسار وهو يلهث: "تتار أكثر مما شاهدت من قبل. إنه جيش، ويبدو أولئك الذين قتلناهم مثل عصبة غزو مقارنة به". توقف ليلتقط أنفاسه. "قلت إنهم قد يأتون بقوة كبيرة في الربيع، وقد جاءوا".

قال تيموجن بحدة: "كم عددهم؟"

"أكثر مما أستطيع عدّه، وهم بعيدون مسيرة يوم على أبعد تقدير، وربما أصبحوا أقرب الآن. أولئك الذين قتلناهم ليسوا سوى متعقبي الأثر. هناك مئات العربات والجياد القادمة نحونا. وربما يكونون ألف رجل. ولم أشاهد شيئاً مثل هذا من قبل، يا شقيقي، أبداً".

كشّر تيموجن: "لديَّ أخبار من جانبي قد لا ترغب بسماعها، لكن يمكنها أن تنتظر إلى ما بعد هذا. اسقِ فرسك قبل أن تسقط ميتة. واجعل الرجال يمتطون جيادهم، وجد فرساً نشيطة لك. أريد أن أشاهد هذا الجيش الذي استطاع إخافة شقيقي الصغير".

تأفف خاسار: "لم أقل إنهم أخافوني، لكنني فكّرت بأنك قد ترغب بأن تعرف أن كل أمة التتار تتحرك جنوباً طلباً لرأسك. هذا كل شيء". كشّر غضباً عندما خطرت له الفكرة. "بحق الأرواح يا تيموجن. لقد أثخنا فيهم الجراح مراراً وتكراراً، وهم يصرخون ألماً الآن". ونظر حوله إلى الرجال الذين وقفوا يراقبون ما يجري، ويستمعون إلى كل كلمة. "ما الذي سنفعله الآن؟"

قال تيموجن: "انتظر يا خاسار. هناك شيء ينبغي أن أقوم به أولاً". ومشى مسرعاً إلى الخيمة التي قضى فيها يوان الليلة، واختفى داخلها. ودخل أرسلان وكشيون خلفه، ورافق الرجال الثلاثة يوان نحو الضوء

الرمادي وهو يفرك معصميه. كانت الحبال مقطوعة، ووقف خاسار مذهولاً، متسائلاً عما حدث في غيابه.

واجه تيموجن جندي تشن.

قال: "كنت بدأت أفكر بك كصديق يا يوان. لا يمكنني قتلك اليوم". فيما كان يوان يقف صامتاً، أحضر تيموجن له فرساً عليها سرج ودفع باللجام بين يديه.

قال تيموجن: "عد إلى سيدك".

امتطى يوان الفرس بسهولة. ونظر إلى الأسفل على تيموجن للحظة طويلة.

قال يوان أخيراً: "أتمنى لك حظاً موفقاً يا مولاي".

ضرب تيموجن بيده على ردف الفرس، وابتعد يوان على فرسه التي سارت خبباً دون أن ينظر خلفه.

اقترب خاسار من شقيقيه، ونظرته تتبع نظرتيهما اللتين تلاحقان الجندي الذي أخذ يبتعد عنهم.

قال: "أتخيّل أن ذلك يعني أنني قائد الميسرة".

ضحك تيموجن بصوت خافت. "جد فرساً نشيطة يا خاسار، وأنت أيضاً يا كشيون. أريد رؤية ما رأيته". ونظر حوله ليجد جيلم قد امتطى فرسه ويستعد للانطلاق.

"أعد الرجال إلى كيريت وقل لهم إن جيشاً قد احتشد ضدهم. وسيكون على توغرول إما القتال أو الهروب، كما يرغب".

قال خاسار مرتبكاً: "ماذا عنا؟ نحتاج إلى أكثر من ستين محارباً. نحتاج إلى رجال أكثر مما تستطيع كيريت وضعه في الميدان".

أدار تيموجن وجهه إلى الجنوب، مسترجعاً ذكريات مؤلمة.

قال: "بعد أن أرى جيش الغزو هذا بأمّ عيني، سنعود إلى الأراضي حول

التل الأحمر. سأجد الرجال الذين نحتاج إليهم، لكن لدينا عدوّ آخر ينبغي أن نواجهه أولاً". وبدا متجهماً جداً حتى أن خاسار لم يستطع التكلم، وتحدث تيموجن بهدوء شديد وسمعه الآخرون بالكاد.

"لديَّ وأشقائي دين ينبغي تسويته مع أولخونوت يا أرسلان. وقد نلقى حتفنا جميعاً. وليس لزاماً عليك مرافقتنا".

هزّ أرسلان رأسه. ولم ينظر إلى جيلم، رغم أنه شعر بأن ولده ينظر إليه.

أجاب: "أنت خاني".

قال تيموجن: "هل هذا كافٍ؟"

أومأ أرسلان رأسه ببطء.

"إنه كل شيء".

وقف تيموجن وذراعاه ممدودتان فيما كان أتباع أولخونوت يفتشونه بدقة. تحمّل خاسار وأرسلان الأيدي نفسها وهي تربت على كل بوصة منهما. وشعر الرجال الذين يحرسون خيمة سانسار بمزاج الزوار المتجهم ولم يفوتوا شيئاً. كان الرجال الثلاثة جميعاً يرتدون دروع تشن فوق قمصان صيفية وملابس داخلية حريرية استولوا عليها من التتار. حدّق تيموجن فيما كان التابع يمرر أصابعه على الصفائح الغريبة المثبتة إلى القماش الثقيل. وبدأ أحد الرجال التعليق عليها، لكن تيموجن اختار أن يبعد يديه في تلك اللحظة، كما لو أنه منزعج من إهانة كرامته. وخفق قلبه بنبض سريع في صدره عندما كان واقفاً هناك، ينتظر لقاء عدوه القديم.

تجمّع حولهم أفراد أولخونوت الفضوليون دائماً، يتبادلون أطراف الحديث مع بعضهم ويشيرون إلى الرجال في ملابسهم الغريبة الذين قاطعوا عملهم الصباحي. لم يرَ تيموجن شولوي العجوز بينهم، لكنّ حماه المشدوه كان هناك، واستحوذ كوكي على سيوفهم مرة أخرى، واختفى داخل خيمة الخان ليعلمه بوصولهم. وكان المحارب الشاب قد أخذ سيوفهم بما يشبه خيبة الأمل على وجهه. وحتى من خلال نظرة واحدة، استطاع أن يعرف أنها ليست بنفس جودة تلك التي حملها تيموجن من قبل. كانت صنعة التتار غير متقنة، وغالباً ما كان ينبغي شحذ السيوف أكثر من فولاذ أرسلان.

أخيراً، قال أحد الأتباع: "يمكنك الدخول". وأضاف مشيراً إلى خاسار: "وأنت، فيما ينبغي على صديقك الانتظار في الخارج هنا".

أخفى تيموجن جزعه. لم يكن واثقاً أن خاسار يمكنه المحافظة على هدوء أعصابه تحت الضغط، لكن كشيون كان لديه مهام أخرى ذلك الصباح. ولم يزعج نفسه ليرد عليه، وانحنى قليلاً ليمرّ عبر الباب الصغير، والأفكار

تتسارع في ذهنه.

لمرة واحدة، لم يكن سانسار جالساً على كرسيه العظيم الذي يهيمن على الخيمة التي يستعملها للاجتماعات الرسمية، بل كان يتحدث بصوت منخفض إلى اثنين من أتباعه عندما دخل تيموجن. ووقف كوكي في أحد الجانبين، يراقبهما. وكانت السيوف التي كانوا يحملونها مسنودة كيفما اتفق على الجدار في دلالة على قيمتها.

لدى سماع صرير الباب، توقف سانسار عن تمتمته وصعد إلى كرسيه، وشاهد تيموجن أنه يتحرك بحرص، كما لو أن الكبر في السن قد جعل عظامه هشة. كان الخان ما يزال يتمتع بنظرة الأفعى العجوز، مع رأسه الحليق وعينيه الغائرتين اللتين لا تهدأان أبداً. كان صعباً على تيموجن أن ينظر إليه دون أن تنمّ تعابير وجهه عن الكراهية، لكنه أبقى وجهه خالياً من التعابير. اتخذ تابعا خان أولخونوت مكانين لهما على جانبي سيدهما، وهما يحدقان بالوافدين الجديدين. وأرغم تيموجن نفسه على تذكر آداب المجاملة الواجبة لخان قبيلة قوية.

قال: "تشرفت بالمثول بين يديك يا مولاي سانسار".

أجاب سانسار: "مرة أخرى. كنت أعتقد أنني لن أشاهدكم مجدداً. لماذا تزعجني في دياري يا تيموجن؟ يبدو أنني أراك أكثر مما أرى زوجاتي. ما الذي تريده مني بعد؟"

شاهد تيموجن كوكي يبتسم من طرف عينه، وتورد غضباً من نبرة الكلام. وشعر بأن سانسار منزعج جداً، وألقى نظرة تحذير على شقيقه قبل أن يتكلم.

"ربما تكون قد سمعت بجيش التتار القادم سريعاً من براري الشمال. لقد رأيته بأم عيني، وأتيت لتحذيرك".

أطلق سانسار ضحكة خافتة جافة.

"كل متجول وراعي على بعد ألف ميل يتحدث عنهم. أولخونوت ليست في نزاع مع التتار. لم نسافر إلى تلك الأراضي شمالاً منذ أربعين سنة، قبل أن أكون خاناً". لمعت عيناه فيما كان ينحني إلى الأمام على الكرسي، وينظر إلى الرجلين الواقفين بصلابة أمامه.

"لقد حرّضتهم على الحرب يا تيموجن بغاراتك، وينبغي أن تتحمل العواقب. إنني أخاف عليك حقاً". كانت نبرته تناقض كلماته، وتمنى تيموجن أن يحافظ خاسار على صمته كما كان قد أمره.

تابع تيموجن: "لن يحترموا تلك القبائل التي تدّعي عدم وجود نزاع دم معهم يا مولاي. لقد شاهدت ألف محارب، ومعهم العدد نفسه من النساء والأطفال في مخيمهم. لقد جاءوا إلى أراضينا بقوة أكبر مما يستطيع أي شخص أن يتذكر أنه رآها".

قال سانسار مبتسماً: "لقد تملّكني الرعب. ماذا تقترح أن نفعل؟"

قال تيموجن بحدة، وكان مزاجه يشتعل غضباً من سخرية الرجل العجوز الواضحة: "نقف في طريقهم".

"مع كيريت؟ آه، لقد سمعت عن تحالفك يا تيموجن. إن الأنباء تنتشر بسرعة عندما يكون الأمر بالغ الأهمية. لكن هل سيكون ذلك كافياً؟ لا أعتقد أن توغرول يستطيع حشد أكثر من ثلاثمئة محارب لتلك الوليمة على وجه الخصوص".

أخذ تيموجن نفساً قصيراً ليتمالك نفسه.

"رماة السهام في أولخونوت يتمتعون بسمعة طيبة يا مولاي. ومع ثلاثمئة آخرين من رجالك، أستطيع...".

توقف عندما ضحك سانسار بصوت خافت، وهو ينظر حوله إلى كوكي وتابعيه. وشاهد سانسار تعابير تيموجن وخاسار الغاضبة، وحاول أن يبدو جاداً.

"آسف، لكن الفكرة كانت...". وهزّ رأسه. "هل أنت هنا لتلتمس محاربين مني؟ هل تتوقع أن تكون كل قوة أولخونوت تحت قيادتك؟ لا".

قال تيموجن: "سيقضي علينا التتار قبيلة بعد أخرى". وتقدّم خطوة إلى الأمام في محاولة لإقناع الخان. وشاهد التابعان الحركة وتوترا، لكن تيموجن تجاهلهما. "إلى متى ستبقى بأمان بعد أن يتمّ تدمير كيريت؟ إلى متى سيبقى كويري، نيمنز والذئاب على قيد الحياة؟ لقد بقينا ممزقين لفترة طويلة، وأعتقد أنك نسيت أننا شعب واحد".

جلس سانسار ساكنا دون حراك، وهو يراقب تيموجن من أعماق عينيه الداكنتين.

أخيراً، قال بصوت يكاد يكون همساً: "لا أعرف إخوة لي في كيريت. لقد نمت قوة أولخونوت دون مساعدتهم، وينبغي أن تقف أو تجري وحدك يا تيموجن. لن أضمّ محاربيّ إليك. هذا هو جوابي. ولن يكون هناك شيء آخر مني".

بقي تيموجن صامتاً للحظة. وعندما تكلم، بدا كما لو أنه يعتصر كل كلمة تخرج منه.

"لديَّ حقائب من القوالب الفضية التي حصلت عليها من التتار. أعطني سعراً لكل رجل، وسأدفعه لك".

ألقى سانسار برأسه إلى الخلف ليضحك، وتحرك تيموجن. وبحركة سريعة، انتزع إحدى الصفائح الحديدية من درعه ووثب إلى الأمام، وغرزها في حنجرة سانسار المكشوفة. ولوثت الدماء وجهه فيما كان يحزّ بالحافة المعدنية ذهاباً وجيئة، متجاهلاً يدي سانسار اللتين أطبقتا عليه.

لم يكن التابعان مستعدين للتعامل مع موت مفاجئ. وعندما أفاقا من الصدمة وشهرا سيفيهما، كان خاسار موجوداً هناك، واستقرت قبضته على أنف الرجل الأقرب إليه. كان يمسك أيضاً بقطعة من الحديد الحاد التي

جاء بها من حيث حلّ مع تيموجن الخيوط في الدرع. استعملها لنحر عنق التابع الثاني بضربة عنيفة. وتراجع الرجل إلى الخلف، وسقط محدثاً دوياً على الأرض الخشبية. وملأت رائحة بشعة الهواء عندما خرج الغائط من أحشاء التابع، وكانت ساقاه ما تزالان تركلان بنوبات لاإرادية.

تراجع تيموجن عن جسد الخان الذي فارق الحياة، وهو يلهث وقد غطته الدماء. واندفع التابع الذي كان خاسار قد لطمه إلى الأمام بثورة غضب لا شعورية، لكن خاسار أخذ السيف من رفيقه. وعندما تقابلا، وثب تيموجن من الكرسي، وألقى بنفسه على رجل سانسار وأوقعه على الأرض المصقولة. وفيما كان تيموجن يمسك به، دفع خاسار بسيفه عبر صدر التابع، ومرره جيئة وذهاباً حتى سكن الرجل تماماً.

وحده كوكي كان واقفاً عندها، فاغراً فمه، ولا يقوى على الكلام من خوفه. عندما أدار تيموجن وخاسار عيونهما إليه، تراجع إلى الجدار، وتعثرت قدماه بسيوف التتار. وأمسك بواحد منها بخوف يائس، وسحب السيف من قرابه بيد مرتعشة.

نظر تيموجن وخاسار إلى بعضهما بعضاً. ورفع تيموجن السيف الثاني وتقدما نحوه متوعدين.

قال كوكي، ويده التي تحمل السيف ترتعش بشكل ظاهر: "أنا ابن خالكما. اتركاني أعيش، من أجل والدتكما على الأقل".

في الخارج، استطاع تيموجن سماع صرخات التحذير. وكان محاربو أولخونوت يتجمّعون، وحياته على المحك.

قال: "ارمِ السيف، وستعيش".

نظر خاسار إلى شقيقه، لكنّ تيموجن هزّ رأسه. وارتطم السيف على الأرض محدثاً صليلاً.

قال تيموجن: "اخرج الآن. اهرب إذا أردت لأنني لست بحاجة إليك".

كاد كوكي يكسر المفصلات في عجلته لفتح الباب. ووقف تيموجن وخاسار للحظة بصمت، ينظران إلى حنجرة خان أولخونوت المفتوحة. ودون أن ينبسا بكلمة، اقترب خاسار من الكرسي وركل الجثة، وأدّت قوة الضربة إلى جعلها تنزلق إلى الأسفل وتتمدّد متراخية عند قدميه.

تمتم خاسار للخان الميت: "عندما ترى والدي، قل له كيف لقيت حتفك".

شاهد تيموجن سيفين يعرفهما على الجدار ومدّ يده ليمسك بهما. كانا وخاسار يستطيعان سماع صرخات وضجيج الرجال الذين احتشدوا في الخارج. ونظر إلى خاسار، وعيناه الصفراوان باردتان.

"الآن يا شقيقي، هل أنت مستعد للموت؟"

خرجا من الخيمة إلى أشعة شمس الربيع، وعيونهما تتحرك بسرعة لرؤية ما ينتظرهما. ووقف أرسلان على بعد خطوات من الباب، وجثتان تستلقيان عند قدميه. قبل ليلة من ذلك، كانوا قد ناقشوا كل تفاصيل الخطة، لكن لم تكن هناك طريقة لمعرفة ما سيحدث لاحقاً. هزّ تيموجن كتفيه غير مبالٍ عندما نظر إلى عيني أرسلان. ولم يكن يتوقع أن ينجو خلال اللحظات القليلة التالية. وكان قد منح كلاهما فرصة للابتعاد، ولكنهما أصرّا على المجيء معه.

قال أرسلان: "هل مات؟"

ردّ تيموجن: "مات".

كان يحمل سيفي أرسلان القديمين، ودفع بالسيف الذي كان يحمله صانع السيوف بين يديه. وعرف أرسلان أنه قد لا يحمله لفترة طويلة، لكنه أومأ برأسه فيما كان يأخذه، بعد أن ألقى سيف التتار إلى الأرض. نظر تيموجن خلف صانع السيوف إلى فوضى محاربي أولخونوت. كان الكثيرون منهم يحملون أقواساً مشدودة، لكنهم ترددوا بغياب الأوامر، فاستغل تيموجن الفرصة قبل أن تهدأ أعصابهم ويطلقوا عليهم السهام.

زأر بالحشد: "توقفوا عن الحركة واصمتوا!"

إذا كان هناك من شيء فقد ازدادت ضوضاء الخوف والصراخ، لكنّ أولئك الذين كانوا قريبين توقفوا وهم يراقبون ما يجري. تذكر تيموجن الطريقة التي تتجمد بها الحيوانات لدى رؤيتها لصياد حتى يفوت الأوان.

صرخ محاولاً إيصال صوته إلى أكبر عدد منهم: "سأقود أولخونوت بعد أن استوليت عليها. وأعدكم بأن لا يلحق بكم الأذى".

نظر حوله، يتفحص مستوى خوفهم وغضبهم. بدا أن بعض المحاربين يحثّون الآخرين على مهاجمتهم، لكنّ أحداً منهم لم يكن مستعداً للاندفاع نحو خيمة الخان وقتل الرجال الذين يبدون واثقين جداً من أنفسهم أمامها.

بشكل غريزي، تقدّم تيموجن خطوتين إلى الأمام، متحركاً نحو مجموعة من أتباع سانسار. كانوا محاربين أشدّاء، وكان يعرف أن الخطر أكبر هناك. كلمة واحدة متهورة أو تردد وسيثورون بنوبة عنف بعد أن فات الأوان على إنقاذ الرجل الذي أقسموا على حمايته. امتزج الإذلال بالغضب في وجوههم عندما رفع تيموجن صوته مجدداً ليصل إلى مسامعهم.

"أنا تيموجن من الذئاب. وتعرفون اسمي. والدتي من أولخونوت. وزوجتي من أولخونوت. وأولادي سيكونون كذلك. وأدّعي حق الوراثة بعروة الدم. في الوقت المناسب، سأضمّ كل القبائل الأخرى تحت رايتي".

بقي الأتباع واقفين بلا حراك رغم ذلك. وأبقى تيموجن سيفه منخفضاً، إلى جانب قدميه، وكان يعرف أن رفعه سينذر بموته. شاهد أقواساً مشدودة مصوبة نحوه، وأرغم وجهه على البقاء هادئاً. أين هو كشيون؟ لا بد أن شقيقه سمع صوت الشغب.

قال بصوت خافت للأتباع: "لا تخافوا عندما تسمعون أبواق الحراس. سيكون أولئك رجالي، لكن لديهم أوامر بعدم المساس بقومي".

كانوا قد بدأوا يفقدون شحوب صدمة اللحظات الأولى، ولم يكن يعرف ما سيفعلونه. وبدا أن أقربهم إليه يصغي السمع.

قال لهم: "أعرف أنكم غاضبون، لكن ستشعرون بالفخر عندما أصطحب قومي إلى الشمال ضد التتار. وستثأرون لموت والدي، وسنكون قبيلة واحدة على وجه السهول، وشعباً واحداً. كما ينبغي أن نكون دائماً. لنجعل التتار يخافوننا. ولنجعل تشن يخافوننا".

شاهد أن أيديهم المتشنجة قد بدأت تتراخى، وكافح حتى لا يظهر الانتصار على وجهه. وسمع أبواق التحذير، وسعى مرة أخرى لطمأنة الحشد.

"لن يتعرض أحد من أولخونوت للأذى، وأقسم بروح والدي على ذلك. ليس على يد رجالي. دعوهم يمرون، وفكّروا ملياً بالعهد الذي سأطلب منكم قطعه". نظر حوله إلى الحشد، ووجدهم يحدقون به، وكل العيون متجهة نحوه.

"لقد سمعتم أنني ذئب متوحش ضد التتار، وأنني سوط مسلط عليهم. وقد سمعتم أن كلمتي حديد، وأقول لكم الآن إن أولخونوت ستكون بأمان تحت إمرتي".

شاهد فيما كان كشيون ورجاله العشرة يمرّون ببطء عبر الحشد، وارتاح لرؤيتهم بشكل تعجز عنه الكلمات. كان بعض أفراد أولخونوت ما يزالون واقفين متسمرين في أماكنهم، وكان ينبغي دفعهم برفق عن الطريق بواسطة الجياد. وحافظ الحشد على صمته عندما ترجّل كشيون ورجاله.

لم يكن كشيون يعرف ما سيجده، لكنه كان مذهولاً لرؤية أفراد أولخونوت متجمدين ويحدقون بشقيقه. ولدهشته، احتضنه تيموجن بسرعة، وقد غلبته المشاعر التي هدّدت بإفساد ما كان قد حققه.

قال تيموجن للحشد: "سأقابل الأتباع على انفراد، وآخذ عهودهم". وفي

الصمت، كانوا يستطيعون سماعه جميعهم. "عند غروب الشمس، سآخذ عهودكم. لا تخافوا. وغداً، سيتحرك المخيم شمالاً للانضمام إلى كيريت، حلفائنا". نظر حوله، وشاهد أن الرؤوس القلقة قد انخفضت أخيراً. وأومأ برأسه بصلابة إلى الرماة.

قال: "سمعت أن أولخونوت يخافون في المعركة. سنثبت للتتار بأنهم لا يستطيعون المجيء إلى أراضينا دون عقاب".

شقّ رجل ممتلئ الجسم عريض المنكبين طريقه عبر الحشد من المؤخرة. وكان هناك فتى لم يتحرك بالسرعة الكافية ولطمه الرجل بظاهر يده على رأسه، وأوقعه أرضاً.

شاهده تيموجن قادماً، وتبخّر شعوره بالنصر. كان يعرف أن لدى سانسار أبناء. وكان الشخص الذي يتقدم منه يتمتع بالمعالم نفسها مثل والده، رغم أنه كان أقوى بنية. ربما كان سانسار نفسه بقوته فيما مضى.

سأل الرجل وهو يتقدم إلى الأمام: "أين والدي؟"

استدار الأتباع ليروه، وأحنى الكثيرون منهم رؤوسهم تلقائياً. وشدّ تيموجن على فكه بقبضته، مستعداً لاندفاعهم نحوه. وشعر شقيقاه بالتوتر إلى جانبه، وكان كل رجل هناك يمسك فجأة بسيف أو فأس.

قال تيموجن: "والدك ميت. لقد استلمت زمام القبيلة".

سأل الرجل: "من أنت لتتكلم معي؟" وقبل أن يردّ تيموجن، أطلق ابن سانسار أمراً للأتباع الواقفين على أهبة الاستعداد. "اقتلوهم جميعاً".

لم يتحرك أحد، وشعر تيموجن ببصيص أمل يعود إلى روحه المحطمة.

قال برفق: "فات الأوان. لقد توليت الأمور بعروة الدم والاستيلاء. ولا مكان لك هنا".

فغر ابن سانسار فمه دهشة، ونظر حوله إلى القوم الذين عرفهم طوال حياته. ولم ينظروا إلى عينيه، وتحوّل وجهه ببطء إلى قناع بارد. ولاحظ

تيموجن أنه لم يكن يفتقر للشجاعة. وكانت له عينا والده اللتان تحركتا باستمرار فيما كان يتأمل الموقف الجديد. وأخيراً، كشّر.

"إذاً، أطالب بحق تحديك، أمامهم جميعاً. وإذا كنت ستأخذ مكان والدي، سيكون عليك قتلي، أو سأقتلك". كان يتكلم بثقة مطلقة، وشعر تيموجن بومضة إعجاب نحو الرجل.

قال: "أقبل، رغم أنني لا أعرف اسمك".

حرك ابن سانسار كتفيه، لجعلهما تسترخيان.

"اسمي بالياخ، خان أولخونوت".

كانت عبارة شجاعة، وأحنى تيموجن رأسه بدلاً من أن يدحضها. ومشى عائداً إلى أرسلان، وأخذ السيف المتقن الصنع من أصابعه.

همس أرسلان من بين أسنانه: "اقتله بسرعة. إذا بدأوا بتحيته، سنموت جميعنا".

نظر تيموجن إلى عينيه دون أن يردّ، واستدار عائداً إلى بالياخ وقذف له بالسيف. وانتظر ليرى كيف سيلتقطه ابن سانسار، وقطب حاجبيه. كانت حياتهم جميعاً تعتمد على مهارته وحصص التدريب الكثيرة مع أرسلان ويوان.

حرّك بالياخ السيف في الهواء، وكشف عن أسنانه. امتعض وجهه عندما تقدّم تيموجن ليواجهه.

"بذلك الدرع؟ لماذا لا تدعهم يطلقون سهماً عليَّ من بعيد؟ هل أنت خائف من مواجهتي بدونه؟"

كان تيموجن سيتجاهل تلك الكلمات لو أن أتباع أولخونوت لم يتمتموا موافقين. ومدّ ذراعيه إلى الأمام وانتظر فيما كان أرسلان وكشيون يفكان الصفائح. وبعد أن رفعاها عنه، لم يكن يرتدي سوى قميصاً حريرياً خفيفاً وسروالاً قطنياً سميكاً. ورفع سيفه تحت أعين كل رجل وامرأة في

أولخونوت.

قال تيموجن: "تعال إلي".

زأر بولياخ واندفع إلى الأمام، يسعى في ثورة غضبه لقطع رأس تيموجن عن كتفيه بضربة واحدة. وابتعد تيموجن خطوة إلى اليسار متفادياً الضربة، ووجّه سيفه بسرعة نحو صدر بولياخ. وفتح جرحاً بليغاً في جانب الرجل الذي بدا أنه لا يشعر به. ودار السيف بسرعة كبيرة حتى أن تيموجن كان مرغماً على الابتعاد عنه. تعاركا وجهاً لوجه للحظة قبل أن يدفعه بولياخ بعيداً عنه بيده الحرة. وفي تلك اللحظة، ضربه تيموجن، ودفع نصله بقوة في عنق الرجل.

حاول ابن سانسار أن يبصق الدماء من حنجرته. إلاّ أن سيف أرسلان وقع من أصابعه ورفع كلتا يديه إلى عنقه وأمسكها بقوة رهيبة. وتحت أنظار تيموجن، استدار كما لو أنه يريد المشي مبتعداً، ثم سقط منكباً على وجهه وبقي ساكناً. وسرت تنهيدة بين الحشد ونظر إليهم تيموجن ببرود، متسائلاً ما إذا كانوا سيمزقونه إرباً. وشاهد كوكي هناك بينهم، وقد فغر فمه رعباً. عندما نظر تيموجن إلى عينيه، استدار ابن خاله واندفع عبر الحشد.

حدّق باقي أفراد أولخونوت مثل الأغنام، ووجد تيموجن أن صبره يكاد ينفد. ومشى بينهم إلى نار معدّة للطهي، وأخذ جمرة ملتهبة من تحت القدر. وفيما كان يدير ظهره لهم جميعاً، رمى بها على حواف خيمة الخان، وشاهد متجهماً فيما كانت ألسنة اللهب تشتعل وتتصاعد من اللباد الجاف. كانت الخيمة ستحترق تماماً، ولم يكن ليلحق العار بالأتباع بجعلهم يشاهدون خانهم ميتاً.

نادى على الحشد: "اتركونا الآن حتى غروب الشمس. هناك دائماً عمل ينبغي إنجازه، وسنغادر عند الفجر. كونوا مستعدين".

حدّق بهم حتى بدأ الحشد المذهول بالابتعاد، وانفصل إلى مجموعات

أصغر لمناقشة ما حدث. نظروا مرات عديدة إلى الأشكال حول الخيمة المحترقة، لكن تيموجن لم يتحرك حتى لم يبقَ إلاّ الأتباع الشخصيين فقط.

كان عدد الرجال الذين اختارهم سانسار ليكونوا حراسه الشخصيين أقل مما خمّن تيموجن. ولم تكن أولخونوت قد شاركت في حرب منذ جيل، وحتى الذئاب كانوا يحتفظون برجال مسلحين أكثر من ذلك حول خانهم. رغم ذلك، كانوا يفوقون أولئك الذين حضروا مع كشيون عدداً، وكان هناك توتر بادٍ بين المجموعتين عندما بقيتا وحدهما.

قال لهم تيموجن: "لن أزعج زوجات سانسار وأطفاله الصغار هذه الليلة. دعوهم يندبون رحيله بكرامة. ولن يعانوا على يديّ، أو يتمّ التخلي عنهم كما حدث معي مرة".

أومأ بعض الأتباع موافقين على ذلك. كانت قصة أبناء وزوجة ياسوجي معروفة لهم جميعاً، وكانت قد انتقلت بين القبائل حتى أصبحت واحدة من آلاف الحكايات والخرافات الأخرى التي يسردها رواة القصص.

قال لهم تيموجن: "مرحباً بكم إلى ناري". تكلّم كما لو أن إمكانية رفضه غير موجودة، وربما كان ذلك السبب في عدم احتجاجهم. ولم يكن يعرف، أو يهتم. وحلّ به إرهاق كبير، واكتشف أنه جائع وظمآن جداً حتى أنه استطاع بالكاد أن يتكلم.

قال: "اجعلوهم يحضرون إلينا الطعام فيما نناقش الحرب القادمة. أحتاج إلى رجال متقدي الذهن ليكونوا ضباطي، ولا أعرف بعد من منكم سيكون قائداً ومن سيكون تابعاً".

انتظر حتى وضع خاسار وكشيون الحطب بشكل متشابك على نار الطهي، والتي ازدادت حدّة وقوة. أخيراً، جلس تيموجن على الأرض قرب ألسنة اللهب، وجلس أرسلان وشقيقاه معه، ثم تبعهم الآخرون، حتى جلسوا جميعاً على الأرض الباردة، يراقبون بحذر الوجه الجديد في حياتهم.

لم يسبق لأولخونوت الاقتراب من كيريت لأي سبب كان عدا الحرب، وشعر المحاربون في كلا الطرفين بالعصبية. كانت كلتا القبيلتين تتنقلان كثيراً، وكان توغرول يحافظ على مسافة بين قومه والغزاة التتار الذين يأتون إلى الجنوب.

كان تيموجن قد أرسل كشيون أمامه لتحذير توغرول، لكنّ كيريت كانوا ما زالوا يسلحون أنفسهم ويمتطون جيادهم، ويشكلون خطاً دفاعياً حول مركز مخيمهم. وأطلقت الأبواق نفيرها الكئيب مراراً وتكراراً في الهواء الساكن. قاد تيموجن قوم والدته إلى مكان قريب جداً حتى استطاعت كلتا المجموعتين رؤية بعضهما بعضاً، وكان البعد بينهما نصف ميل فقط. وأوقفهم هناك عندها، وقاد فرسه إلى نقطة في الوسط مع خاسار، وأرسلان وعشرة من أتباع سانسار. وترك رجاله مع العربات، يحرسون تحسباً من هجوم مفاجئ من أي اتجاه. كان التوتر بادياً، ولم يكن بحاجة لتحذيرهم بأن يبقوا على أهبة الاستعداد. وحتى مع تراجع كيريت إلى الجنوب، لم يكن التتار بعيدين أكثر من مسيرة أسبوعين عنهم، ولم يكن مستعداً لهم بعد.

ترجّل على الأعشاب الخضراء، وترك فرسه ترعى منها. ومن بعيد، كان يستطيع رؤية توغرول، وتساءل مستغرباً كيف سيجد الرجل فرساً تحمله. مع ابتسامة زوراء، شاهد توغرول يصعد إلى عربة يجرها حصانان أسودان، ويحثها باستعمال اللجام نحو فرقة تيموجن. وجاء وين تشاو معه، وشكّل أتباع كيريت حلقة مغلقة حول سيدهم وهم يحملون الأقواس والسيوف.

رفع تيموجن يديه عندما أصبحوا على مسافة يستطيعون فيها سماع صراخه، ليدلّ على أنهما خاويتان. كانت تلك إشارة لا معنى لها لأنه كان محاطاً برجال مسلحين، لكنه لم يكن يرغب بإثارة قلق توغرول أكثر مما كان عليه. فقد كان بحاجة لدعم الخان البدين.

نادى تيموجن: "أهلاً بك في مخيمي يا توغرول كيريت. أمنحك حقوق الضيف بشرف".

ترجّل توغرول بحرص شديد، وكان وجهه الممتلئ جامداً كما لو أنه مصنوع من حجر. عندما وصل إلى بعد ذراع عن تيموجن، نظر إلى ما وراءه، إلى صفوف المحاربين وحشد أولخونوت الكبير. كان تجمّع المحاربين كبيراً مثل ما هو موجود لديه، وقضم شفته السفلى قبل أن يتكلم.

أجاب: "أقبل يا تيموجن". ودفعه شيء ما في عيني تيموجن لمتابعة الكلام: "هل أنت الآن خان أولخونوت؟ لا أفهم الأمر".

اختار تيموجن كلماته بعناية.

"لقد اكتسبت ذلك، بحق والدتي وزوجتي. سانسار مات، وقد جاءوا معي لقتال التتار".

نظراً لمعرفته بالرجل، كان تيموجن قد رتّب إشعال نيران الطهي حالما تتوقف أولخونوت على السهل الأخضر، وفيما كان يتكلم، تمّ جلب عدد كبير من أطباق لحم الضأن والماعز المشوي إلى الأمام ومدّت قطع كبيرة من اللباد الأبيض على الأرض. وبصفته المضيف، كان الأمر الطبيعي أن يكون تيموجن آخر من يجلس، لكنه أراد أن يجعل توغرول يشعر بالاطمئنان. وجلس بنفسه على اللباد، ووضع قدميه تحته. ولم يكن أمام خان كيريت خيار بعد مثل تلك الإشارة فجلس قبالته، وأومأ إلى وين تشاو لينضمّ إليهما. بدأ تيموجن يرتاح ولم ينظر حوله فيما كان خاسار وأرسلان يجلسان في موقعيهما مع الآخرين، وجلس قبالة كل منهم محارب من كيريت حتى تساوت القوتان. وخلف ظهر تيموجن، كان قوم أولخونوت ينتظرون ويراقبون خانهم الجديد بصمت.

كان يوان هناك أيضاً وأحنى رأسه بدلاً من النظر إلى تيموجن فيما كان يجلس على بساط اللباد السميك. ألقى وين تشاو نظرة خاطفة على جنديه

الأول، وتقطب جبينه عبوساً.
بدأ توغرول بالقول: "إذا لم يكن أحد آخر قد طرح السؤال يا تيموجن، كيف خرجت بعشرة رجال فقط، وعدت مع إحدى أعظم القبائل تحت إمرتك؟"
أشار تيموجن إلى الطعام قبل أن يجيب، وبدأ توغرول الأكل تلقائياً تقريباً، وكانت يداه تعملان بشكل مستقل عن عينيه الحادتين.
قال تيموجن: "أب السماء يرعاني. وقد كافأ هؤلاء القوم الذين خرجوا لملاقاة ما تتعرض له أرضنا". لم يكن يريد التحدث عن كيفية قتله لسانسار في خيمته، وليس أمام رجل يحتاجه كحليف. وسيكون سهلاً جداً على توغرول أن يخاف من قائده الحربي.
كان واضحاً أن توغرول لم يكن راضياً بتلك الإجابة وفتح فمه ليسأل مجدداً، وكشف عن قطعة من اللحم والصلصة. وقبل أن يسترسل في كلامه، تابع تيموجن بسرعة.
"ادّعيت أحقيتي عليهم برابطة الدم يا توغرول، ولم يرفضوني. وما يهم هو أن لدينا ما يكفي من الرجال لصد التتار عندما يأتون".
قال توغرول وهو مشغول بالمضغ: "كم عدد الذين جاءوا معك؟"
أجاب تيموجن: "ثلاثمئة فارس. وهم مسلحون جيداً. وتستطيع تقديم ما يضاهيهم عدداً".
قال وين تشاو فجأة: "لدى التتار أكثر من ألف، كما أخبرتنا".
أدار تيموجن عينيه الصفراوين إلى سفير تشن دون أن يردّ. وشعر بأن يوان يراقبه وتساءل عما يعرفه وين تشاو، وعما أخبره به يوان.
قال تيموجن لتوغرول، كما لو أن وين تشاو لم يتكلم: "لن يكون الأمر سهلاً. سنحتاج إلى الكثير من دروع تشن. ويوجد في أولخونوت رجلين يعملان على الكير ويتمتعان بالمهارة لصنع السيوف والصفائح. وقد كلفتهما

بتصنيعها. وسنحتاج أيضاً إلى تحصين جيادنا بالجلد والحديد على العنق والصدر". وتوقف قليلاً يراقب توغرول وهو يكافح مع مضغة من اللحم.

تابع تيموجن: "لقد كانت تكتيكاتنا ناجحة ضد مجموعات أصغر، رغم أنهم كانوا يفوقوننا عدداً حتى وقتها. فالتتار لا ينطلقون صفاً واحداً للهجوم، ولا يعرفون التشكيلات التي نستعملها لمحاصرتهم". وألقى نظرة خاطفة على وين تشاو. "لا أخاف من أعدادهم".

قال توغرول وهو يهزّ رأسه: "رغم ذلك، تطلب مني المخاطرة بكل شيء".

كان وين تشاو من قطع التواصل الصامت بينهما.

قال برفق إلى توغرول: "ينبغي دحر جيش التتار هذا يا مولاي الخان. وسيتذكر سادتي أتباعك في هذا الأمر. وهناك أراضٍ معدّة لقومك عندما تنتهي المعركة. وستكون ملكاً هناك دون أن تعرف الجوع أو الحرب مجدداً".

مرة أخرى، شاهد تيموجن الدليل على أن وين تشاو لديه تأثير غريب على الخان البدين، وتزايدت كراهيته لسفير تشن بشكل حاد. ورغم أنهما كانا بحاجة للشيء نفسه، إلاّ أنه لم يكن يستمتع برؤية أحد من قومه تابعاً لدبلوماسي أجنبي.

للتغطية على انزعاجه، بدأ تيموجن يأكل مستمتعاً بمذاق أعشاب أولخونوت. ولاحظ أنه في ذلك الوقت فقط فعل وين تشاو الشيء نفسه ومدّ يده إلى الأطباق. فكّر تيموجن بأن الرجل كان معتاداً تماماً على الخداع. وكان ذلك ما يجعله خطيراً.

لاحظ توغرول أيضاً الحركة، ونظر إلى اللحم في يده للحظة قبل أن يدفع به في فمه دون مبالاة.

قال توغرول: "هل ترغب بقيادة كيريت؟"

أجاب تيموجن: "في هذه المعركة تحديداً، نعم، كما فعلت من قبل". كان

ذلك بيت القصيد، ولم يستطع لوم توغرول على مخاوفه. "لديَّ قبيلتي الآن يا توغرول. ويتطلع الكثيرون إليَّ من أجل سلامتهم وقيادتهم. عندما يتمّ سحق التتار، سأذهب جنوباً إلى أراضٍ أكثر دفئاً لسنة أو نحو ذلك. لقد اكتفيت من الشمال البارد. لقد انتقمت لمقتل والدي، وربما سأعرف السلام وأربّي صبياناً وبناتاً".

تمتم توغرول: "لماذا نقاتل إذاً؟ حسناً جداً يا تيموجن. ستحصل على الرجال الذين تحتاجهم. وستكون كيريت تحت تصرفك، ولكن عندما ننتهي من هذا، سيذهبون شرقاً معي إلى أرض جديدة. ولا تتوقع منهم البقاء حيث لا يوجد عدو يهددنا".

أومأ تيموجن ومدّ يده. وأطبقت أصابع توغرول الملوثة بالدهون على أصابعه، وتلاقت أعينهما، وكان كلاًّ من الرجلين لا يثق بالآخر.

قال تيموجن وهو يمسك اليد بإحكام: "أنا واثق الآن أن زوجتي ووالدتي ستحبان أن يجتمع شملهما مع قومهما".

أومأ توغرول، وقال: "سأجعلهم يرسلونهما إليك". وشعر تيموجن بأن آخر أسباب توتره تهدأ داخله.

مشت هولن عبر مخيم طفولتها مع بورت وإلوين. كان بصحبة النساء الثلاث خاسار وكشيون، إضافة إلى أرسلان. وكان تيموجن قد حذرهم من التراخي. كان أفراد أولخونوت قد قبلوا به ظاهرياً، وهم الذين جرفتهم موجة الأحداث التي لا يمكن مقاومتها. ولم يكن ذلك يعني أنهم بأمان ليتجولوا في أي مكان بين الخيام.

كان حمل بورت يزداد ثقلاً، وعدّلت سرعة مشيها حتى استطاعت بالكاد اللحاق بهولن. كانت فكرة زيارتها لعائلات أولخونوت قد أثارتها، وكانت قد تركتهم امرأة فارس، وغمرتها سعادة بالغة لأنها عادت زوجة لخانهم. مشت برأس شامخ، ونادت على أولئك الذين تعرفت عليهم. ولوت إلوين

عنقها إثارة وهي تبحث عن أثر لعائلتها، وعندما رأتهم، اندفعت متجاوزة كلبين نائمين لتحتضن والدتها. كانت ثقتها بنفسها قد ازدادت منذ المجيء إلى المخيم، وكان كل من خاسار وكشيون يتوددان إليها، وبدا تيموجن قانعاً بتركهما يسوّيان المسألة بينهما، وكانت إلوين قد توردت خجلاً من الاهتمام بها، وراقبت هولن ما يجري فيما كانت إلوين تنقل أنباء وفاة شقيقتها بصوت خافت جداً لم تتمكن من سماعه. جلس والدها بتثاقل على قطعة من الخشب عند باب خيمتهم، وقد أحنى رأسه.

بالنسبة لها، لم ينتَب هولن سوى شعور بالحزن فقط فيما كانت تنظر في أرجاء المخيم. كان كل من تعرفه قد كبر في السن، أو انتقل إلى الطيور والأرواح، وكانت تجربة مزعجة بشكل غريب أن تشاهد الخيام والملابس المزركشة للعائلات التي عرفتها عندما كانت فتاة صغيرة. في ذهنها، بقي الوضع على حاله، لكنه في الحقيقة كان مكاناً لوجوه غير معروفة.

تمتمت بورت: "هل سترين شقيقك يا هولن؟ ابن أخيك؟" وقفت مندهشة تقريباً فيما كانوا يشاهدون لمّ شمل عائلة إلوين. كانت هولن تستطيع رؤية الحنين في كنتها الشابة. ولم تكن قد ذكرت أنها ستزور منزلها.

من بعيد، سمعوا وقع الحوافر فيما كان تيموجن وضباطه يدرّبون أولخونوت وكريت على تكتيكاتهم استعداداً للحرب. كانوا قد خرجوا منذ الفجر، وعرفت هولن أن ابنها سيرهقهم تماماً في الأيام الأولى، ولم يؤثّر مركزه الجديد على الاستياء الذي شعر به الكثير من أفراد كيريت لاضطرارهم إلى القتال إلى جانب عائلات أقل شأناً. قبل انقضاء الأمسية الأولى تقريباً، وقعت مشاجرتان وأُصيب رجل من كيريت بجرح بليغ بواسطة سكين، وقتل تيموجن الفاعل دون منحه فرصة للحديث. ارتعشت هولن عندما تصوّرت وجه ابنها. هل كان ياسوجي سيصبح بمثل تلك القسوة؟ فكرت بأنه سيكون كذلك، إذا حظي بفرصة قيادة هكذا جيش.

وإذا كان كلام الكهنة صحيحاً حول روح تبقى في الأرض إضافة إلى أخرى تنضمّ إلى السماء، فإن ياسوجي سيكون فخوراً بإنجازات ابنه.

راقبت هولن وبورت فيما كانت إلوين تقبّل وجه والدها مراراً وتكراراً، ودموعها تختلط بدموعه. أخيراً، وقفت لتغادرهم، وأمسكت والدتها برأسها ووضعته على كتفها، واحتضنتها. أشاحت بورت بنظرها بعيداً عن تلك اللحظة العاطفية، وتعبير وجهها لا يمكن تفسيره.

لم تكن هولن بحاجة لتسأل عما حدث مع التتار الذين أبعدوها عن زوجها. كان كل شيء واضحاً في الطريقة التي تقاوم بها أي لمسة، وتنتفض مبتعدة حتى عندما مدّت هولن يدها نحو ذراعها. وانفطر قلب هولن حزناً لما عانته، لكنها كانت تعرف أفضل من أي شخص آخر أن الوقت سيداوي جراح الأسى. وحتى ذكريات بكتر بدت بعيدة، بطريقة ما؛ ولم تكن أقل وضوحاً، وإنما متوارية بين آلامها.

بدت الشمس قوية على جلدها، واكتشفت هولن أنها لم تكن تستمتع بالعودة إلى أولخونوت كما كانت تأمل. كان الوضع مختلفاً تماماً، ولم تكن آنذاك تلك الفتاة الصغيرة التي خرجت مع شقيقيها، وقابلت ياسوجي. تذكرته في ذلك اليوم، وسيماً لا يعرف الخوف عندما تحداهما، وتذكرت صراخ إنك عندما أصابه سهم ياسوجي في ردفه، ودفع بعقبيه على جانبي فرسه وانطلق مبتعداً. في ذلك الوقت كرهت المحارب الغريب، لكن كيف كان يمكنها أن تعرف بأنه الرجل الذي ستحبّه؟ كيف أمكنها آنذاك أن تعرف بأنها ستقف وسط قومها مجدداً والدة للخان؟

شاهدت رجلاً يمشي بين الخيام بصلابة، ويرخي بثقله على عصا. شهقت بورت عندما نظرت إليه، وخمّنت هولن من هو من الطريقة التي وقفت بها ابنته وهي تشعر بألمها وتستجمع كبرياءها.

عرج شولوي في مشيته نحوهما، يدقق في كل تفاصيل الإجراءات التي قام

بها المحاربون لحماية أنفسهم. ووقع بصره على هولن، ثم تراجع إلى الخلف بعد أن تعرف عليها.

قال: "أتذكّرك أيتها الفتاة، رغم انقضاء وقت طويل جداً".

ركّزت هولن عينيها عليه في محاولة لتتذكر كيف كان أثناء شبابها، ولاحت لها ذكرى مبهمة عن رجل كان قد علّمها جدل ضفيرة من الحبال والجلد، وكان شيخاً عجوزاً حينها، على الأقل بالنسبة لعينيها الفتيتين. ولدهشتها، شعرت بالدموع تملأ عينيها.

قالت: "أتذكّر". وابتسم لها، وكشف عن لثة بنية اللون. لم تكن بورت قد تكلمت، وأومأ إلى ابنته، وقد اتسعت ابتسامته الخالية من الأسنان.

قال: "لم أكن أعتقد أنني سأراك مجدداً في هذه الخيام".

بدت بورت متسمرة في مكانها، وتساءلت هولن ما إذا كانت تستطيع الشعور بالمحبة في نبرة والدها الفظة. وضحك فجأة.

"زوجتان لخانين، ووالدتان لآخرين. ومع ذلك، ليستا سوى امرأتين تقفان أمامي. سأحظى بقربة أو اثنتين من الشراب مقابل تلك الأحجية الرائعة".

مدّ يده، ومس حاشية ثوب بورت، وفرك بإصبعيه معاً ليختبر القماش.

"لقد اتخذت الخيار المناسب أيتها الفتاة. ولقد عرفت أن هناك شيئاً بخصوص ذلك الذئب. ألم أقل لك ذلك؟"

أجابت بورت بصوت بارد لم يسبق لهولن أن سمعته من قبل: "قلت إنه قد يكون ميتاً".

هزّ شولوي كتفيه لامبالياً، وقال بحزن: "ربما قلت ذلك".

أطبق الصمت بينهما، وتنهدت هولن.

قالت: "إن حب ابنتك يجري في دمك أيها الرجل العجوز. لماذا لا تخبرها بذلك؟"

تلوّن وجه شولوي، وسواء كان غضباً أو إحراجاً، لم تكن لتعرف.

تمتم:" تعرف ذلك".

شحب لون بورت فيما كانت تقف هناك. وهزّت رأسها، وأجابت: "لا أعرف. كيف لي أن أعرف إذا لم تقل أبداً؟"

أجاب شولوي وهو ينظر عبر المخيم: "أعتقد أنه كان يجدر بي ذلك". وبدا أن مناورات حشد المحاربين على السهل تلفت انتباهه، ولم يستطع أن ينظر إلى ابنته.

قال فجأة: "أنا فخور بك أيتها الفتاة، ولا بد أنك تعرفين ذلك. وسأعاملك بلطف أكبر إذا استطعت تنشئتك مرة أخرى".

هزّت بورت رأسها، وقالت: "لا تستطيع. وليس لديَّ ما أقوله لك الآن".

بدا أن الرجل العجوز يذوي من تلك الكلمات، وعندما استدارت بورت إلى هولن، كانت هناك دموع في عينيها لم يرَها شولوي الذي تابع التحديق بالسهول والخيام.

قالت بورت وعيناها تتوسلان: "دعونا نعود أدراجنا. كان مجيئنا إلى هنا غلطة".

فكّرت هولن في تركها هناك لبضع ساعات مع والدها. إلاّ أن تيموجن كان صارماً، بكل الأحوال، وكانت بورت تحمل وريثه، ولا يمكن المخاطرة بذلك. كتمت هولن غضبها، وربما كان ذلك جزءاً من كونها أماً، لكن التعقيدات بين الاثنين بدت سخيفة. كانت هولن تعرف أنهم إذا غادروا الآن، لن ترى بورت والدها مجدداً، وستقضي سنواتها الأخيرة تندم على ذلك. فكان قرارها أن تدع تيموجن ينتظر قليلاً.

قالت هولن لابنيها وأرسلان: "استريحوا". على الأقل، كان خاسار وكشيون معتادين على سلطتها. "سنبقى هنا فيما تقوم بورت بزيارة والدها في خيمته".

بدأ أرسلان القول: "كان الخان واضحاً جداً...".

استدارت هولن بحدة نحوه، وسألته: "ألسنا شعباً واحداً؟ ليس هناك ما نخشاه من أولخونوت، وكنت سأعرف في حال وجود شيء مثل ذلك".

أنزل أرسلان عينيه غير واثق كيف يرد.

قالت هولن: "كشيون، اذهب وابحث عن شقيقي إنك، وقل له إن شقيقته ستأكل معه". انتظرت فيما كان كشيون يجري مبتعداً بسرعة، وساقاه تتحركان قبل أن يفكر بالسؤال عن مكان الخيمة المقصودة، وشاهدته هولن يتردد عند تقاطع الطرق وابتسمت. كانت واثقة أنه سوف يسأل عن الاتجاهات بدلاً من العودة خالي الوفاض. كان أبناؤها يحسنون تدبير أمورهم بأنفسهم.

"سترافقني يا خاسار، وأنت أيضاً يا أرسلان. وستأكلان، ثم سنجد بورت ووالدها ونعيدهما معنا".

تردّد أرسلان وهو يتذكر تحذيرات تيموجن. لم يكن يحب أن يوضع في مثل ذلك الموقف، لكن متابعة الجدال كانت ستحرج هولن أمام أولخونوت، ولم يكن يستطيع فعل ذلك. في النهاية، أحنى رأسه.

استدار شولوي إلى الخلف ليراقب الحديث، وألقى نظرة خاطفة على ابنته ليرى ردّ فعلها.

قال: "سأحب ذلك".

أومأت بورت بصلابة، وأضاءت ابتسامته وجهه. مشيا معاً عائدين عبر خيام أولخونوت، وكان اعتداد شولوي بنفسه ظاهراً للعيان من مسافة بعيدة، وشاهدتهما هولن يذهبان بارتياح.

تمتمت: "نحن ذاهبون إلى الحرب. هل ستنكر عليهما فرصتهما الأخيرة للتحدث كوالد وابنة؟"

لم يكن أرسلان يعرف ما إذا كان السؤال موجهاً له، ولهذا لم يرد. بدت هولن ضائعة في الذكريات، ثم هزّت نفسها.

أعلنت: "أنا جائعة. وإذا كانت خيمة شقيقي في مكانها المعتاد، ما زلت أستطيع إيجادها". ومشت بخطوات واسعة إلى الأمام، وتبعها كل من أرسلان وخاسار، دون أن يستطيعا النظر إلى عيون بعضهما البعض.

بعد أربعة أيام من وصول تيموجن مع أولخونوت، انطلقت أبواق التحذير عندما كانت الشمس تغرب فوق السهول. ورغم أن محاربي القبيلتين أصيبوا بالإرهاق خلال النهار، إلاّ أنهم تناسوا وجباتهم، وجوعهم فيما كانوا يجمعون أسلحتهم.

امتطى تيموجن فرسه ليمنح نفسه مشهداً أفضل، وخلال لحظة واحدة خاطفة، اعتقد أن التتار قد زحفوا بطريقة ما حولهم، أو قسموا قواتهم ليهاجموهم على جبهتين. ثم اشتدت قبضته على اللجام وشحب لونه.

كانت عينا تيموجن حادتين كما كانتا دائماً، فتسمر في مكانه، ونظر أرسلان إلى ردّ فعل الشاب، وكان ما يزال غير قادر على تمييز التفاصيل في العتمة المتزايدة.

سأل وهو ينظر إلى حشد الخيّالة الذين يقتربون منهم بسرعة: "من هم؟"

بصق تيموجن بغضب على الأرض عند قدمي أرسلان، وشاهد كيف يتقدم الغرباء منهم بتشكيل منتظم وبقي فمه مشدوداً.

"إنها قبيلة والدي يا أرسلان. إنهم الذئاب".

رفرفت ألسنة لهب المشاعل الحديدية، وطقطقت في ريح الليل فيما كان إيلوك يدخل المخيم المشترك. كان تيموجن قد أرسل أرسلان لعقد اجتماع مع الخان حالما استقر الذئاب. لم يكن ليذهب بنفسه، وحتى عندما شاهد إيلوك يمشي بخطوات واسعة بين الخيام إلى حيث يجلس مع أشقائه، لم يكن يعرف ما إذا كان يستطيع تركه يغادر حياً. كان الهجوم على ضيف جريمة ستؤذيه مع أولخونوت وكيريت، لكنه فكّر بأن إيلوك ربما يقدم على شيء يجعل تيموجن حراً في قتله.

كان جسد إيلوك قد أصبح أكثر ضخامة في السنوات التي تلت آخر مرة رآه فيها تيموجن. كان رأسه مكشوفاً، وحليقاً تماماً عدا خصلة واحدة من الشعر المجدول التي تتأرجح أثناء سيره، وكان يرتدي قميصاً أسود سميكاً، مزركشاً بالفرو الداكن، فوق ثوب وغطاء للساقين من الجلد. ركّز تيموجن بصره فيما كان يتعرف على قبضة رأس الذئب للسيف على ردفه. انطلق إيلوك بين الخيام دون أن ينظر حوله، ونظرته ثابتة على الأشكال حول النار المركزية. كان تولي يمشي خلفه، ويبدو أكبر وأكثر قوة مما يتذكره تيموجن.

كان تيموجن يريد أن يبقى جالساً ليدل على عدم اكتراثه بالرجل الذي جاء إليه، لكنه لم يستطع، وحالما اقترب إيلوك وتولي منهم، نهض على قدميه، ووقف أشقاؤه معه كما لو أنها إشارة لهم. لاحظ توغرول كم كانوا متوترين، ومع تنهيدة، رفع نفسه إلى الأعلى أيضاً، ووقف يوان وعشرة من أفضل رجاله في الخلف. مهما كانت نوايا إيلوك، سيخسر حياته عند أقل استفزاز.

انتقلت نظرة إيلوك من تيموجن إلى خاسار وكشيون، وتقطب حاجباه عندما شاهد تيموج هناك. لم يتعرف إلى أصغر أبناء ياسوجي، رغم أنه شاهد الخوف في عينيه.

لم يكن هناك خوف لدى الآخرين، فكل واحدٍ منهم وقف مستعداً للهجوم، وبدت وجوههم شاحبة، وقد اشتدت عضلاتهم وازداد خفقان قلوبهم. كان خان الذئاب قد راودهم في كل أحلامهم، وقتلوه ألف مرة قبل أن يستيقظوا، وكان خاسار وكشيون قد رأياه آخر مرة عندما أخذ الذئاب بعيداً، وتركهم للموت في سهول مقفرة والشتاء على الأبواب. كل ما عانوه منذ ذلك اليوم يقع على عاتقه، وكان له وجه وحش في خيالهم، وكان غريباً رؤية رجل قد تقدم به العمر لكنه ما زال قوياً، وكان صعباً الحفاظ على وجوههم قاسية وخالية من أي تعبير.

ألقى تولي نظرة إلى تيموجن، وعلقت هناك في عينيه الصفراوين. كانت لديه ذكرياته أيضاً، لكنه كان أقل ثقة من اليوم الذي ألقى فيه القبض على ابن ياسوجي وأعاده إلى خانه. كان قد تعلم التنمّر على أولئك الأقل قوة منه والتزلف إلى أولئك الذين يحكمونه. إلاّ أنه لم يكن يعرف كيف يتعامل مع تيموجن، فأشاح ببصره بعيداً، منزعجاً.

كان توغرول من تكلم أولاً بعد أن أصبح الصمت مزعجاً.

قال: "مرحباً بك في مخيمنا. هل ستأكل معنا؟" وأومأ إيلوك برأسه دون أن يشيح ببصره عن الأشقاء. وقال: "سأفعل".

سرت نوبة جديدة من الكراهية داخل تيموجن لدى سماع صوته، لكنه جلس على بساط اللباد مع الآخرين، يراقب تحسباً من قيام إيلوك أو تولي بمدّ أيديهما إلى أسلحتهما. كان سيفه جاهزاً بالقرب من يده، ولم يستطع الاسترخاء. فقد كان سانسار يعتقد أنه بأمان في خيمته.

تناول إيلوك كوبه من الشاي اللاذع الطعم بكلتا يديه، ومدّ تيموجن يديه حينها فقط إلى كوبه، وارتشف منه دون أن يشعر بمذاقه. لم يتكلم. وبصفته ضيفاً، كان على إيلوك أن يتكلم أولاً، وأخفى تيموجن نفاد صبره خلف الكوب دون أن يظهر له أي شيء.

قال إيلوك بعد أن أفرغ الكوب: "لقد كنا أعداء في الماضي".

أجاب تيموجن مباشرة، بحدة: "ما نزال أعداء".

أدار إيلوك وجهه الواسع إليه دون أن يتحرك قيد أنملة، وبوجود ذلك العدد الكبير من الرجال المستعدين للوثب على حنجرته، بدا هادئاً، رغم أن عينيه كانتا محتقنتين كما لو أنه كان يشرب قبل الاجتماع.

قال إيلوك بهدوء: "ربما يكون ذلك صحيحاً، رغم أن ذلك ليس سبب مجيئي إلى هنا الآن. القبائل مشغولة بالكلام عن جيش التتار القادم إلى الجنوب، وهو جيش أخرجته إلى الوجود بغاراتك".

قال تيموجن بحدة: "ماذا عنه؟"

ابتسم إيلوك بتكلف، وبدأ يفقد أعصابه. كانت قد انقضت سنوات عديدة منذ تجرأ رجل وتكلم إليه بمثل تلك النبرة القاسية آخر مرة.

تابع إيلوك: "لقد خلت السهول من المتجولين. وقد جاءوا للانضمام إليك ضد عدو مشترك".

فهم تيموجن فجأة لماذا أحضر إيلوك الذئاب. فتح فمه قليلاً، لكنه لم يقل شيئاً، وترك إيلوك يسترسل فيما كان يفكر.

قال إيلوك: "كنت قد سمعت عدة مرات عن الذئب الشاب الذي غزا التتار مراراً وتكراراً. اسمك معروف في السهول الآن، وكان والدك ليفخر بك".

كاد تيموجن يثب عليه حينها، وتصاعد غضبه في داخله مثل عصارة حمراء، وتطلب الأمر منه جهداً كبيراً ليتمالك نفسه، وراقبه إيلوك بحذر، بعد أن شعر بذلك.

"لم أعرف أنك وحّدت محاربي أولخونوت وكيريت إلاّ بعد أن تحركت مع الذئاب. ورغم ذلك، أعتقد أنك تحتاج إلى رجالي إذا أردت سحق التتار وإعادتهم إلى الشمال".

سأل توغرول: "كم عدد ما لديك؟"
هزّ إيلوك كتفيه: "مئة وأربعون". ونظر إلى تيموجن: "تعرف سجاياهم".
قال تيموجن: "لا نحتاج إليهم. أقود أولخونوت الآن. ولا نحتاج إليك".
ابتسم إيلوك: "صحيح أنك لست يائساً كما اعتقدت أنك ستكون. ورغم ذلك، تحتاج إلى كل فارس تستطيع إيجاده، إذا كانت الأرقام التي سمعتها صحيحة، فإن ضمّ الذئاب إليك سيعني بقاء المزيد من... أفراد قبيلتك على قيد الحياة في النهاية. وأنت تعرف ذلك".
قال تيموجن: "ما هو المقابل؟ لن تتواجد هنا دون مقابل".
قال إيلوك: "لدى التتار فضة وجياد. ولديهم نساء. وهذا الجيش مؤلف من عدّة قبائل معاً. وسيكون لديهم أشياء قيّمة".
قال تيموجن ساخراً: "إذاً الطمع هو الذي جاء بك".
تلوَّن وجه إيلوك قليلاً من الغضب، وتحرك تولي خلفه منزعجاً من الإهانة.
أجاب إيلوك: "لا يستطيع الذئاب مواجهتهم وحدهم، وسيكون علينا التقهقر جنوباً إذا جاءوا إلينا. عندما سمعت أن كيريت سيقفون ضدهم وأن فرسانك قد انضموا إليهم، استغللت الفرصة لأنك ستكون قادراً على تنحية قصتنا جانباً، ولا شيء مما أراه هنا يغيّر ذلك. إنك تحتاج إلى الذئاب، وتحتاج إليَّ للوقوف معك".
تمتم توغرول: "مقابل سُدس ثرواتهم".
ألقى إيلوك نظرة عليه، وأخفى نفوره من خان كيريت البدين. "إذا تصدى لهم ثلاثة خانات، ينبغي توزيع أي غنائم إلى ثلاثة أقسام".
قال تيموجن باقتضاب قبل أن يستطيع توغرول الرد: "لن أساوم مثل تاجر. كما أنني لم أوافق بعد على انضمامكم إلينا هنا".
قال إيلوك برفق: "لا تستطيع إيقافي عن قتال التتار إذا اخترت ذلك.

وليس هناك عار في مناقشة تقسيم الغنائم بعد أن نهزمهم".

قال تيموجن: "أستطيع إيقافك بأمر واحد، فباستطاعتي هزم الذئاب أولاً". كان انفعاله قد سيطر عليه، وجزء صغير منه يعرف أنه يثور مثل أحمق، لكنّ هدوءه أصبح من الماضي، وبدأ ينهض دون أن يلاحظ ذلك تقريباً.

قال إيلوك بيقين لا شك فيه وهو يحاول إيقافه: "لن تفعل ذلك بالعائلات. وحتى إذا كنت تستطيع، سيكون ذلك إزهاقاً لأرواح تحتاجها لقتال التتار. ما الفائدة من قتالنا لبعضنا؟ لقد وصل إليَّ أنك رجل صاحب رؤية يا تيموجن. أظهر ذلك الآن".

نظر كل الرجال الحاضرين إلى تيموجن ليشاهدوا كيف سيتصرف، فشعر بنظرتهم، وأرخى قبضتيه المتشنجتين فيما كان يجلس مرة أخرى، وأبعد يده عن المكان الذي نزلت إليه بالقرب من مقبض سيفه. لم يكن إيلوك قد تحرك. ولو أنه فعل ذلك، لكان لقي حتفه. كانت شجاعة عدوه في المجيء إلى ذلك المكان قد جعلت تيموجن يشعر بالخجل، وأثارت فيه ذكريات أن يكون طفلاً بين رجال. كان يعرف أنه بحاجة للمحاربين الذين أحضرهم إيلوك، إذا استطاع فقط تحمل التحالف معه.

قال: "هل سينفِّذون أوامري، هؤلاء الذئاب؟ هل ستنفذها أنت؟"

قال إيلوك: "لا يمكن أن يوجد سوى قائد واحد فقط في المعركة. امنحنا جناحاً ودعني أقوده، وسأحارب بصلابة مثل أي رجل لديك".

هزّ تيموجن رأسه: "ينبغي أن تعرف إشارات البوق، والتشكيلات التي نظمتها مع الآخرين. هناك أكثر من مجرد قيادة الجياد وقتل أكبر عدد تستطيع الوصول إليه".

أشاح إيلوك ببصره بعيداً، ولم يكن يعرف تحديداً ما سيجده عندما أبلغ الذئاب بأن يحزموا خيامهم ويستعدوا للمسير. كان قد فكّر بفرص انتزاع

الغنائم من القبائل المهزومة التي ستواجه التتار، لكن في أعماق قلبه، كان قد شمّ الدماء في الهواء مثل ذئب حقيقي ولم يستطع أن يقاوم ذلك. لم يكن هناك شيء في السهول مثل جيش التتار خلال حياته. وكان ياسوجي سيغير عليهم، وكانت روح إيلوك تضطرم لسماع أن أبناء الخان القديم يتحدّون الجيش القادم إلى الجنوب.

رغم ذلك، كان يتوقع أن يرحب به رجال خائفون، وكان اكتشاف أن أولخونوت قد دخلت في تحالف بحلول ذلك الوقت قد قلّل من قيمة محاربيه، وكان سيطالب بنصف الغنائم، إلاّ أنه وجد بدلاً من ذلك أن أبناء ياسوجي يتعاملون معه بغطرسة باردة. لكنه كان قد ألزم نفسه بالعمل معهم، ولم يكن يستطيع أن يتركهم في السهل ببساطة، ويعيد الذئاب أدراجهم. كانت سيطرته على القبيلة ستصبح موضع تساؤل بعد أن يشاهدوه يفعل ذلك، وفي ضوء المشاعل التي يتراقص لهيبها في الهواء، كان يستطيع رؤية عشرات الخيام الممتدة حوله في الظلام، وكانت مجرد رؤية مثل ذلك العدد الكبير من المحاربين تجعل أحلامه ممكنة التحقيق. ما الذي يستطيع رجل تحقيقه بوجود كل هؤلاء خلفه؟ وإذا مات أبناء ياسوجي في المعركة، سيكون رجالهم ضائعين وخائفين، ويستطيع هؤلاء رفد صفوف الذئاب.

قال أخيراً: "سينفِّذ رجالي أوامرك، من خلالي".

انحنى تيموجن إلى الأمام: "لكن بعد ذلك، وبعد أن يتمّ تدمير التتار، سنسوي ديناً قديماً بيننا، وأدّعي الحق في قيادة الذئاب بصفتي أكبر أبناء ياسوجي الذين ما زالوا على قيد الحياة. هل ستواجهني بذلك السيف الذي تضعه كأنه لك؟"

أجاب إيلوك، وقد امتعض وجهه: "إنه لي".

أطبق الصمت على المخيم حولهما، وألقى توغرول نظرة على الرجلين،

يراقب الكراهية التي بالكاد يغطيها قناع الكياسة. أرغم إيلوك نفسه على الجلوس دون حراك فيما كان يتظاهر بأنه يفكر بالأمر، وكان يعرف بأن تيموجن يريده ميتاً، وكان قد فكّر بفرصة استقطاب المحاربين الناجين إلى الذئاب، وأخذهم من بين يدي تيموجن الميت. بدلاً من ذلك، واجه خان أولخونوت وكانت الجائزة أكبر من ذلك بكثير. وربما كانت الأرواح معه كما لم تكن من قبل.

قال وعيناه تلمعان: "بعد أن ندمر التتار، سأواجهك، وسأرحب بمثل تلك الفرصة".

وقف تيموجن فجأة، وتسبب بمدّ أيدي كثيرة إلى سيوفها. وجلس إيلوك مثل حجر ورفع بصره إليه، لكن نظرة تيموجن كانت في مكان آخر.

مشت هولن ببطء نحو التجمع، كما لو أنها في حالة ذهول. استدار إيلوك ليرى من لفت انتباه تيموجن، وعندما شاهد زوجة ياسوجي، نهض أيضاً مع تولي ليواجهها.

كانت هولن شاحبة، وشاهد إيلوك كيف كانت تمرر طرف لسانها فوق شفتها السفلى، وكانت قطعة من اللحم الأحمر مثل لسان أفعى. وعندما تلاقت النظرات، اندفعت إلى الأمام، ورفعت يدها لتصفعه بها.

حال كشيون بينهما قبل أن تستطيع الوصول إلى خان الذئاب، وأمسك بوالدته بقوة فيما كانت تلوّح بيدها مثل مخلب، وتحاول جاهدة الوصول إلى وجه إيلوك. لم تمسه الأظفار، كما أن إيلوك لم يقل شيئاً بعد أن شعر بتيموجن يقف مستعداً خلفه. كافحت هولن، ووقع بصرها على ابنها الأكبر.

سألته وهي تحاول الإفلات من قبضة كشيون: "كيف تسمح له بأن يعيش بعد ما فعله بنا؟"

هزّ تيموجن رأسه: "إنه ضيف في مخيمي يا والدتي. وبعد أن نقاتل

التتار، سأحصل على الذئاب منه، أو سيحصل على أولخونوت".

عندها استدار إيلوك إليه، وابتسم تيموجن بمرارة.

"أليس ذلك ما تريده يا إيلوك؟ لا أشاهد خياماً في مخيمك أكثر مما كانت عندما تركتنا في السهول لنموت. لقد تخلى أب السماء عن الذئاب تحت قيادتك، لكن ذلك سيتغير".

ضحك إيلوك بصوت خافت وحرّك كتفيه.

"لقد قلت كل ما جئت لقوله. وعندما ننطلق، ستعرف أن هناك رجلاً شديداً يتولى زمام جناحك. وبعد ذلك، سأعلمك درساً قاسياً ولن أدعك تعيش مرة ثانية".

قال تيموجن: "عد إلى خيامك يا إيلوك. سأبدأ تدريب رجالك عند الفجر".

فيما كان التتار يمضون جنوباً نحو السهول الخضراء، هربت قبائل صغيرة من أمامهم. ولم يتريث بعضها أبداً عندما شاهدوا الجيش الذي حشده تيموجن، وابتعدوا عنه وظهروا مثل بقع داكنة متحركة تندفع نحو التلال البعيدة، وضمّ آخرون قواهم إلى محاربيه، وهكذا كان الجيش يزداد يومياً بسيل من الجنود الغاضبين. كان تيموجن قد أرسل مبعوثين إلى نيمنز، وأويراتس وأي قبيلة رئيسية أخرى استطاع إيجادها. بعض مبعوثيه لم يستطيعوا الوصول إلى تلك القبائل، أو تبلغوا أن هذه القبائل ليست على استعداد للقتال. كان يفهم تردّدهم، حتى مع احتقاره لهم. لم تكن القبائل قد حاربت معاً على مدى تاريخها، وكان توحيد ثلاث منها في قوة واحدة أمراً مذهلاً. تدربت القبائل الثلاث معاً حتى اعتقد أنهم جاهزون كما ينبغي أن يكونوا دائماً. ورغم ذلك، كان غالباً ما يتمّ استدعاؤه في الأمسيات ليمنع نزاعات دموية، أو يعاقب الفرق المتقاتلة التي يتذكر أفرادها مظالم من أجيال مضت.

لم يقم بزيارة خيام الذئاب، فلم يكن أحد من عائلات الذئاب قد رفع الصوت دعماً لوالدته عندما تركوها لتموت مع أطفالها. كان هناك وقت أراد فيه التخلي عن أي شيء مقابل المشي بين القوم الذين عرفهم فتى صغيراً، لكن كما كانت هولن قد اكتشفت قبله، لم يكونوا أنفسهم. وطالما بقي إيلوك يحكمهم، لن ينعم بالسلام.

في فجر اليوم العشرين بعد وصول أولخونوت، جاء المستطلعون يتسابقون لإبلاغه أن جيش التتار في الأفق، وأنه يبعد مسيرة أقل من يوم. وجاءت معهم عائلة متجولين أخرى، تندفع أمامهم مثل الماعز. نفخ تيموجن البوق إيذاناً بالتجمع، وساد الهدوء المخيمات فيما كان المحاربون يقبّلون أولئك الذين يحبونهم مودّعين ويمتطون جيادهم. كان العديد منهم يمضغون شطائر من لحم الضأن الساخن والخبز لتمنحهم القوة، والتي دفعتها بين أيديهم بناتهم وأمهاتهم. تمّ تشكيل الجناحين، وتولّى ذئاب إيلوك الميسرة، وقاد كشيون وخاسار أولخونوت في الميمنة، فيما تولّى تيموجن قيادة كيريت في القلب، ونظر يميناً ويساراً على طول صف الفرسان، وشعر بالرضا. كان ثمانمئة محارب ينتظرون إشارته للهجوم ضد أعدائهم. كانت الكير في كيريت وأولخونوت قد بقيت مشتعلة ليلاً ونهاراً، وكان ثلث محاربيهم تقريباً يرتدي دروعاً مطابقة لتلك التي منحها لهم وين تشاو. كانت جيادهم محمية بمآزر جلدية مدعّمة بصفائح متراكبة من الحديد. كان تيموجن يعرف أن التتار لم يسبق أن شاهدوا شيئاً مثلها من قبل، وانتظر فيما كانت النساء تتراجع إلى الخلف، وشاهد أرسلان ينحني إلى الأسفل ويقبّل الشابة التتارية التي أسرها ثم اتخذها زوجة. نظر تيموجن حوله، لكن لم يكن هناك أثر لبورت. كان ميعاد الولادة قد أفل، ولم يكن يتوقع أن تخرج من الخيام. تذكر هولن عندما قالت له إن ياسوجي انطلق في غارة ليلة مولده، وابتسم ممتعضاً من الفكرة. لقد دارت

الأيام، لكن الصغار كبروا، وكان قد فعل كل ما يستطيع ولم يكن صعباً أن يتخيّل والده يراقب أبناءه. نظر تيموجن في عيني خاسار وكشيون، ثم وجد تيموج في الصف الثاني إلى يساره. أومأ لهم وابتسم تيموج. كانوا قد قطعوا مسيرة طويلة عن الصدع الصخري في التلال حيث كان كل يوم يبقون فيه على قيد الحياة انتصاراً لهم.

عندما أصبحوا جاهزين، مشى كاهن أولخونوت إلى الأمام على فرس ناصعة البياض. وكان نحيلاً وطاعناً في السن، وقد أصبح شعره بلون فرسه. وشخصت كل العيون عليه عندما أنشد، ورفع يديه إلى أب السماء. كان يحمل عظم كتف خروف أحرقته النيران، وأشار به كما لو أنه سلاح. وابتسم تيموجن في قرارة نفسه. لم يكن كاهن كيريت متعطشاً للحرب مثله، وكان تيموجن قد اختار الرجل المناسب لأداء الطقوس.

فيما كانوا يراقبون ما يجري، ترجّل الكاهن، وألقى بنفسه على الأرض، وأمسك بالأم التي تحكمهم جميعاً، وكان الغناء الذي تحمله النسائم خافتاً، لكنّ صفوف المحاربين جلست في سكون تام، تنتظر الكلمة. أخيراً، حدّق الرجل العجوز بالخطوط السوداء على العظم، وقرأها فيما كان يمرّر أصابعه المليئة بالعقد على طول شقوقها.

نادى: "الأم مستبشرة. إنها تتوق إلى دماء التتار التي سنريقها عليها. وأب السماء ينادينا للمضي قدماً باسمه". كسر قطعة العظم بين يديه، مبدياً قوة مفاجئة.

ملأ تيموجن رئتيه بالهواء، وجأر بصوته عالياً على طول الخط، وصرخ: "الأرض تعرف شعباً واحداً فقط يا إخواني. إنها تتذكر ثقل خطواتنا. قاتلوا جيداً اليوم، وسيهربون أمامنا".

رفعوا أقواسهم يزأرون بصوت عالٍ، وشعر تيموجن بأن قلبه يخفق بسرعة، وامتطى الكاهن فرسه وعاد إلى الخلف عبر الصفوف. ونظراً

لخوفهم وتطيّرهم، لم يجرؤ أحد من المحاربين على النظر في عيني الرجل العجوز، لكنّ تيموجن أومأ له وأحنى رأسه.

على حافة الصفوف، حمل بعض الفرسان طبولاً صغيرة وبدأوا يقرعون عليها، وتوافق صوتها مع ضربات قلبه. رفع تيموجن ذراعه ثم أنزلها نحو اليمين. نظر إلى عيني خاسار عندما تقدّم شقيقه مع مئة من أفضل محاربي أولخونوت، وكان كل منهم يرتدي درعاً. وعندما اندفعوا للهجوم، تمنّى تيموجن أن لا يتمكن أحد من إيقافهم، وانطلقوا بعيداً عن القوة الرئيسية، وفيما كان يراقبهم، تضرّع تيموجن أن يلتقوا مجدداً.

عندما خيّم الصمت على الصف، وأصبحت مئة خاسار بعيدة نحو الميل، دفع تيموجن بعقبيه على جانبي فرسه، وانطلق محاربو كيريت والذئاب وأولخونوت إلى الأمام معاً، تاركين النساء والأطفال، ومخلّفين أمان المخيم وراءهم.

رغم أنهم كانوا جميعاً يعرفون العدو الذي يواجهونه، إلاّ أن رؤية الامتداد الشاسع لقوة التتار شكّل صدمة لهم. كانوا يتحركون مثل بقعة بطيئة على الأرض، بحشدهم الداكن من الفرسان والعربات والخيام، وكان تيموجن وشقيقاه قد شاهدوهم على بعد خمسمئة ميل إلى الشمال وبقي الأمر يثير قلقهم. ورغم ذلك، لم يتخاذلوا. كان الرجال الذين خرجوا مع أبناء ياسوجي يعرفون أنهم مستعدون للمعركة. وإذا كان هناك خوف بين الصفوف، لم يكن ليظهر لأن وجوه المحاربين بدت قاسية، ووحده الفحص المستمر للسهام كشف عن التوتر السائد فيما كانوا يسمعون أبواق نفير التتار من بعيد.

سار تيموجن عبر وادٍ أخضر، وكانت فرسه قوية بعد التهامها أعشاب الربيع النضرة. ومراراً وتكراراً، صرخ بأوامر لتفقّد الأكثر تهوراً بين قادته، وكان إيلوك أسوأهم. تقدّمت الميسرة إلى الأمام، وكان ينبغي كبح جماحها حتى أخذ تيموجن يعتقد أن ذلك استهزاء متعمد بأوامره. أمامهم، شاهدوا التتار يتسابقون حول الخيام، وصرخاتهم الخافتة تضيع من بعيد. كانت الشمس ساطعة، وشعر تيموجن بالدفء في ظهره مثل نعمة. تفقّد سهامه مرة أخرى، ووجدها جاهزة في الكنانة كما كانت من قبل. كان يريد ضرب التتار عندما تصل الجياد إلى أقصى سرعتها، وعرف أن عليه ترك التسارع حتى آخر لحظة ممكنة. كان التتار يرتحلون جنوباً منذ ثلاث دورات للقمر على الأقل، ويسيرون كل يوم، وكان يأمل بأن لا يكونوا نشيطين مثل محاربيه، أو متعطشين للقتل مثلهم.

على بعد ميل، أرخى بثقله إلى الأمام، ودفع فرسه إلى السير خبباً، فتبعه رجاله بإتقان، رغم أن إيلوك كان يسعى مرة أخرى ليكون أول من يدخل المعركة. نفخ تيموجن في البوق مرة واحدة، فرمقه إيلوك بنظرة غاضبة

فيما كان محاربوه يتراجعون إلى الصف، وملأ ضجيج الحوافر الآذان، واستطاع تيموجن سماع صرخات محاربيه المتحمسة حوله، وعيونهم نصف مغلقة من ضغط الرياح المتزايد ضدهم. وضع السهم الأول على وتره وهو يعرف أن الهواء سرعان ما سيكون مليئاً بها. ربما سيجد أحدها طريقه إلى حنجرته ويلقيه صريعاً على الأرض تحته في عناق أخير معها. ازداد خفقان قلبه، وضاع خوفه في تركيزه على ما يجري. جاءت السهام الأولى تطنّ من التتار، لكنه لم يعطِ إشارة الاندفاع على ظهر الجياد بأقصى سرعة. كان ينبغي أن يكون العمل متقناً، وفيما كان الجيشان يقتربان من بعضهما البعض، اختار اللحظة المناسبة.

دفع تيموجن بعقبيه على جانبي فرسه وصرخ: "تشو!" واستجابت الفرس باندفاعة سريعة، وكادت تثب إلى الأمام. ربما كانت تشعر بالإثارة مثلهم. تبعه الصف، وسحب تيموجن الوتر إلى الخلف بكل ما يملك من قوة. لبضع لحظات، شعر بأنه يحمل وزن رجل بالغ بإصبعين فقط، لكنه كان ثابتاً. شعر بوقع الحوافر يسري من خلاله، وجاءت تلك اللحظة من الثبات التام عندما طارت الفرس دون أن تمسّ الأرض.

كان التتار يندفعون حينها بأقصى سرعة. ألقى تيموجن نظرة خاطفة على رجاله. وكان هناك صفان يندفعان عبر السهل، وكان السبعمئة رجل مستعدين جميعاً مع أقواسهم المشدودة. كشف عن أسنانه نتيجة الجهد الذي شعر به في كتفيه، وأطلق سهمه الأول.

كان الضجيج الذي تبع ذلك صوت فرقعة واحدة تردّدت من التلال حوله. طارت السهام نحو السماء الزرقاء وبدا أنها علقت هناك للحظة قبل أن تندفع إلى الأسفل نحو صفوف التتار، وضاع العديد منها في الأرض، واختفى حتى ريشها. وانغرس أكثرها في اللحم، وأخرجت الفرسان من العالم بضربة واحدة.

قبل أن يستطيع تيموجن رؤية ما حدث، جاء الرد، وارتفعت السهام فوقه. لم يكن قد شاهد هذا العدد الكبير من السهام من قبل، وشعر بأن ظلاً يمرّ فوق صف محاربيه ويحجب الشمس البعيدة. كانت سهام التتار تتحرك ببطء فيما كان يراقبها، محاولاً أن لا يفزع منها. ثم بدا أنها تتحرك بشكل أسرع، وكان يستطيع سماعها قادمة بما يشبه طنين الحشرات. انقبضت أصابعه على سهم ثانٍ، وأطلق رجاله مرة أخرى قبل أن تنهمر سهام التتار على صفهم بما يشبه المطرقة.

فيما كانت الجياد تجري بأقصى سرعتها، اختفى رجال عن سروجهم، وتلاشت صرخاتهم في الخلف خلال لحظة. شعر تيموجن بشيء يصطدم بفخذه وكتفه، ويرتد عنه. ولم يكن قد اخترق الدرع، فصرخ ابتهاجاً، ووقف تقريباً على الركاب فيما كان يطلق سهماً إثر آخر على أعدائه. أضحت رؤيته مشوشة في الريح حتى لم يعد يستطيع رؤية التفاصيل، لكنه كان يختار ضحاياه ويقتلهم بحيوية همجية.

لم تكن قد انقضت سوى لحظات فقط قبل أن يلتقوا بأول فرسان التتار، لكن بدا أن دهراً قد مرّ. حالما اقتربوا من بعضهم، علّق تيموجن قوسه بخطاف على سرجه حتى يستطيع استعماله متى أراد. وكانت تلك إحدى الأفكار التي استنبطها مع ضباطه. شهر السيف الذي صنعه أرسلان له، وسمع صرير النصل أثناء خروجه من الغمد. كانت كل خفقة قلب تستغرق وقتاً طويلاً، لكن كان لديه وقت كافٍ. شدّ البوق المربوط بحبل حول عنقه ورفعه إلى شفتيه، ونفخ فيه ثلاث مرات. من طرف عينيه، شاهد الجناحين يتحركان، وأمسك بالسيف بقبضتيه فيما كان يدفع فرسه للعدو بأقصى سرعة، متوازناً ومستعداً.

ضربوا التتار، وصدر عن ذلك صوت ارتطام. ضربت الجياد بعضها بأقصى سرعة دون أن يبتعد أي فارس عن الطريق، واستداروا في سروجهم نتيجة

الارتطام. اندفع الجيشان نحو بعضهما بعضاً، وانطلقت السهام نحو الوجوه والأعناق من مسافة قريبة، وحلّ الموت سريعاً وفقد كلا الجيشين عشرات الرجال بلحظة واحدة. شاهد تيموجن أن الدرع يجدي نفعاً، وزأر مجدداً متحدياً، وداعياً العدو إليه. وتخطاه أحد محاربي التتار في غفلة منه، لكنّ تيموجن طعنه قبل أن يذهب بعيداً، وأطلق آخر سهماً اندفع من تلك المسافة القريبة داخل الدرع، وانغرس نصله في صدر تيموجن وجعله يصرخ ألماً. كان يشعر بنصل السهم يتحرك ويمزق جلده مع كل اهتزاز. وحرّك سيفه بشكل قوس وأطاح برأس الرامي.

لطخته الدماء، وسالت بين صفائح الدرع الحديدية. كان الهجوم قد حطّم خط التتار الأول، لكنّ عددهم كان كبيراً فلم يتم سحقهم. بدأت صفوف القتال تتفكك إلى مجموعات أصغر من الرجال التي تتقاتل بوحشية فيما بينها، وتطلق السهام من أنامل خدرة حتى أضحت أقواسهم غير ذات فائدة وتحولوا إلى السيوف. بحث تيموجن عن أشقائه، لكنه لم يرَهم في غمرة ذلك الحشد من الرجال. وقتل المزيد من الرجال مراراً وتكراراً، وكانت فرسه تتقدم إلى الأمام بمجرد لمسة من ركبتيه. جاء إليه تتاري يصرخ، وكان فمه المفتوح مليئاً آنذاك بالدماء، فطعنه تيموجن في صدره، وشدّ سيفه بقسوة لتحريره منه، وجاءه آخر من جانبه يحمل بلطة، وضرب بها على صفائح الدرع. لم تنفذ الضربة، لكن تيموجن اندفع جانبياً من قوتها، وشعر بعضلات ساقيه تتمزق فيما كان يكافح حتى يبقى ممتطياً فرسه، لكن الرجل كان قد ذهب.

كان ذئاب إيلوك يشقون طريقهم إلى الأمام من جهة اليسار، وكان بعضهم قد ترجل ومشى إلى وسط التتار وهو يطلق السهم إثر الآخر، كان رجال إيلوك يرتدون دروعاً جلدية تحت قمصانهم، ووقف العديد منهم مع سهام مكسورة معلقة بهم. ظهر على بعضهم قطرات حمراء حول أفواههم،

لكنهم تابعوا القتال، واقتربوا شيئاً فشيئاً من مركز التتار. استطاع تيموجن رؤية إيلوك معهم، ووجهه ملطخ بالدماء ويضرب بسيفه الذي كان لياسوجي فيما مضى.

استلقت الجياد تحتضر وتركل بقوائمها بعنف، وكانت خطرة على كل من يقترب منها. قاد تيموجن فرسه حولها، وشاهد محارباً من أولخونوت عالقاً تحت إحداها. ونظر في عيني الرجل وأطلق اللعنات، ووثب عن سرجه ليحرره، وحالما وصل إلى الأرض، اصطدم سهم آخر بصدره فأوقفه الحديد، وقع على ظهره، لكنه نهض متثاقلاً وسحب الرجل حتى استطاع تحرير قدميه. كانت هناك كنانة مليئة بالسهام على الأرض بالقرب منه، فالتقطها تيموجن قبل أن يمتطي فرسه مجدداً، ومدّ يده إلى قوسه، ودفع بعقبيه مرة أخرى، واستعمل كل قوته ليسحب القوس. بدا أن التتار لم يكترثوا لخسائرهم، ولم يتداعوا بعد. نادى عليهم، وتحداهم أن يواجهوه، وشاهده محاربوه يمتطي فرسه مجدداً، فاشتعلوا حماسة، وطعنوا وقتلوا بطاقة متجددة. كان يعرف أن ذلك لا يمكن أن يستمر، وشاهد أولخونوت يضغطون نحو الأمام إلى يمينه، رغم أنهم افتقروا للعدد اللازم لتطويق العدو، وعندما نفدت سهامهم، رموا بفؤوس وهي تدور في الهواء نحو حشد العدو، وقتلوا العديد منهم قبل أن يمدّوا أيديهم إلى سيوفهم.

سمع تيموجن وقع الحوافر قبل أن يرى خاسار قادماً مع قواته الاحتياطية. كانوا قد التفوا حول موقع المعركة بدائرة كبيرة، مختبئين وراء التلال. ومن على ظهر فرسه، استطاع تيموجن رؤية صف منتظم يندفع بسرعة متهورة، بقيادة خاسار. حاول التتار في الجناح مواجهتهم، لكنهم لم يكونوا في موقف يسمح لهم بذلك. بالرغم من ضوضاء الحوافر التي تعدو بأقصى سرعة، سمع تيموجن العديد منهم يصرخون، ويتدافعون بين بعضهم بعضاً.

ضربت الجياد والرجال المدرعون جناح التتار مثل طعنة رمح، ودخلوا عميقاً بينهم مخلّفين وراءهم قافلة من القتلى الملطخين بالدماء. تعرضت الجياد والرجال على حدّ سواء لسهام التتار، لكن ذلك لم يخفف سرعتهم، فشقوا طريقهم إلى وسط العدو، وجعلوا محاربيه يدورون على أنفسهم ويصرخون.

شعر تيموجن بأن التتار يتحولون إليه، ولم يستطع أن يتكلم من فرط حماسته، فملأ صدره بالهواء. ودفع فرسه للسير خبباً نحو حشد من الرجال، كانت فرسه ترتجف ألماً بعد أن علقت السهام في الجلد والحديد الذي يحمي صدرها المندفع إلى الأمام. مرة أخرى، فرغت كنانته، فاستعمل تيموجن سيف أرسلان للقضاء على أي كائن حي يواجهه.

نظر بحثاً عن ضباطه، وشاهد أنهم قد جمعوا الصفوف ويتحركون إلى الأمام معاً. أرغم كشيون وأرسلان أولخونوت على الإقتداء باندفاعة خاسار القوية نحو المركز، وكانوا يصرخون أثناء القتال. كان العديد منهم قد فقد فرسه، لكنهم بقوا معاً وتعرضوا لطعنات لا طائل منها على دروعهم فيما كانوا يقتلون مع كل ضربة. سمع التتار أصواتهم من خلفهم وانتشر الذعر بينهم.

تباطأ سير المعركة عندما تعب الرجال، وكان البعض منهم قد أرهقوا أنفسهم بالقتل، ولهذا وقفوا على كلا الجانبين وصدورهم تعلو وتنخفض وأنفاسهم مرهقة، ووقع العديد من هؤلاء ضحية رجال أكثر نشاطاً، وأخيراً تملّك اليأس وجوههم عندما شعروا بأن قواهم قد تلاشت. وكانت الأعشاب تحت أقدامهم حمراء من الأجساد الرطبة المتناثرة في كل مكان، والتي كان البعض منها ما يزال يتحرك بوهن في محاولة لتجاهل البرود القادم إليها. هبّت النسائم عبر مجموعات الرجال المتقاتلة، وحملت رائحة المسلخ إلى الرئات المرهقة، وبدأ التتار يترنحون أخيراً، ويتراجعون خطوة بخطوة.

رمى إيلوك نفسه على مجموعة منهم مثل شخص فقد عقله، وكانت الدماء تغطيه تماماً وبدا مثل روح ميتة شاخصة العينين، واستفاد من قوته الكبيرة لتهشيم رجال وإيقاعهم أرضاً بقبضاته ووكزاته، وسحقهم تحت قدميه. جاء ذئابه معه، وبالكاد رفع التتار سيوفهم بعد أن استولى الرعب على شجاعتهم. فهرب بعضهم، لكنّ آخرين حاولوا حشد البقية وأشاروا بسيوفهم إلى العائلات حول الخيام وراءهم.

شاهد تيموجن الذي كان ما يزال ممتطياً فرسه وجوه النساء والأطفال الشاحبة التي تراقب رجالها وهم يقاتلون، ولم يكن يهتم لأمرهم بتاتاً. كان أب السماء قد كافأ القوة بالحظ. ولا بد للضعيف أن يسقط.

زأر: "نلنا منهم!" واستجاب رجاله بعد أن شاهدوه يقود فرسه بينهم. كانوا قلقين، لكنهم استمدوا القوة من وجوده في وسطهم، ومضت عملية القتل قدماً. كانت أصابع تيموجن زلقة من الدماء عندما أمسك بالبوق حول عنقه، وأطلق النفير ثلاث مرات لتطويق العدو. ترك علامة من راحة يده على السطح المصقول، لكنه لم يرَ ذلك لأن إيلوك وكشيون تحركا إلى الأمام. كانت الكنانات كلها خاوية، لكن السيوف بقيت تعمل مما أدّى إلى تحطم التتار، وركضوا إلى الخلف نحو الخيام قبل أن تتمّ محاصرتهم تماماً. وشاهد تيموجن أنهم سيتخذون موقفاً للمرة الأخيرة هناك، ورحب بذلك.

شاهد رجاله يندفعون خلفهم، وأطلق نفيراً أخذت شدته تتناقص لإبطاء الهجوم. ساروا على جثث القتلى نحو خيام التتار. كانت أعداد أولئك الذين ركضوا أقل من مئتين، وهم كل من بقي على قيد الحياة. لم يكن تيموجن يخشاهم آنذاك. أثار غضبه رؤية رجال إيلوك يتابعون القتل دون أن يعيروا اهتماماً لنفيره. للحظة واحدة، فكّر بتركهم يواجهون الرجال عند الخيام وحدهم، لكنه لم يكن يستطيع تحمل رؤية إيلوك يذبحهم بسهولة كبيرة. سيكون لدى التتار أقواس وسهام هناك، ومهما كان الذي سيواجههم، كان

عليه الانطلاق نحوهم مثل عاصفة هوجاء. ربما كان إيلوك محقاً في عدم التلكؤ. شدّ تيموجن فكه، وأطلق نفيراً واحداً للتقدم، وقاد فرسه فوق عظام القتلى المحطمة لقيادتهم.

جاء وابل ضعيف من السهام من الخيام. فسقط بعضها قبل أن يصل بعد أن استعملت النساء الأقواس، لكنّ أخرى كانت تتمتع بقوة كافية لتسرق أرواحاً من رجال كانوا يبتهجون بنصرهم. سمع تيموجن أفراد جيشه يلهثون عندما ركضوا أو دفعوا جيادهم للاندفاع نحوهم. لم يكن ممكناً إيقافهم وتطايرت السهام بينهم من غير جدوى، وجعلت الرجال يترنحون عندما اصطدمت بصفائح دروعهم الحديدية. انحنى تيموجن إلى الأمام نتيجة الرياح عندما ضاقت الفجوة، مستعداً لإنهاء ما كانوا قد بدأوا به.

عندما انتهت المعركة، كان يمكن رؤية كيف ينظر آخر المحاربين التتار إلى الجثث المنتشرة بكثرة. كانوا قد شكّلوا صفاً لبعض الوقت قبل أن يسحقهم فرسان خاسار. نظر تيموجن حوله فيما كانت القبائل الثلاث تبحث عن الغنائم في العربات، وتتصرف لمرة واحدة بذهنية مشتركة. كانوا قد قاتلوا وفازوا معاً، وظنّ أنه سيكون من الصعب عليهم العودة إلى شكوكهم القديمة، وليس برجال عرفوهم على الأقل.

ترجّل تيموجن مرهقاً، وابتسم فيما كان يحلّ الرباط الذي يمسك بقطعة الدرع على صدره. كانت عشرات الصفائح الحديدية متناثرة في الأرجاء والكثير مما تبقى منها ملتوياً. وبرزت ثلاثة سهام مكسورة من طبقات درعه. وكان اثنان منها يتدليان إلى الأسفل، لكنّ الثالث وقف مستقيماً؛ وكان السهم الذي أراد انتزاعه. واكتشف أنه لا يستطيع تحرير قماش الدرع. وعندما حاول، كان شيء ما يلتوي في عضلاته ويسبّب له موجة من الدوار.

قال تيموج من خلفه: "دعني أساعدك".

نظر تيموجن إلى شقيقه الأصغر ولوّح ليتركه وشأنه. لم يكن يشعر برغبة في الكلام بعد أن زالت حمّى المعركة، وكان جسده يضج ألماً من كل الضربات والكدمات التي تعرض لها. وفيما كان يقف هناك، لم يكن يرغب بشيء سوى خلع الدرع الثقيل والجلوس أرضاً، لكنه لم يكن يستطيع حتى فعل ذلك.

اقترب تيموج، وتجاهله تيموجن فيما كان يمرّر أصابعه على الصفيحة المكسورة والسهم العالق به، والذي ارتفع وانخفض مع أنفاسه.

تمتم تيموج: "لا يمكن أن يكون عميقاً. إذا استطعت الوقوف دون حراك، سأنتزعه منك".

أجاب تيموجن دونما اهتمام: "افعل ذلك إذاً". أطبق على أسنانه فيما كان تيموج ينشر السهم بسكينه، ثم يمدّ يده تحت القماش المدرع ليمسك بالناحية الأخرى. وبحركة سحب بسيطة، نزع القطعة التي تحمي الصدر، وأسقطها من يده فيما كان يتفحص الجرح. لم يكن الحرير قد تمزق، لكنه دخل عميقاً في عضلة صدر تيموجن. وكانت الدماء تسيل من حول الثقب، لكن تيموج بدا سعيداً.

"أعمق قليلاً وكنت ستلقى حتفك. أستطيع إخراجه، على ما أعتقد".

قال تيموجن، وهو ينظر إليه: "رأيت ذلك يحدث سابقاً؟ ينبغي أن تسحب السهم بالطريقة التي دخل بها".

لدهشته، ابتسم تيموج: "أعرف. لقد أوقفه الحرير. لا تتحرك وحسب".

بعد أن أخذ نفساً عميقاً، قبض تيموج على السهم الخشبي الزلق، وأنشب أظفاره في الخشب لتثبيته. وفزع تيموجن من الألم عندما كان رأس النصل يحزّ داخله. ارتعش صدره لاإرادياً، مثل فرس تهتز لإبعاد الذباب عنها.

قال: "بالاتجاه الآخر".

تلوّن تيموج، وأجاب: "أمسكت به الآن". شعر تيموجن بالعضلة المتشنجة ترتاح فيما كان السهم يلتفّ في لحمه، ويخرج بالطريقة نفسها التي دخل بها. مع قيام أصابع تيموج الماهرة بتدويره إلى الجهة الأخرى، خرج بسهولة، وسالت قطيرات من الدم المتخثر بعد ذلك.

قال تيموج: "اضغط شيئاً ما عليه لفترة من الوقت". وكان صوته سعيداً وهادئاً وأومأ تيموجن له، وربت على كتفه.

قال: "لديك يد ثابتة".

هزّ تيموج كتفيه لامبالياً: "لم يكن منغرساً بي. وإن كان كذلك، لكنت صرخت مثل طفل".

قال تيموجن: "لا، ما كنت لتصرخ". ومدّ يده وأمسك بشقيقه من مؤخرة عنقه قبل أن يستدير مبتعداً. ودون سابق إنذار، تغيّرت معالم وجهه بسرعة كبيرة واستدار تيموج ليرى ما كان قد شاهده.

كان إيلوك يقف فوق إحدى عربات التتار، ويمسك بقربة من الشراب في إحدى يديه وسيفاً ملطخاً بالدماء في الأخرى. وحتى من مسافة بعيدة، كان يبدو نشيطاً وخطيراً. أعادت رؤيته الحياة إلى أطراف تيموجن، وأبعدت عنه الإرهاق. وراقب تيموج فيما كان إيلوك يصرخ بشيء ما على ذئابه.

تمتم تيموج فيما كانوا يحدقون بالأعشاب الملطخة بالدماء: "لا أتذكره. حاولت ذلك، لكن انقضى وقت طويل".

قال تيموجن بحدّة: "ليس بالنسبة لي. أرى وجهه كلما نما". وشهر سيفه ببطء، واستدار إليه تيموج، خائفاً مما رآه في وجه شقيقه. كانا يستطيعان سماع الرجال يضحكون حول العربات، وحيّا بعضهم إيلوك فيما كان يصرخ عليهم.

قال تيموج: "ينبغي أن تنتظر حتى تستريح. كان الجرح سطحياً، لكنه

سيضعفك".

أجاب تيموجن وهو يمشي إلى الأمام: "لا. إنه الوقت المناسب".

كاد تيموج يمضي معه، لكنه شاهد كشيون وخاسار يتبادلان النظرات، وتحرّك لينضم إلى شقيقيه. لم يكن تيموج يرغب برؤية مشهد موت آخر، ولم يكن يستطيع تحمل فكرة أن يلقى تيموجن حتفه، وجعل الخوف معدته تضطرب وشعر بالدوار. وإذا قاتل إيلوك وفاز الأخير، سيضيع منهم كل ما قد حققوه. شاهد تيموج تيموجن يمشي بثبات مبتعداً، وعرف فجأة أن عليه التواجد هناك. لقد كانوا أبناء ياسوجي وحان الوقت لذلك. مشى خطوة واحدة مترنحة، ثم أسرع خلف شقيقه.

كان إيلوك يضحك بصوتٍ مدوٍ على شيء قاله له شخص ما. كان نصراً مؤزراً ضد التتار الغزاة، وكان قد قاتل بشجاعة وتبعه الرجال حيث قادهم، إلى قلب المعركة تماماً. لم يكن يشعر بالغرور عندما هتفوا له، وكان قد لعب دوره وأكثر، وأمامه آنذاك ثروات التتار ليستمتع بها. ستكون النساء تحت العربات جزءاً من الاحتفال، وسيعيد الكثير من الفتيات إلى الذئاب ليحملن أبناء أتباعه. وستنمو القبيلة، وينتشر النبأ بأن الذئاب كانوا جزءاً من المعركة. كان منتشياً بمباهج الحياة عندما وقف هناك ليسمح للرياح بتجفيف عرقه. كان تولي يتصارع مع اثنين من أتباع الذئاب، ويضحك فيما يحاولان إلقاءه أرضاً، ووقع ثلاثتهم في كومة واحدة وضحك إيلوك بصوت خافت، وشعر بجلده يشتدّ عندما انفصلت عنه الدماء الجافة. ووضع سيفه أرضاً وفرك وجهه بكلتا يديه الثقيلتين، ونظّفه من أوساخ المعركة. وعندما رفع بصره، شاهد تيموجن وأشقاءه قادمين إليه.

كشّر إيلوك قبل أن ينحني ويلتقط سيفه مرة أخرى. كانت العربة عالية، لكنه وثب إلى الأرض بدلاً من النزول ببطء وظهره لهم. كان نزوله محكماً، وواجه أبناء ياسوجي بابتسامة ترتعش على فمه. كان مع تيموجن الخانين

الوحيدين اللذين شاهدا نصرهما. ورغم أن كيريت قاتلوا جيداً، إلاّ أن قائدهم البدين كان آمناً في الخيام على بعد خمسة أميال إلى الجنوب. أخذ إيلوك نفساً عميقاً، وجهّز نفسه فيما كان ينظر حوله. كان ذئابه قد شاهدوه يقفز إلى الأسفل، وتقاطروا مندفعين إلى خانهم. توقف أولخونوت أيضاً عن اقتسامهم للغنائم مع كيريت وجاءوا مثنى وثُلاثاً ليقفوا قريباً ويشاهدوا ما سيحدث. كان نبأ ثأر الدم بين القائدين قد انتشر، ولم يكونوا يرغبون بتفويت القتال. وتجاهل الجميع عويل النساء تحت العربات عندما مشى المحاربون فوق الأعشاب إلى حيث وقف إيلوك وتيموجن بصمت.

قال إيلوك وهو ينظر حوله إلى الرجال المتجمعين: "كان نصراً عظيماً". كان مئة من ذئابه قد نجوا من المعركة، ولم يكونوا يبتسمون آنذاك بعد أن شاهدوا الخطر. رغم ذلك، كانوا أقل عدداً بكثير من الآخرين، وكان إيلوك يعرف أنه لا يمكن تسوية الأمر سوى بين الرجلين اللذين قاداهم إلى ذلك المكان.

صرخ إيلوك عليهم: "هذا دين قديم. ولن يكون هناك انتقام". كانت عيناه تلمعان عندما نظر إلى تيموجن الواقف أمامه. "لم أسعَ لإراقة الدماء بيننا، لكنني خان الذئاب وأنا مستعد لذلك".

قال تيموجن وبصره ينتقل على صفوف المحاربين والأتباع: "أطالب بحقي في قوم والدي. ولا أرى خاناً حيث تقف".

ضحك إيلوك بصوت خافت، ورفع سيفه.

قال: "إذاً سأجعلك ترى". شاهد أن تيموجن قد نزع جزءاً من درعه، ورفع إيلوك راحة كفه. وقف تيموجن جاهزاً بلا حراك فيما كان إيلوك ينزع عنه دروع الجلد المدبوغ التي أبقته حياً في المعركة. رفع تيموجن ذراعيه، وفعل أشقاؤه الشيء نفسه معه، وهكذا وقف كلا الرجلين يرتديان

قميصاً ودرعي الساقين وينتعلان حذاء، مع قطرات عرق داكنة كانت قد جفّت في نسائم الهواء. أخفى كلاهما تعبه وكان قلقاً لأن الآخر يبدو نشيطاً.

رفع تيموجن سيفه ونظر إلى السيف الذي يحمله إيلوك كما لو أنه لا يزن شيئاً. كان قد رأى وجه إيلوك في ألف حصة تدريبية مع أرسلان ويوان، وكانت الحقيقة مختلفة، ولم يستطيع استحضار الهدوء الذي كان بأمس الحاجة إليه. بدا أن إيلوك قد ازداد طولاً، وكان الرجل الذي ترك عائلة ياسوجي للموت قوياً للغاية، وحتى دون درعه، كانت بنيته مخيفة. وهزّ تيموجن رأسه كما لو أنه يزيل عنه الخوف.

تمتم: "تعال إليَّ أيّتها الجيفة". وضاقت عينا إيلوك.

انطلق كلا الرجلين إلى الحركة من الثبات، واندفعا إلى الأمام بخطوات سريعة، وتفادى تيموجن الضربة الأولى على رأسه، وشعر بذراعيه ترتعشان من تأثيرها، وآلمه صدره حيث كان السهم قد مزق عضلاته، وكافح للسيطرة على غضب عارم كان سيتسبّب بقتله. ضغط عليه إيلوك بقوة ولوّح بالسيف بقوة هائلة مثل ساطور، وكان على تيموجن إما الوثب جانباً أو تلقّي ضربة قاتلة. كان يشعر بالخدر يتزايد في ذراعه اليمنى فيما كان يصدّ ويبعد كل ضربة عنه. منحهما رجال القبائل الثلاث فسحة على شكل حلقة كبيرة، لكنهم لم يصرخوا أو يهتفوا لهما. شاهد تيموجن وجوههم مشوشة تماماً كما حدث عندما أحاط بعدوه، وغيّر طريقة تحركه لينقلب على نفسه ووجّه إيلوك ضربة عنيفة في الهواء.

قال له يتموجن: "أنت أبطأ مما كنت عليه".

لم يجب إيلوك، وتورّد وجهه غضباً. ضحك، لكن تيموجن دفع النصل جانباً، وضرب بمرفقه وجه إيلوك. وردّ إيلوك الضربة فوراً، ووجّه قبضته نحو صدر تيموجن المكشوف بلكمة مباشرة.

شعر بألم فظيع، وشاهد تيموجن أن إيلوك قد استهدف البقعة الملطخة بالدماء على قميصه، فدمدم عالياً فيما كان يتقدم إليه والألم المبرّح يغذي غضبه. تلقى إيلوك ضربته القاسية، ولكم مجدداً على العضلة الملطخة بالدماء، وسال خيط رفيع من الدماء التي لطخت الرداء الذي كان يرتديه. صرخ تيموجن عالياً وتراجع خطوة إلى الوراء، لكن عندما اندفع إيلوك نحوه، ابتعد خطوة عن حد سيف والده وضرب بقوة في ذراع إيلوك تحت المرفق. مع رجل أقل قوة، ربما كانت الضربة ستبتر ذراعه، لكنّ ساعدي إيلوك كانا مفتولي العضلات. بالرغم من ذلك، كان الجرح بليغاً، وتدفقت الدماء منه. لم ينظر إيلوك إلى يده التي أضحت غير ذات فائدة، رغم أن الدماء سالت على مفاصله وسقطت قطرات كبيرة منها على الأرض.

أومأ تيموجن له، كاشفاً عن أسنانه. وكان عدوه سيضعف ولم يكن يريد للأمر أن يكون سريعاً.

اندفع إيلوك إلى الأمام مرة أخرى، وسيفه ملطخ بالدماء، وكان اصطدام المعدن يرسل رعشات عبر تيموجن في كل مرة يتلاقى فيها السيفان، لكنه تهلل فرحاً، وشعر بأن قوة إيلوك تتلاشى. فيما كانا يتراجعان إلى الخلف، أصيب تيموجن بجرح على طول فخذه جعل ساقه اليمنى تتعثر، ولهذا بقي في مكانه فيما استمر إيلوك في الدوران حوله. كان كلا الرجلين يلهثان عندها بعد أن فقدا آخر احتياطيات الطاقة التي كانا استعاداها بعد المعركة. كان الإرهاق يستنفد قوتهما حتى لم يعد هناك سوى الإرادة والكراهية اللتين تدفعانهما لمواجهة بعضهما.

استغل إيلوك ساق تيموجن المصابة كنقطة ضعف، واندفع مهاجماً، ثم تنحى جانباً بسرعة قبل أن يستطيع تيموجن تعديل وقفته. رنّ السيفان مرتين بالقرب من عنق تيموجن، واستطاع إيلوك صدّ الضربة المضادة بسهولة. بالرغم من ذلك كان يترنح. لم يتوقف النزيف من جرح ذراعه،

وفيما كان يخطو مبتعداً، ترنح فجأة، وفقدت عيناه تركيزهما. نظر تيموجن إلى ذراع إيلوك وشاهد أن الدماء ما تزال تتدفق منها. كان يستطيع سماعها تنقط على الأرض كلما توقف إيلوك، وكان هناك شحوب آنذاك في لون جلده لم يكن موجوداً من قبل.

قال تيموجن: "إنك تحتضر يا إيلوك".

لم يردّ إيلوك فيما كان يندفع نحوه مجدداً، وهو يلهث مع كل نفس. تنحى تيموجن جانباً عن أولى لكماته، وترك الثانية تصيبه في جانبه، مما جعل إيلوك يقترب منه، ثم طعنه بسيفه بضربة مثل أفعى، فتراجع إيلوك إلى الخلف مترنحاً، وساقاه تترنحان. ظهر ثقب في أعلى صدره، وسالت الدماء منه. تكوّر إيلوك على الجرح، محاولاً إسناد نفسه على ركبتيه. ولم تكن يده اليسرى لتستجيب له، وكاد يفقد سيفه فيما كان يجاهد لالتقاط أنفاسه.

قال تيموجن وهو يراقبه: "لقد أحبك والدي. ولو أنك كنت وفياً، لكنت وقفت هنا معي الآن".

استحال لون جلد إيلوك أبيض شاحباً، فيما كان يجاهد لالتقاط أنفاسه واستعادة قوته.

تابع تيموجن: "بدلاً من ذلك، خنت ثقته. مت وحسب يا إيلوك. لم تعد ذا فائدة لي".

كان إيلوك يحاول أن يتكلم، لكن الدماء لامست شفتيه دون أن يخرج صوت منه. سقط إيلوك على ركبة واحدة، وأعاد تيموجن سيفه إلى غمده، ينتظر. وبدا أن الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً لأن إيلوك تشبث بالحياة، لكنه سقط أخيراً، واستلقى جانبياً على الأرض. سكنت حركة صدره، وشاهد تيموجن أحد الذئاب يمشي إليه من حيث كانوا يراقبون ما يجري. وتوتر تيموجن تحسباً لهجوم آخر، لكنه تعرف إلى التابع باسان، وتردد. جاء

الرجل الذي كان قد أنقذ تيموجن من إيلوك مرة من قبل ليقف عند الجثة، وينظر إلى الأسفل عليها. كان تعبير وجه باسان مضطرباً، لكنه لم يتكلم، ومدّ يده ليمسك بسيف رأس الذئب واستقام في وقفته. فيما كان تيموجن وأشقاؤه يراقبون ما يجري، قدّم له باسان مقبض السيف أولاً وأخذه تيموجن منه، مرحباً بثقله في يده مثل صديق قديم. وفكّر للحظة أنه قد يتداعى أمامهم قبل أن يشعر بأشقائه يمسكون به.

تمتم خاسار بصوت خافت: "انتظرت وقتاً طويلاً لرؤية ذلك".

تنبّه تيموجن من حالة عدم الاكتراث التي يمرّ بها، وتذكر كيف ركل شقيقه جثة سانسار.

"عامل الجثة باحترام يا شقيقي. أريد الفوز بالذئاب، ولن يغفروا لنا إذا أسأنا معاملته. دعهم يأخذوه إلى التلال، ويتركوه هناك للصقور". نظر حوله إلى الصفوف الصامتة من القبائل الثلاث. "ثم أريد العودة إلى المخيم واسترداد ما هو لي. أنا خان الذئاب".

وتلفّظ الكلمات همساً، وشدّ أشقاؤه من قبضاتهم عليه لدى سماعهم ذلك، دون أن يظهر شيء على وجوههم أمام أولئك الذين يراقبونهم.

قال خاسار: "سأرتب ذلك. ينبغي تضميد جرحك قبل أن تنزف حتى الموت".

أومأ تيموجن والإرهاق يغلبه، ولم يتحرك باسان، وفكّر بأن عليه التكلم إلى الذئاب الذين يقفون مذهولين حولهم، لكن ذلك سيأتي لاحقاً. ولم يكن لديهم مكان آخر يذهبون إليه.

فقد أكثر من مئتي محارب حياتهم في المعركة ضد التتار. وقبل أن تغادر قوات تيموجن المنطقة، امتلأت السماء بالصقور والنسور والغربان التي تحوم فيها، وازدحمت سفوح التلال بالأجنحة فيما كانت تلك الطيور تمشي بين الجثث، تتقاتل وتسقسق. كان تيموجن قد أصدر أوامر بعدم التمييز بين كيريت، وأولخونوت، والذئاب. تغلّب كهنة القبائل الثلاث على كراهيتهم لبعضهم بعضاً، وأقاموا طقوس الموت فيما كان المحاربون يشاهدون الطيور الجارحة تحلّق فوق رؤوسهم. حتى قبل أن تنتهي الأناشيد، حطّت نسور سوداء كبيرة على الأرض، وعيونها الداكنة تراقب الأحياء أثناء تقدمها نحو الأموات.

تركوا التتار حيث سقطوا، لكن العربات لم تتحرك عائدة إلى مخيمها الرئيسي إلاّ في وقت متأخر من ذلك اليوم. سار تيموجن وأشقاؤه في المقدمة، وأتباع الذئاب وراءه. لو أنه لم يكن ابن الخان القديم، لكانوا قتلوه حالما سقط إيلوك، لكن باسان كان قد سلّمه سيف والده ولم يتحركوا. ورغم أنهم لم يهللوا كما فعل أولخونوت وكيريت، إلاّ أنهم كانوا ثابتين ويأتمرون بأمره. سار تولي بصلابة معهم، وعلى وجهه علامات تعرضه للضرب. كان خاسار وكشيون قد قاداه بهدوء في الليل إلى مكان جانبي، ولم ينظر إليهما أثناء مسيره.

عندما وصلوا إلى مخيم توغرول، خرجت النساء لتحية أزواجهن وأبنائهن، وبحثن في الوجوه بيأس حتى شاهدن أن أحباءهن قد عاشوا. انطلقت الصرخات فرحاً وأسىً على حدٍّ سواء، وضج السهل بالحياة مع الهتاف والضوضاء.

دفع تيموجن فرسه للسير خبباً إلى حيث خرج توغرول لملاقاته، كان يقف مع وين تشاو، وكان خان كيريت قد أبقى بعض الحراس لحماية

العائلات، ولم يستطع أولئك الرجال النظر في عيني تيموجن عندما وقع بصره عليهم. ولم يكونوا قد خرجوا معه.

ترجّل تيموجن.

"لقد قصمنا ظهرهم يا توغرول. ولن يعودوا إلى الجنوب مجدداً".

سأل توغرول وهو ينظر إلى المحاربين المتعبين مع عائلاتهم: "أين خان الذئاب؟"

هزّ تيموجن كتفيه لامبالياً، وقال: "لقد تحداني، واستردَدت القبيلة".

استدار تيموجن مرهقاً ليصدر الأوامر إلى أشقائه، ولم يرَ تغيّر تعابير توغرول. استطاعوا جميعاً شم رائحة الضأن في الهواء، وهلّل المحاربون العائدون للرائحة، وكانوا يتضورون جوعاً بعد اليوم الذي مرّوا به ولن يكونوا قد أنجزوا شيئاً حتى يملأوا بطونهم بالطعام والشراب.

شاهد وين تشاو يوان يقترب منه على فرسه، وخرقة ملطخة بالدماء مربوطة بإحكام حول قصبة ساقه. كان تيموجن يتّجه نحو خيمة زوجته، وانتظر وين تشاو بصبر حتى ترجّل يوان وجثا على ركبة واحدة.

"ليس لدينا تفاصيل عن المعركة يا يوان. ينبغي أن تقول لنا ما شاهدته".

أبقى يوان بصره على الأرض.

أجاب: "كما تشاء يا مولاي".

عندما كانت الشمس تغرب، أنارت التلال خيوط من ذهب وظلال. استمرت الوليمة حتى ثمل الرجال وأشبعوا شهواتهم. كان توغرول جزءاً منها، رغم أنه لم يقم بتحية تيموجن مع الآخرين، حتى عندما أخرج أتباع الذئاب عائلاتهم ليقطعوا عهد الولاء لابن ياسوجي. كان توغرول قد شاهد عيني تيموجن تذرفان الدموع عندما جثوا أمامه، وشعر بالامتعاض يجيش في نفسه. صحيح أنه لم يقاتل معهم، لكن ألم يشارك في ذلك؟ فلولا كيريت لم يكن ممكناً تحقيق النصر، وكان توغرول من استدعى تيموجن من

الشمال المتجمد. ولم يكن غافلاً عن الطريقة التي امتزج بها أفراد كيريت مع الآخرين حتى لم يعد هناك مجال للتمييز فيما بينهم. كانوا ينظرون إلى الخان الشاب برهبة، إلى ذلك الرجل الذي جمع القبائل تحت قيادته وحقّق نصراً مؤزراً ضد عدو قديم. شاهد توغرول كل نظرة وانحناءة رأس، وشعر بالخوف يتسلل إلى داخله. كان إيلوك قد سقط وسانسار من قبله. ولم يكن صعباً أن يتخيّل سكاكين تأتي في الليل طلباً لتوغرول كيريت.

عندما انتهت الوليمة، جلس في خيمته مع وين تشاو ويوان، وتحدثا مطولاً خلال الليل. وفيما كان القمر يرتفع، أخذ نفساً عميقاً، وشعر بأبخرة شراب الأعشاب الأسود تعلق ثقيلة في رئتيه. وكان ثملاً، لكنه كان بحاجة لذلك.

ذكّر السفير: "لقد فعلت كل ما وعدت به يا وين تشاو".

كان صوت وين لطيفاً: "بالفعل. ستكون خاناً على إقطاعيات شاسعة وسيعرف أهل كيريت السلام تحت قيادتك. وسيكون سادتي سعداء لسماع أنباء مثل هذا الانتصار. بعد أن تفرغوا من تقسيم الغنائم، سآتي معك. لم تعد هناك حاجة لي هنا، ليس بعد الآن. وربما سأحظى بفرصة للاستمتاع بسنواتي الأخيرة في كيفنغ".

بصق توغرول فجأة: "إذا استطعت أن أغادر". وارتعش جسده سخطاً وقلقاً، وأمال وين تشاو رأسه لينظر إليه مثل عصفور ينصت السمع.

تمتم: "تخاف الخان الجديد".

تأفف توغرول: "لماذا لا أخاف، مع قافلة من القتلى خلفه؟ لديَّ حراس حول هذه الخيمة، لكن في الصباح من يعرف الوقت الذي سيمر قبل...". توقف قليلاً، وشبك أصابعه ببعضها فيما كان يفكر. "رأيت كيف يهتفون له، وقبيلتي كانت تهتف معهم".

انزعج وين تشاو. وإذا قتل تيموجن الأحمق البدين في صبيحة اليوم

التالي، فإن أي انتقام سيقع على عاتق وين شأنه شأن أي شخص آخر. وفكّر فيما ينبغي فعله، قلقاً للغاية من وجه يوان الهادئ أثناء جلوسهم في الظلال.

عندما أصبح الصمت مزعجاً، تناول توغرول جرعة كبيرة من الشراب وتجشأ.

قال بصوت يحمل نبرة متباكية: "من يعرف بمن أستطيع الوثوق بعد هذا؟ سيكون ثملاً الليلة، وسينام عميقاً. وإذا مات في خيمته، لن يستطيع أحد إيقافي عن الرحيل في الصباح".

قال وين تشاو: "سيوقفك أشقاؤه. سيكون ردّ فعلهم غاضباً".

شعر توغرول بأن الدموع تترقرق في عينيه، وضغط بمفاصل أنامله على عينيه.

"يبلغ تعداد كيريت نصف الجيش حولنا. ولا يدينون بشيء لهؤلاء الأشقاء. وإذا مات تيموجن، أستطيع القضاء عليهم. إنهم لا يستطيعون إيقافي".

حذّره وين تشاو: "إذا حاولت وفشلت، سنخسر حياتنا جميعاً". كان قلقاً من ارتكاب توغرول لهفوة في الظلام تتسبب بموت وين عندما أصبحت فرصة العودة إلى بلاط تشن حقيقية بعد سنوات في البراري. أدرك أن سلامته الشخصية مهددة بكلتا الحالتين، لكن بدا أن من الأفضل الانتظار حتى الصباح. لم يكن تيموجن يدين له بشيء، لكن الخلافات كانت جيدة لأنها ستسمح له بالذهاب إلى الديار.

قال للخان: "ينبغي ألاّ تجازف بذلك يا توغرول. حقوق الضيف تحمي كليكما، ولن يكون هناك سوى الدمار إذا جازفت بذلك كله نتيجة الخوف". استراح وين للخلف، وشاهد كلماته تغوص بعيداً.

قال توغرول وهو يلوِّح بيده في الهواء: "لا. لقد رأيتهم يهتفون له. وإذا

مات الليلة، سآخذ قبيلتي كيريت بعيداً قبل الفجر. وعندما تشرق الشمس، سنكون بعيدين جداً عنهم وستعم الفوضى المكان".

بدأ وين تشاو القول: "إنه خطأ...". ولدهشته الشديدة، كان يوان من قاطعه.

قال يوان لتوغرول: "سأقود الرجال إلى خيمته يا مولاي. إنه ليس صديقاً لي".

استدار توغرول إلى جندي تشن، وتشابكت يداه في كلتا راحتيه البدينتين.

"افعل ذلك يا يوان بسرعة. خذ الحراس حول هذه الخيمة واقتله. لقد شرب وأشقاؤه أكثر مما شربت أنا. ولن يكونوا مستعدين لك، ليس الليلة".

سأل يوان: "وزوجته؟ إنها نائمة معه، وستفيق وتصرخ".

هزّ توغرول رأسه ليبعد عنه تأثير الشراب.

"ليس إن لم تكن مضطراً. لست وحشاً، لكنني سأبقى حياً غداً".

قال وين تشاو بحدّة: "يوان؟ ما هذه السخافة؟"

أدار ضابطه الأول وجهه إليه، وكان داكناً ومكتئباً في الظلال.

"لقد صعد هذا الرجل بسرعة وقوة خلال وقت قصير. وإذا مات الليلة، لن نراه عند حدودنا خلال بضع سنوات".

فكّر وين في المستقبل. كان الأفضل أن يدع تيموجن يستيقظ. وإذا اختار الخان الشاب أن يقتل توغرول، لن يكون وين على الأقل مضطراً لتحمل صحبة الرجل حتى حدود أراضيه. هل سيدع تيموجن سفير تشن يغادر حقاً؟ لم يكن واثقاً. وفيما كان يتردّد، وقف يوان، وأحنى رأسه لكلا الرجلين، وخرج من الباب. بقي وين تشاور غارقاً في حيرته، ولم يقل شيئاً حين غادر، وواجه توغرول مقطب الجبين وهو يصغي إلى يوان يتكلم إلى الحراس في الخارج. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى اختفوا في ظلمة المخيم الشاسع، بعيداً جداً بحيث لم يعد ممكناً إعادتهم.

قرر وين استدعاء الحمّالين. بغض النظر عما سيحدث، كان يريد أن يغادر عند شروق الشمس. ولم يستطع إبعاد الشعور الغامر بالخطر والخوف في صدره. كان قد فعل كل ما يمكن أن يحلم به الوزير الأول. كان قد تمّ سحق التتار وسيعرف على الأقل سلام وسكينة البلاط مرة أخرى. لن ترافقه رائحة العرق ولحم الضأن مجدداً في كل ساعة يكون فيها مستيقظاً. كان يمكن لخوف توغرول الثمل أن ينتزع كل ذلك منه، وتقطّب جبينه عبوساً فيما كان يجلس مع الخان، وعرف أنه لن ينعم بالراحة تلك الليلة.

كان تيموجن يغطّ بنوم عميق عندما فتح باب خيمته محدثاً صريراً. كانت بورت نائمة إلى جانبه، تشاهد أحلاماً مزعجة. كانت ضخمة مع الطفل داخلها وتشعر بحرارة كبيرة حتى أنها أبعدت عنها الفراء الذي يقيها برد الشتاء، كان وهج خافت من الفرن يمنح الخيمة ضوءاً برتقالياً. وعندما دخل يوان مع رجلين آخرين، لم يتحرك أي من الثنائي النائم.

كان الحارسان يشهران سيفيهما ويتأخران خطوة عن يوان الذي نظر إلى تيموجن وبورت. مدّ يده ووضع ذراعيه على مرافقيه وجعلهما يتوقفان كما لو أنهما يواجهان جداراً.

همس: "انتظرا. لن أقتل رجلاً نائماً".

تبادلا النظرات، دون أن يستطيعا فهم الجندي الغريب. وقفا بصمت فيما كان يوان يسحب نفساً ويهمس للخان النائم.

"تيموجن؟"

دفعه اسمه للاستيقاظ من أحلام مزعجة، وفتح عينيه بتثاقل، ووجد أن رأسه ينبض ألماً. وعندما أدار رأسه، شاهد يوان يقف هناك، وللحظة، نظرا بالكاد إلى بعضهما بعضاً. كانت يدا تيموجن مخفيتين تحت الفراء، وعندما تحرك، شاهد يوان أنه يحمل سيف والده. كان الشاب عارياً، لكنه قفز عن السرير، ورمى بالغمد إلى الجانب، وفتحت بورت عينيها على الحركة،

وسمعها يوان تشهق خوفاً.

قال يوان بهدوء للرجل العاري أمامه: "كنت أستطيع قتلك. حياة مقابل حياة، مثلما منحتني إياها مرة. ولم يعد هناك دين بيننا الآن".

"من أرسلك؟ وين تشاو؟ توغرول؟ من؟" هزّ تيموجن رأسه، لكن بدا له أن الغرفة تتمايل. وكافح ليجعل ذهنه صافياً.

تابع يوان: "ليس لسيدي دخل في هذا. سنغادر في الصباح ونعود إلى ديارنا".

قال تيموجن: "إنه توغرول، إذاً. لماذا انقلب عليَّ الآن؟"

هزّ يوان كتفيه لامبالياً: "إنه يخاف منك. وربما يكون على حق في ذلك. وتذكر أنني كنت أستطيع إزهاق حياتك الليلة. لقد تعاملت معك بشرف".

تنهد تيموجن، وبدأ خفقان قلبه يهدأ. شعر بالدوار والمرض، وتساءل ما إذا كان سيتقيأ. أرغى الشراب المسكر في معدته، وعلى الرغم من حصوله على بضع ساعات من النوم، إلاّ أنه كان ما يزال مجهداً. ولم يشك بأن يوان كان يستطيع قتله بسهولة إذا أراد ذلك. للحظة، فكّر باستدعاء محاربيه من خيامهم وسحب توغرول. وربما كان يشعر بالملل قليلاً، لكنه كان قد شاهد الكثير من الموت وكان دم إيلوك ما يزال عالقاً على جلده.

قال: "قبل أن تشرق الشمس، ستغادرون. خذ وين تشاو وتوغرول معك".
نظر تيموجن إلى الرجلين اللذين دخلا مع يوان. كانا يقفان مذهولين من ذلك التطور في الأحداث، وغير قادرين على النظر في عينيه. "يستطيع حراسه مرافقته. ولا أريدهم هنا بعد ما حاولوا القيام به".

قال يوان: "سيرغب باصطحاب كيريت".

هزّ تيموجن رأسه: "إذا أراد، أستطيع استدعاءهم وإخبارهم عن فعلته الجبانة. لن يلحقوا بأحمق. القبائل لي يا يوان، وكيريت معي". ووقف أكثر صلابة فيما كان يتكلم، وشاهد يوان السيف ذا قبضة رأس الذئب يلمع في

ضوء الفرن الباهت.

"قل له إنني لن أقتله إذا غادر قبل الفجر. وإذا وجدته هنا، سأتحداه أمام محاربيه". كانت نظرته قاتمة وقاسية عندما ألقى بصره على جندي تشن.

"كل عائلة تسير على بحر الأعشاب ستعترف بي خاناً. وقل لسيدك وين تشاو ذلك، عندما تعود إليه. إنه بأمان مني الآن، لكنني سأراه مجدداً".

تطابقت كلماته مع ما قاله يوان، لكنّ أراضي تشن كانت بعيدة ألف ميل. وحتى إذا اجتمعت القبائل بقيادة تيموجن، فإنها لن تشكل سوى جزء صغير من الجيوش التي رآها يوان. ولم يكن يخاف من طموح الرجل.

قال يوان: "سيفيق المخيم أثناء مغادرتنا".

نظر تيموجن إليه، ثم عاد إلى السرير دون أن يزعج نفسه بالرد، وشاهد أن عيني بورت قد اتسعتا رعباً ومدّ يده ليبعد شعرها عن وجهها. سمحت له بتلك اللمسة، والتي بدا أنها بالكاد تشعر بها.

قال تيموجن برفق: "اذهب وحسب يا يوان". كان على وشك سحب الفراء فوق جسده مجدداً عندما توقف. "وشكراً لك".

قاد يوان الحارسين نحو هواء الليل البارد. عندما غادرا الخيمة خلفه، أوقفهما مجدداً وشعر بأنهما ينظران إليه متسائلين في الظلام. لم يشاهدا السكين التي سحبها من حزامه، وحتى إذا كانا قد شاهداها، لم يكونا ندّين لرجل فاز بالسيف الأول في كيفنغ. جعلتهما ضربتان سريعتان يجثوان على ركبهما، وانتظر حتى سقطا واستلقيا ساكنين بلا حراك. كان قد عصى أوامر سيده، لكنه شعر بانشراح في صدره ولم يكن هناك شهود آنذاك ليخبروا وين تشاو عمّا فعله. كان المخيم ساكناً، ومتجمداً تحت النجوم، وكان الصوت الوحيد المسموع هو وقع خطواته القوية فيما كان يعود إلى سيده ليخبره بأن تيموجن محمي بشكل جيد للغاية. نظر يوان إلى الخلف على خيمة

الخان مرة واحدة فقط فيما كان يمشي مبتعداً تحت ضوء القمر، وهو يقلّب الأمر في ذهنه. لقد دفع دينه.

عندما كان القمر يهبط نحو التلال، استيقظ تيموجن مرة ثانية عندما دخل خاسار الخيمة. قبل أن يصبح على أهبة الاستعداد، أمسك تيموجن بسيف والده، وقفز من سريره، وتحركت بورت، وهي تأنّ في نومها واستدار تيموجن إليها، ومدّ يده ليضرب وجنتها.

تمتم: "كل شيء على ما يرام، إنه شقيقي وحسب". تمتمت بورت شيئاً، لكنها لم تستيقظ من نومها هذه المرة. وتنهد تيموجن وهو ينظر إليها.

قال خاسار وهو يضحك بصوت خافت: "أرى أنك كنت تحلم بنساء جميلات".

تورد تيموجن خجلاً، وسحب الفراء حول خصره فيما كان يجلس على السرير.

همس: "اخفض صوتك حتى لا توقظها. ماذا تريد؟" وشاهد كشيون يدخل بعد خاسار وتساءل ما إذا كان سينعم بالسكينة في تلك الليلة.

"اعتقدت أنك سترغب بأن تعرف أن هناك جثتين في الخارج على الأرض".

أومأ تيموجن وهو يشعر بالنعاس. كان قد توقع ذلك، وتقطّب حاجبا خاسار من هدوئه.

قال خاسار وهو ما يزال مبتسماً: "يبدو أن توغرول ووين تشاو يستعدان للرحيل. لقد جاء حراسهما بالجياد وذلك الصندوق السخيف الذي يستعمله وين تشاو. هل تريد مني إيقافهم؟"

أعاد تيموجن سيف والده إلى الفراء، وأطرق يفكر.

سأل: "كم عدد الأشخاص الذين يخرجون معهما؟"

قال كشيون من الباب: "ربما ثلاثون، بما في ذلك زوجة وبنات توغرول. مع يوان وحراس تشن، مما يجعلها مجموعة كبيرة. ولدى توغرول عربة

لجسده الضخم. هل تعرف شيئاً لا نعرفه؟"

قال تيموجن: "أرسل توغرول رجالاً لقتلي، لكنه اختار يوان".

أطلق خاسار همسة سخط: "أستطيع إرسال الذئاب خلفه قبل أن يقطع ميلاً. إنهم مقربون لنا ولا يدينون بالولاء لتوغرول". شاهد بدهشة فيما كان تيموجن يهزّ رأسه نفياً.

"دعهم يذهبون. لدينا كيريت. وكنت سأقتله بأي حال".

أطلق كشيون صفيراً خافتاً: "كم عدد الذين ستضمهم إليك بعد يا شقيقي؟ لم يمضِ وقت طويل منذ كنت خاناً لبضعة فرسان في الشمال".

لم يجب تيموجن لفترة طويلة. وأخيراً، رفع رأسه وتكلم دون أن ينظر إلى شقيقيه.

"سأكون خاناً لهم جميعاً. نحن شعب واحد، ورجل واحد يستطيع قيادتنا. وإلاّ كيف سنستطيع الاستيلاء على مدن تشن؟"

نظر خاسار إلى شقيقه، وظهرت ابتسامة على وجهه ببطء.

ذكرهما كشيون قائلاً: "هناك قبائل لم تشترك في المعركة ضد التتار. النيمنز، وأويرات..."

قال تيموجن: "لا يستطيعون الوقوف وحدهم ضدنا. سنضمّ القبائل الواحدة تلو الأخرى".

سأل خاسار وعيناه تلمعان: "هل سنكون ذئاباً مجدداً، إذاً؟"

فكّر تيموجن لبعض الوقت.

"نحن الشعب الفضي، المغول. وعندما يسألون، قل لهم إنه لا يوجد قبائل. قل لهم إنني خان بحر الأعشاب، وسيعرفونني بذلك الاسم، جنكيز. نعم، قل لهم ذلك. قل لهم إنني جنكيز، وإنني سأمضي قدماً".

كان حصن حدود أراضي تشن بناءً ضخماً من الخشب والحجر، وبدا التوتر على رجال كيريت القلائل الذين رافقوا خانهم إلى المنفى فيما كانوا يتقدمون منه. لم يكونوا قد شاهدوا شيئاً مشابهاً لذلك المبنى الضخم من قبل، بأجنحته وساحاته. كان المدخل بوابة عظيمة من الخشب المدعّم بالحديد مع باب أصغر فيه. ووقف حارسان هناك، يرتديان دروعاً شديدة الشبه بالتي يرتديها رجال وين تشاو. كانا يشبهان تمثالين في أشعة الصباح، مصقولين ومتقني الصنع.

ألقى توغرول نظرة على الجدران العالية، وشاهد أن المزيد من الجنود المسلحين ينظرون إليه. لم تكن الحدود نفسها أكثر من مجرد درب بسيط. خلال الرحلة، كان وين تشاو قد تباهى بوجود سور عظيم يمتدّ آلاف الأميال، لكنه كان بعيداً إلى الجنوب. كان قد انطلق نحو الحصن مباشرة حالما رآه، وكان يعرف أن قيامه بغير ذلك سيعني الموت السريع. لم يكن سادة تشن يرحبون برجال يتسللون إلى أراضيهم. وشعر توغرول بالخوف في أعماقه، وبالرهبة من المبنى الضخم الذي لم يسبق أن شاهد مثله من قبل. ولم يستطع إخفاء إثارته عندما تمّ وضع محمل وين تشاو على الأرض، وخرج منه السفير.

قال وين تشاو: "انتظروا هنا. لديَّ أوراق ينبغي أن أقدمها لهم قبل أن نستطيع الدخول". بدا مفعماً بالحيوية أيضاً بعد أن أضحت بلاده في مرمى نظره. ولن يمضي وقت طويل قبل أن يعود إلى قلب كيفنغ، وسيكون على زانغ الصغير أن يبتسم في قرارة نفسه لنجاحاته.

نزل توغرول من العربة، يراقب عن كثب فيما وين تشاو يقترب من الحراس ويتكلم معهم. نظروا خلفه إلى مجموعة المغول، والجنود والعبيد؛ لكنّ أحدهم أحنى رأسه وفتح الباب الصغير في البوابة، واختفى داخلها.

تحلّى وين تشاو بالصبر فيما كان ينتظر. وكان قد عاش سنوات بعيداً عن وسائل الراحة.

راقب يوان بصمت خروج قائد الحصن وقيامه بالتدقيق في أوراق وين تشاو. لم يكن يستطيع سماع ما كان يقال، وتجاهل النظرات المتسائلة التي أرسلها توغرول نحوه. وكان أيضاً متعباً من رجال القبائل، وذكّرته رؤية أراضي تشن بعائلته وأصدقائه.

أخيراً، بدا القائد راضياً. أعاد الأوراق، وتكلّم وين تشاو معه مجدداً، كما لو أنه يتحدث إلى مرؤوس. كانت السلطة الممنوحة من الوزير الأول تطالبه بالطاعة الفورية، ووقف الحراس بصلابة كما لو أنهم يتعرضون للتفتيش، وشاهد يوان الباب يفتح مجدداً ويدخل منه القائد، ويأخذ جنوده معه. وتردد وين قبل أن يتبعه واستدار إلى المجموعة التي كانت تراقبه. ووجد نظره يوان وتوقف عنده، منزعجاً. وتكلم بلغة بلاط تشن، وبشكل رسمي للغاية.

"لن يتمّ السماح بدخول هؤلاء الرجال يا يوان. هل ينبغي أن أتركك معهم؟"

ضاقت عينا يوان، وتقدم توغرول خطوة إلى الأمام.

"ماذا قلت؟ ما الذي يحدث؟"

لم تهتز نظرة تشاو عن يوان.

"لقد خذلتني يا يوان عندما فشلت بقتل الخان في خيمته. ما قيمة حياتك بالنسبة لي الآن؟"

وقف يوان ساكناً بلا حراك، دون أي أثر للخوف.

"اطلب مني الوقوف، وسوف أقف. اطلب مني المجيء، وسآتي".

أومأ وين تشاو ببطء: "إذاً تعال إليّ، وعش، وليكن معلوماً لك أن حياتك ملكي".

عبر يوان المسافة إلى الباب وخطا إلى الداخل. وراقبه توغرول برعب متزايد.

سألته زوجته: "متى سنعبر؟"

استدار توغرول إليها، وعندما شاهدت الخوف الرهيب على محياه، تغضّن وجهها. وعندما تكلم سفير تشن مجدداً، كان ذلك بلغة القبائل. كان يأمل بأن تكون تلك المرة الأخيرة التي تتفوه بها شفتاه بتلك اللغة السخيفة.

قال: "آسف". واستدار مبتعداً ومرّ عبر الباب الذي تمّ إغلاقه خلفه.

صرخ توغرول يائساً: "ما هذا؟ أجبني! ما الذي يحدث؟" وتجمد من الحركة على جدران الحصن العالية. كان صف من الرجال يقف هناك، وما أثار رعب توغرول أنه رآهم يصوبون أقواسهم إلى الأسفل عليه.

زأر توغرول: "لا! لقد وعدتموني!"

انطلقت السهام عبر الهواء، وانهمرت عليهم حتى بعد أن استداروا رعباً. وقع توغرول على ركبتيه وذراعاه ممدودتان، وعشرة سهام عالقة في جسده. صرخت بناته، وعلا صوت إطلاق السهام وصراخ توغرول ألماً على صوتهن. للحظة، لعن الرجال الذين جالوا بين القبائل على أنهم حلفاء لها، وفتنوها بالذهب والوعود. وكانت الأعشاب المتناثرة تحته تحمل غبار أراضي المغول، والتي ملأت رئتيه وخنقته. وتلاشى الغضب وسكن الصباح مرة أخرى.

تعقيب

"أعظم سعادة قد يعرفها الإنسان هي أن يقهر أعداءه ويقودهم أمامه. وأن يمتطي جيادهم، ويستولي على ممتلكاتهم، وأن يشاهد وجوه أولئك الذين كانوا عزيزين عليهم تتبلل بالدموع، وأن يحتضن زوجاتهم وبناتهم بين ذراعيه".

جنكيزخان

تحظى الأحداث التي رافقت شباب جنكيزخان وأدّت إلى ظهوره باهتمام استثنائي. ولم يصل إلينا سوى النزر اليسير من وثائق تلك الحقبة، وحتى أن أشهرها، التاريخ السري للمغول قد ضاع كله تقريباً. ولم تنجُ الوثيقة الأصلية التي أجازها جنكيز بلغته الأم عبر القرون. لحسن الحظ، هناك رواية يتمّ تداولها شفهياً بالصينية، والتي استقيت منها معظم ما نعرفه عن تيموجن بورجيجن؛ الذئاب الزرقاء. وكانت النسخة التي نقلها إلى الإنكليزية آرثر ويلي مصدري الرئيسي لرواية (ذئب السهول).

رغم أن المعنى الدقيق للاسم موضع جدال، إلاّ أن تيموجن - يوج كان تتارياً قتله ياسوجي، والذي أطلق اسم المحارب الذي هزمه على ابنه. هناك أوجه شبه كبيرة بين الاسم وكلمة حديد في اللغة المنغولية، وتستعمل للدلالة عليه، رغم أن ذلك قد يكون محض صدفة. لقد ولد تيموجن وهو يحمل خثرة من الدماء في يده، والتي أخافت أولئك الباحثين عن مثل تلك الدلالات.

كان تيموجن طويلاً بالنسبة للمغول، وله عينا قط. وحتى بين قوم قساة، كان مميزاً لقدرته على تحمل الحرارة والبرد ولامبالاته بالجروح. كانت لديه قدرة كاملة على التحكم بجسده فيما يخصّ التحمل. وكشعب، يتمتع المغول بأسنان ممتازة وبصر حاد وشعر أسود وجلد ضارب إلى الحمرة، ويعتقدون أنهم على صلة بالقبائل الأمريكية الأصلية التي عبرت

مضيق بيرنغ عندما كان متجمداً، ووصلت ألاسكا قبل 15,000 سنة مضت، وأوجه الشبه بين الشعبين صارخة.

في منغوليا المعاصرة، ما تزال أغلبية السكان تصيد باستعمال القوس أو البندقية، وترعى الأغنام والماعز وتبجل الجياد. هم يمارسون الكهانة (الاعتقاد بأن الدنيا مليئة بالخير والشر ولا يمكن التحكم بذلك إلاّ بواسطة الكهنة)، ويتمّ وضع علامات من القماش الأزرق على أي مكان عالٍ لتمجيد أب السماء. يتمّ الدفن السماوي - كما يدعونه، وهو ترك جثث الموتى في العراء لتمزّقها الطيور الجارحة في أماكن عالية - كما وصفته تماماً.

تمّ اصطحاب تيموجن الشاب إلى قبيلة والدته القديمة، أولخونوت، لانتقاء زوجة له. رغم أن والدته هولن سارت على الطريق المعاكسة لانتقاء زوجة؛ إذ قام ياسوجي وأشقاؤه باختطافها من أهلها. ومن شبه المؤكد أن ياسوجي مات مسموماً من قبل أعدائه التتار رغم أن التفاصيل الدقيقة لذلك غامضة.

بعد رحيل ياسوجي، اختارت القبيلة خاناً جديداً، وتخلّت عن هولن وأطفالها السبعة، وصولاً إلى تيمولن التي كانت لا تزال رضيعة آنذاك. لم أذكر الأخ غير الشقيق بيغويتي في هذه القصة، لأنه لم يلعب دوراً رئيسياً، ونظراً لوجود الكثير من الأسماء المشابهة أيضاً. وبالطريقة نفسها، قمت بتغيير الأسماء عندما شعرت بأن الأصلية إما طويلة جداً أو معقدة للغاية. فإيلوك أكثر بساطة بكثير من تارخوتاي - كيريلتوخ. لأن المنغولية لغة ليست سهلة اللفظ، ويجدر بنا أن نذكر أنه لا يوجد فيها الحرف الصوتي ك، ولهذا يتمّ لفظ خان هان. ويتمّ لفظ اسم كوبالا خان، حفيد جنكيز، "هوب - لي هان". والصحيح أيضاً أن يلفظ جنكيز تشنكز، لكنني أعرفها جنكيز منذ البداية وهي الكلمة التي وجدت صدى لديَّ.

لم يكن متوقعاً أن تعيش هولن وأطفالها، ويعود الفضل إلى تلك المرأة

غير العادية بعدم موت أي منهم في الشتاء اللاحق. ولا نعرف بالتحديد كيف نجوا من الجوع ودرجات الحرارة التي انخفضت إلى عشرين درجة تحت الصفر، لكن موت بكتر يظهر مدى اقترابهم من شفير الهاوية خلال تلك الفترة. ونام دليلي في منغوليا مرتدياً قميصه فقط في درجة حرارة منخفضة جداً، وكان شعره متجمداً وملتصقاً بالأرض عندما أفاق. المغول شعب قوي الشكيمة، ويمارسون حتى يومنا رياضات المصارعة، والرماية، وركوب الخيل قبل أي شيء آخر.

قتل تيموجن بكتر بالطريقة التي ذكرتها، رغم أن خاسار وليس كشيون من أطلق السهم الثاني. فبعد أن سرق بكتر الطعام، نصب له الشابان كميناً مع قوسيهما. ولفهم هذا الفعل، أعتقد أنه سيكون من الضروري أولاً رؤية عائلتك تتضور جوعاً. منغوليا أرض لا تعرف التسامح، ولم يكن الفتى تيموجن قاسياً دائماً، وليس هناك وثائق تثبت أنه كان يستمتع بتدمير أعدائه، لكنه كان قاسياً لا يرحم.

عندما أرسلت القبيلة رجالاً ليروا ما حل بالعائلة التي تخلّوا عنها، قابلتهم مقاومة شرسة وسهام أطلقها الأشقاء. وبعد مطاردة، اختبأ تيموجن منهم في أيكة لتسعة أيام دون طعام قبل أن يرغمه الجوع أخيراً على الخروج. وتمّ إلقاء القبض عليه، لكنه هرب واختبأ في نهر. لقد غيّرت اسم الرجل الذي ساعده من سورخانسيرا إلى باسان. وكان سورخانسيرا من أخفى تيموجن في خيمته. وعندما فشلت حملة البحث عنه، منحه سورخانسيرا فرساً بلون عرق السوس وذات فم أبيض، مع طعام، وحليب، وقوس وسهمين قبل أن يعيده إلى عائلته.

لقد أسرت قبيلة ميركت بورت، زوجة تيموجن، وليس التتار كما ذكرت. وأُصيب تيموجن بجرح في الهجوم. لقد بقيت بورت مفقودة لبضعة شهور وليس أيام. ونتيجة لذلك، لم يتمّ التحقق من أبوّة الولد الأول جوشي أبداً،

ولم يقبل تيموجن الفتى بشكل كامل مطلقاً. في الحقيقة، رفض ابنه الثاني تشاغاتي قبول خلافة جوشي لوالدهما مما دفع بجنكيز إلى تسمية الثالث أوجيداي كوريث له.

كان أكل لحوم البشر بمعنى أكل قلب العدو أمراً نادراً، لكنه لم يكن غير معروف بين قبائل منغوليا. وبالفعل، كانت أفضل قطعة من الغرير - وهي الكتف - معروفة باسم اللحم البشري. وفي هذا أيضاً، يوجد صلة مع عادات ومعتقدات قبائل أمريكا الأصلية.

كان توغرول كيريت قد تلقى وعداً بالفعل بالحصول على مملكة في الصين الشمالية. ورغم أنه أسدى النصح في البداية للفارس الشاب، إلاّ أنه خاف من ازدياد قوة تيموجن بشكل مفاجئ وفشل في القيام بمحاولة لاغتياله، وخرق بذلك قاعدة الحكم الأساسية للقبائل والتي تقضي بأن الخان ينبغي أن يكون ناجحاً. وتمّ إرغام توغرول على قبول النفي ولقي حتفه على يد نيمنز، قبل أن يتعرفوا عليه على ما يبدو.

يبدو أن خيانة أولئك الذين وثق بهم قد أشعلت شرارة الانتقام في تيموجن، وتعطشاً للسلطة لم يفارقه أبداً. وأنتجت تجارب طفولته الرجل الذي أضحى عليه، والذي لم يكن لينحني أو يسمح للخوف أو الضعف أن يعترياه بأي شكل. ولم يكن يهتم إطلاقاً بالممتلكات أو الثروة، وكل ما كان يرغب فيه هو النيل من أعدائه.

القوس المنغولي ثنائي الوتر كما وصفته، ويتطلب قوة شد أكبر مما يتطلبه القوس الإنكليزي الطويل الذي شاع استعماله بعد قرنين ضد الدروع. ويكمن سر قوته بكونه يتألف من صفائح، مع طبقات من قرون المواشي المغلية ووتر لشد الخشب. وتكون طبقة القرون على الوجه الداخلي، وهو يقاوم الانكماش. ويكون الوتر على الجهة الخارجية، وهو يقاوم التمدد. وتضيف هاتان الطبقتان، السميكتان مثل إصبع، قوة كبيرة للسلاح حتى

يصبح شد الوتر إلى الخلف معادلاً لرفع رجلين في الهواء باستعمال إصبعين؛ على ظهر فرس تسير بأقصى سرعتها. ويتمّ صنع السهام من خشب البتولا.

الرماية هي التي منحت جنكيز إمبراطوريته؛ إضافة إلى القدرة الكبيرة على المناورة. وكان فرسانه يتحركون بسرعة أكبر من الأرتال المدرعة الحديثة ولفترات أطول بكثير، ويستطيعون العيش على مزيج من الدماء وحليب الفرس دون الحاجة لخطوط إمداد.

كان كل محارب يحمل قوسين، مع ثلاثين إلى ستين سهماً في كنانتين، وسيفاً - إذا كان لديه واحد - وفأساً ومبرداً حديدياً لشحذ النصال؛ معلقة بالكنانة. وإضافة إلى الأسلحة، كان كل منهم يحمل أنشوطة من شعر الجياد، وحبلاً، ومخرزاً لفتح ثقوب في الجلد، وإبرة وخيطان، وقدر طهي حديدية، وقربتي ماء من الجلد وعشرة أرطال من اللبن الخاثر يتناول منها نصف رطل كل يوم. وكان لكل وحدة مؤلفة من عشرة رجال خيمة يتمّ وضعها على فرس إضافية، ولهذا تكون الوحدة مكتفية ذاتياً بالكامل. وإذا كان لديهم لحم مقدد، كانوا يضعونه تحت السرج الخشبي عدة أيام ليصبح في النهاية طرياً وصالحاً للأكل. والمثير للاهتمام أن كلمة مسكين في المنغولية مشتقة من فعل يسير على الأقدام أو يمشي.

إحدى القصص التي لم أسردها أن والدته هولن علّمت أولادها كيف يمكن كسر سهم وحده، فيما تقاوم حزمة منها ذلك؛ حيث يكمن معنى قوة الجماعة.

نتيجة تحالفه مع توغرول كيريت، استطاع تيموجن تحويل تابعيه إلى مجموعة مقاتلة ناجحة تحت حماية خان قوي. ولو أنه لم يعتبر تشن مجرد سادة صوريين لشعبه طوال ألف سنة، لكان قد بقي ظاهرة محلية. ومما تبدو عليه الأمور، كانت لديه رؤية عن أمة ستهزّ العالم. وكانت المهارات القتالية الرائعة للقبائل المغولية تضيع في قتالها ضد بعضها بعضاً. ومن

كونه نكرة، محاطاً بالأعداء، نهض تيموجن ليوحدهم جميعاً.

وما جاء لاحقاً هزّ العالم.

كون إيغلدن

---

[1] الرِكاب stirrup.